تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

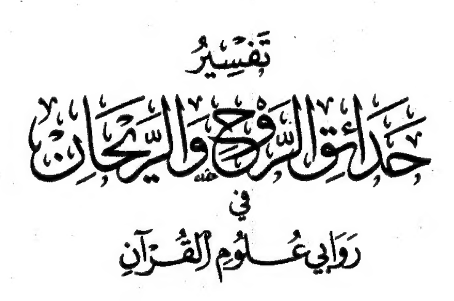
المجلد الرابع والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة
بيروت ـ لبنان


تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

ٱلسَّبَاقَ ٱلسَّبَاقَ قَوْلاً وَفِعْلاً   حَذِّرِ ٱلنَّفْسَ حَسْرَةَ ٱلْمَسْبُوقِ

آخرُ

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَٱلْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ   وَلَيْتَكَ تَرْضَىٰ وَٱلأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ ٱلَّذِيْ بَيْنِيْ وَبَيْنَكَ عَامِرٌ   وَبَيْنِيْ وَبَيْنَ ٱلْعَالَمِيْنَ خَرَابُ

آخرُ

رَأَيْتُ أَخَا ٱلدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ ثَاوِيَا   أخا سَفَرٍ يُسْرَىٰ بِهِ وَهُوَ لاَ يَدْرِي

آخرُ

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلاَّ كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ   يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

آخرُ

ٱلْمَوْتُ كَأْسٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ شَارِبُهُ   وَٱلْقَبْرُ بَابٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ دَاخِلُهُ

آخرُ

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتِ   نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوتِ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، جل على الإنعام، فسبحانه ذا الجلال والإكرام على ما منَّ به علينا من الفضل الجسيم، لا سيما تفسير كتابه الكريم، والصلاة والسلام على أفضل الأنام سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه الكرام، ومن حذا حذوهم إلى يوم القيام.

أما بعد: فلما استدبرت من تفسير الجزء الثاني والعشرين من القرآن الكريم.. استقبلت تفسير الجزء الثالث والعشرين منه، طالباً منه سبحانه المعونة والسلامة، والتوفيق والهداية لأصوب الطريق، فيما أنا بصدده من تفسير كتابه، فهو المرجو في كل دعاء، ومنه حصول كل رجاء، فقلت: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ (٢٩) يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٣٨) وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ (٣٩) لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ

إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ...﴾ الآيات، تقدم أن قلنا غير ما مرة، أنَّ تقسيم الكتاب الكريم إلى الأجزاء الثلاثين، لوحظ فيه العد اللفظي، لا الاتصال المعنوي، إذ كثيراً ما تكون بداءة الجزء في أثناء القصة الواحدة، كما هنا، فإنه بعد أن بيّن حال الناصح الشهيد، ودخوله الجنة.. أردف ذلك ذكر حال المتخلفين المخالفين له، ثم ذكر سُنة الله في أمثالهم من العذاب الدنيوي، ثم هم يردون إلى ربهم فيعذبهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما بيّن أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدموا من عمل.. أردف ذلك بما يدل على أن البعث ممكن وليس بمستحيل، وآية ذلك أن الأرض الميتة إذا نزل عليها المطر تحيا، وتنبت من كل زوج بهيج، ثم ذكر أنه كان يجب عليهم شكران هذه النعم بعبادة خالقها، وترك عبادة غيره مما لا يجديهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضراً.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما استدل على إمكان البعث والنشور بأحوال

---

(١) المراغي.

الأرض وما يطرأ عليها من تغير، مما هو دليل القدرة الشاملة.. أردف ذلك بذكر أحوال الأزمنة من اختلاف الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر، والأجرام السماوية، وهي مخلوقات عظيمة تحت قبضته يتصرف فيها بعظيم سلطانه.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر على سبيل المنّة على عباده أنه أحيا الأرض، وهي مكان الحيوان.. أردف ذلك بذكر نعمة أخرى على الإنسان، وهي أنه جعل له طريقاً يتخذه في البحر، ويسير فيه كما يسير في البر، جلبا لأرزاقه وتحصيلاً لأقواته من أقاصي البلاد في أنحاء المعمورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر أنهم أعرضوا عن النظر في الآيات التي يشاهدونها في الآفاق.. أردف ذلك بذكر إعراضهم عن الآيات المنزّلة من عند ربهم، مما فيه تحذيرهم، بأن يحل بهم من المثلات مثل ما حل بمن قبلهم، ثم أعقبه بذمهم على ترك الشفقة على خلق الله تعالى، إذ قيل لهم: أنفقوا فلم يفعلوا.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمرهم بتقوى الله، وخوّفهم أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات.. أعقب هذا بذكر إنكارهم ليوم البعث، واستعجالهم له، استهزاءً به وسخريةً منه، ثم أتبعه ببيان أنه حق لا شك فيه، وأنه سيأتيهم بغتةً من حيث لا يشعرون، وإذ ذاك يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعي، ثم ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور، حين يرون العذاب، ويقولون: من أخرجنا من قبورها، فيجابون: بأن ربكم هو الذي قدر هذا، ووعدكم به على ألسنة رسله، وسيوفي كل عامل جزاء عمله.

التفسير وأوجه القراءة

فلما قُتل حبيب النجار، غضب الله عز وجل له، فعجّل لهم العقوبة، فأمر

جبرائيل عليه السلام، فصاح بهم صيحة واحدةً، فماتوا عن آخرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: على قوم حبيب النجار، وهم أهل أنطاكية. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد قتلهم له، أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق. ﴿مِن جُندٍ﴾ وعسكر ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم نرسل عليهم جنداً من الأرض، لإهلاكهم وللانتقام منهم؛ أي: لم نحتج إلى إرسال جنود من السماء لإهلاكهم، كما وقع ذلك للنبي ﷺ يوم بدر، من إرسال الملائكة لنصرته وحرب أعدائه، بل كفينا أمرهم بصيحة ملك. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾؛ أي: وما صح واستقام في قضائنا وحكمتنا أن ننزل لإهلاك قومه جنداً من السماء، لسبق قضائنا وقدرنا، بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجند، فإنا جعلنا لكل شيء سبباً يخصه، حيث أهلكنا بعض الأمم بالحاصب، وبعضهم بالصيحة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالإغراق، وجعلنا إنزال الجند من السماء من خصائصك في الانتصار من قومك.

وفي الآية: استحقار لأهل أنطاكية ولإهلاكهم، حيث اكتفى في استئصالهم بما يتوسل به إلى زجر، نحو الطيور والوحوش، من صيحة عبد واحد مأمور، وإيماء إلى تفخيم شأن الرسول ﷺ؛ لأنه إذا كان أدنى صيحة ملك واحد، كافياً في إهلاك جماعة كثيرة، ظهر أن إنزال الجنود من السماء يوم بدر والخندق لم يكن إلا تعظيماً لشأنه، وإجلالاً لقدره، لا لاحتياج الملائكة إلى المظاهرة والمعاونة.

فإن قيل: كما لم ينزل عليهم جنداً من السماء، لم يرسل إليهم جنداً من الأرض أيضاً، فما فائدة قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟

فالجواب: أنه ليس للاحتراز، بل لبيان أن النازل عليهم من السماء لم يكن إلا صيحةً واحدة أهلكتهم بأسرهم؛ أي: ليسوا بأحقّاء بأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة، كما يفيده قوله: ﴿إِن كَانَتْ﴾؛ أي: ما كانت الأخذة أو العقوبة على أهل أنطاكية ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بها جبرائيل، فأهلكهم قال المفسرون: أخذ جبرائيل بعضادتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة، فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حسّ، كالنار إذا انطفأت، وهو معنى قوله:

﴿فَإِذَا﴾ هم؛ أي: أهل أنطاكية ﴿خَـٰمِدُونَ﴾ أي: قوم خامدون؛ أي: ميتون لا يسمع لهم حسّ، ولا يشاهد لهم حركة، شبّهوا بالنار الخامدة رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب، والميت كالرماد، يقال: خمدت النار إذا سكن لهبها ولم ينطفىء جمرها، وهمدت إذا طفىء جمرها قال في «الكواشي»: لم يقل: هامدون وإن كان أبلغ لبقاء أجسادهم بعد هلاكهم. و﴿إذا﴾ فجائية[1]؛ أي: فاجأهم الخمود إثر الصيحة، لم يتأخر ووقعت[2] الصيحة في اليوم الثالث من قتل حبيب والرسل، أو في اليوم الذي قتلوهم فيه. وفي رواية، في الساعة التي عادوا فيها بعد قتلهم إلى منازلهم فرحين مستبشرين، وإنما عجّل الله عقوبتهم، غضباً لأوليائه الشهداء، ولم يذكر لنا الكتاب الكريم، كيف كانت الصيحة، ولا كيف نزل بهم العذاب. وتفصيل ذلك لا يعنينا، فالعبرة تحصل بدون بيانه، إذ المراد: انتقام الله وعذابه لمن كذب أولياءه على أي نحو كان ذلك العذاب. نسأل الله سبحانه أن يحفظنا من موجبات غضبه وسخطه وعذابه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿صَيْحَةً﴾ بالنصب، على أن (كان) ناقصة، واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق، كما قدمنا. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج ومعاذ القارىء ﴿صيحةٌ﴾ بالرفع على أنّ (كان) تامة؛ أي: ما حدثت أو ما وقعت إلا صيحة واحدة. وكان الأصل أن لا يلحق التاء؛ لأنه إذا كان الفعل مسنداً إلى ما بعد إلا من المؤنث لم تلحق العلامة للتأنيث، فيقال: ما قام إلا هند، ولا يجوز (ما قامت إلا هند) عند أصحابنا إلا في الشعر. وجوّزه بعضهم في الكلام على قلّة، ومثله قراءة الحسن، ومالك بن دينار، وأبي رجاء، والجحدري، وقتادة، وأبي حيوة، وابن أبي عبلة، وأبي بحرية ﴿لا ترى إلا مساكنهم﴾ بالتاء. والقراءة المشهورة ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ بالياء، فأنكر أبو حاتم، وكثير من النحويين هذه القراءة، أعني: قراءة الرفع، بسبب لحوق تاء التأنيث في قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾. قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر.. لقال: إن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط والشوكاني.

كان إلا صيحة. وقدّر الزجاج هذه القراءة بقوله: إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، وقدّرها غيره: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة، وقرأ عبد الله بن مسعود: إن كانت إلا زقية واحدة. والزقية: الصيحة. قال النحاس: وهذا مخالف للمصحف.

﴿يَٰحَسْرَةً﴾ يا ندامة ﴿عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ المصرين على العناد تعالي، فهذا أوانك ووقت ظهورك، فهذه من الأحوال التي حقّها أن تحضري فيها، وهي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فإن المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين، أحقاء بأن يتحسروا ويتحسّر عليهم المتحسرون، وقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين. والمراد[1] بالعباد هنا: مكذبو الرسل؛ أي: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة، إذا عاينوا العذاب على تكذيبهم رسل الله ومخالفة أوامره.

ثم بيّن سبب الحسرة والندامة، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ...﴾ الخ؛ أي: ما جاءهم رسول إلا استهزؤوا به، وكذبوه، وجحدوا ما أرسل به من الحق.

والخلاصة: أن المستهزئين بالناصحين المخلصين، المنوط بنصحهم خير الدارين، جديرون أن يتحسروا على أنفسهم، إذ فوّتوا عليها السعادة الأبدية، وعرّضوها لعذاب مقيم، وكأنه قيل: يا حسرة احضري فهذه شدة لا سبيل للخلاص منها.

وقرأ الجمهور[2]: بنصب ﴿حسرةً﴾ على كونها مشابهة بالمنادى المضاف في طولها، بما تعلق بها من الجار والمجرور، فكأنه نادى الحسرة وقال لها: هذا أوانك فاحضري، وقيل: إنها منصوبة على المصدرية، والمنادى محذوف والتقدير: يا هؤلاء تحسروا حسرة على العباد المكذبين للرسل حين جاؤوهم فاستهزؤوهم، وقرأ أبي، وابن عباس، وعلي بن الحسين، والضحاك، ومجاهد

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والشوكاني بتصرف.

والحسن ﴿يا حسرةَ العباد﴾ بالإضافة إما إلى الفاعل أو إلى المفعول، فيجوز أن تكون الحسرة منهم على ما فاتهم، ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم، لما فاتهم من اتباع الرسل حين أحضروا للعذاب، وطباع البشر تتأثر عند معاينة عذاب غيرهم، وتتحسر عليهم أو من الملائكة، وقرأ أبو الزناد، وابن هرمز، ومسلم بن جندب، وعكرمة ﴿يا حسره على العباد﴾ بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف، وقال ابن خالويه: ﴿يا حسرةَ على العباد﴾ بغير تنوين، قاله ابن عباس، اهـ. ووجهه: أنه اجتزأ بالفتحة عن الألف التي هي بدل من ياء المتكلم في النداء، كما اجتزأ بالكسرة على الياء فيه، وقد قرىء ﴿يا حسرتا﴾ بالألف؛ أي: يا حسرتي، ويكون من الله على طريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم، شبّه استعظام الله سبحانه لجنايتهم على أنفسهم، بتحسر الإنسان على غيره، لأجل ما فاته من الدولة العظمى، من حيث أن ذلك التحسر يستلزم استعظام ما أصاب ذلك الغير، والإنكار على ارتكابه، والوقوع فيه.

وجملة قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ...﴾ إلخ، مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل والاستهزاء بهم، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم، وفي «بحر العلوم»: قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ إلخ، حكاية حال ماضية مستمرة؛ أي: كانوا في الدنيا على الاستمرار يستهزئون بمن يأتيهم من الرسول من غاية الكبر، ويستحقرون، ويستنكفون عن قبول دينه ودعوته، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه له.

ولما بيّن حال الأولين نبه الحاضرين، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وعيد للمشركين في مكة بمثل عذاب الأمم الماضية، ليعتبروا ويرجعوا عن الشرك. والاستفهام للتقرير؛ أي: قد رأوا كثرة إهلاكنا، وكم في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ خبرية؛ أي: ألم يعلم أهل مكة كثرة إهلاكنا من قبلهم، من المذكورين آنفاً، ومن غيرهم بشؤم تكذيبهم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ معلّق عن العمل فيما بعده؛ لأن ﴿كَمْ﴾ لا يعمل فيها ما قبلها، خبرية كانت كما هنا، أو استفهامية، خلا أن معناه نافذ في الجملة، كما نفذ في قولك: ألم تر إن زيداً لمنطلق. وإن لم يعمل

في لفظه، فالجملة منصوبة المحل بـ﴿يروا﴾.

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: المهلكين من القرون ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى أهل مكة ﴿لَا يُرْجِعُونَ﴾ بدل من ﴿أهلكنا﴾ على المعنى؛ أي[1]: ألم يعلموا كثرة إهلاكنا القرون الماضية والأمم السالفة كونهم؛ أي: الهالكين غير راجعين إليهم؛ أي: إلى هؤلاء المشركين؛ أي: أهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم من بعده في الدنيا؛ أي: أفلا يعتبرون، ولم لا ينتبهون، فكما أنهم مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا إلى ما كانوا، فكذلك هؤلاء سيهلكون وينقرضون إثرهم ثم لا يعودون، وقال بعضهم: ألم يروا أن خروجهم من الدنيا، ليس كخروج أحدهم من منزله إلى السوق، أو إلى بلد آخر، ثم عودته إلى منزله عند إتمام مصلحته هناك، بل هو مفارق من الدنيا أبداً، فكونهم غير راجعين إليهم عبارة عن هلاكهم بالكلية، ويجوز أن يكون المعنى: أن الباقين لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة؛ أي: أهلكناهم وقطعنا نسلهم، والإهلاك مع قطع النسل أتم وأعم، وقال أبو حيان: والذي تقتضيه صناعة العربية أن ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ معمول لمحذوف دل عليه السياق، تقديره: قضينا أو حكمنا أنهم إليهم لا يرجعون، ولا يصح إبداله مما قبله لفظاً ولا معنىً وقرأ ابن عباس، والحسن ﴿إنهم﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف وقطع الجملة عما قبلها من جهة الإعراب، ودل ذلك على أن قراءة الفتح مقطوعة عن ما قبلها من جهة الإعراب، لتتفق القراءتان ولا تختلفان، وقرأ عبد الله ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، و﴿أَنَّهُمْ﴾ على هذا بدل اشتمال مما قبله، اهـ «البحر».

والمعنى[2]: أي ألم يعتبروا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل: كعاد، وثمود. وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا، كما تعتقد الدهرية جهلاً منهم، بأنهم يعودون إليها كما كانوا، وهذه الآية ترد قول أهل الرجعة[3]؛ أي: من يزعم

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

أن من الخلق من يرجع إلى الدنيا قبل القيامة بعد الموت، كما حكي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قيل له: إن قوماً يزعمون أن علياً رضي الله عنه مبعوث قبل يوم القيامة، فقال ابن عباس: بئس القوم نحن، إذا نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه؛ أي: لو كان راجعاً إلى الدنيا لكان حياً، والحي لا تنكح نساؤه، ولا يقسم ميراثه، كما قال الفقهاء إذا بلغ إلى المرأة وفاة زوجها، فاعتدت وتزوجت وولدت، ثم جاء زوجها الأول فهي امرأته؛ لأنها كانت منكوحته، ولم يعترض شيء من أسباب الفرقة، فبقيت على النكاح السابق، ولكن لا يقربها حتى تنقضي عدتها من النكاح الثاني.

ويجب إكفار الروافض في قولهم: بأن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا، فينتقمون من أعدائهم، ويملؤون الأرض قسطاً كما ملئت جَوْراً، وذلك القول مخالف للنص.

وبعد أن ذكر أنه أهلكهم وبيّن طريق ذلك، أعقب هذا بأن لهم حساباً وعقاباً، فقال: ﴿وَإِن﴾ نافية أو مخففة ﴿كُلٌّ﴾ تنوينه عوض عن المضاف إليه ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد بمعنى: إلا على القول: بأن ﴿إِنْ﴾: نافية، وبالتخفيف على أن اللام هي الفارقة، و﴿مَا﴾: زائدة على القول: بأن ﴿إِنْ﴾: مخففة من الثقيلة. ﴿جَمِيعٌ﴾ فعيل بمعنى مفعول، جمع بين كل وجميع؛ لأن الكل يفيد الإحاطة دون الاجتماع، والجميع يفيد أن المحشر يجمعهم، ولدينا بمعنى عندنا، ظرف لجميع أو لـ﴿مُحْضَرُونَ﴾ والمعنى على التشديد: وما كل الخلائق إلا مجموعون لدينا، محضرون عندنا للحساب والجزاء، وعلى التخفيف. وإنه كل الخلائق لمجموعون عندنا، محضرون لدينا للحساب والجزاء.

وهذه الآية[1]: بيان لرجوع الكل إلى المحشر، بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا، وأن من مات ترك على حاله، ولو لم يكن بعد الموت بعث وجمع وحبس وعقاب وحساب، لكان الموت راحة للميت، ولكنه يبعث ويسأل، فيكرم

---

(١) روح البيان.

المؤمن، والمخلص، والصالح والعادل، ويهان الكافر، والمنافق، والمرائي والفاسق، والظالم. فيفرح من يفرح، ويتحسر من يتحسر، فللعباد موضع التحسر إن لم يتحسروا اليوم.

وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر[1]: بتشديد ﴿لَّمَّا﴾، وباقي السبعة بتخفيفها، فمن شددها كانت عنده بمعنى إلا، و﴿إِن﴾ نافية، ومن خفف ﴿لما﴾ جعل ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام في ﴿لَّمَّا﴾ فارقة، و﴿مَا﴾ زائدة.

فائدة: وقال[2] أبو عبد الله الرازي في كون لما بمعنى: إلا معنى مناسب، وهو أن ﴿لَّمَّا﴾ كأنها حرفا نفي جميعاً، وهما: لم وما، فتأكد النفي، وإلا كأنها حرفا نفي: «إن ولا»، فاستُعمل أحدهما مكان الآخر، انتهى. والمعنى؛ أي: وإن جميع الأمم ماضيها، وحاضرها، وآتيها ستحضر يوم القيامة بين يدي الله، فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة له، وما أحسن قوله:

وَلَــوْ أَنَّــا إِذَا مِــتْــنَــا تُــرِكْــنَــا ... لَــكَــانَ الْــمَــوْتُ رَاحَــةَ كُــلِّ حَــيِّ
وَلَــكِــنَّــا إِذَا مِــتْــنَــا بُــعِــثْــنَــا ... وَنُــسْــأَلُ بَــعْــدَهَــا عَــنْ كُــلِّ شَــيِّ

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

والخلاصة: أن الناس يجمعون للحساب والجزاء، ويوفى كل عامل جزاء عمله من خير أو شر.

ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد، والحشر مع تعداد النعم وتذكيرها، فقال: ﴿وَءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة عظيمة، ودلالة واضحة على البعث والجمع والإحضار، وهو خبر مقدم للاهتمام به، وقوله: ﴿لَّهُمُ﴾؛ أي: لأهل مكة، إما متعلق بآية؛ لأنها بمعنى: العلامة أو بمضمر هو صفة لها، والمبتدأ قوله: ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾؛ أي: اليابسة الجامدة، قرأ أهل المدينة[3]: ﴿الميِّتة﴾ بالتشديد،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفخر الرازي.
(٣) الشوكاني.

وخففها الباقون، وجملة قوله: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ مستأنفة مبينة لكيفية كون الأرض الميتة آية، كأن قائلاً قال: كيف تكون آية؟ فقال: أحييناها، والإحياء في الحقيقة: إعطاء الحياة، وهي صفة تقتضي الحس والحركة، والمعنى هٰهنا: هيجنا القوى النامية فيها، وأحدثنا نضارتها بأنواع النباتات في وقت الربيع، بإنزل الماء من بحر الحياة، وكذلك النشور، فإنا نحيي الأبدان البالية المتلاشية في الأجداث، بإنزال رشحات من بحر الجود، فنعيدهم أحياء كما أبدعناهم أولاً من العدم.

وبدأ في تفصيل الآيات بالأرض[1]؛ لأنها مستقرهم حركةً، وسكوناً، حياةً وموتاً، فنبههم الله سبحانه بهذا، على إحياء الموتى، وذكرهم نعمه وكمال قدرته، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات، وأخرج منها الحبوب التي يأكلونها، ويتغذون بها. وهو معنى قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض ﴿حَبًّا﴾ وبزراً. والحب هو الذي يطحن، والبزر الذي يعصر منه الدهن، وهو جمع حبة، والمراد: جنس الحبوب التي تصلح قواماً للناس من الأرز، والذرة، والحنطة، والشعير، وغيرها. ﴿فَمِنْهُ﴾؛ أي: فمن ذلك الحب ﴿يَأْكُلُونَ﴾ تقديم[2] الصلة ليس لحصر جنس المأكول في الحب، حتى يلزم أن لا يؤكل غيره، بل هو لحصر معظم المأكول فيه، ولبيان أنه أكثر ما يقوم به المعاش، فإن الحب معظم ما يؤكل، ويعاش به، ومنه صلاح الإنس حتى إذا قل قل.. الصلاح، وكثر الضر والصياح، وإذا فُقد.. فُقد النجاح بإخلال الأشباح ولأمر ما قال النبي ﷺ: «أكرموا الخبز فإن الله أكرمه، فمن أكرم الخبز أكرمه الله».

قال في شرعة الإسلام: ويكرم الخبز بأقصى ما يمكن، فإنه يعمل في كل لقمة يأكلها الإنسان من الخبز ثلاث مئة وستون صانعاً. أولهم: ميكائيل الذي يكيل الماء من خزانة الرحمة، ثم الملائكة التي تزجر السحاب والشمس والقمر والأفلاك، وملائكة الهواء، ودواب الأرض، وآخرهم الخباز. ومن إكرام الخبز: أن تُلتقط الكسرة من الأرض، وإن قلت، فيأكلها تعظيماً لنعمة الله تعالى. وفي الحديث: «من أكل ما يسقط من المائدة.. عاش في وسعة، وعوفي في ولده،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وولد ولده، من الحمق». ويقال: إن التقاط الفتات مهور الحور العين، ولا يضع القصعة على الخبز، ولا غيرها، إلا ما يؤكل به من الإدام، ويكره مسح الأصابع والسكين بالخبز، إلا إذا أكله بعده، وكذا يكره وضع الخبز جنب القصعة لتستوي، وكذا يكره أكل وجه الخبز أو جوفه، ورمي باقيه لما في كل ذلك من الاستخفاف بالخبز، والاستخفاف بالخبز يورث الغلاء والقحط، كذا في شرح «النقاية والعوارف».

ومعنى الآية[1]: أي ومن الأدلة على قدرتنا على البعث: إحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها، بإنزالنا الماء عليها، فتهتز، وتربو، وتنبت نباتاً مختلفاً ألوانه وأشكاله، وتخرج حباً هو قوت لكم ولأنعامكم، وبه قوام حياتكم.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: وخلقنا في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ جمع نخلة ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾ جمع عنب؛ أي: من أنواع النخل والعنب، ولذلك جمعاً دون الحب، فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف، ولا كذلك الدال على الأنواع. وخصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار، وأنفعها للعباد.

فإن قلت[2]: لِمَ ذكر النخيل دون التمور حتى يطابق الحب والأعناب في كونها مأكولة، لأن التمور والحب والأعناب كلها مأكولة دون النخيل؟

قلت: ذكر النخيل لاختصاص شجرها بمزيد النفع، وآثار الصنع. وذلك لأنها أول شجرة استقرت على وجه الأرض، وهي عمتنا لأنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام على ما قيل وهي تشبه الإنسان، من حيث استقامة قدها وطولها. وامتياز ذكرها من بين النبات، واختصاصها باللقاح، ورائحة طلعها كرائحة المني، ولطلعها غلاف كالمشيمة التي يكون الولد فيها، ولو قطعت رأسها ماتت كما قالوا: أقرب الجماد إلى النبات المرجان، لأنه ينبت في البحر كالنبات، ويكون له أغصان. وأقرب النبات إلى الحيوان النخل، لأنها تموت بقطع رأسها، ولا تثمر بدون اللقاح، كما ذكر. وأقرب الحيوان إلى الإنسان

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

الفرس، ويرى المنامات كبني آدم. ولو أصاب النخلة آفة هلكت، والجمار من النخلة كالمخ من الإنسان. وإذا تقارب ذكورها وإناثها حملت حملاً كثيراً؛ لأنها تستأنس بالمجاورة.

ومن خواص النخلة: أن مضغ خوصها يقطع رائحة الثوم، وكذا رائحة الخمر. وأما العنب فقد جاء في بعض الكتب المنزلة «أتكفرون بي وأنا خالق العنب». وله خواص كثيرة، وكذا الزبيب. وروي: أنه أهدي إلى النبي ﷺ الزبيب، فقال: «بسم الله، كلوا نعم الطعام الزبيب يشد العصب، ويذهب الوصب، ويطفىء الغضب، ويرضي الرب ويطيب النكهة، ويذهب البلغم، ويصفي اللون». وماء الكرم الذي يتقاطر من قضبانها بعد كسحها ينفع للجرب شرباً، ويسقى للمشغوف بالخمر بعد شربه الخمر، من غير علمه، فيبغض الخمر قطعاً.

وأول من استخرج الخمر جمشيد الملك، فإنه توجه مرة إلى الصيد فرأى في بعض الجبال كرمة، وعليها عنب، فظنها من السموم، فأمر بحملها حتى يجربها، ويطعم العنب لمن يستحق القتل، فتكسرت حباته فعصروها، وجعلوا ماءها في ظرف، فما عاد الملك إلى قصره إلا وقد تخمر العصير، فأحضر رجلاً وجب عليه القتل، فسقاه من ذلك، فشربه بكرهٍ ومشقةٍ ونام نومة ثقيلة ثم انتبه، وقال: اسقوني منه فسقوه أيضاً مراراً، فلم يحدث فيه إلا السرور والطرب، فسقوه غيره وغيره، فذكروا أنهم انبسطوا بعدما شربوه، ووجدوا سروراً وطرباً، فشرب الملك فأعجبه، ثم أمر بغرسه في سائر البلاد. وكانت الخمر حلالاً في الأمم السالفة، فحرمها الله تعالى علينا، لأنها مفتاح لكل شر، وجالبة لكل سوء وضر، ومميتة للقلب، ومسخطة للرب.

وقد قيل: خير خلكم خل خمركم. وذلك لأن انقلاب الخمر إلى الخل مرضاة للرب. وفيه خواص كثيرة. وأكثر الناس السعال والتنحنح في مجلس معاوية، فأمر بشرب خل الخمر. والخل ورد فيه «نعم الإدام»، وقد تعيش به كثير من السلف الكرام، نسأل الله القناعة على الدوام.

﴿وَفَجَّرْنَا﴾؛ أي: شققنا وأسلنا ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾؛ أي: بعضاً من ماء العيون. فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو ﴿مِنْ﴾ زائدة، و﴿ٱلْعُيُونِ﴾ مفعول به على رأي من جوز زيادتها في الإثبات. وهو الأخفش، ومن وافقه. وقرأ الجمهور ﴿فجّرنا﴾: بالتشديد. وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف. والفجر، والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى.

واعلم[1]: أن تفجير الأنهار والعيون في البلاد، رحمة من الله تعالى، إذ حياة كل شيء من الماء، وللبساتين منه النضارة والنماء. والعيون إما جارية وإما غير جارية، والجارية غير الأنهار، إذ هي أكثر وأوسع من العيون، ومنبعها غير معلوم غالباً كالنيل المبارك، حيث لم يوجد رأسه. وغير الجارية هي الآبار.

واللام في قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ متعلق بـ ﴿جعلنا﴾، وتأخيره عن تفجير العيون لأنه من مبادىء الأثمار، والضمير في ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل؛ أي: وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب، ورتبنا مبادىء إثمارها ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل والأعناب، ويواظبوا على الشكر أداء لحقوقنا. ففيه إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة. وقيل: الضمير راجع إلى ماء العيون؛ لأن الثمر منه، قاله الجرجاني. وقيل: الضمير لله على طريقة الالتفات، والإضافة إليه، لأن الثمر بخلقه كما في «البيضاوي». وقرأ الجمهور[2]: ﴿ثَمَرِهِ﴾ بفتح الثاء والميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وطلحة، وابن وثاب بضمهما. وقرأ الأعمش بضم الثاء، وإسكان الميم.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ معطوف على ﴿ثَمَرِهِ﴾؛ أي: ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا من الذي عملته أيديهم. وهو ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن ما موصولة. وقيل: ﴿مَا﴾: نافية، والمعنى: والحال أنه لم تعمل ذلك الثمر، ولم تصنعه أيديهم؛ لأن الثمر وجد بخلق الله تعالى لا بفعلهم، ومحل الجملة حينئذ النصب على الحال. ويؤيد الأول

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قراءة ﴿وما عملت﴾ بلا هاء، فإن حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها. والأيدي في قوله: ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن القوة، لأن أقوى جوارح الإنسان في العمل يده، فصار ذكر اليد غالباً في الكناية، ومثله ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ بالضمير، فإن كانت ﴿مَا﴾ موصولة فالضمير عائد عليها، وإن كانت نافية فالضمير عائد على الثمر. وقرأ طلحة، وعيسى وحمزة، والكسائي، وأبو بكر بغير ضمير. ومفعول ﴿عملت﴾ على كلا التقديرين محذوف. وجوز في هذه القراءة أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: وعمل أيديهم، وهو مصدر أريد به المعمول، فيعود إلى معنى الموصول.

والمعنى[2]: أي وأنشأنا في هذه الأرض التي أحييناها، بساتين من نخيل وأعناب، وجعلنا فيها أنهاراً سارحة، في أمكنة تنشر فيها، ليأكلوا من ثمر الجنات، ومما عملت أيديهم مما غرسوا وزرعوا.

ولما عدد سبحانه هذه النعم.. حض على الشكر، فقال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: أفلا يشكرون خالق هذه النعم، على ما تفضل به عليهم، من نعم لا تعد ولا تحصى. وهو إنكار واستقباح لعدم شكرهم النعم المعدودة. والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير[3]: أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها بالتوحيد والتقديس والتحميد، فيرجعون عن عبادة غير الله تعالى. وفي ذلك استدلال على وحدانية الله تعالى، وتعداد للنعم. فالأرض مكان لهم لا بد لهم منها، فهي نعمة، ثم إحياؤها بالنبات نعمة ثانية، فإنها تصير أنزه، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة، فإن قوتهم يصير في مكانهم، ثم جعل الجنان فيها نعمة رابعة؛ لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة. وكل ذلك مفيد إلى بيان إحياء الموتى. فيقول الله تعالى: كما فعلنا في موات الأرض كذلك نفعل في الأموات

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

في الأرض، فنحييهم ونعطيهم ما لا بد لهم منه في بقائهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها كالعين، والأذن وغير ذلك. ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل، فكأنه تعالى قال: نحيي الموتىٰ إحياءً تاماً، كما أحييت الأرض إحياءً تاماً.

وجملة قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ مستأنفة، مسوقة لتنزيهه سبحانه عما وقع منهم، من ترك الشكر لنعمه المذكورة، والتعجب من إخلالهم بذلك. فالمعنى: تنزه بذاته عن كل ما لا يليق مما فعلوه، اهـ «أبو السعود». وفي «القرطبي»: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ تنزه[1] نفسه سبحانه عن قول الكفار، إذ عبدوا غيره، مع ما رأوا من نعمه وآثار قدرته. وفيه تقدير معنى الأمر. والمعنى: سبحوا أيها العباد ربكم، الذي خلق وأوجد الأزواج، والأصناف، والأنواع كلها جميعاً. ونزهوه عما لا يليق به من الإشراك، فإنه سبحانه انفرد بخلق هذه الأزواج، فأفردوه بالعبادة والطاعة، ولا تجعلوا له شريكاً مما لا يخلق، ولا ينفع، ولا يضر. وقيل: فيه معنى التعجب. والمعنى: عجباً لهؤلاء الكفرة في كفرهم، وإعراضهم عن شكر الذي خلق الأزواج كلها، مع ما يشاهدونه من هذه الآيات. وفي الغالب من تعجب من شيء قال: سبحان الله. والأزواج: الأصناف والأنواع، فكل زوج صنف؛ لأنه مختلف في الألوان كألوان العنب، فمنه أبيض، وأسود، وأحمر وكذلك ألوان الرطب. وفي الطعوم: كالرمان، فمنه حامض، وحال، ومر. وفي «الأشكال»: كالمربع، والمدور، والمثلث، والطويل، والعريض. وفي الصغر والكبر. فمعنى ازدواجها: اختلافها فيما ذكر.

وقوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من نجم، وشجر، ومعدن بيان للأزواج، وكذا ما بعده بيان له. والمراد: كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها.

وخلق الأزواج ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: الذكور والإناث وخلق الأزواج ﴿مِمَّا

---

(١) القرطبي.

لاَ يَعْلَمُونَ﴾ من أصناف[1] خلقه في البر، والبحر، والسماء والأرض. ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر، ويعلمه الملائكة، ويجوز أن لا يعلمه مخلوق. ويقال: دواب البحر والبر، ألف صنف لا يعلم الناس أكثرها. فبين الأزواج بهذه الأمور الثلاثة، التي لا يخرج عنها شيء من أصناف المخلوقات، وغيره تعالى، لم يخلق شيئاً منها. وإنما ذكر[2] الله تعالى كون الكل مخلوقاً، لينزه الله تعالى عن الشريك. فإن المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق، والتوحيد الحقيقي، لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله، فلا تشركوا بالله شيئاً، مما تعلمون ومما لا تعلمون.

قال في «بحر العلوم»: ويجوز أن يكون معنى ﴿مما لا يعلمون﴾: مما لا يدركون كنهه مما خلق من الأشياء كالثواب والعقاب، كما قال ﷺ: «أربع لا تدرك غايتها: شرور النفس، وخداع إبليس، وثواب أهل الجنة، وعقاب أهل النار». ومنه الروح، فإنه ما بلغنا أن الله تعالى أطلعَ أحداً على حقيقة الروح. وفي الآية[3] إشارة إلى أنه ما من مخلوق إلا وقد خلق شفعاً، إذ الفردية من أخص أوصاف الربوبية، كما قال عبد العزيز المكي رحمه الله تعالى: خلق الأزواج كلها، ليستدل بذلك، إلى أن خالق الأشياء منزه عن الزوج، وإلى أن في كل شيء دليلاً على وجوده تعالى، ووحدته، وكمال قدرته. قال أبو العتاهية:

فَيَا عَجَباً كَيْفَ يَعْصِي ٱلْإِلٰـهَ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ ٱلْجَاحِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَداً شَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

ومعنى الآية[4]: أي تنزيهاً لمن خلق هذه الأنواع كلها من الزرع والثمار ومختلف النبات، وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً، وخلق مما لا يعلمون من الأشياء، التي لم يطلعهم عليها، ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفتها تفصيلاً، بل

---

(١) القرطبي.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

علمهم ذلك بطريق الإجمال بنحو قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ليستدلوا بذلك على عظمة الخالق، وسعة ملكه، وجلالة قدره.

والخلاصة: تنزه ربنا خالق هذا الخلق العظيم، من نبات وحيوان وإنسان، وخالق، ما لا نعلم مما لا ندرك كنهه ولا نعلم حقيقته عن كل نقص لا يليق بجليل عظمته. وفيه الدليل على عظيم قدرته، وواسع ملكه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾؛ أي: علامة عظيمة لأهل مكة على كمال قدرتنا. وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّيْلُ﴾ المظلم، كأنه قيل: كيف كان آية؟ فقيل: ﴿نَسْلَخُ﴾ ونزيل، وننزع، ونكشط ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من الليل ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ المضيء؛ أي: نزيل ضوء النهار ونكشفه عن مكان الليل، ونلقي ظله بحيث لا يبقي معه شيء من ضوئه، الذي هو شعاع الشمس في الهواء. مستعار من السلخ، وهي إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال، وإن غلب في الاستعمال تعليقه بالجلد، يقال: سلخت الإهاب بمعنى أخرجتها عنه. قال المرزوقي: دلت الآية على أن الليل قبل النهار؛ لأن المسلوخ منه يكون قبل المسلوخ، كما أن المعطي قبل العطاء.

﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾؛ أي: داخلون في الظلام مفاجأة، فإن ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة؛ أي: ليس لهم بعد ذلك أمر سوى الدخول فيه. وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلمة، والنور عارض متداخل في الهواء، فإذا خرج منه أظلم. فعلى هذا المعنى، كان الواقع عقيب إذهاب الضوء عن مواضع ظلمة الليل هو ظهور الظلمة، كما كان الواقع عقيب سلخ الإهاب هو ظهور المسلوخ. وأما على معنى الإخراج فالواقع بعده هو الإبصار دون الإظلام، والمقام حينئذ مقام أن يقال: فإذا هم مبصرون، لكن لما كان الليل زمان ترح وألم وعدم إبصار، والنهار وقت فرح وسرور وإبصار، جعل الليل كأنه يفاجِئُهم عقيب إخراج النهار من الليل بلا مهلة، إذ زمان السرور ليس فيه مهلة حكماً، وإن كان ممتداً، بخلاف زمان الغم، فإنه كان فيه المهلة، وإن كان قصيراً، كما قيل: سَنة الوصل سِنة، وسِنة الهجر سَنة. ولبعضهم:

وَيَوْمٌ لاَ أَرَاكَ كَأَلْفِ شَهْرٍ وَشَهْرٌ لاَ أَرَاكَ كَأَلْفِ عَامِ

وقال آخر:

مِحَنُ ٱلزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لاَ تُنْقَضِي وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَٱلأَعْيَادِ

ومعنى الآية: أي ومن آيات قدرته تعالى الدالة على إمكان البعث والحشر والنشر، وعلى قدرته على فعل كل ما يشاء: الليل ينزع عنه النهار، فتأتي الظلمة، ويذهب النهار. فإذا الخلق قد صاروا في ظلمة بمجيء الليل، الذي كان الضياء ساتراً له. وفي الضياء سرور، ولذة، وراحة للنفس، وسعي على الرزق. وفي زواله وحشة، وانقباض تشعر بألمه النفوس، كما أن فيه تركاً للعمل الذي به قوام الحياة. ومن ثم جعل الآية ظهور الليل، ولم يجعلها مجيء النهار، والآية تحصل بكل منهما.

والخلاصة: أن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة، من أكبر الأدلة على قدرة المولى سبحانه، وفيه عبرة لمن يعي ويفهم. وإن البعث والنشور من أيسر الأمور عليه سبحانه.

وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ معطوف على الليل؛ أي: وآية لهم الشمس المضيئة المشرقة على صحائف الكائنات، كأنه قيل: كيف كانت آية؟ فقيل: هي تجري أو حال كونها جارية، وسائرة إلى مستقر لها. ويجوز أن تكون الواو ابتدائية، ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ مبتدأ، وما بعدها الخبر، ويكون الكلام مستأنفاً مشتملاً على ذكر آية مستقلة. وقوله: لمستقر لها فيه وجوه:

الأول: أن الكلام في ﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾ للتعليل، والمستقر: اسم مكان؛ أي: تجري لبلوغ مستقر وحد معين، ينتهي إليه دورها في آخر السنة. فشُبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره.

والثاني: أن اللام بمعنى إلى، والمستقر كبد السماء؛ أي: وسطها، والمعنى: تجري إلى أن تبلغ إلى وسط السماء، وتستقر فيه. شُبه بطء حركتها فيه بالوقفة والاستقرار، وإلا فلا استقرار لها حقيقةً. كما قال في «المفردات» الزوال يقال في شيء قد كان ثابتاً، ومعلوم أن لا ثبات للشمس، فكيف يقال

زوال الشمس؟ فالجواب: قالوه لاعتقادهم في الظهيرة، أن لها ثباتاً في كبد السماء.

والثالث: أن اللام لام العاقبة، والمستقر مصدر ميمي؛ أي: تجري بحيث يترتب على جريها استقرارها في كل برج من البروج الاثني عشرة، على نهج مخصوص، بأن تستقر في كل برج شهراً، ويأخذ الليل من النهار في نصف الحول، والنهار من الليل في النصف الآخر منه، وتبلغ نهاية ارتفاعها في الصيف، ونهاية انحطاطها في الشتاء. ويترتب عليه اختلاف الفصول الأربعة، وتهيئة أسباب معاش الأرضيات، وتربيتها.

والرابع: لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب، فإن لها في دورها ثلاث مئة وستين مشرقاً ومغرباً، تطلع كل يوم من مطلع، وتغرب من مغرب، ثم لا تعود إليها إلى العام القابل. فالمستقر اسم زمان؛ أي: تجري إلى زمان استقرارها، وانقطاع حركتها عند خراب العالم، أو إلى وقت قرارها وتغير حالها بالطلوع من مغربها. وهذا القول هو الراجح، لما روى أبو ذر - رضي الله عنه - قال: دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس، فلما غابت الشمس، قال النبي ﷺ: يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: تذهب تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد، ولا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها. فذلك قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾. والمعنى المفهوم من الحديث تنتهي في سيرها لمستقر لها، فتقف فيه ولا تنتقل عنه. ومستقرها هو مكان تحت العرش، تسجد فيه كل ليلة عند غروبها، فتستمر ساجدة فيه طول الليل، فعند طلوع النهار يؤذن لها في أن تطلع من مطلعها أولاً، فإذا كان آخر الزمان لا يؤذن لها في الطلوع من المشرق، بل يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من المغرب. وهذا هو الصحيح الواضح، اهـ «فتوحات».

قال إمام الحرمين، وغيره من الفضلاء: لا خلاف أن الشمس تغرب عند قوم وتطلع عند قوم آخرين، والليل يطول عند قوم ويقصر عند قوم آخرين. وعند

خط الاستواء يكون الليل والنهار مستويين أبداً. والأرض مدورة مسيرة خمس مئة عام، كأنها نصف كرة مدورة، فيكون وسطها أرفع. وحول الأرض البحر الأعظم، المحيط فيه ماء غليظ منتن، لا تجري فيه المراكب، وحول هذا البحر جبل قاف، خُلق من زمرد أخضر، والسماء مقبية عليه، ومنه خضرتها.

وقرئ[1]: ﴿إلى مستقر لها﴾. وقرأ عبد الله، وابن عباس، وعكرمة، وعطاء بن رباح، وزين العابدين، وابنه الباقر، والصادق بن الباقر، وابن أبي عبدة ﴿لا مستقرَّ لها﴾ نفياً مبنياً على الفتح، فيقتضي انتفاء كل مستقر. وذلك في الدنيا؛ أي: هي تجري دائماً فيها لا تستقر. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿لا مستقرٌّ لها﴾ برفع مستقر، وتنويه على إعمال ﴿لا﴾ عمل ﴿ليس﴾، نحو قول الشاعر:

تعز فلا شيء على الأرض باقياً ولا وزر مما قضى الله واقياً

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري البديع، المنطوي على الحكم العجيبة التي تتحير في فهمها العقول والأفهام ﴿تَقْدِيرُ﴾ وتدبير ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾؛ أي: المحيط علمه بكل معلوم، وتقدير الله الأشياء أن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضته الحكمة البالغة.

وقيل معنى الآية: أي والشمس تجري حول مركز مدارها الثابت، الذي تسير حوله بحسب وضعها النجمي. فقد ثبت أن لها حركةً رحويةً حول هذا المركز، تقدر بمئتي ميل في الثانية الواحدة. وهذا الوضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده، القابض على زمام مخلوقاته، العليم بأحوالها، الذي لا تخفى عليه خافية من أمرها.

﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب، بإضمار فعل يفسره قوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ كما في زيداً ضربته، فهو من باب الاشتغال، يجوز فيه النصب والرفع. قرأ بالرفع نافع، وابن كثير، وأبو عمرو وابن محيصن، والحسن بخلاف عنه، والرفع يكون على الابتداء، وما بعده خبر. وقرأ الباقون: بالنصب على الاشتغال، والتقدير: وقدرنا

---

(١) البحر المحيط.

القمر قدرناه، والقمر مفعول أول لقدرنا. وقوله: ﴿مَنَازِلَ﴾ مفعول ثان له، لأن ﴿قدرنا﴾ بمعنى: صيرنا، فيتعدى إلى مفعولين؛ أي: صيّرنا القمر وعيّنا له منازل، ومواضع من الأبراج ينزل فيها كل ليلة. ويجوز انتصاب ﴿مَنَازِلَ﴾ على الظرفية، والكلام حينئذ على حذف مضاف؛ أي: وقدرنا سير القمر في منازل من الأبراج، أو على الحال؛ أي: وقدرنا سيره حال كونه ذا منازل ومواضع ينزل فيها.

وتلك المنازل معروفة عند العرب. وهي ثمان وعشرون، ينزل القمر كل ليلة، في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو، لا بتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين. ثم يتقوس، ويدق، ويستتر ليلتين، إن كان الشهر ثلاثين أو ليلة، إن كان تسعاً وعشرين. وهذه[1] المنازل، هي مواقع النجوم، التي نسبت إليها العرب الأنواء، المستمطرة أربعة عشر منها شامية، وأربعة عشر منها يمانية. أولها: الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرقة، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك وهو آخر الشامية. والغفر، والزبانان، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، والسعد الذابح، والسعد البلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، ومقدم الدلو، ومؤخر الدلو، والحوت وهو آخر اليمانية. وهذه المنازل مقسومة على الاثني عشر برجاً، كما استوفينا الكلام عليها في أوائل سورة يونس.

فإذا كان في آخر منازله دق، واصفر، واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ وصار في التقوس ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾؛ أي: مثل العذق ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: العتيق الذي مر عليه حول. قال الزجاج: العرجون: هو عود العذق، الذي فيه الشماريخ اليابس المنحني، شبه به الهلال إذا انحنى وتقوس. والعذق بالكسر في النخل، بمنزلة العنقود في الكرم. وقال ابن الشيخ: حتى صار القمر في آخر الشهر وأول الشهر

---

(١) روح البيان.

الثاني في دقته، واستقواسه، واصفراره كالعرجون القديم. فالعرجون إذا قدم، وعتق.. دق وتقوس، واصفر. شبه به القمر في آخر الشهر في هذه الوجوه الثلاثة؛ أي: في عين الناظر، وإن كان في الحقيقة عظيماً بنفسه. فالعرجون عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. والشماريخ، جمع شمراخ أو شمروخ: ما عليه البسر من العيدان الصغار. والقديم: ما تقادم عهده بحكم العادة، ولا يشترط في إطلاق لفظ القديم عليه مدة بعينها، إذ يقال لبعض الأشياء: قديم وإن لم يمض عليه حول. وقيل: أقل هذا القديم الحول.

واعلم: أنه قد صح أن دور هذه الأمة، هو الدور القمري العربي، الذي حسابه مبني على الشهر تاماً كان أو ناقصاً، لا الدور الشمسي الذي هو مبني حسابه على الأيام فلا يكون ناقصاً. وقد صام ﷺ ثمانية أو تسعة رمضانات، خمس منها كانت تسعاً وعشرين يوماً، والباقي ثلاثين. وقد قال ﷺ: «شهرا عيد لا ينقصان»؛ أي: حكمهما إذا كانا تسعاً وعشرين، مثل حكمهما، إذا كانا ثلاثين في الفضل والثواب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿الْعُرْجُونِ﴾ بضم العين والجيم. وقرأ سليمان التيمي: بكسر العين وفتح الجيم. وهما لغتان. والمعنى؛ أي: وجعلنا لسير القمر منازل، وهي ثمانية وعشرون منزلة، ينزل في كل واحد منها ليلة واحدة، ثم يستتر ليلتين أو ليلة، إذا نقص الشهر، فإذا كان في آخر منازله دق وتقوس حتى صار كالعرجون القديم، والعذق العتيق الذي عليه الشماريخ.

﴿لَا الشَّمْسُ﴾ مبتدأ، والخبر ما بعده؛ لأنه لا يجوز أن تعمل ﴿لَا﴾ في المعرفة ﴿يَنْبَغِي﴾ ويتيسر، ويمكن ﴿لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾؛ أي[2]: لا يصح، ولا يمكن، ولا يسهل للشمس أن تدرك القمر في سرعة سيره، وتنزل في المنزل الذي فيه القمر؛ لأن لكل واحد منهما سلطاناً على انفراده، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر، فيذهب سلطانه إلى أن يأذن الله سبحانه بالقيامة، فتطلع

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

الشمس من مغربها.

أو المعنى[1]: لا يمكن للشمس أن تلحق القمر في سرعة سيره. فإن القمر أسرع سيراً، حيث يقطع فلكه ويدور في منازله الثماني والعشرين في شهر واحد، بخلاف الشمس فإنها أبطأ منه، حيث لا تقطع فلكها ولا تدور في تلك المنازل المقسومة على الاثني عشر برجاً إلا في سنة. فيكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوماً، فهي لا تدرك القمر في سرعة سيره، فإنه تعالى جعل سيرها أبطأ من سير القمر. وأسرع من سير زحل، وهو كوكب في السماء السابعة. وذلك لأن الشمس كاملة النور، فلو كانت بطيئة السير لدامت زماناً كثيراً في مسامتةِ شيء واحد فتحرقه، ولو كانت سريعة السير.. لما حصل لها لبث في بقعة واحدة، بقدر ما يخرج النبات من الأرض والأوراق والثمار من الأشجار، وبقدر ما ينضج الثمار والحبوب، ويجف. فلو أدركت القمر في سرعة سيره، لكان في شهر واحد صيف وشتاء، فيختل بذلك أحكام الفصول، وتكون النبات وتعيش الحيوان.

ويجوز أن يكون المعنى: ليس للشمس أن تدرك القمر في آثاره ومنافعه مع قوة نورها وإشراقها. فإن لكل واحد منهما آثاراً ومنافع تخصه، وليس للآخر أن يدركه فيها كما قالوا: الثمرة تنضجها الشمس، ويلونها القمر، ويعطيها الطعم الكوكب. وقالوا: إن سهيلاً، وهو كوكب يمني يُعطي الحجر اللون الأحمر، فيصير عقيقاً.

ويجوز أن يكون المعنى: ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: في مكانه. فإن القمر في السماء الدنيا، والشمس في السماء الرابعة؛ فهي لا تدركه في مكانه ولا يجتمعان في موضع واحد. قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناه: وأبينه أن سير القمر سير سريع، والشمس لا تدركه في السير. وأما قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع لخراب الدنيا. ويأتي في سورة القيامة، أن

---

(١) روح البيان.

جمعهما علامة لانقضاء الدنيا، وقيام الساعة.

والمعنى[1]: أي لا يصح للشمس ولا يسهل عليها أن تُدرك القمر في سرعة سيره؛ لأن الشمس تجري في اليوم مقدار درجة، والقمر يسير في اليوم مقدار ـ ١٣ـ ثلاث عشرة درجة، ولأن لكل منهما مداراً خاصاً لا يجتمع مع الآخر فيه.

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾؛ أي: ولا الليل سابق انقضاء النهار، فلا يأتي الليل في أثناء النهار، كأن يأتي وقت الظهر، ولكن يعاقبه ويناوبه ويجيء كل واحد منهما في وقته ولا يسبق صاحبه؛ أي: هما[2] يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته. وقيل معناه: لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، فلا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار، وله ضوء، فإذا اجتمعا وأدرك أحدهما صاحبه قامت القيامة. وقيل معناه: إن الشمس لا تجتمع مع القمر في فلك واحد، ولا يتصل ليل بليل، لا يكون بينهما نهار فاصل. وقرأ عمارة بن عقيل الخطفي: ﴿سابق﴾ بغير تنوين، ﴿النهار﴾ بالنصب، وحذف التنوين فيه لالتقاء الساكنين. وقيل[3]: المراد بالليل والنهار آيتاهما، وهما النيران، وبسبق الليل سبق القمر إلى سلطان الشمس في محو نورها. فيكون التركيب عكساً للأول، فالمعنى: لا يصح للقمر أيضاً أن يطلع في وقت ظهور سلطان الشمس وضوئها، بحيث يغلب نورها ويصير الزمان كله ليلاً، بل هما يسيران الدهر على نظامهما، ولا يدخل أحدهما على الآخر، ولا يجتمعان إلا عند إبطال الله هذا التدبير، ونقض هذا التأليف، وتطلع الشمس من مغربها، ويجتمع معها القمر.

فإن قلت: إذا كان هذا التركيب عكس ما ذكر قبله كان المناسب أن يقال ولا الليل مدرك النهار.

قلت: إيراد السبق مكان الإدراك لأنه الملائم لسرعة سير القمر.

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

﴿وَكُلٌّ﴾ والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه، الذي هو الضمير العائد إلى الشمس والقمر؛ أي: وكلهم؛ أي: وكل من الشموس والأقمار. والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطلعهما، فإنَّ اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات، أو العائد إلى الكوكب فإن ذكرهما مشعر بها. ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مخصوص معين من الأفلاك السبعة. والفلك: مجرى الكواكب ومسيرها، وتسميته بذلك لكونه كالفلك؛ أي: فلك المغزل. وقال الشوكاني: والفلك: هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة. والخلاف في كون السماء مبسوطةً أو مستديرة معروف. والجار والمجرور متعلق بـ﴿يَسْبَحُونَ﴾؛ أي: كل من الشموس والأقمار أو كل من الكواكب السيارة يسيرون في فلك خاص به، وهو سماء الدنيا للقمر، والرابعة للشمس. والمعنى: يسيرون بانبساط وسهولة، لا مزاحم لهم سير السابح في سطح الماء. وجوز التعبير عنهم بضمير العقلاء، نسبة السباحة التي هي من أوصاف العقلاء إليهم.

فائدة: قال في «فتح الرحمٰن»: إن قلت: كيف نفى الله تعالى الإدراك للقمر عن الشمس، دون عكسه في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾؟

قلت: لأن سير القمر أسرع؛ لأنه يقطع فلكه في شهر، والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة، فكانت جديرةً بأن توصف بنفي الإدراك لبطء سيرها، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره.

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما امتن به على عباده من النعم، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: علامة عظيمة لأهل مكة، أو لكفار العرب أو للكفار على الإطلاق، الكائنين في عصر محمد عليه السلام، على كمال قدرتنا. وهو خبر مقدم لقوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أنا حملنا أولادهم الكبار الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: في السفينة. وهو هٰهنا مفرد بدليل وصفه بقوله: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: المملوء منهم ومن غيرهم أو المعنى: حملنا صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم. وتخصيص الذرية بمعنى الضعفاء الذين يستصحبونهم في سفر البحر، مع أن تسخير البحر والفلك نعمة في حق أنفسهم أيضاً، لما أنِ

استقرارهم في السفن أشق، واستمساكهم فيها أعجب. وقيل: الضمير في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يرجع إلى القرون الماضية، والمعنى: أن الله حمل ذرية القرون الماضية في الفلك المشحون، فالضميران مختلفان. وقيل: الذرية: الآباء والأجداد، والفلك هو سفينة نوح، أي: إن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح. وعبارة «الخازن» حمل آباءهم الأقدمين، في أصلاب الذين كانوا في السفينة، فكانوا ذرية لهم. وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلتَ: الذرية اسم للأولاد، والمحمول في سفينة نوح آباء المذكورين، لا أولادهم.

قلتُ: الذرية من أسماء الأضداد عند كثير، تطلق على الآباء والأولاد، والمراد هنا: الفريقان، فمعناه: حملنا آباءهم وأولادهم؛ لأنهم كانوا في ظهور آبائهم المحمولين ظاهراً، انتهى. قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد؛ لأنها من الذرء بمعنى الخلق، فيصلح الاسم للأصل والنسل. وقيل: الذرية: النطف الكائنة في بطون النساء وشبه البطون بالفلك المشحون. والراجح: القول الثاني ثم الأول ثم الثالث.

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ يرجع إلى العباد المذكور في قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾، ثم قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فكأنه قال: وآية للعباد، أنا حملنا ذرية العباد، وهذا قول حسن؛ لأنه لا يلزم عليه اختلاف الضميرين.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾؛ أي: وآية لهم أنا خلقنا لهم ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: مما يماثل الفلك، ويشابهه ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾؛ أي: ما يركبونه. قال مجاهد، وقتادة، وجماعة من أهل التفسير: هي الإبل، خلقها لهم للركوب في البر، مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تسمي الإبل سفائن البر. وعلى هذا، فتعريف الفلك للجنس؛ لأن المقصود من الآية: الاحتجاج على أهل مكة، ببيان صحة البعث وإمكانه. استدل عليهم أولاً بإحياء الأرض الميتة، وجعلها سبباً لتعيّشهم، ثم استدل عليهم بتسخير الرياح والبحار والسفن الجارية فيها، على وجهه، يتوسلون بها إلى تجارات البحر، ويستصحبون من يهمهم حمله من النساء والصبيان. كما قال

تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وقيل: تعريفه للعهد الخارجي، والمراد: فلك نوح عليه السلام، المذكور في قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، فيكون المعنى: أنا حملنا ذريتهم؛ أي: أولادهم إلى يوم القيامة، في ذلك الفلك المشحون منهم، ومن سائر الحيوانات التي تعيش في الماء، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب. وخلقنا لهم من مثله؛ أي: مما يماثل ذلك الفلك في صورته وشكله من السفن والزوارق والبواخر، قاله الحسن، والضحاك، وأبو مالك. قال النحاس: وهذا أصح؛ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس.

فإن قلت[1]: فعلى هذا لِمَ لَمْ يقل: حملناهم وذريتهم مع أن أنفسهم محمولون أيضاً؟

قلت: إشارة إلى أن نعمة التخليص عامة لهم ولأولادهم إلى يوم القيامة. ولو قيل: حملناهم لكان امتناناً بمجرد تخليص أنفسهم من الغرق، وجعل السفن مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد، ليس لمجرد كونها صنعتهم بإقدار الله تعالى وإلهامه، بل لمزيد اختصاص أهلها بقدرته تعالى وحكمته، حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب؛ لأنها باختيارهم، كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم، بفلك نوح، بالحمل، لكونها بغير شعور منهم واختيار. وأما قوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فبطريق التغليب.

وجعل بعضهم المعنى الثاني أظهر؛ لأنه إذا أريد بمثل الفلك: الإبل لكان قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ إلخ، فاصلاً بين متصلين، لأن قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ متصل بالفلك. واعتذر عنه في الإرشاد بأن حديث خلق الإبل في خلال الآية بطريق الاستطراد، لكمال التماثل بين الإبل والفلك، فكأنها نوع منه.

والمعنى: ومن آيات[2] قدرته الدالة على رحمته بعباده، أن جعل أولادهم يركبون السفن الموقرة، بسائر السلع التي ينقلونها من بلد إلى آخر، ليستفيدوا مما

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

تحمله من الأقوات وسائر حوائجهم المعيشية، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل، ولا عقب من بعده.

ونحو الآية قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: وخلقنا من مثل تلك السفن البحرية، سفناً برية، وهي الإبل التي تسير في الصحاري، كما قال شاعرهم:

سَفَائِنُ بَرٍّ وَالسَّرابُ بِحَارُهَا

ونحوها قطر السكك الحديدية، والسيارات والسفن الهوائية من مطاود، وطائرات تسير في الجو حاملة للناس السلع المختلفة. والذخائر الحربية، ومن جراء هذا لم يعين الكتاب الكريم، ما يركبون لما سيظهر في عالم الوجود، مما هو مخبأ في صحيفة الغيب. وهذا من إعجاز الكتاب الكريم. ونحو الآية: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم ذكر لطفه بعباده حين ركوبهم تلك السفن، فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ﴾ إغراقهم ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ في اليم مع ما حملناهم فيه من الفلك. وهذا من تمام الآية التي امتن بها عليهم. ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم في لجج البحار مع قدرته على ذلك. والضمير[1] يرجع إما إلى أصحاب الذرية أو إلى الذرية أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال. وتعليق الإغراق بمحض المشيئة. إشعار بأنه قد تكامل ما يوجب هلاكهم من معاصيهم، ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به. ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ أي: فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق، ويدفعه عنهم قبل وقوعه ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ أي: ينجون منه بعد وقوعه، ولا يخلّصون. يقال: أنقذه واستنقذه إذا خلّصه من ورطة ومكروه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم، والغاية المتأخرة؛ أي: لا يغاثون، ولا ينقذون لشيء من الأشياء، إلا لرحمة عظيمة ناشئة من قبلنا داعية إلى الإغاثة والإنقاذ، كذا قال

---

(١) الشوكاني.

الكسائي، والزجاج، وغيرهما. وقيل: هو استثناء منقطع؛ أي: لكن يغاثون وينقذون لرحمة منا. وقيل: هو منصوب على المصدرية بفعل مقدر؛ أي: إلا أن يرحموا رحمة منا. (و) انتصاب ﴿متاعاً﴾ بالعطف على ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: لا يغاثون، ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا، وتمتيع منا لهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى زمان قدر لآجالهم، أو إلا أن يرحمهم الله، ويمتعهم إلى انقضاء آجالهم.

وفي الآية رد على ما زعم الطبيعي، من أن السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة، وأن المجوف لا يرسب الماء. فقال تعالى في رده: ليس الأمر كذلك، بل لو شاء الله تعالى إغراقهم، لأغرقهم، وليس ذلك بمقتضى الطبيعة، وإلا لما طرأ عليها آفة ورسوب.

وفيها الإشارة إلى أن المنعم عليه، ينبغي أن لا يأمن في حال النعمة عذاب الله تعالى. فإن كفار الأمم السالفة، أمنوا من بطشه تعالى، فأخذوا من حيث لا يشعرون، فكيف يأمن أهل مكة، وأهل السفينة؟! لكن لا يعرفون قدر النعمة إلا بعد تحولها عنهم. ولا قدر العافية إلا بعد الابتلاء بمصيبة، فلا بد من مقابلة النعمة بالشكر والعطاء بالطاعة والاجتهاد في طريق التوحيد والمعرفة. فإن المقصود من الإمهال هو تدارك الحال.

والمعنى: أي وإن نشأ إغراقهم في الماء مع ما حملته السفن والزوارق، فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق، وينجيهم من الموت، ولكن رحمة منا بهم وتمتيعاً لهم إلى حين، بلذات الحياة الدنيا أبقيناهم، وحفظناهم من الغرق. وإلى هذا أشار بقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: لكفار مكة بطريق الإنذار ﴿اتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: ما قبلكم من العقوبات النازلة على الأمم الماضية الذين كذبوا رسلهم، واحذروا من أن ينزل بكم مثلها، إن لم تؤمنوا. جُعلت الوقائع الماضية باعتبار تقدمها عليهم، كأنها بين أيديهم. ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؛ أي: وما بعدكم من العذاب المعد لكم في الآخرة بعد هلاكهم. جعلت أحوال الآخرة باعتبار أنها تكون بعد

هلاكهم كأنها خلفهم. أو المعنى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: ما أمامكم من أمر الآخرة، فاعملوا لها، فإنهم مستقبلون لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الدنيا، فلا تغتروا بها، فإنهم تاركون لها. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: ما مضى من الذنوب ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؛ أي: ما بقي منها. وقيل غير ذلك. وما قدمناه أولى؛ لأن الله تعالى خوّف الكفار بشيئين:

أحدهما: العقوبات النازلة على الأمم الماضية.

والثاني: عذاب الآخرة.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إما حال من واو ﴿اتَّقُوا﴾؛ أي: اتقوا حالة كونكم راجين أن ترحموا، أو غاية لهم؛ أي: اتقوا كي ترحموا فتنجوا من ذلك، لما عرفتم أن مناط النجاة، ليس إلا رحمة الله. وجواب ﴿إذا﴾ محذوف؛ أي: أعرضوا عن الموعظة، حسبما اعتادوه، وتمرنوا عليه، وزادوا مكابرة وعناداً، كما دلت عليه الآية الثانية، أعني: قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

﴿وَمَا﴾ نافية ﴿تَأْتِيهِم﴾ تنزل إليهم ﴿مِنْ﴾: مزيدة لتأكيد العموم ﴿ءَايَةٍ﴾ تنزيلية، كائنة ﴿مِنْ﴾ تبعيضية ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل، من بدائع صنع الله، وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها، والإيمان بها ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا﴾ متعلق بقوله: ﴿مُعْرِضِينَ﴾ والجملة حال من مفعول ﴿تأتي﴾، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي[1]: وما تأتيهم آية من آيات ربهم، في حال من الأحوال، إلا حال إعراضهم عنها، على وجه التكذيب والاستهزاء. ويجوز أن يراد بالآيات: ما يعم الآيات التنزيلية والتكوينية، فالمراد بإتيانهم: ما يعم نزول الوحي، وظهور تلك الأمور لهم. والمعنى: ما يظهر لهم آية من الآيات الشاهدة بوحدانيته تعالى، وتفرده بالألوهية، إلا كانوا تاركين النظر الصحيح فيها، المؤدي إلى الإيمان به تعالى. فكل ما في الكون فهو مركز صفة من صفاته تعالى، وسر من أسرار ذاته.

---

(١) روح البيان.

ومعنى الآيتين[1]: أي وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بما نزل الله من الآيات: احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله، ومثلاته التي حلت بمن قبلكم من الأمم، وخافوا أن يحل بكم مثلها من جراء شرككم وتكذيبكم لرسوله، وما خلفكم؛ أي: وما بعد هلاككم مما أنتم قادمون عليه إن متم على كفركم الذي أنتم عليه، لعل ربكم يرحمكم ويغفر لكم ما اجترحتم من السيئات.. أعرضوا ونكصوا على أعقابهم مستكبرين. ثم بين أن الإعراض ديدنهم، وليس ببدع منهم، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم..﴾ إلخ؛ أي: وما تجيء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله، الدالة على توحيده وتصديق رسوله، إلا بادروا بتكذيبها، وأعرضوا عنها، وتركوا النظر الصحيح المؤدي إلى الإيمان به ومعرفة صدق رسوله.

الخلاصة: أنه ما ظهرت لهم آية من الآيات الناطقة، ببدائع صنع الله، وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا أعرضوا عنها مكذبين مستهزئين، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث في صدقها، والاستدلال بها على وحدانيته وصدق رسوله.

وبعد أن ذكر إعراضهم عن الخالق.. بيَّن قسوتهم على المخلوقين، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: للكافرين بطريق النصيحة ﴿أَنفِقُوا﴾ على المحتاجين ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ تعالى؛ أي: بعض ما أعطاكم بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال. فإن ذلك مما يرد البلاء، ويدفع المكاره؛ أي[2]: تصدقوا على الفقراء مما أعطاكم الله، وأنعم به عليكم من الأموال. قال الحسن: يعني: اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقال مقاتل: إن المؤمنين قالوا لكفار قريش: أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانع تعالى. قيل: هم زنادقة، كانوا بمكة. والزنديق: من لا يعتقد إلهاً، ولا بعثاً، ولا حرمة شيء من الأشياء

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ استهزاء بهم، وتهكماً بهم، وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى، حيث كانوا يقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء الله لأعزه، ولو شاء الله لكان كذا وكذا. وإنما حُمل على التهكم، لأن المعطلة ينكرون الصانع، فلا يكون جوابهم المذكور عن اعتقاد وجد. ﴿أَنُطْعِمُ﴾ من أموالنا حسبما تعظوننا؛ أي: لا نطعم، فإن الهمزة للإنكار. ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه إطعامه ﴿أَطْعَمَهُۥٓ﴾؛ أي: رزقه على زعمكم. وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون: إن الرازق هو الله، وأنه يغني من يشاء ويفقر من يشاء، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين، وقالوا: نحن نوافق مشيئة الله، فلا نُطعم من لم يطعمه الله. وهذا غلط منهم، ومكابرة، ومجادلة بالباطل. فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضاً، وأمر الغني أن يطعم الفقير، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة. وقوله: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ هو وإن كان كلاماً صحيحاً في نفسه، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله أو إنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله، كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً.

وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وخطأ بيّن واضح، ظاهر من تمام كلام الكفار. والمعنى: أنكم أيها المؤمنون في سؤال المال، وأمرنا بإطعام الفقراء، أو في اتباعكم محمداً وترك ما نحن عليه، لفي ضلال وخطأ في غاية الوضوح والظهور. وقيل: هو مستأنف من كلام الله تعالى، جواباً ورداً لهذه المقالة، التي قالها الكفار. قال القشيري، والماوردي: إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة، وقد كان في كفار قريش وغيرهم، من سائر العرب قوم يتزندقون، فلا يؤمنون بالصانع، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين، ومناقضة لهم. وحكى نحو هذا القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والمعنى[1]: أي وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج

---

(١) المراغي.

من المسلمين. . قالوا لمن طلب منهم ذلك: لو شاء الله لأغناهم، وأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم.

وفي قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ترغيب في الإنفاق على نهج قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وتنبيه إلى عظيم جرمهم في ترك الامتثال للأمر، وذم لهم على ترك الشفقة على عباد الله. وإجمال ذلك: أنهم لم يعظموا الخالق، ولم يشفقوا على المخلوق.

ثم ذكر أنهم على شحهم وبخلهم عابوا الأمر بالإنفاق، ووصفوه بالضلال البين الذي لا شبهة فيه، فقال: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ما أنتم أيها المؤمنون في قيلكم لنا: أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم إلا في جور بيّن، وبُعد عن سبيل الرشاد لمن تأمل وتدبر.

وهذا معذرة البخلاء في كل عصر ومصر، إذ تراهم دائماً يقولون: لا نُعطي مَنْ حرمه الله. وتلك قرية منهم؛ لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضاً ابتلاء منه لعباده، ولأسباب وحكمة نحن لا نعلمها؛ لا بخلاً منه وشحاً. وأمره الأغنياء بالإنفاق على الفقراء، ليس لحاجة منه إلى مالهم بل ليبلوهم، ويرى أيمتثلون الأمر ويؤدون الواجب، أم ينكصون على أعقابهم ويولون مدبرين. . وفي الحديث «لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولو شاء لجعلكم فقراء لا غني فيكم، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير». وهذه الآية ناطقة بترك شفقتهم على خلق الله. وجملة التكاليف ترجع إلى أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله. وهم قد تركوا الأمرين جميعاً. وقد تمسك البخلاء الآن بما تمسكوا به حيث يقولون: لا نعطي من حرم الله، ولو شاء لأغناه. نعم لو كان هذا الكلام صادراً عن يقين وشهود وعيان لكان مفيداً، بل توحيداً محضاً يدور عليه كمال الإيمان، ولكنهم سلكوا طريق التقليد والإنكار والعناد ومن لم يهد الله فما له من هاد.

وكان لقمان يقول إذا مر بالأغنياء: يا أهل النعيم لا تنسوا النعيم الأكبر وإذا مر بالفقراء يقول: إياكم أن تغبنوا مرتين. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ إن

المال حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام، قال الفضيل ـ رحمه الله ـ: من أراد عز الآخرة، فليكن مجلسه مع المساكين. نسأل الله تعالى فضله الكثير، ولطفه الوفير. فإنه مسبب الأسباب، ومنه فتح الباب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: أهل مكة لرسول الله ﷺ، والمؤمنين إنكاراً واستبعاداً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بقيام الساعة والحساب والجزاء؛ أي: متى يقع هذا الموعود، الذي تعدوننا به من العذاب والقيامة، والمصير إلى الجنة أو النار. أقريب أم بعيد؟ أي: متى إنجاز هذا الوعد، وإلا فالوعد بالبعث كان واقعاً لا منتظراً، أو أراد بالوعد الموعود. ومعنى طلب القرب في لفظة ﴿هَٰذَا﴾ إما بطريق الاستهزاء والتهكم وإما باعتبار قرب العهد بالوعد. قال في «كشف الأسرار»: إنما ذكروا بلفظ الوعد الذي يكون في الخير غالباً، دون الوعيد، لأنهم زعموا أن لهم الحسنى عند الله، إن كان الوعد حقاً. يقول الفقير: هذا إنما يتمشى في المشركين دون المعطلة، وقد سبق أنهم زنادقة كانوا بمكة. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا به وتقولونه، فبينوا لنا وقت وقوعه. وهذا[1] الاستعجال بهجوم الساعة، والاستبطاء لقيام القيامة إنما وقع تكذيباً للدعوة، وإنكاراً للحشر والنشر؛ لأنهم قالوا ذلك استهزاءً منهم، وسخريةً بالمؤمنين، ولو كان تصديقاً وإقراراً واستخلاصاً من هذا السجن، وشوقاً إلى الله تعالى، ولقائه.. لنفعهم جداً، ولما قامت عليهم القيامة عند الموت، كما لا تقوم على المؤمنين، بل يكون الموت لهم عيداً وسروراً.

ومعنى الآية[2]: أي ويقولون استهزاءً وإنكاراً: متى يحصل هذا البعث، الذي تهددوننا به تارة تصريحاً، وأخرى تلويحاً، إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون. والخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين، من قبل أنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة عليه، الآمرة بالإيمان به.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

فأجابهم ربهم بقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ والنظر هنا، بمعنى: الانتظار؛ أي: ما ينتظر كفار مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ لا تحتاج إلى ثانية. هي النفخة الأولى، التي هي نفخة الصعق والموت، ينفخها إسرافيل في الصور. ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ مفاجأةً، وتصل إلى جميع أهل الأرض والسموات. وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ في محل النصب على الحال من مفعول ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾؛ أي: والحال أنهم يتخاصمون فيما بينهم، ويتنازعون في تجاراتهم ومعاملاتهم ويشتغلون بأمور دنياهم حتى تقوم الساعة وهم في غفلة عنها.

فإن قلت: هم[1] ما كانوا منتظرين، بل كانوا جازمين بعدم الساعة والصيحة؟

قلت: نعم إلا أنهم جعلوا منتظرين، نظراً إلى ظاهر قولهم: متى يقع هذا الوعد؛ لأن من قال: متى يقع الشيء الفلاني، يفهم من كلامه أنه ينتظر وقوعه.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: تهيج الساعة والرجلان يتبايعان قد نشرا أثوابهما فلا يطويانها، والرجل يلوط حوضه فلا يسقي منه، والرجل قد انصرف بلبن لقحته فلا يطعمه، والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يأكلها. ثم تلا: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

والمعنى: أي ما ينتظرون بحلول العذاب إلا نفخة واحدة في الصور، بها يموت أهل الأرض جميعاً، تأخذهم بغتة وهم يتنازعون في أمور معايشهم، لا يخطر ببالهم مجيؤها. ونحو الآية قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقرأ أبي[2]: ﴿يختصمون﴾ على الأصل. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والأعرج، وشبل، وهشام، وابن فنطنطين بإدغام التاء في الصاد، ونقل حركتها إلى الخاء، وأبو عمرو أيضاً. وقالون بإخفاء فتحة الخاء وتشديد الصاد، وعنهما إسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصم الثلاثي، والمفعول محذوف؛

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

أي: يخصم بعضهم بعضاً، وباقي السبعة بكسر الخاء، وشد الصاد. وفرقة بكسر الياء اتباعاً لكسرة الخاء وشد الصاد.

فإن قلت: الصيحة المذكورة هنا مكررة مع الصيحة التي سبقت في قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قلت: لا تكرار؛ لأن السابقة هي صيحة جبرائيل، لا هلاك أهل أنطاكية مدينة الروم، والمذكورة هنا هي صيحة إسرافيل، حين ينفخ في الصور نفخة الصعق، النفخة الأولى.

ثم بين سبحانه سرعة حدوثها، وأنها كلمح البصر، أو هي أقرب فقال: (فـ)ـحينئذٍ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: لا يقدرون ﴿تَوْصِيَةً﴾؛ أي: إيصاء في شيء من أمورهم إذ كانت فيما بين أيديهم؛ أي: لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بماله وما عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة والإقلاع عن المعاصي، بل يموتون في أسواقهم ومزارعهم ومواضعهم. قال ابن الشيخ[1]: لا يستطيعون توصية ما، ولو كانت بكلمة يسيرة، فإذا لم يقدروا عليها يكونون أعجز عما يحتاجون فيه إلى زمان طويل، من أداء الواجبات، ورد المظالم، ونحوها؛ لأن القول أيسر من الفعل، فإذا عجزوا عن أيسر ما يكون من القول، تبين أن الساعة لا تمهلهم بشيء ما. واختار الوصية من جنس الكلمات، لكونها أهم بالنسبة إلى المحتضر، فالعاجز عنها يكون أعجز عن غيرها. ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لا يستطيعون توصية إلى أهليهم إن كانوا بين أهلهم، ولا يرجعون إلى أهلهم ومنازلهم إن كانوا في خارج أبوابهم، بل تبغتهم الصيحة، فيموتون حيث ما كانوا.

والمعنى[2]: أي فلا يستطيعون أن يوصوا في أموالهم أحداً. إذ لا يمهلون بذلك، ولا يستطيع من كان منهم خارجاً من أهله أن يرجع إليهم، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا، ويرجعون إلى ربهم. واعلم: أن الموت يدرك

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الإنسان سريعاً، والإنسان لا يدرك كل الأماني. فعلى العبد أن يتدارك الحال بقصر الآمال. وقرأ ابن محيصن ﴿يرجعون﴾ بضم الياء وفتح الجيم.

ومن السنة[1]: حسن الوصية عند الموت، وإن كان الذي يوصي عند الموت كالذي يقسم ماله عند التشبع. ومن مات بغير وصية، لم يؤذن له في الكلام في البرزخ إلى يوم القيامة، ويتزاور الأموات، ويتحدثون وهو ساكت فيقولون: إنه مات بغير وصية، فيوصي بثلث ماله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الضرار في الوصية من الكبائر، جعلنا الله وإياكم من المتداركين لحالهم، والمتفكرين في مآلهم، والمكثرين من صالح الأعمال، والمنتقلين من الدنيا إلى الآخرة على أحسن الأقوال.

ثم بين أنهم بعد أن يموتوا ينفخ في الصور النفخة الثانية نفخة البعث من القبور، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ أي: ينفخ في الصور. وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع. والنفخ: نفخ الريح في الشيء. وقرأ الجمهور ﴿ٱلصُّورِ﴾ بإسكان الواو. وفيه وجهان:

أحدهما: أنه القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وفيه بعدد كل روح ثقبة هي مقامه. والمعنى حينئذٍ: ونفخ في القرن نفخاً، هو سبب لحياة الموتى.

وثانيهما: أنه جمع صورة كصوف جمع صوفة، ويؤيد هذا الوجه قراءة الأعرج ﴿ونفخ في الصوَر﴾ بفتح الواو. فالمعنى عليه: ونفخ في الصور الأرواح، وذلك أيضاً بنفخ القرن.

والمراد: النفخة الثانية، التي يحيي الله بها كل ميت، لا النفخة الأولى التي يميت الله بها كل حي. وبينهما أربعون سنة، تبقى الأرض على حالها مستريحة بعدما مر بها من الأهوال العظام والزلازل، وتمطر سماؤها، وتجري مياهها، وتطعم أشجارها، ولا حي على ظهرها من المخلوقات، فإذا مضى بين النفختين أربعون عاماً، أمطر الله من تحت العرش ماءً غليظاً، كمني الرجال، يقال له: ماء

---

(١) روح البيان.

الحيوان، فتنبت أجسامهم كما ينبت البقل، وتأكل الأرض ابن آدم إلا عجب الذنب، فإنه يبقي مثل عين الجرادة، لا يدركه الطرف، فينشأ الخلق من ذلك، وتركب عليه أجزاؤه كالهباء في شعاع الشمس. فإذا تكاملت الأجساد، يحيي الله تعالى إسرافيل، فينفخ في الصور، فيطير كل روح إلى جسده، ثم ينشق عنه القبر.

﴿فَإِذَا هُم﴾ بغتة من غير لبث؛ أي: الكفار، كما دل عليه ما بعد الآية ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: من القبور. فإن قيل: أين يكون في ذلك الوقت الأجداث، وقد زلزلت الصيحة الجبال؟ أجيب: بأن الله تعالى، يجمع أجزاء كل ميت في الموضع الذي أُقبر فيه، فيخرج من ذلك الموضع. وهو جدثه. وقرأ الجمهور ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ بالثاء المثلثة. وقرىء ﴿من الأجداف﴾ بالفاء بدل الثاء، وهما لغتان، واللغة الفصيحة بالثاء المثلثة. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: دعوة ربهم، ومالك أمرهم على الإطلاق. وهي دعوة إسرافيل للنشور، أو إلى موقف ربهم الذي أعد للحساب والجزاء. وقد صح أن بيت المقدس هي أرض المحشر والمنشر. وكل من الجارين متعلق بقوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾ كما دل عليه قوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾؛ أي: يسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار، لقوله تعالى: ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿يَنسِلُونَ﴾ بكسر السين، وابن أبي إسحاق وأبو عمرو بخلاف عنه بضمها. وإذا المفاجأة بعد قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ إشارة إلى كمال قدرته تعالى، وإلى أن مراده لا يتخلف عن إرادته زماناً، حيث حكم بأن النسلان وهو سرعة المشي، وشدة العدو يتحقق في وقت النفخ، لا يتخلف عنه مع أن النسلان لا يكون إلا بعد مراتب. وهي جمع الأجزاء المتفرقة، والعظام المتفتتة، وتركيبها، وإحياؤها وقيام الحي ثم نسلانه.

فإن قلت: قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وقال هٰهنا: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والقيام غير النسلان، وقد صدر كل واحد منهما في موضعه بـ(إذا) الفجائية، فيلزم أن يكونا معاً؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن القيام لا ينافي المشي السريع، لأن الماشي قائم، ولا ينافي النظر أيضاً.

والثاني: أن الأمور المتعاقبة التي لا يتخلل بينها زمان ومهلة تجعل كأنها واقعة في زمان واحد، كما إذا قيل: مقبل مدبر.

والمعنى: أي ونفخ في الصور نفخة ثانية للبعث، والنشور، والخروج. فإذا هم جميعاً يسرعون للقاء ربهم للحساب والجزاء. ونحو الآية قوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم ذكر، أنهم يعجبون حين يرون أنفسهم قد خرجوا من قبورهم للبعث، كما حكي عنهم بقوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: الكفار في ابتداء بعثهم من القبور، منادين لويلهم، وهلاكهم من شدة ما غشيهم من أمر القيامة ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ويا هلاكنا، احضر إلينا لنتعجب منك، فهذا أوانك ووقت مجيئك. فويل: منادى مضاف إلى ضمير المتكلمين، وهو كلمة عذاب وبلاء، كما أن كلمة ويح كلمة رحمة. ويحتمل كون المنادى محذوفاً؛ أي: قالوا: يا قومنا انظروا هلاكنا وتعجبوا منه. قال ابن الأنباري. الوقف على ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وقف حسن. ثم يبتدىء الكلام بقوله: ﴿مَنْ﴾ استفهام استخباري وتعجب ﴿بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ كان حفص يقف على ﴿مَّرْقَدِنَا﴾ وقفة لطيفة دون قطع نفس، لئلا يتوهم أن اسم الإشارة صفة لـ ﴿مرقدنا﴾، ثم يبتدىء ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ على أنها جملة مستأنفة. ويقال لهذه الوقفة: وقفة السكت. وهي قطع الصوت مقداراً أخصر من زمان النفس.

أي: من أقامنا، وأيقظنا من رقادنا ونومنا إن قلنا: إن المرقد مصدر، أو من مكاننا الذي كنا فيه راقدين إن قلنا. إنه اسم مكان. ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياماً. قال في «الأسئلة المقحمة»: إن قيل: أخبر الكفار، بأنهم كانوا في القبر قبل البعث، في حال الرقاد، وهذا يرد عذاب القبر؟

قلت: إنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياماً، أو أن الله تعالى يرفع

عنهم العذاب بين النفختين، فكأنهم يرقدون في قبورهم كالمريض يجد خفة ما، فينسلخ عن الحس بالمنام. فإذا بعثوا بعد النفخة الآخرة، وعاينوا القيامة دعوا بالويل. ويؤيد هذا الجواب قوله ﷺ: «بين النفختين أربعون سنة، وليس بينهما قضاء، ولا رحمة ولا عذاب إلا ما شاء ربك». أو أن الكفار إذا عاينوا جهنم، وأنواع عذابها، وافتضحوا على رؤوس الأشهاد، وصار عذاب القبر في جنبها كالنوم قالوا: من بعثنا من مرقدنا. وذلك أن عذاب القبر روحاني فقط. وأما عذاب يوم القيامة، فجثماني وروحاني، وهو أشد من الروحاني فقط.

قرأ الجمهور: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾. وقرأ ابن أبي ليلى ﴿يا ويلتنا﴾ بتاء التأنيث وعنه أيضاً ﴿يا ويلتي﴾ بالتاء بعدها ألف بدل من ياء الإضافة. وقرأ الجمهور: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ بفتح ميم ﴿مَنۢ﴾ على الاستفهام. وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جر. ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب، وعلى هذه القراءة تكون ﴿مِنۢ﴾ متعلقة بالويل. وقرأ الجمهور: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾. وفي قراءة أبي ﴿من أهبنا﴾ من هب من نومه إذا انتبه. وأنشد ثعلب على هذه القراءة:

وَعَـاذِلَـةٍ هَـبَّـتْ بِـلَـيْـلٍ تَـلُـوْمُـنِـيْ ... وَلَـمْ يَـعْـتَـمِـدْنِـيْ قَـبْـلَ ذَاكَ عَـذُوْلُ

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف؛ أي: هذا البعث هو الذي وعدكموه الرحمٰن في الدنيا وأنتم قلتم: متى هذا الوعد إنكاراً. ﴿وَصَدَقَ﴾ في أخباره ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فقد حق عليكم، ونزل بكم. وهو جواب من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين. عدل به عن سنن سؤال الكفار تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه، وتنبيهاً على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث، ماذا هو؟ دون الباعث، كأنهم قالوا: بعثكم الرحمٰن الذي وعدكم ذلك في كتبه، وأرسل إليكم الرسل، فصدقوكم فيه، وليس بالبعث الذي تتوهمونه. وهو بعث النائم من مرقده، حتى تسألوا عن الباعث. وإنما هذا هو البعث الأكبر ذو الأفزاع والأهوال. وفي «فتح الرحمٰن»، قوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا...﴾ إلخ، إذا قلت: قولهم ذلك، سؤال عن الباعث، فكيف طابقه الجواب بقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ...﴾ إلخ؟

قلت: معناه بعثكم الرحمٰن الذي وعدكم بالبعث، وأخبركم به الرسول، وإنما جيء به على هذه الطريقة، تبكيتاً لهم وتوبيخاً. وقيل: هو من كلام الكفرة، يجيب به بعضهم على بعض. قال بالأول الفرّاء، وبالثاني مجاهد. وقال قتادة: هي من قول الله سبحانه. قال الزجاج: ويجوز أن يكون هذا إشارة إلى المرقد صفة له، ثم استأنف ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ويضمر الخبر حق؛ أي: ما وعد الرحمٰن حق عليكم.

﴿إِن كَانَتْ﴾؛ أي: ما كانت تلك النفخة الثانية المذكورة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ لا ثانية لها، صاحها إسرافيل بنفخه في الصور. وقيل: صيحة البعث هو قول إسرافيل على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، والأعضاء المتمزقة، والشعور المنتشرة، إن الله المصور الخالق، يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، فاجتمعوا وهلموا إلى العرض، وإلى جبار الجبابرة. قال بعضهم: إن هذا القول، ليس غير النفخ في الحقيقة، فيجوز أن يكون المراد من أحدهما هو المراد من الآخر، أو بأن يقال ذلك أثناء النفخ، بحيث يحصل هو والنفخ معاً، إذ ليس من ضرورة التكلم على الوجه المعتاد، حتى يحصل التنافي بينهما.

﴿فَإِذَا هُمْ﴾ بغتة من غير لبث ما طرفة عين. و﴿هُمْ﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿جَمِيعٌ﴾؛ أي: مجموعون. وقوله: ﴿لَّدَيْنَا﴾؛ أي: عندنا، متعلق بقوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للفصل والحساب؛ أي: فإذا هم مفاجأة مجموعون في المحشر، محضرون لدينا بسرعة للحساب والجزاء. وفيه من تهوين أمر البعث والحشر، والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى، كما هو عسير على الخلق يسير على الله تعالى، لعدم احتياجه إلى مزاولة الأسباب، ومعالجة الآلات كالخلق، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون.

والمعنى: أي ما كانت إعادتهم إحياء بعد مماتهم إلا نفخة واحدة، فإذا هم مجتمعون لدينا، قد أُحضروا للعرض والحساب لم يتخلف منهم أحد. ونحو الآية: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ

﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

ثم بين ما يكون في ذلك اليوم من الحساب بالعدل والقسطاس، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: فيقال للكفار حين يرون العذاب المعد لهم: اليوم؛ أي: يوم القيامة، وهو منصوب بقوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس برة كانت أو فاجرة ﴿شَيْـًٔا﴾ نصب على المصدرية؛ أي: شيئاً من الظلم بنقص الثواب أو زيادة العقاب، أو على أنه مفعول به ثان؛ أي: لا تظلم شيئاً مما تستحقه ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ أيها الكفار ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الكفر، والمعاصي، والأوزار. فالكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما، كأنهما شيء واحد، أو إلا بما كنتم تعملونه؛ أي: بسببه أو في مقابلته.

فقوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ ليأمن المؤمن. وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ إلخ لييأس الكافر. فإن قلت: ما الفائدة في إيثار طريق الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم، والعدول عن الخطاب عند الإشارة إلى أمان المؤمن؟

فالجواب: أن قوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ يفيد العموم. وهو المقصود في هذا المقام، فإنه تعالى لا يظلم أحداً مؤمناً كان أو مجرماً. وأما قوله: ﴿لا تجزون﴾ فإنه يختص بالكافر، فإنه تعالى يجزي المؤمن بما لم يعمله من جهة الوراثة، ومن جهة الاختصاص الإلهي، فإنه تعالى، يختص برحمته من يشاء من المؤمنين، بعد جزاء أعمالهم فيوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله أضعافاً مضاعفة.

أي: ففي هذا اليوم الرهيب، يوم القيامة، لا تبخس نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، ولا يحمل عليها وزر غيرها، بل توفى كل نفس أجر ما عملت من صالح، ولا تعاقب إلا بما اكتسبت من طالح جزاءً وفاقاً لما عملت في الدنيا.

وهذا حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب، المعد لهم تحقيقاً للحق، وتقريعاً لهم، وتوبيخاً عليهم.

الإعراب

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾.

﴿وَمَآ﴾ الواو: استئنافية، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَنزَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلۡنَا﴾. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿قَوۡمِهِۦ﴾، ﴿مِنۡ﴾: زائدة، ﴿جُندٖ﴾: مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿جُندٖ﴾ أو متعلق بـ﴿أَنزَلۡنَا﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لاحتقار أمرهم. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُنزِلِينَ﴾: خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلۡنَا﴾: معللة لها؛ أي: لأن عادتنا المستمرة في الأزمنة الماضية، قبل زمن محمد ﷺ، أنا لم ننزل ملائكة لإهلاك الكفار، بل نهلكهم بغير الملائكة. ﴿إِن﴾ نافية، ﴿كَانَتۡ﴾ فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على العقوبة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿صَيۡحَةٗ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَٰحِدَةٗ﴾: صفة ﴿صَيۡحَةٗ﴾؛ أي: ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة، ﴿هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ۝٣٢﴾.

﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿حسرة﴾: منادى شبيه بالمضاف؛ لأنه اتصل به شيء من تمام معناه، منصوب، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة، ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ متعلق بـ﴿حسرة﴾. وجواب النداء محذوف، تقديره: احضري فهذا أوانك. ويحتمل كون المنادى محذوفاً، و﴿حسرة﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف؛ أي: يا هؤلاء تحسروا حسرة على العباد. جملة النداء مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَأۡتِيهِم﴾: فعل، ومفعول به، ﴿مِنۡ﴾: زائدة، ﴿رَّسُولٍ﴾: فاعل يأتي. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل التحسر عليهم. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء من أعم

الأحوال، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب على الحال، من الهاء في ﴿يَأْتِيهِم﴾؛ أي: ما يأتيهم رسول في حال من الأحوال؛ إلا حال كونهم مستهزئين إياه. ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري، ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم، ﴿يَرَوْا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿لم﴾. والجملة مستأنفة. ﴿كَمْ﴾ خبرية بمعنى عدد كثير، في محل النصب، مفعول مقدم لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ لأنها مما يلزم الصدارة، ﴿أَهْلَكْنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿قَبْلَهُم﴾: متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾. والجملة الفعلية في محل النصب، سادة مسد مفعولي ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنها قلبية معلقة بكم عن العمل فيما بعدها. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ حال من ﴿كَمْ﴾، ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وجملة ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب، على كونه بدلاً من معنى ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ والتقدير: ألم يروا إهلاكنا كثيراً من القرون، كونهم غير راجعين إليهم أو على كونه معمولاً لفعل محذوف، دل عليه السياق؛ أي: وقضينا وحكمنا عدم رجوعهم إليهم. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: نافية، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، ﴿لَّمَّا﴾ حرف بمعنى: إلا التي للحصر، ﴿جَمِيعٌ﴾ خبر أول لكل، ﴿لَّدَيْنَا﴾ متعلق به؛ لأنه بمعنى مجموعون أو بمحضرون، و﴿مُحْضَرُونَ﴾ خبر ثان للمبتدأ؛ أي: وما كل الخلائق إلا مجموعون عندنا، محضرون لدينا للحساب والجزاء. والجملة معطوفة على جملة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أو مستأنفة.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ﴾ الواو: استئنافية، ﴿آيةٌ﴾ خبر مقدم، ﴿لَّهُمُ﴾ صفة لـ﴿آية﴾، ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ صفة لـ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ وجملة ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ حال من الضمير المستكن في الميتة، أو صفة ثانية لـ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، لأن أل فيها جنسية فهي بمنزلة النكرات. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أحيينا﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿أخرجنا﴾، ﴿حَبًّا﴾ مفعول به، ﴿فَمِنْهُ﴾ الفاء: استئنافية، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، و﴿يَأْكُلُونَ﴾ فعل وفاعل. والجملة

مستأنفة. ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أحيينا﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿جعلنا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له إن قلنا: إن ﴿جَعَلْنَا﴾ من أفعال التصيير، ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول به أول على التقدير المذكور، ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾ معطوف على ﴿نَّخِيلٍ﴾، ﴿وَفَجَّرْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أحيينا﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿فجرنا﴾، ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ صفة لمفعول ﴿فجرنا﴾ المحذوف، تقديره: وفجرنا فيها ينابيع كائنات من العيون. ﴿لِيَأْكُلُوا۟﴾ اللام، حرف جر وتعليل، ﴿يأكلوا﴾ فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يأكلوا﴾. والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾؛ أي: وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب لأكلهم من ثمره؛ أي: من ثمر المذكور من النخيل والأعناب. ﴿وَمَا﴾ موصولة أو موصوفة، معطوفة على ثمره، ﴿عَمِلَتْهُ﴾ فعل ومفعول، ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ فاعل. والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ويصح كونها مصدرية؛ أي: ومن عمل أيديهم كالدبس والعصير. قال الزمخشري: ويصح أن تكون ﴿مَا﴾: نافية، وتكون الجملة الفعلية حينئذ حالاً من الثمر. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيرون تلك النعم، فلا يشكرون الله عليها؟! ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَشْكُرُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ذلك المقدر.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الله سبحاناً، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿سُبْحَٰنَ﴾: مضاف، ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه، ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة صلة الموصول. ﴿كُلَّهَا﴾ توكيد للأزواج، ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور، حال من الأزواج، ﴿تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ فعل، وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: مما تنبته الأرض. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور، معطوف

على الجار والمجرور في قوله: ﴿مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، وكذا قوله: ﴿وَمِمَّا﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿آيةٌ﴾ خبر مقدم، ﴿لَّهُمُ﴾ صفة لآية، ﴿ٱلَّيْلُ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ﴿نَسْلَخُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ﴿نَسْلَخُ﴾، ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة في محل النصب، حال من الضمير المستكن في الخبر العائد إلى الليل، ولكنها حالة سببية. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾ فجائية، ﴿هُم مُّظْلِمُونَ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة معطوفة على جملة ﴿نَسْلَخُ﴾: عطف اسمية على فعلية. ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَجْرِي﴾: خبره، ﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾ متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾، ﴿لَّهَا﴾ صفة لـ﴿مستقر﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾. ويجوز أن يكون ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ معطوفاً على الأرض، وجملة ﴿تَجْرِي﴾ حال من الشمس. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿تَقْدِيرُ﴾ خبره، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ مضاف إليه، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب منصوب على الاشتغال بفعل مضمر، يفسره المذكور بعده، تقديره: وقدرنا القمر، وجملة ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿مَنَازِلَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿قدرنا﴾ المقدر؛ أي: قدرنا سير القمر في منازل من الأبراج، أو حال من القمر، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: حال كونه ذا منازل، أو مفعول ثان لقدرنا؛ أي: صيّرناه منازل، وبالرفع معطوف على المبتدأ المذكور قبله على أنه مبتدأ، خبره جملة ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿عَادَ﴾: فعل ناقص واسمه ضمير يعود على القمر، ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾ ﴿الكاف﴾ اسم بمعنى مثل، في محل النصب خبر عاد، ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾:

مضاف إليه للكاف، ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ صفة لـ﴿العرجون﴾؛ أي: حتى صار مثل العرجون القديم. والجملة الفعلية في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى؛ أي: إلى عوده مثل العرجون القديم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿قدرنا﴾، ﴿لَا﴾ نافية ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَنۢبَغِى﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿لَهَآ﴾ متعلق بـ﴿يَنۢبَغِى﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب، ﴿تُدْرِكَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الشمس، منصوب بأن المصدرية ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية لينبغي؛ أي: لا ينبغي لها إدراكها القمر. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿ٱلَّيْلُ﴾: مبتدأ، ﴿سَابِقُ﴾: خبره، ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ مضاف إليه. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ﴾. ﴿وَكُلٌّ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد العموم؛ ولأن التنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف؛ أي: كل واحد من الشمس والقمر والنجوم والكواكب ﴿فِى فَلَكٍ﴾ متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ خبر المبتدأ، وعبّر عنها بالواو التي للعقلاء، تنزيلاً لها منزلتهم. والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ﴾ (الواو): عاطفة، ﴿ءَايَةٌ﴾ خبر مقدم، ﴿لَّهُمْ﴾ صفة له، ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ متعلق بـ﴿حملنا﴾، ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفُلْكِ﴾، وجملة ﴿حَمَلْنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء؛ أي: وحملنا ذريتهم في الفلك المشحون آية لهم. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿وَخَلَقْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿حَمَلْنَا﴾، ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ﴿خلقنا﴾، ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ حال من المفعول المؤخر، وهو ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾، وجملة ﴿يَرْكَبُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما يركبونه. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿نَّشَأْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، مجزوم

بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ (الفاء): عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية للجنس تعمل عمل ﴿إِنّ﴾، ﴿صَرِيخَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿لَهُمْ﴾ خبرها. وجملة ﴿لَا﴾ معطوفة على جملة الجواب. واختار ابن عطية كون الفاء: استئنافية، ففيه قطع الكلام عما قبله. ﴿وَلَا هُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾، نافية مهملة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿يُنقَذُونَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من أعم العلل، ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لأجله، منصوب بـ﴿يُنقَذُونَ﴾، ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿وَمَتَاعًا﴾ معطوف على رحمة، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ متعلق بـ﴿متاعاً﴾ أو صفة له، وتقدير الكلام؛ أي: لا يغاثون، ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا، وتمتيع منا لهم. وسبق بسط الكلام على هذا في مبحث التفسير فراجعه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمُ﴾ متعلق بـ﴿قِيلَ﴾. ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ...﴾ إلى آخر الآية نائب فاعل، محكي لـ﴿قِيلَ﴾. وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونه فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، وجوابه محذوف دل عليه ما سيأتي تقديره: أعرضوا عنه. وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. وإن شئت قلت: ﴿اتَّقُوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿اتَّقُوا﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه صلة لما الموصولة، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ معطوف على ما بين أيديكم، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل أو ترجّ، والكاف اسمها، وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ خبرها. وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب حال من واو اتقوا؛ أي: اتقوا حالة كونكم راجين أن ترحموا، أو تعليل للأمر بالتقوى؛ أي: اتقوا كي ترحموا فتنجوا من ذلك، كما سبق هناك ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾ نافية،

﴿تَأۡتِيهِم﴾: فعل، ومفعول به، ﴿مِّنۡ﴾ زائدة، ﴿ءَايَةٖ﴾: فاعل، ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه صفة لـ﴿ءَايَةٖ﴾. والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿عَنۡهَا﴾ متعلق بما بعده، ﴿مُعۡرِضِينَ﴾: خبر. ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب، حال من مفعول تأتي، والتقدير: وما تأتيهم آية من آيات ربهم، في حال من الأحوال إلا حالة كونهم معرضين عنها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمۡ﴾ متعلق به، ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. وإن شئت قلت: ﴿أَنفِقُواْ﴾ فعل أمر، وفاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لقيل، ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَنفِقُواْ﴾. ﴿رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل، ومفعول أول، وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما رزقكم الله إياه. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾. ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل، وفاعل، صلة الموصول، ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ فعل، وفاعل، صلة الموصول، ﴿أَنُطۡعِمُ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري، ﴿نطعم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على المتكلمين من الكفار، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نطعم﴾، وجملة ﴿نطعم﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قَالَ﴾ الذين كفروا، ﴿لَّوۡ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ فعل مضارع، وفاعل، فعل لـ(لو)، ﴿أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ فعل، ومفعول، وفاعل مستتر يعود على الله جواب ﴿لَّوۡ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَّوۡ﴾ الشرطية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿إِنۡ﴾ نافية، ﴿أَنتُمۡ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ خبر المبتدأ، ﴿مُّبِينٖ﴾ صفة ضلال، الجار والمجرور خبر

المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿يقولون﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿مَتَىٰ﴾ اسم استفهام عن الزمان، في محل النصب على الظرفية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْوَعْدُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم صادقين فيما تدّعون، فبيّنوا لنا وقت وقوعه ومجيئه. وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿صَيْحَةً﴾: مفعول به، ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة له، ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل النصب. صفة ثانية لصيحة، أو حال منها لوصفها بواحدة. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَخِصِّمُونَ﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل النصب. حال من مفعول ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾، ﴿فَلَا﴾ (الفاء): عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة مفرعة على جملة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾. ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾، و﴿يَرْجِعُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿نفخ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور نائب فاعل. والجملة مستأنفة. ﴿فَإِذَا﴾ (الفاء): عاطفة، ﴿إذا﴾ فجائية، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ متعلق بـ﴿يَنسِلُونَ﴾، و﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾

متعلق بـ﴿يَنسِلُونَ﴾ أيضاً، وجملة ﴿يَنسِلُونَ﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوف على جملة ﴿نفخ﴾. ﴿قَالُواْ﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿ويلنا﴾: منادى مضاف. وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مَنۢ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿بَعَثَنَا﴾: فعل، ومفعول، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنۢ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿مَنۢ﴾: الاستفهامية، وجملة ﴿مَنۢ﴾ الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾: متعلق بـ(بعثنا)، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: قالت الملائكة أو المؤمنون: هذا البعث ما وعد الرحمٰن، وجملة القول المحذوف، مستأنفة. ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: هذا ما وعده الرحمٰن إياكم. ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، والعائد محذوف؛ أي: وصدق المرسلون في إخباره إياكم.

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾.

﴿إِن﴾ نافية ﴿كَانَتۡ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على النفخة؛ أي: ما كانت النفخة المذكورة سابقاً، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿صَيۡحَةٗ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَٰحِدَةٗ﴾: صفة لـ﴿صَيۡحَةٗ﴾، وجملة كانت مستأنفة. ﴿فَإِذَا﴾ (الفاء): عاطفة، ﴿إذا﴾: فجائية، ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، ﴿جَمِيعٞ﴾ خبر أول، ﴿لَّدَيۡنَا﴾ متعلق بـ﴿مُحۡضَرُونَ﴾، و﴿مُحۡضَرُونَ﴾: خبر ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ (الفاء): استئنافية، ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تُظۡلَمُ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُظۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ فعل، ونائب فاعل. والجملة مستأنفة. ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مفعول مطلق، ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ﴾ فعل، ونائب فاعل، معطوف على ﴿لَا تُظۡلَمُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب. مفعول ثان لـ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾، ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِن جُندٍ﴾ الجند: العسكر، واحده جندي، والمراد بهم هنا: الجند من الملائكة؛ لأنهم جند الله الأكبر. ﴿خَامِدُونَ﴾ والخمود: انطفاء النار، والمقصود به هنا: الموت. ﴿يَحَسْرَةً﴾ والحسرة على ما قال الراغب: الغم على ما فات، والندم عليه، كأن المتحسر انحسرت عنه قواه من فرط الإعياء. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ جمع قرن، والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد.

﴿وَفَجَّرْنَا﴾ الفجر: شق الشيء شقاً واسعاً، كما في «المفردات». قال بعضهم: التفجير كالتفتيح لفظاً ومعنىً، وبناء التفعيل للتكثير. ﴿فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ جمع عين، وهي في الأصل: الجارحة. ويقال لمنبع الماء: عين، تشبيهاً بها في الهيئة، وفي سيلان الماء منها، ومن عين الماء اشتق ماء معين؛ أي: ظاهر للعيون. ومعنى ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾: من ماء العيون، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾ سبحان: علم للتسبيح، الذي هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولاً؛ أي: اعتقاد البعد عنه، والحكم به. فإن العلم كما يكون علماً للأشخاص، كزيد وعمرو، وللأجناس كأسامة.. يكون للمعاني أيضاً. لكن علم الأعيان لا يضاف، وهذا لا يجوز بغير إضافة كما في الآية، أقيم مقام المصدر، وبيّن مفعوله بإضافته إليه. ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: جمع زوج، وهو ضد الفرد، ويقال للأنواع: أزواج؛ لأن كل نوع زوج بقسيمه. وفي ﴿سُبْحَٰنَ﴾ استعظام ما في حيِّز الصلة، من بدائع آثار قدرته، وروائع نعمائه الموجبة للشكر، وتخصيص العبادة به. والتعجب من إخلال الكفرة بذلك، والحالة هذه، فإن التنزيه لا ينافي التعجب. والمعنى: أسبح الذي أوجد الأصناف والأنواع سبحانه؛ أي: أنزهه عما لا يليق به عقداً وعملاً تنزيهاً خاصاً به، حقيقاً بشأنه. فهو حكم منه تعالى بتنزهه، وبراءته عن كل ما لا يليق به، كما فعله الكفار من الشرك وما تركوه من الشكر، وتلقين للمؤمنين أن يقولوه، ويعتقدوا مضمونه، ولا يخلُّوا به ولا يغفلوا عنه. وقال بعضهم: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ مصدر كغفران أريد به: التنزه التام، والتباعد

الكلي عن السوء على أن تكون الجملة إخباراً من الله بالتنزه. والمعنى: تنزه تعالى بذاته عن كل ما لا يليق به تنزهاً خاصاً. ومن هو خالق الأصناف والأنواع كيف يجوز أن يشرك به ما لا يخلق شيئاً؟، بل هو مخلوق عاجز .اهـ من «الروح».

﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أصل السلخ: كشط الجلد عن الشاة ونحوها، واستُعمل هنا في كشف الضوء من مكان الليل، وملقى ظله. ومعنى ﴿نَسۡلَخُ﴾: نفصل، يقال: سلخ جلد الشاة إذا كشطه عنها، وأزاله. وفي معاجم اللغة: سلخ يسلخ من باب نصر وفتح سلخاً، وسلخ الخروف كشط جلده، وسلخت المرأة درعها نزعته، وسلخت الحية انكشفت عن سلختها، وسلخها قشرها. فاستعير السلخ هنا لإزالة الضوء، وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله.

﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾؛ أي: حول مستقر لها، وهو مركز مدارها. تقدير العزيز والتقدير: تبيين كمية الشيء. وتقدير الله الأشياء على وجهين:

أحدهما: بإعطاء القدرة.

والثاني: أن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضته الحكمة.

﴿مَنَازِلَ﴾: جمع منزل، وهو المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة. ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾؛ أي: صار في أواخر سيره، وقربه من الشمس. ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ في رأي العين. والعرجون: هو العود الذي عليه الشماريخ، فإذا أتي عليه الحول تقوّس، ودقّ، واصفرّ. قال أعشى بني قيس:

شَرَقَ ٱلْمِسْكِ وَٱلْعَبِيْرِ بِهَا   فَهْيَ صَفْرَاءُ كَعُرْجُوْنِ ٱلْقَمَرْ

والعرجون: بضم العين، ويقال له أيضاً: العرجد، والعرجد بتشديد الدال، أصل العذق الذي يعوج ويبقى على النخل يابساً بعد أن تقطع عنه الشماريخ، والجمع عراجين. وقال الزجاج: هو فعلون من الانعراج، وهو الانعطاف، والاعوجاج. والشماريخ جمع شمراخ، والشمراخ كالشمروخ بالضم: عيدان

العنقود، الذي عليه الرطب، وما يجمعه مما فوقه يسمى العذق بكسر العين، كذا في «المصباح». وفيه العذق بكسر العين الكباسة، والكباسة: عنقود النخل، اهـ.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾؛ أي: لا يتيسر لها ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: أن تجتمع معه في وقت واحد، فتداخله وتطمس نوره؛ لأن لكل منهما دورة خاصة في فلكه. وقوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ هو أبلغ من (لا ينبغي للشمس)، كما أن، أنت لا تكذب، بتقديم المسند إليه، آكد من، لا تكذب أنت لاشتمال الأول على تكرر الإسناد. ففي ذكر حرف النفي مع الشمس دون الفعل، دلالة على أن الشمس مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها، وقدّر لها. وينبغي من الانفعال، وثلاثيه بغي يبغي بمعنى طلب، وأما استعمال انبغي ماضياً فقليل. قال في «كشف الأسرار»: يقال: بغيت الشيء فانبغى لي، أي: استسهلته فتسهل لي، وطلبته فتيسر لي. والمعنى: لا الشمس يصح لها ويتسهل ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: تجتمع معه في وقت واحد، فتداخله وتطمس نوره؛ لأن لكل منهما دورة خاصة في فلكه. كما مر آنفاً.

﴿فِي فَلَكٖ﴾؛ أي: في جنس فلك، كقولهم: كساهم الأمير حلة يريدون: كساهم هذا الجنس. والفلك: مجرى الكواكب ومسيرها، وتسميته بذلك لكونه كالفلك، كما في «المفردات».

﴿يَسۡبَحُونَ﴾ السبح: المر السريع في الماء أو في الهواء، واستُعير لمر النجوم في الفلك، كما في «المفردات». وقال في «كشف الأسرار»: السبح: الانبساط في السير، كالسباحة في الماء، وكل من انبسط في شيء فقد سبح فيه. قال الحسن: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ يدورون. وقال ابن عباس في فلكة مثل فلكة المغزل.

﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ الذرية أصلها: صغار الأولاد، ثم استعملت في الصغار والكبار، ويقع على الواحد والجمع، وأصله الجمع. وهي من ذرأ الله الخلق، فتُركت همزته نحو: برية من برأ. قال في «القاموس»: ذرأ كجعل: خلق، وذرأ الشيءُ: كثُر، ومنه الذرية ـ مثلثةً ـ لنسل الثقلين، انتهى.

﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾؛ أي: السفينة ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾؛ أي: المملوء. ومع ذلك نجّاه الله

من الغرق، فهذا الوصف له دخل في الامتنان. وكانت السفينة مملوءة بالحيوان؛ لأنه جعلها ثلاث طبقات. السفلي: وضع فيها السباع والهوام، والوسطي: وضع فيها الدواب والأنعام، والعليا: وضع فيها الآدميين والطير، اهـ شيخنا. والشحناء: عداوة امتلأت منها النفوس، كما في «المفردات» وهو اسم مفعول من شحن السفينة إذا ملأها، وأتم جهازها كله. ويقال: بينهما شحناء؛ أي: عداوة، وهو مشاحن لأخيه، ويقال للشيء الشديد الحموضة: إنه ليشحن الذباب؛ أي: يطرده، وبابه فتح إذا كان بمعنى الملء، وإذا كان بمعنى الطرد فهو من باب فتح ونصر، يقال: شحنت الكلاب؛ أي: أبعدت الطرد ولم تصد شيئاً، وإذا كان بمعنى الحقد فهو من باب تعب.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ الغرق: الرسوب في الماء. ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الصريخ فعيل بمعنى: مفعل؛ أي: مصرخ، وهو المغيث، ويُطلق أيضاً على الصارخ؛ أي: المستغيث، فهو من الأضداد، ويكون مصدراً بمعنى الإغاثة. وكل منهما مراد هنا. وفي «الأساس»: وصرخ يصرخ صراخاً وصريخاً وهو صارخ وصريخ. والصراخ: صوت المستغيث، وصوت المغيث إذا صرخ بقومه للإغاثة.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: متى يتحقق ويجيىء ما وعدنا به. والوعد يستعمل في الخير والشر والنفع والضر، والوعيد في الشر خاصة. والوعد هنا يتضمن الأمرين؛ لأنه وعد بالقيامة. وجزاء العباد إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ من النظر بمعنى الانتظار، كما سبق. ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ والصيحة: رفع الصوت. ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ والأخذ: حوز الشيء، وتحصيله. وذلك تارة بالتناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥ﴾، وتارة بالقهر نحو: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. ويقال: أخذته الحمّى، ويعبر عن الأسير بالمأخوذ والأخيذ.

﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء وكسر الصاد المشددة. أصله: يختصمون، فقلبت التاء صاداً، ثم أسكنت وأدغمت في الصاد الثانية، ثم كُسرت الخاء لالتقاء الساكنين، فصار ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، وماضيه خصّم، أصله: اختصم، فنُقلت حركة التاء إلى الخاء ثم قُلبت؛ أي: التاء صاداً وأدغمت في الصاد،

وحُذفت همزة الوصل للاستغناء عنها بتحريك الخاء، فوقع الإعلال في الماضي كما وقع في مضارعه.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الاستطاعة: استفعال من الطوع، وذلك وجود ما يصير به الفعل متأتياً. ﴿تَوْصِيَةً﴾ مصدر وصّى توصية كزكّى تزكية، لأن فعله من المضعف المعتل. والوصية اسم مصدر من الإيصاء، يقال: وصّيت الشيء بالشيء إذا وصلته به، ويسمى إلزام شيء من مال أو نفقة بعد الموت بالوصية؛ لأنه لما أوصى به؛ أي: أوجب وألزم وصل ما كان من أمر حياته بما بعده من أمر مماته.

﴿وَلَا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ الأهل: يفسر بالأزواج والأولاد، وبالعبيد والإماء. والأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع، كما في شرح المشارق لابن الملك. قال الراغب: أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب، وعُبّر بأهل الرجل عن امرأته.

﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: القبور، جمع جدث كفرس وأفراس، محركةً وهو القبر، كما في «القاموس». وقرىء شاذاً ﴿من الأجداف﴾ بالفاء، وهي لغة في الأجداث يقال: جدث وجدف بمعنى.

﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ هو القرن أو ما يسمى اليوم البوق، وهو شيء مجوّف مستطيل، يُنفخ فيه ويزمر ويُجمع على أبواق وبيقان وبوقان. قال أبو الفتح بن جنيّ: عاب على أبي الطيب من لا خبرة له بكلام العرب، جمع بوق على بوقات في قوله:

إِذَا كَانَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ سَيْفَاً لِدَوْلَةٍ فَفِيْ ٱلنَّاسِ بُوْقَاتٌ لَهَا وَطُبُوْلُ

والقياس يعضده، إذ له نظائر كثيرة مثل: حمام وحمامات، وسرادق وسرادقات وجواب وجوابات، وهو كثير في جمع ما لا يعقل من المذكر.

﴿يَنسِلُونَ﴾؛ أي: يعدون بكسر السين وضمها، يقال: نسل الذئب ينسل من باب ضرب يضرب، وقيل: ينسل بالضم أيضاً، وهو الإسراع في المشي. وفي القاموس: نسل ينسل وينسل بكسر السين وضمها نسلاً ونسلاً ونسلاناً في مشيه أسرع. ومنه: قول امرىء القيس:

فَإنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّيْ خَلِيْقَةٌ   فَسُلِّي ثِيَابِيْ مِنْ ثِيَابِكِ تُنْسَلِ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق بين ﴿أَنزَلْنَا﴾ و﴿مُنزِلِينَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ شبههم بالنار الخامدة، التي صارت رماداً على حد قول لبيد:

وَمَا ٱلْمَرْءُ إلاَّ كَٱلْشِّهَابِ وَضَوْئِهِ   يَحُوْرُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

شُبهوا بالنار الخامدة رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب، والميت كالرماد.

ومنها: حكاية حال ماضية مستمرة في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾؛ أي: كانوا في الدنيا على الاستمرار يستهزئون بمن يأتيهم من الرسول من غاية الكبر.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾.

ومنها: التنكير للتفخيم والتعظيم في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾؛ أي: آية عظيمة باهرة على قدرة الله.

ومنها: الطباق بين الموت والإحياء في قوله: ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الأيدي كناية عن القوة؛ لأن أقوى جوارح الإنسان في العمل يده، فصار ذكر اليد غالباً في الكناية. ومثله قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

ومنها: فن التناسب في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ الآية، وهو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه، لكونه مجملاً يحتاج إلى التفصيل. فقد أجمل الأزواج أولاً، ثم فصله بما بعده، فأحسن التفصيل والترتيب. فقد قدم سبحانه النبات، وانتقل على طريق

البلاغة إلى الأعلى، فثنى بأشرف الحيوان، وهو الإنسان، ليستلزم ذكره بقية الحيوان، ثم ثلّث بقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فانتقل من الخصوص إلى العموم، ليندرج تحت العموم. فسبحان منزل القرآن على ما فيه من بديع البيان.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ شبّه إزالة ضوء النهار، وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، بجامع الإزالة والتعرية في كل. فكما أن الشاة تتعرى حين يُسلخ إهابها كذلك الليل إذا انسلخ عنه النهار زال ضوء، وبدت ظلمته الحالكة. واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج، واشتق منه ﴿نَسْلَخُ﴾ بمعنى نخرج منه النهار على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

وفيه من المحسنات أيضاً الطبقات بين الليل والنهار في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾.

ومنها: في هذه الآية أيضاً التوشيح، وهو أن يكون في أول الكلام، معنى إذا عُلم عُلمت منه القافية، إن كان شعراً، أو السجع إن كان نثراً، أو الفاصلة إن كان آيةً. فإن من كان حافظاً للسورة، متفطناً إلى أن مقاطع آيها النون المردفة، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل، علم أن الفاصلة تكون مظلمون؛ لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم؛ أي: دخل في الظلمات ما دامت تلك الحال.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ فإنه شبه الهلال بالعرجون في الدقة، والتقوس والاصفرار؛ أي: في رأي العين لا في المقدار. ووجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء، ولما لم يُذكر سُمي مجملاً.

ومنها: تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فإنه أبلغ من أن يقال: لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر، وآكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها. فإن قولك: أنت لا تكذب، بتقديم المسند إليه، أبلغ من قولك: لا تكذب، فإنه أشد في نفي الكذب من العبارة الثانية. كما مر.

ومنها: تنزيل غير العقلاء منزلتهم في قوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بدل يسبح. فقد عبر عن الشمس، والقمر، والكواكب، بضمير جمع المذكر تنزيلاً لها منزلة العقلاء. والذي سوّغ ذلك وصفهم بالسباحة؛ لأنها من صفات العقلاء.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ فإنه استعار المر السريع في الماء، لمر النجوم في الفلك، المعبر عنه عرفاً بالدوران.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ فقد استعار الرقاد للموت، والجامع بينهما عدم ظهور الفعل في كل؛ لأن كلا من النائم والميت لا يظهر فيه فعل. والمراد: الفعل الاختياري المعتد به، فلا يرد أن النائم يصدر منه فعل. وإنما قلنا: إنها أصلية؛ لأن المرقد مصدر ميمي، كما تقدم. وأما إذا جعلناه اسم مكان فتكون الاستعارة تبعية.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: تقول لهم الملائكة أو المؤمنون: هذا ما وعدكم به الرحمٰن.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري الذي يراد به التهكم في قوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿تَوْصِيَةً﴾ لغرض التعميم؛ أي: في شيء من أمورهم.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ للدلالة على تحقق الوقوع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما بيّن أنّ ذلك اليوم كائن لا

(١) المراغي.

محالة، وأنه سيأتي بغتةً من حيث لا يشعر به أحد، فما هو إلا صيحة واحدة، فإذا الناس خارجون من قبورهم ينسلون. . أردف ذلك ببيان ما أعده للمحسن والمسيء في هذا اليوم، من ثواب وعقاب، ليكون في ذلك ترغيب في صالح الأعمال، وترهيب من فعل الفجور، واجتراح السيئات.

قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر ما للمحسنين من نعيم، واجتماع بالمحبين والإخوان والأزواج في الجنات. . أعقبه بذكر حال المجرمين، وأنهم في ذلك اليوم يطلب منهم التفرق، وابتعاد بعضهم من بعض. فيكون لهم عذابان: عذاب النار، وعذاب الوحدة. ولا عذاب فوق هذا.

ثم أردف هذا، بأنه قد كان لهم مندوحة من كل هذا، بما أرسل إليهم من الرسل، الذين بلّغوهم أوامر ربهم ونواهيه. ومنها: نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان، وعن اتباعه فيما يوسوس به. ثم ذكر: أنه كان لهم فيمن قبلهم من العظات، ما فيه مزدجر لهم لو تذكروا، لكنهم اتبعوا وساوسه، فحل بهم من النكال والوبال ما رأوا آثاره بأعينهم في الدنيا. وفيه دليل على ما سيكون لهم في العقبى. ثم ذكر مآل أمرهم، وأنهم سيصلون نار جهنم، خالدين فيها أبداً بما اكتسبت أيديهم. وهم في هذا اليوم، لا ينطقون ببنت شفة، ولا تُقبل منهم معذرة، بل تتكلم أيديهم بما عملت، وتشهد أرجلهم بما اكتسبت. ثم ذكر: أنه رحمةً منه بعباده، لم يشأ أن يعاقبهم في الدنيا شديد العقوبات، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم حتى لو أرادوا الاستباق، وسلوك الطريق الذي اعتادوا سلوكه، ما قدروا ولا أبصروا، ولم يشأ أن يمسخ صورهم، ويجعلهم كالقردة والخنازير، حتى لو أرادوا الذهاب إلى مقاصدهم ما استطاعوا، ولو أرادوا الرجوع ما قدروا. ثم دفع معذرة أخرى ربما احتجوا بها. وهي أن ما عمروه قليل، ولو طال عمرهم لأحسنوا العمل، واهتدوا إلى الحق. فرد ذلك عليهم بأنهم كلما عمروا في السن ضعفوا عن العمل، وقد عُمروا مقدار ما يتمكنون به من البحث والإدراك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، ولكن ذلك ما

كفاهم. فهم مهما طالت أعمارهم لا يجديهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه، لما ذكر أمر الوحدانية في قوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، وذكر أمر البعث في قوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾.. ذكر هنا الأصل الثالث، وهو الرسالة في هاتين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما[1] ذكر الأدلة على الأصول الثلاثة الوحدانية، والحشر، والرسالة.. أعاد الكلام في الوحدانية، وذكر بعض دلائلها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر أنهم كفروا بأنعم الله عليهم، وأنكروها.. أردف ذلك ببيان أنهم زادوا في ضلالهم، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم، كما قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾. وفي الحقيقة أنها لا هي ناصرة ولا منصورة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف الدلائل على عظيم قدرته، ووجوب عبادته، وبطلان إشراكهم به، بعد أن عاينوا فيما بين أيديهم، ما يوجب التوحيد والإقرار بالبعث.. أردف ذلك ذكر حجة من أنفسهم، دالة على قدرته تعالى، ومبطلة لإنكارهم له. ثم ذكر أن بعض خلقه استبعدوا البعث، ونسوا بدء أمرهم وكيف خلقوا، وقالوا: كيف ترجع الحياة إلى هذه العظام النخرة. فأجابهم عن شبهتهم: بأن الذي أنشأها أول مرة من العدم، هو الذي يحييها، وهو العليم بتفاصيل أجزائها، مهما وزّعت وتفرّقت. ثم ذكر لهم دليلاً آخر يرفع هذا الاستبعاد، وهو: أن من قدر على

---

(١) المراغي.

إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من الماء.. قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غضاً طرياً، ثم يبس وبلي، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان، وفيه الدليل على قدرته، وهو خلق السموات والأرض، ثم أعقب ذلك بما هو كالنتيجة لما سلف، وفيه بطلان لإنكارهم. فأبان أن كل شيء هين عليه، فما هو إلا بقول: ﴿كُن﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾. تنزه ربنا ذو الملك والملكوت عن كل ما يقول المشركون. فإليه يرجع جميع الخلق للحساب والجزاء.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات: ما أخرجه مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، وقتادة أن أبي بن خلف، جاء إلى رسول الله ﷺ في يده عظم رميم، وهو يُفَتِّتُهُ بيده ويذروه في الهواء، ويقول: أتزعم يا محمد، أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار». ثم نزلت هذه الآيات من سورة يٓس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ...﴾ إلى آخرهن.

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر الله سبحانه حال الكافرين.. أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين، وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ، ويخاطبون به زيادة لحسرتهم، وتكميلاً لجزعهم، وتتميماً لما نزل بهم من البلاء، وما شاهدوه من الشقاء. فإذا رأوا ما أعده الله لهم من أنواع العذاب، وما أعده لأوليائه من أنواع النعيم.. بلغ ذلك من قلوبهم مبلغاً عظيماً، وزاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة مستقرون ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عظيم الشأن، خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾، والمراد بالشغل هنا: الشأن الذي يصد المرء عما سواه من شؤونه، لإيجابه كمال المسرة والبهجة؛ أي: لكائنون في شغل عظيم بما هم فيه من اللذات، التي هي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، عن الاهتمام بأمر الكفار، ومصيرهم إلى النار، وإن كانوا من أقربائهم.

وقوله: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾؛ أي: متنعمون بنعيم مقيم، فائزون بملك كبير دائم. ويجوز أن يكون ﴿فَٰكِهُونَ﴾ هو الخبر، و﴿فِى شُغُلٍ﴾ متعلق به، في محل النصب على الحال؛ أي: متلذذون في شغل، فشغلهم شغل التلذذ لا شغل فيه تعب كشغل أهل الدنيا.

والتعبير عن حالهم هذه، بالجملة الاسمية قبل تحققها، تنزيل للمترقب المتوقع منزلة الواقع، للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها، وزيادة مساءة المخاطبين بذلك. وهم الكفار. والأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين. ثم إن الشغل فُسِّر على وجوه بحسب اقتضاء مقام البيان ذلك، منها افتضاض الأبكار. وفي الحديث: «إن الرجل ليعطى قوة مئة رجل، في الأكل والشرب والجماع»، فقال رجل من أهل الكتاب: إن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة، فقال النبي ﷺ: «يفيض من جسد أحدهم، عرق مثل المسك الأذفر، فيضمر بذلك بطنه». وفي الحديث: «إن أحدهم ليفتض في الغداة الواحدة مئة عذراء». قال عكرمة: فتكون الشهوة في أخراهن كالشهوة في أولاهن، وكلما افتضها رجعت على حالها عذراء، ولا تجد وجع الافتضاض أصلاً كما في الدنيا. وجاء رجل فقال: يا رسول الله، أنُفْضي إلى نسائنا في الجنة كما نفضي إليهن في الدنيا؟ قال: «والذي نفسي بيده، إن المؤمن ليفضي في اليوم الواحد، إلى ألف عذراء».

وفي «الفتوحات المكية»: ولذة الجماع هناك، تضاعف على لذة جماع أهل الدنيا أضعافاً مضاعفةً، فيجد كل من الرجل والمرأة لذة لا يُقدر قدرها، لو وجداها في الدنيا غشي عليهما من شدة حلاوتها، لكن تلك اللذة إنما تكون بخروج ريح إذ لا مني هناك كالدنيا، كما صرحت به الأحاديث، فيخرج من كل من الزوجين ريح، كرائحة المسك، وليس لأهل الجنة أدبار مطلقاً، لأن الدبر إنما خلق في الدنيا مخرجاً للغائط ولا غائط هناك. ولولا أن ذكر الرجل أو فرج المرأة يحتاج إليه في جماعهم، لما كان وُجد في الجنة فرج لعدم البول فيها. ونعيم أهل الجنة، والراحة فيها مطلقة إلا راحة النوم، فليس عندهم من نعيم راحته شيء؛ لأنهم لا ينامون.

ومنها: سماع الأصوات الطيبة، والنغمات اللذيذة. ثم إنه ليس في الجنة سماع المزامير والأوتار، بل سماع القرآن، وسماع أصوات الأبكار المغنية، والأوراق، والأشجار، ونحو ذلك. وروي: أن في الجنة أشجاراً عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع، يهب الله ريحاً من تحت العرش، فتقع في تلك الأشجار، فتحرك تلك الأجراس بأصوات، لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً.

ومنها: التزاور، وفي الحديث: «إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل يوم جمعة، في رحال الكافور، وأقربهم منه مجلساً، أسرعهم إليه يوم الجمعة وأبكرهم غدوا». وروي: «أنهم إذا نظروا إلى الله، نسوا نعيم الجنة».

ومنها: شغلهم عما فيه أهل النار على الإطلاق، وشغلهم عن أهاليهم في النار لا يهمهم، ولا يبالون بهم، ولا يذكرونهم كي لا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم. وقيل: ضيافة الله، وأفرد الشغل ملحوظاً فيه النعيم. وهو واحد من حيث هو نعيم، ذكره أبو حيان.

والظاهر[1]: أن المراد بالشغل ما هم فيه من فنون الملاذ، التي تلهيهم عما عداها بالكلية؛ أي: شغل كان كما مر. وفي الآية إشارة إلى أن أهل النار، لا نعيم لهم من الطعام، والشراب، والنكاح، وغيرها. وفي «تذكرة القرطبي»: أن بعض العصاة، ينامون في النار إلى وقت خروجهم منها، ويكون عذابهم نفس دخولهم في النار. فإنه عار عظيم وذل كبير، ألا ترى: أن من حبس في السجن، كان هو عذاباً له بالنسبة إلى مرتبته، وإن لم يعذب بالضرب والقيد ونحوهما. ثم إنا نقول: والعلم عند الله؛ لأنه ليس له مستند، ولا أصل أثر فيه.

وقرأ الكوفيون، وابن عامر[2]: ﴿شُغُل﴾ بضمتين. وقرأ الحرميان: ابن كثير ونافع، وأبو عمرو: بضم الشين وسكون الغين. وهما لغتان، كما قال الفرّاء. وقرأ مجاهد، وأبو السمّال، وابن هبيرة، فيما نقل ابن خالويه عنه: بفتحتين.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

وقرأ يزيد النحوي، وابن هبيرة فيما نقل أبو الفضل الرازي: بفتح الشين وإسكان الغين. وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَـٰكِهُونَ﴾ بالألف بالرفع على أنه خبر ﴿أَنَّ﴾. وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وأبو حيوة، وأبو رجاء، وشيبة، وقتادة، ومجاهد، ويحيى بن صبيح، ونافع في رواية: بغير ألف. قال الفراء: هما لغتان كالفاره والفره، والحاذر والحذر. وقال الكسائي، وأبو عبيدة: الفاكه ذو الفاكهة مثل: تامر ولابن، والفكه المتفكه والمتنعم. وقال قتادة: الفكهون: المعجبون. وقال أبو زيد: يقال: رجل فكه إذا كان طيب النفس ضحوكاً. وقال مجاهد، والضحاك كما قال قتادة. وقال السدي: كما قال الكسائي. وفي «البحر»: ﴿فكهون﴾ بغير ألف، معناه: فرحون طربون، انتهى. وقرأ طلحة، والأعمش: ﴿فاكهين﴾ بالألف وبالياء، نصباً على الحال، و﴿فِي شُغُلٍ﴾ هو الخبر. وقرىء ﴿فكهين﴾ بغير ألف وبالياء. وقرىء ﴿فكُهون﴾ بضم الكاف يقال: رجل فكه وفكه.

ومعنى الآية: أي إن من يدخل الجنة يتمتع بنعيمها ولذاتها، ويكون بذلك في شغل عما سواه، إذ يرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فأنى له أن يفكر فيما سواه؟. وهو بذلك، فرح مستبشر، ضحوك السن هادىء النفس، لا يرى شيئاً يغمه، أو ينغص عليه حبوره وسروره.

ثم ذكر ما يكمل به تفكههم، ويزيد في سرورهم فقال: ﴿هُمْ...﴾ الخ، استئناف، مسوق لبيان كيفية شغلهم، وتفكههم، وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم لهم، فيما هم فيه من الشغل والفكاهة. و﴿هُمْ﴾ مبتدأ، والضمير لأصحاب الجنة. ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ عطف عليه. والمراد: نساؤهم اللاتي كن لهم في الدنيا، أو الحور العين أو أخلاؤهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾. ويجوز أن يكون الكل مراداً.

فقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ إشارة[2] إلى عدم الوحشة؛ لأن المنفرد يتوحش إذا لم يكن له جليس من معارفه، وإن كان في أقصى المراتب. والجاران في قوله: ﴿فِي

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) روح البيان.

ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ وهو خبر المبتدأ قُدّما عليه لرعاية الفواصل. ويجوز أن يكون ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ خبراً، ومتكئون على الأرائك خبراً ثانياً. والظلال: جمع ظل أو ظلة، وهو الستر الذي يسترك من الشمس. والأرائك: السرر في الحجال، كما سيأتي بسطه. والاتكاء: الاعتماد على الشيء؛ أي: معتمدون في ظلال على السرر في الحجال. والاتكاء على السرر دليل التنعيم والفراغ.

فإن قلت: كيف يكون أهل الجنة في ظلال، والظل إنما يكون حيث تكون الشمس، وهم لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً؟.

قلت: المراد بالظل هناك: ظل أشجار الجنة من نور العرش، لئلا يبهر أبصار أهل الجنة. فإنه أعظم وأقوى من نور الشمس، وقيل: من نور قناديل العرش. كذا في حواشي ابن الشيخ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ بكسر الظاء وبالألف، جمع ظل كذئب، وذئاب. وقرأ ابن مسعود، وعبيد بن عمير، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿في ظلل﴾ بضم الظاء من غير ألف، جمع ظلة. وعلى القراءتين فالمراد: الفرش والستور، التي تظلل كالخيام والحجال. وقرأ عبد الله ﴿متكئين﴾ بالنصب على الحال.

ومعنى الآية[2]: أي هم وأزواجهم في ظل لا يضحون لشمس، لأنه لا شمس فيها. وألذ شيء لدى العربي أن يرى مكاناً فيه ظل ظليل وأنهار جارية، وأشجار مورقة وهم فيها متكِئون على السرر التي عليها الحجال (الناموسيات). وهذا منتهى ما تسمو إليه النفوس من لذة، لدى من نزل عليه التنزيل.

وقال الإمام في سورة النساء: إن بلاد العرب كانت في غاية الحرارة، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة. وهذا المعنى جعلوه كناية عن الراحة. قال النبي ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض».

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وبعد أن ذكر ما لهم فيها من مجالس الأنس، ذكر ما يتمتعون به من مآكل، ومشارب، ولذات جسمانية وروحية. فقال: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأصحاب الجنة ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه. وهذه[1] الجملة، مسوقة لبيان ما يتمتعون به في الجنة، من المآكل والمشارب، ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحية، بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الأنس، ومحافل القدس تكميلاً لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة. والفاكهة: الثمار كلها. والمعنى: لهم في الجنة غاية مناهم فاكهة كثيرة، من كل نوع من أنواع الفواكه، عظيمة لا توصف جمالاً وبهجة، وكمالاً ولذةً، كما روي: أن الرمانة منها تشبع السكن، وهو أهل الدار. والتفاحة تنفتق عن حوراء عيناء. وكل ما هو من نعيم الجنة، فإنما يشارك نعيم الدنيا في الاسم دون الصفة. وفيه إشارة إلى أن لا جوع في الجنة؛ لأن التفكه لا يكون لدفع ألم الجوع.

وجملة قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾؛ أي: يطلبون. معطوفة على الجملة السابقة، وعدم الاكتفاء بعطف ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ لئلا يتوهم كون ﴿مَا﴾ عبارة عن توابع الفاكهة وتتماتها. و﴿مَا﴾ عبارة عن مدعو عظيم الشأن، معين، أو مبهم. و﴿يَدَّعُونَ﴾ أصله: يدتعيون على وزن يفتعلون، من الدعاء بمعنى الإتيان بالدعوى، لا من الادعاء بمعنى التمني، كما سيأتي.

والمعنى: ولهم ما يدعون الله سبحانه به، لأنفسهم من مدعو عظيم الشأن، أو كل ما يدعون به كائناً ما كان، من أسباب البهجة وموجبات السرور. قال ابن الشيخ؛ أي: ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب، كما قال الإمام: ليس معناه: أنهم يدعون لأنفسهم شيئاً، فيستجاب لهم بعد الطلب بل معناه: لهم ذلك، فلا حاجة إلى الدعاء، كما إذا سألك أحد شيئاً، فقلت: لك ذلك، وإن لم تطلبه. ويجيء الادعاء بمعنى: التمني من قولهم: ادع علي ما شئت، بمعنى: تمنه علي. فالمعنى عليه: ولهم ما يتمنونه. وقرىء[2] ﴿يَدْعُون﴾ بالتخفيف،

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

ومعناها واضح.

ومعنى الآية: أي لهم فيها من الفواكه ما لذ وطاب، مما تقربه أعينهم وتسر به نفوسهم، كما هو شأن المترفين المنعمين في الدنيا. ولهم فوق ذلك كل ما يتمنون، وتشتاق إليه نفوسهم.

ثم فسر ذلك الذي يدعون بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل من ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ كأنه قيل: ولهم سلام وتحية. يقال لهم: ﴿قَوْلًا﴾ كائناً ﴿مِّن﴾ جهة ﴿رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾؛ أي[1]: يسلم عليهم من جهته تعالى، بواسطة الملك أو بدونها، مبالغة في تعظيمهم. فـ﴿قولاً﴾ مصدر مؤكد لفعل هو صفة لـ﴿سَلَٰمٌ﴾، وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له. والأوجه: أن ينتصب ﴿قَوْلًا﴾ على الاختصاص؛ أي: بتقدير أعني، فإن المقام مقام المدح، من حيث إن هذا القول صادر من رب رحيم، فكان جديراً بأن يعظم أمره.

والمعنى: أي ذلك الذي يتمنونه هو التسليم من الله عليهم تعظيماً لهم. وهذا السلام يكون بوساطة الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، أو بدونها، مبالغةً في تعظيمهم وفي الحديث: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾، فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم، ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم» رواه البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ.

والسلام أمان من كل مكروه، ونيل لكل محبوب. وذلك منتهى درجات النعيم الروحي والجسماني، الذي تصبو إليه النفوس في دنياها وآخرتها. فكأن هذا إجمال لما تقدم من اللذات، التي فصلت فيما سلف.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن سلامه ـ تبارك وتعالى ـ كان قولاً

---

(١) روح البيان.

منه بلا واسطة، وأكده بقوله: ﴿رَّبٍّ﴾ ليعلم أنه ليس بسلام على لسان سفير، وقوله: ﴿رَّحِيمٍ﴾. فالرحمة في تلك الحالة، أن يرزقهم الرؤية حال ما يسلم عليهم، ليكمل لهم النعمة.

وفي «حقائق البقلي»: سلام الله أزلي إلى الأبد، غير منقطع عن عباده الصادقين في الدنيا والآخرة، لكن في الجنة يرفع عن آذانهم جميع الحجب، فيسمعون سلامه، وينظرون إلى وجهه كفاحاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَلَٰمٌ﴾ بالرفع على أنه بدل من ﴿مَا﴾ وخبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو سلام، كما سيأتي في مبحثه. وقرأ أبي، وعبد الله، وعيسى والقنوي ﴿سلاماً﴾ بالنصب على المصدر. وقال الزمخشري: نصب على الحال؛ أي: لهم مرادهم خالصاً. وقرأ محمد بن كعب القرظي (سِلْم) بكسر السين وسكون اللام، ومعناه: سلام. وقال أبو الفضل الرازي: مسالم لهم؛ أي: ذلك مسالم.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟﴾؛ أي: اعتزلوا، وانفردوا، وتميزوا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم. وهو يوم القيامة، والفصل والجزاء من المؤمنين الصالحين. وكونوا على حدة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: أيها المشركون؛ أي[2]: ويقال للمشركين: انفردوا اليوم أيها المجرمون عن المؤمنين، حين يسار بهم إلى الجنة. إذ لا دواء لألمكم، ولا شفاء لسقمكم.

وقال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين، إلا أصحاب الأهواء، فإنهم يكونون مع المجرمين. وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة.

وقيل: إن لكل كافر في النار بيتاً، فيدخل ذلك البيت، ويردم بابه، فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى. وهو على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

بالإخوان، وعذاب الفرقة عن القرناء، والأصحاب من أسوأ العذاب وأشد العقاب، قاله قتادة. فعلى هذا القول يمتاز بعضهم عن بعض. ودل التعبير[1] بالامتياز، على أنه حين يحشر الناس يختلط المؤمن والكافر، والمخلص والمنافق. ثم يمتاز أحد الفريقين عن الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾. وهو عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن أولئك ووصف ثوابهم. وكان تغيير الأسلوب لتخييل كمال التباين بين الفريقين، وحاليهما. ويجوز أن يكون معطوفاً على مضمر، ينساق إليه حكاية حال أهل الجنة، كأنه قيل بعد بيان كونهم في شغل عظيم الشأن، وفوزهم بنعيم مقيم، يقصر عنه البيان، فليقروا بذلك عينا، وامتازوا عنهم اليوم أيها المجرمون إلى مصيركم، فكونوا في السعير، وفنون عذابها ولهبها بدل الجنة لهم، وألوان نعمها وطربها.

والمعنى[2]: فارقوا المؤمنين أيها المجرمون، وادخلوا مساكنكم من النار. فلم يبق لكم اجتماع بالمؤمنين أبداً. ونحو الآية قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾، وقوله: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾.

ولما أمروا بالامتياز، وشخصت منهم الأبصار، وكلحت الوجوه، وتنكست الرؤوس، قال سبحانه موبخاً لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: ألم أوصكم ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بما نصبت من الأدلة، ومنحت من العقول، وبعثت من الرسل، وأنزلت من الكتب، بياناً للطريق الموصل إلى النجاة بـ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾؛ أي: بأن تتركوا طاعة الشيطان، فيما يوسوس به إليكم من معصيتي، ومخالفة أمري. وهذا من جملة[3] ما يقال لهم يوم القيامة، بطريق التقريع والتوبيخ، والإلزام والتبكيت،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

بين الأمر بالامتياز، وبين الأمر بدخول جهنم بقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ الخ. والعهد: الوصية، والتقديم بأمر فيه خير ومنفعة. والمراد ههنا: ما كلفهم الله تعالى به، على ألسنة الرسل، من الأوامر والنواهي، التي من جملتها، قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وغيرها من الآيات الكريمة، الواردة في هذا المعنى. والمراد ببني آدم: المجرمون. وقيل: المراد بالعهد: الميثاق المأخوذ عليهم، حين أخرجوا من ظهر آدم عليه السلام.

و﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ إما مفسرة للعهد[1]، الذي فيه معنى القول بالأمر والنهي، أو مصدرية حذف منها الجار؛ أي: ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان. والمراد بعبادة الشيطان. عبادة غير الله؛ لأن الشيطان لا يعبده أحد، ولم يرد عن أحد أنه عبد الشيطان، إلا أنه عبر عن عبادة غير الله بعبادة الشيطان، لوقوعها بأمر الشيطان، وتزيينه، والانقياد فيما سوله، ودعا إليه بوسوسته. فسمي إطاعة الشيطان، والانقياد له عبادة له، تشبيهاً لها بالعبادة، من حيث إن كل واحد منهما ينبىء عن التعظيم والإجلال، ولزيادة التحذير والتنفير عنها، ولوقوعها في مقابلة عبادته تعالى، قال ابن عباس: من أطاع شيئاً فقد عبده. دل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَعْهَدْ﴾ بفتح الهمزة والهاء. وقرأ طلحة، والهذيل بن شرحبيل الكوفي بكسر الهمزة، قاله «صاحب اللوامح»، وقال: لغة تميم، وهذا الكسر في النون والتاء أكثر من بين حروف المضارعة، يعني: نعهد وتعهد. وقال ابن عطية: وقرأ الهذيل بن وثاب ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾ بكسر الميم والهمزة، وفتح الهاء. وهي على لغة من كسر أول المضارع، سوى الياء. وروي عن ابن وثاب ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾ بكسر الهاء، يقال: عهد يعهد، انتهى.

ثم علل النهي عن عبادة الشيطان، وقبول وسوسته بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

لأن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: عدو ظاهر العداوة لكم، يريد أن يصدكم عما جبلتم عليه من الفطرة، وكلفتم به من الخدمة. ووجه عداوة إبليس لبني آدم: أنه تعالى، لما أكرم آدم عليه السلام.. عاداه إبليس حسداً. والعاقل لا يقبل من عدوه، وإن كان ما يلقيه إليه خيراً إذ لا أمن من مكره. فإن ضربة الناصح، خير من تحية العدو.

قال بعضهم[١]: اعلم أن عداوة إبليس لبني آدم، أشد من معاداته لأبيهم آدم عليه السلام. وذلك أن بني آدم، خلقوا من ماء والماء منافر للنار، وأما آدم فجمع بينه وبين إبليس اليبس الذي في التراب، فبين التراب والنار جامع، ولهذا صدّقه، لما أقسم له بالله أنه لناصح، وما صدقه الأبناء، لكونه لهم ضداً من جميع الوجوه. فبهذا كانت عداوة الأبناء، أشد من عداوة الأب. ولما كان العدو محجوباً عن إدراك الأبصار، جعل الله لنا علامات في القلب، من طريق الشرع، نعرفه بها، تقوم لنا مقام البصر، فنتحفظ بتلك العلامة من إلقائه ووسوسته، وإعانة الله لنا عليه بكلمة الاستعاذة.

وفي «التأويلات النجمية»: في الآية[٢] إشارة إلى كمال رأفته تعالى، وغاية مكرمته في حق بني آدم. إذ يعاتبهم معاتبة الحبيب للحبيب، ومناصحة الصديق للصديق، وأنه تعالى يكرمهم ويجلهم عن أن يعبدوا الشيطان لكمال رتبتهم، واختصاص قربتهم بالحضرة، وغاية ذلة الشيطان، وطرده ولعنه من الحضرة. وسماه عدواً لهم وله، وسمى بني آدم الأولياء والأحباب. وخاطب المجرمين منهم كالمعتذر الناصح لهم بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ألم أنصح لكم، ألم أخبركم عن خيانة الشيطان وعداوته لكم، وأنكم أعز من أن تعبدوا مثله ملعوناً مهيناً.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحدي، وأطيعوني فيما أمرتكم به، وانتهوا عما نهيتكم عنه؛ لأن مثلكم يستحق لعبادة مثلي، فإني أنا العزيز الغفور، وإني خلقتكم

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

لعبادتي، وخلقت المخلوقات لمنافعكم، وعززتكم وأكرمتكم، بأن أسجدت لكم ملائكتي المقربين، وعبادي المكرمين، وهو عطف على ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا﴾ و﴿أَنِ﴾ فيه كما هي فيه؛ أي: وحدوني بالعبادة، ولا تشركوا بها أحداً. وتقديم النهي على الأمر، لما أن حق التخلية التقدم على التحلية، وليتصل به قوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ التوحيد الذي أمرتكم به. فإنه إشارة إلى عبادته تعالى، التي هي عبارة عن التوحيد والإسلام. ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قويم لا اعوجاج فيه، موصل إلى النجاة والجنة، لكنكم سلكتم غيره، فوقعتم في مزالق الضلال، وترديتم في مهاوي الردى. والتنكير فيه للتفخيم، كما سيأتي. وفي قوله: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ﴾ إشارة إلى أن الإنسان مار في الدنيا لا مقيم فيها.

وبعد أن نبههم إلى أنهم نقضوا العهد، وبّخهم على عدم اتعاظهم بغيرهم، ممن أوقعهم الشيطان في المهالك، وكانت عاقبتهم، ما يرون من سوء المتقلب في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾ جواب قسم محذوف، والخطاب لبني آدم. وفي «الإرشاد»: الجملة مستأنفة، مسوقة لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع، ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط، بل بعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات، النازلة على الأمم الخالية، بسبب طاعتهم للشيطان. والخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار مكة، خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم.

أي: وعزتي وجلالي لقد صد الشيطان منكم يا بني آدم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾؛ أي: خلقاً كثيراً عن طاعتي، وإفرادي بالألوهية، فاتخذوا من دوني آلهة يعبدونها. وقرأ نافع، وعاصم[1]: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام. وهي قراءة أبي حيوة، وسهيل، وأبي جعفر، وشيبة، وأبي رجاء، والحسن بخلاف عنه. وقرأ العربيان ـ أبو عمرو وابن عامر ـ والهذيل بن شرحبيل: بضم الجيم وإسكان الباء. وباقي السبعة: بضمها وتخفيف اللام. والحسن بن أبي

---

(١) البحر المحيط.

إسحاق، والزهري، وابن هرمز، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وحفص بن حميد بضمتين وتشديد. والأشهب العقيلي، واليماني وحماد بن مسلمة عن عاصم: بكسر الجيم وسكون الباء. والأعمش ﴿جبلاً﴾ بكسرتين وتخفيف اللام. وقرىء ﴿جبلاً﴾ بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام، جمع جبلة نحو: فطرة وفطر. فهذه سبع لغات قرىء بها. وأبينها القراءة الأولى، والدليل على ذلك، أنهم قد قرؤوا جميعاً ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، فيكون جبلاً جمع جبلة، واشتقاق الكل من جبل الله الخلق؛ أي: خلقهم. وقرأ علي بن أبي طالب، وبعض الخراسانيين: ﴿جيلاً﴾ بكسر الجيم بعدها ياء آخر الحروف، واحد الأجيال. والجبل بالباء الموحدة: الأمة العظيمة، وقال الضحاك: أقله عشرة آلاف. ولما تصور[1] من الجبل العظم، قيل للجماعة العظيمة، جبل تشبيهاً لها بالجبل في العظم. وإسناد الإضلال إلى الشيطان مجاز عقلي، علاقته السببية.

والمعنى: والله لقد أضل الشيطان منكم خلقاً كثيراً، يعني: صار سبباً لضلالهم عن ذلك الصراط المستقيم، الذي أمرتكم بالثبات عليه. فأصابهم لأجل ذلك، ما أصابهم من العقوبات الهائلة، التي ملأت الآفاق أخبارها، وبقيت مدى الدهر آثارها.

وقال بعضهم: وكيف تعبدون الشيطان، وتنقادون لأمره، مع أنه قد أضل منكم يا بني آدم، جماعة متعددة من بني نوعكم، فانحرفوا بإضلاله عن سواء السبيل، فحرموا من الجنة الموعودة لهم.

فائدة[2]: واعلم: أنه إذا جاءك شخص، يأمرك بشيء.. فانظر، إما أن يكون ذلك موافقاً لأمر الله أو لا، فإن لم يكن موافقاً له فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به. فإن أطعته فقد عبدت الشيطان. وإن دعتك نفسك إلى فعل شيء، فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أولا، فإن لم يكن مأذوناً فيه، فنفسك هي الشيطان، أو معها الشيطان يدعوك، فإن اتبعته فقد عبدته. ثم إن

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

الشيطان يأمر أولاً بمخالفة الله ظاهراً، فمن أطاعه فقد عبده، ومن لم يطعه فيقول له: اعبد الله كي لا تهان، وليرتفع شأنك عند الناس، وينتفع بك إخوانك. فإن أجاب إليه فقد عبده.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ﴾ للاستفهام التوبيخي[1]، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون، أنها لضلالهم وطاعتهم إبليس، أو فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً، حتى ترتدعوا عما كانوا عليه، كيلا يحيق بكم العقاب. وقرأ الجمهور: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب. وقرأ طلحة، وعيسى بياء الغيبة عائداً على جبل. وفي «كشف الأسرار»: هو استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل، مع أنه نور يستضاء به.

ثم اعلم[2]: أن الجاهل الأحمق، والضال المطلق في يد الشيطان، يقوده حيث يشاء، ولو علم حقيقة الحال، وعقل أن الله الملك المتعال، واهتدى إلى طريق التوحيد، الطاعة، ولحفظه الله من تلك الساعة. فإن التوحيد حصنه الحصين، ومن دخل فيه أمن من مكر العدو المهين، ومن خرج عنه طالباً للنجاة، أدركه الهلاك ومات في يد الآفات، ومن أهمل نفسه فلم يتحرك لشيء، كان كمجنون لا يعرف شمساً من فيء. فنسأل الله الاشتغال بطاعته واستيعاب الأوقات بعبادته، وطرد الشيطان بأنوار الخدمة وقهر النفس بأنواع الهمة.

وبعد أن أنبوا ووبخوا بما سلف، خوطبوا بما يزيدهم حسرةً وألماً، فقيل لهم من جهة الملائكة: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ النار المسعرة هي ﴿جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُوعَدُونَ﴾ بها على ألسنة الرسل والمبلغين عنهم. إذ أنتم اتبعتم وساوس الشيطان، وعصيتم الرحمٰن، وعبدتم من دونه الأصنام والأوثان، واجترحتم الفسوق والعصيان.

ثم أمرهم أمر إهانة، وتحقير لهم، بقوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: ادخلوا في

---

(1) روح البيان.

(2) روح البيان.

هذا اليوم، الحاضر نار جهنم، وقاسوا حرها وفنون عذابها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم المستمر في الدنيا، وجحودكم بها، وتكذيبكم إياها، بعد أن نبهتم فلم تتنبهوا، وأوقظتم فلم تستيقظوا. وفي ذكر اليوم، ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم. يعني: أن أيام لذاتكم قد مضت، ومن هذا الوقت واليوم وقت عذابكم.

وخلاصة ذلك[1]: أنه قد ذكر ما يوجب الحزن والأسى من وجوه ثلاثة:

١ ـ أنه أمرهم أمر تنكيل وإهانة بقوله: ﴿اصْلَوْهَا﴾ نحو قوله لفرعون: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

٢ ـ أنه ذكر لفظ اليوم، الذي يدل على أن العذاب حاضر، وأن لذاتهم قد مضت، وبقي العذاب اليوم.

٣ ـ أن قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يومىء إلى أن هناك نعمة، قد كانت، فكفروا بها، وحياء الكفور من المنعم أشد ألماً، وأعظم مضاضةً، كما قيل:

أَلَيْسَ بِكَافٍ لِذِيْ هِمَّةٍ ... حَيَاءُ الْمُسِيْءِ مِنَ الْمُحْسِنِ

ثم بين أنهم في هذا اليوم، لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم. فقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: ففي هذا اليوم يعني: يوم القيامة نمنع أفواههم من النطق، ونفعل بها ما لا يمكنهم معه أن يتكلموا، فتصير أفواههم كأنها مختومة، فتعترف جوارحهم بما صدر منها من الذنوب، كما قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ باستنطاقنا ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الذنوب والمعاصي والمراد[2]: جميع الجوارح، لا أن كل عضو يعترف بما صدر منه فقط. قال بعضهم: لما قيل لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ جحدوا، وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، وما عبدنا من دونك من شيء، وما أطعنا الشيطان في شيء من المنكرات. فيُختم على أفواههم وتعترف جوارحهم بمعاصيهم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والختم لازم للكفار أبداً. أما في الدنيا فعلى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وأما في الآخرة، فعلى أفواههم، في الوقت الذي كان الختم على قلوبهم، كان قولهم بأفواههم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ فلما خُتم على أفواههم أيضاً، لزم أن يكون قولهم بأعضائهم لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء، فإذا لم يبق القلب واللسان تعين الجوارح والأركان. وفي الكلام، التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم.

وقرىء[1] ﴿اليوم يُختم على قلوبهم﴾ مبنياً للمفعول، والنائب الجار والمجرور بعده. وقُرىء ﴿وتتكلم أيديهم﴾ بتاءين. وقرأ الجمهور ﴿تكلمنا﴾ و﴿تشهد﴾. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿ولِتكلمنا ولِتشهد﴾ بلام كي. وقُرىء ﴿ولْتكلمنا أيديهم ولْتشهد أرجلهم﴾ بلام الأمر، والجزم على أن الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

وقيل: سبب الختم على أفواههم، ليعرفهم أهل الموقف. وقيل: خُتم على أفواههم، لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق، لخروجه مخرج الإعجاز. وقيل: ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في معاصي الله، صارت شهوداً عليهم، فلا ينبغي لأحد أن يلتفت إلى ما سوى الله تعالى، ويصحب أحداً غير الله لئلا يفتضح ثمة بسبب صحبته. ولقد أجاد من قال:

كُنْ مِنَ ٱلْخَلْقِ جَانِبَاً ... وَٱرْضَ بِٱللَّهِ صَاحِبَا
قَلِّبِ ٱلْخَلْقَ كَيْفَ شِئْـ ... ـتَ تَجِدْهُ عَقَارِبَا

وجعل[2] ما تنطق به الأيدي كلاماً وإقراراً، لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي. وجعل نُطق الأرجل شهادة؛ لأنها حاضرة عند كل معصية، وكلام الفاعل إقرار، وكلام الحاضر شهادة. وهذا باعتبار الغالب، وإلا فالأرجل قد

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

تكون مباشرة للمعصية، كما تكون الأيدي مباشرةً لها.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الغالب على الأفواه الكذب، كما قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. والغالب على الأعضاء الصدق. ويوم القيامة، يوم يسأل الصادقين عن صدقهم، فلا يسأل الأفواه، فإنها كثيرة الكذب، ويسأل الأعضاء، فإنها كثيرة الصدق، فتشهد بالحق. أما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة لهم، وأما العصاة من المؤمنين الموحدين، فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان. قيل[1]: أول عظم من الإنسان، ينطق يوم يُختم على الأفواه، فخذه من رجله اليسرى وكفها، كما جاء في الحديث.

ومعنى الآية: أي ففي هذا اليوم، يُنكر الكافرون ما اجترحوا في الدنيا من الشرور والآثام، ويحلفون أنهم ما فعلوا. كما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فيختم على أفواههم، فلا تنطق ببنت شفة، ويستنطق جوارحهم، بما اجترحت من الفسوق والعصيان، الذي لم يتوبوا عنه.

ثم بين سبحانه، أنه قادر على إذهاب الأبصار، كما أنه قادر على إذهاب البصائر، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ أن نطمس على أعينهم، ونمحو نور أبصارهم. و﴿لو﴾ للمضي إن دخل على المضارع، ولذا لا يجزمه؛ أي: ولو أردنا عقوبة المشركين من أهل مكة في الدنيا.. ﴿لَطَمَسْنَا﴾؛ أي: لجعلنا الطمس والمحو ﴿عَلَىٰ﴾ مواضع ﴿أَعْيُنِهِمْ﴾ ولضربنا عليهم، وأزلنا أثرها، بحيث لا يبقى لها أثر، ولا يبدو لها شق ولا جفن، وتصير مطموسة ممسوحة، كسائر أعضاهم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ معطوف على ﴿طمسنا﴾؛ أي: فبادروا إلى الطريق الواسع الذي اعتادوا سلوكه فراراً من الطمس والعقوبة ليجوزوه، ويمضوا فيه. ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: فكيف يبصرون الطريق، ويُحسنون سلوكه ولا أبصار لهم؟! أي: لا يُبصرون لأن ﴿أنى﴾ بمعنى كيف، وكيف هنا إنكار فتفيد النفي. والمراد[2]: إن في قدرتنا

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.

إزالة نعمة البصر عنهم، فيصيروا عمياً، لا يقدرون الى التردد في الطريق لمصالحهم، ولكن أبقينا عليهم نعمة البصر، فضلاً وكرماً، فحقهم أن يشكروا عليها، ولا يكفروا. وهذا تهديد لأهل مكة بالطمس، فإن الله قادر على ذلك، كما فعل بقوم لوط حين كذبوه، وراودوه عن ضيفه. وإجمال المراد[1]: ولو شئنا لأذهبنا أحداقهم، فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق، الذي اعتادوا سلوكه.. لم يستطيعوا ذلك. وفي «الخازن». والمعنى[2]: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، وتركناهم عمياً يترددون، فكيف يبصرون الطريق حينئذ. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: يعني: لو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم، فأعميناهم عن غيّهم، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم، فأنى يبصرون، ولم نفعل ذلك بهم، انتهى.

وقرأ الجمهور: ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ فعلاً ماضياً، معطوفاً على ﴿لَطَمَسْنَا﴾. وهو على الفرض والتقدير. وقرأ عيسى بن عمر ﴿فاستبقوا﴾ على الأمر. وهو على إضمار القول؛ أي: فيقال لهم: استبقوا الصراط. وهذا على سبيل التعجيز. إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين.

ثم زاد في تهديدهم وتوبيخهم، وبيان أنه قادر على منعهم من الحركة، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾؛ أي: ولو أردنا أن نمسخهم، ونحول صورهم الأصلية، ونسقطهم[3] عن رتبة التكليف ودرجة الاعتبار ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ لغيرنا وحولنا صورهم، بأن جعلناها قردةً وخنازير، كما فعلنا بقوم داود عليه السلام، أو بأن جعلناهم حجارة ومدرة. وهذا أشد من الأول وأقبح، لأن الأول خروج عن رتبة الإنسانية إلى الحيوانية، وهذا عن الحيوانية إلى الجمادية، التي ليس لها شعور أصلاً وقطعاً ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾؛ أي: في مكانهم ومنزلهم الذي هم فيه قعود. وقال بعضهم: معنى ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾؛ أي: لأقعدناهم على أرجلهم

---

(1) المراغي.
(2) الخازن.
(3) روح البيان.

وأزمناهم، انتهى. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾؛ أي: فلم يقدروا ﴿مُضِيًّا﴾؛ أي: ذهاباً وإقبالاً إلى جانب أمامهم ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: ولم يقدروا رجوعاً وإدباراً إلى جهة خلفهم. فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة. قال الحسن: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يمضوا أمامهم، ولا يرجعوا وراءهم وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر. وقيل: المعنى: لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم. وقيل: لمسخناهم في المكان، الذي فعلوا فيه المعصية.

والمعنى[1]: أي ولو نشاء لمسخناهم مسخاً يحل بهم في منازلهم، لا يقدرون أن يفروا منه بإقبال ولا إدبار.

وحاصل معنى الآيتين[2]: ولو نشاء عقوبتهم، بما ذكر من الطمس والمسخ، جرياً على موجب جناياتهم، المستدعية لها لفعلنا، ولكنا لم نشأها جرياً على سنن الرحمة، والحكمة، الداعيتين إلى إمهالهم زماناً إلى أن يتوبوا، ويؤمنوا، ويشكروا النعمة، أو إلى أن يتولد منهم من يتصف بذلك.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ بالإفراد. وقرأ الحسن، والسلمي، وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم ﴿مكاناتهم﴾ بالجمع. وقرأ الجمهور: ﴿مُضِيًّا﴾ بضم الميم. وقرأ أبو حيوة، وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي: بكسرها إتباعاً لحركة الضاد. وقُرىء ﴿مضياً﴾ بفتحها، فيكون من المصادر التي جاءت على فعيل، كالرسيم والوجيف.

ثم شرع يقطع معذرةً لهم، ربما احتجوا بها. وهي قولهم: أنهم لو عمروا لأحسنوا العمل. فقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾؛ أي: ومن نطل عمره في الدنيا ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ ونقلبه ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ والشكل والصورة؛ أي: نغير خلقه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً، من القوة والطراوة، ونرده إلى أرذل العمر، شبه الصبي في أول الخلق. والمعنى: نقلبه في شكله، ونجعله على عكس ما خلقناه أولاً،

---

(١) الفتوحات.
(٢) أبو السعود.
(٣) البحر المحيط والشوكاني.

فلا يزال يتزايد ضعفه، وتتناقص قوته، وتنتقض بنيته، ويتغير شكله وصورته، حتى يعود على حالة شبيهة بحال الصبي، في ضعف الجسد، وقلة العقل، والخلو عن الفهم والإدراك. وفي الحديث: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك». وفي هذا كله، دليل على أن من فعل هذه الأفاعيل، قادر على أن يطمس، ويفعل بهم ما أراد. وقرأ الجمهور: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ مشدداً؛ أي: بضم النون الأولى، وفتح الثانية، وكسر الكاف مشددة. وقرأ عاصم، وحمزة مخففاً؛ أي: بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الكاف مخففة.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أيرون ذلك التنكيس، فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ فإنه مشتمل عليهما وزيادة، غير أنه على تدرج، وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما.

وقرأ نافع، وابن ذكوان، وأبو عمرو في رواية عباس[1]: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب. وباقي السبعة بياء الغيبة؛ أي: أفلا يعقلون، أنهم كلما تقدمت بهم السن، ضعفوا، وعجزوا عن العمل، فلو عُمروا أكثر مما عمروا، ما ازدادوا إلا ضعفاً، فلا يستطيعون أن يُصلحوا ما أفسدوا في شبابهم. وقد عمرناهم مقدار ما يتمكنون من البحث، والتفكير، والتروي في عواقب الأمور ومصايرها، فلم يفعلوا وجاءتهم النذر فلم يهتدوا فمهما، طالت أعمارهم فلن يفيدهم ذلك، ولن يُصلح من حالهم قليلاً ولا كثيراً. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾.

ولما قال كفار مكة: إن القرآن شعر، وإن محمداً شاعر.. رد الله سبحانه

---

(١) البحر المحيط.

عليهم، بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾؛ أي: وما علمنا محمداً ﷺ ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ وليس القرآن بشعر. وهذا رد وإبطال لما كانوا يقولونه في حقه ﷺ، من أنه شاعر، وما يقوله شعر.

والظاهر في الرد أن يقال[1]: إنه ليس بشاعر، وأن ما يتلوه عليهم ليس بشعر، إلا أن عدم كونه شاعراً، لما كان ملزوماً لعدم كون معلمه، علمه الشعر، نُفي اللازم وأريد نفي الملزوم بطريق الكناية، التي هي أبلغ من التصريح. والشعر لغة: العلم الدقيق، واصطلاحاً: كلام مقفى، موزون على سبيل القصد والاختيار بأجزاء تفاعيل بحور العروضيين الستة عشر، فخرج بالقصد والاختيار ما كان وزنه اتفاقياً، كآيات شريفة، اتفق جريان الوزن فيها، نحو قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. وكلمات نبوية، جاء الوزن فيها اتفاقاً، من غير قصد إليه وعزم عليه، نحو قوله ﷺ حين عثر في بعض الغزوات، فأصاب إصبعه حجر فدميت:

هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دُمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ مَا لَقِيتِ

وقوله يوم حنين حين نزل، ودعا، واستنصر أو يوم فتح مكة:

أَنَا ٱلنَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ... أَنَا ٱبْنُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبْ

وقوله يوم الخندق:

بِٱسْمِ ٱلإِلٰهِ وَبِهِ بَدَيْنَا ... وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقَيْنَا

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾؛ أي: وما كان الشعر يليق به ﷺ ولا يصلح له. وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى، لمراعاة اللفظ والوزن. فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ. لأنه يقصد لفظاً يستقيم به وزن الشعر أو قافيته، فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ. ولو صدر من النبي ﷺ كلام موزون مقفى، كما ذكر آنفاً لا يكون شعراً لعدم قصده اللفظ، وإنما قصد المعنى، فجاء على تلك الألفاظ.

---

(١) روح البيان.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾؛ أي: وما علمنا محمداً ﷺ الشعر، بتعليم القرآن على معنى: أن القرآن ليس بشعر. فإن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقال مزخرف مصنوع، منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية. فأين ذلك من التنزيل الجليل، الخطر، المنزه عن مماثلة كلام البشر، المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة. ومن أين اشتبه عليهم الشؤون، واختلط بهم الظنون، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

وفي الآية إشارة إلى أن النبي ﷺ معلم من عند الله تعالى؛ لأنه سبحانه علمه علوم الأولين والآخرين، وما علمه الشعر؛ لأن الشعر قرآن إبليس وكلامه؛ لأنه قال: رب اجعل لي قرآناً، قال تعالى قرأنك الشعر. واعلم: أن الشعر محل للإجمال واللغز والتورية؛ أي: وما رمزنا لمحمد ﷺ شيئاً، ولا ألغزنا، ولا خاطبناه بشيءٍ، ونحن نريد شيئاً، ولا أجملنا له الخطاب، حيث لم يفهم، انتهى.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ إلى أن كل أقوال، وأعمال، وأحوال تجري على العباد في الظاهر والباطن، كلها تجري بتعليم الحق تعالى، حتى الحرف والصنائع. وذلك سر قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾. وتعليمه الصنائع لعباده على ضربين: بواسطة وبغير واسطة. وأما بالواسطة: فبتعليم بعضهم بعضاً، وأما بغير الواسطة، فكما علم داود عليه السلام، صنعة اللبوس. وكل حرفة وصنعة يعلمها الإنسان، من قريحته، بغير تعليم أحد، فهي من هذا القبيل، انتهى.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾؛ أي: وما يصح لمحمد الشعر، ولا يتسهل ولا يتسخر، ولا يتأتى له لو طلبه؛ أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر، لم يتأت له، ولم يكن لسانه يجري به إلا منكسراً عن وزنه، بتقديم وتأخير أو نحو ذلك، كما جعلناه أمياً لا يهتدي للخط، ولا يحسنه، ولا يحسن قراءة ما كتبه غيره، لتكون الحجة أثبت، وشبهة المرتابين في حقية رسالته أدحض. فإنه لو كان

شاعراً لدخلت الشبهة على كثير من الناس، في أن ما جاء به بقوله من عند نفسه؛ لأنه شاعر صناعته نظم الكلام.

﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: إلا تذكير، وعظة، وإرشاد من الله سبحانه وتعالى، للإنس والجن. كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَقُرْآنٌ﴾؛ أي: كتاب سماوي، جامع للأحكام ﴿مُبِينٌ﴾؛ أي: بين كونه كذلك، وأنه ليس من كلام البشر، أو فارق بين الحق والباطل، يُقرأ في المحاريب، ويُتلى في المعابد، ويُنال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين. فكم بينه وبين ما قالوا. فعطف[1] القرآن على الذكر من عطف الشيء على أحد أوصافه. فإن القرآن ليس مجرد الوعظ، بل هو مشتمل على المواعظ والأحكام ونحوها، فلا تكرار.

﴿لِيُنْذِرَ﴾؛ أي: القرآن أو محمد ﷺ، كما يدل عليه قراءة من قرأ بتاء الخطاب. وهو متعلق بقوله: ﴿وَقُرْآنٌ﴾ أو بمحذوف دل عليه قوله: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: إلا ذكر أُنزل لينذر، ويخوف القرآن أو محمد به ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ من الثقلين؛ أي: عاقلاً فهيماً يميز المصلحة من المفسدة، ويستخدم قلبه فيما خُلق له، ولا يضيعه فيما لا يعنيه. فإن الغافل بمنزلة الميت. وجعل العقل والفهم للقلب، بمنزلة الحياة للبدن، من حيث إن منافع القلب منوطة بالعقل، كما أن منافع البدن منوطة بالحياة.

وفيه إشارة، إلى أن كل قلب، تكون حياته بنور الله وروح منه، يفيده الإنذار، ويتأثر به. وأمارة تأثره الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة والمولى. وقال بعضهم: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: مؤمناً في علم الله. فإن الحياة الأبدية بالإيمان، يعني: أن إيمان من كان مؤمناً في علم الله، بمنزلة الحياة للبدن. لكونه سبباً للحياة الأبدية.

وتخصيص الإنذار بمن كان حي القلب، مع أنه عام له، ولمن كان ميت

---

(١) روح البيان.

القلب؛ لأنه المنتفع به. ثم الإنذار صفة النبي ﷺ في الحقيقة. وقرأ[1] نافع، وابن عامر ﴿لتنذر﴾ بتاء الخطاب للرسول ﷺ. وقرأ باقي السبعة: بياء الغيبة، فاحتمل أن يعود على الرسول، واحتمل أن يعود على القرآن.

والمعنى[2]: أي وما القرآن إلا مواعظ من ربنا، يُرشد بها عباده إلى ما فيه نفعهم وهدايتهم في معاشهم ومعادهم، نزل من الملأ الأعلى وليس من كلام البشر. فقد تحدى المخالفين أن يأتوا بمثله؛ فما استطاعوا، فلجؤوا إلى السيف والسنان، وتركوا المقاولة بالحجة والبرهان. ثم ذكر من ينتفع به فقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: لينتفع بنذارته من كان حي القلب، مستنير البصيرة، يعرف مواقع الهدى والرشاد، فيسترشد بهديه، وليس له من صوارف الهوى ما يصده عن اتباع الحق، ولا من نوازع الاستكبار والإعراض، ما يكون حائلاً بينه وبين الهدى. فهو يتواثب على الإقرار بالحق، إذا لاح له بريق من نوره، فتمتلىء جوانبه إشراقاً وضياءً، ويخر له مذعناً مستسلماً. وكأن طائفاً من السماء نزل عليه فأثلج صدره، وألان قلبه، فاطمأن له وركن إليه. وذلك من رزقه الله التوفيق والهداية، وكتب له الفوز والسعادة.

وبعدئذٍ بيَّن عاقبة من أعرض عنه، فقال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: ويجب القضاء من الله تعالى، وتجب كلمة العذاب. وهي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: على المصرين على الكفر به تعالى، الذين هم كأنهم أموات، لخلوهم من النفوس الحساسة اليقظة، التي دأبها اتباع الحق ومخالفة الهوى؛ لأنه إذا انتفت الريبة إلا المعاندة فيحق القول عليهم. وفي إيرادهم في مقابلة ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة، وأحكامها، التي هي المعرفة، أموات في الحقيقة، كالجنين ما لم ينفخ فيه الروح. فالمعرفة تؤدي إلى الإيمان والإسلام والإحسان التي لا يموت أهلها، بل ينتقل من مكان إلى مكان.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ للاستفهام التقريري للتعجيب خلافاً لما قاله

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بعضهم هنا، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو عاطفة على ذلك المقدر، والضمير للمشركين من أهل مكة، والتقدير: ألم يتفكر أهل مكة ولم يعلموا علماً يقينياً هو في حكم المعاينة؛ أي: قد رأوا وعلموا (أنا) نحن بمقتضى جودنا وكرمنا ﴿خَلَقْنَا﴾ وأوجدنا ﴿لَهُم﴾؛ أي: لأجلهم وانتفاعهم ﴿مما عملت﴾ه ﴿أَيْدِينَآ﴾؛ أي: مما تولينا إحداثه بيدنا، لم يشاركنا فيه غيرنا، بمعاونة وتسبب؛ أي: مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة. وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص والتفرد بالخلق، كما يقول الواحد منا: عملته بيدي للدلالة على تفرده بعمله. وقال في «الأسئلة المقحمة»: الأيدي هنا صلة، وهو كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، ومذهب العرب الكناية باليد، والوجه عن الجملة، انتهى. والجمع في الأيدي للتعظيم، كأنه قال: مما عملته يدنا. واليد صفة ثابتة لله سبحانه وتعالى، نثبته ونعتقده، لا نمثله ولا نكيفه. و﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، وحذف العائد لطول الصلة. ويجوز أن تكون مصدرية. ﴿أَنْعَٰمًا﴾ مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾، أخّره جمعاً بينه وبين أحكامه، المتفرعة عليه بقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا﴾ إلخ. جمع نعم. وهي الماشية الراعية. وهي: الإبل والبقر والغنم؛ أي: الضأن والمعز مما في سيره نعومة؛ أي: لين، ولا يدخل فهيا الخيل، والبغال، والحمر لشدة وطئها الأرض. وخُص بالذكر من بين سائر ما خلق الله من المعادن، والنبات، والحيوان غير الأنعام لما فيها من بدائع الفطرة، كما في الإبل، وكثرة المنافع كما في البقر والغنم.

والفاء في قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ للتفريع، و(الفاء) التفريعية هي التي كان ما قبلها علة لما بعدها، عكس التعليلية، أي: فلأجل خلقنا إياها لمنافعهم، هم لتلك الأنعام مالكون ملك التصرف بتمليكنا إياهم، وهم متصرفون فيها بالاستقلال، يختصون بالانتفاع بها، لا يزاحمهم في ذلك غيرهم.

ومعنى الآية[1]: أي أولم يشاهد هؤلاء المشركون بالله الأصنام والأوثان أنا

---

(١) المراغي.

خلقنا لهم بقدرتنا وإرادتنا بلا معين ولا ظهير أنعاماً من الإبل والبقر والغنم، يصرفونها كما شاؤوا بالقهر والغلبة. فهي ذليلة منقادة لهم. فالجارية الصغيرة إن شاءت أناخت البازل الكبير، وإن شاءت ساقته وصرفته كما تريد. قال العباس بن مرداس:

وَتَضْرِبُهُ ٱلْوَلِيْدَةُ بِٱلْهَرَاوِيْ فَلاَ غَيْرٌ لَدَيْهِ وَلاَ نَكِيْرُ

ثم ذكر منافعها، فقال: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾؛ أي[1]: وصيرنا تلك الأنعام ذليلة منقادة ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين وغيرهم، بحيث لا تستعصي عليهم في شيء مما يريدون بها، من الركوب والسوق إلى ما شاؤوا، والذبح مع كمال قوتها وقدرتها. فهو نعمة من النعم الظاهرة، ولهذا ألزم الله الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ لتفريع أحكام التذليل عليه، و﴿مِنْ﴾ تبعيضية، والركوب - بفتح الراء - بمعنى: المركوب كالحلوب بمعنى: المحلوب؛ أي: فلأجل تذليلنا إياها لهم، كان بعض منها مركوبهم؛ أي: معظم منافعها الركوب، وقطع المسافات، وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿رَكُوبُهُمْ﴾ بفتح الراء، وهو فعول بمعنى مفعول. وقرأ أبي، وعائشة ﴿ركوبتهم﴾ بالتاء، وهي فعولة بمعنى: مفعولة. والركوب والركوبة واحد، مثل الحلوب والحلوبة، والحمول والحمولة. وقال أبو عبيدة: الركوبة للواحد والجماعة، والركوب لا يكون إلا للجماعة. وقرأ الحسن، والأعمش، وابن السميفع، وأبو الرهسم: ﴿فمنها رُكوبهم﴾ بضم الراء وبغير تاء، فيقدّر مضاف؛ أي: فمنها ذو ركوبهم، أو فمن منافعها ركوبهم. وزعم أبو حاتم: أنه لا يجوز ﴿فمنها رُكوبهم﴾ بضم الراء؛ لأنه مصدر بمعنى: كون الإنسان على ظهر حيوان أو غيره، والمقصود هنا: المركوب. وأجاز ذلك الفرّاء، كما يقال: فمنها أكلهم، ومنها شربهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾؛ أي: وبعض منها يأكلون لحمه وشحمه، كالغنم يعني: لا تصلح للركوب، بل للأكل فقط. وليس المراد: أن المركوبة منها كالإبل، لا تؤكل فإنها كما تركب تؤكل.

والمعنى: أي وسخرنا لهم هذه الأنعام، فمنها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليها الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار، ومنها: ما ينحرون فيأكلون لحومها وينتفعون بدهنها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الأنعام المركوبة والمأكولة ﴿مَنَافِعُ﴾ أخر غير الركوب والأكل كالجلود، والأصواف، والأوبار، والأشعار، والنسائل؛ أي: النتائج، والحراثة بالثيران. وأجمل المنافع هنا، وفصلها في سورة النحل في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الآية، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن، جمع مشروب، جمعه باعتبار أنواع النعم، أو باعتبار هيآت اللبن؛ لأن منه الحليب، والحامض، والخاثر، والجبن، والأقط، والزبد، والسمن.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أيشاهدون هذه النعم التي يتنعمون بها، فلا يشكرون المنعم بها، بأن يوحدوه، ولا يشركوا به في العبادة، فقد تولى المنعم إحداث تلك النعم، ليكون إحداثها ذريعة إلى أن يشكروها، فجعلوها وسيلة إلى الكفران.

والمعنى: أي ولهم فيها منافع أخرى، غير الركوب والأكل منها، كالجلود والأصواف والأوبار والأشعار والحراثة وإدارة المنجنون (الساقية)، ولهم منها مشارب من ألبانها. ثم حثهم على الشكر على هذه النعم وتوحيد صانعها، فقال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمتي عليهم، وإحساني إليهم بطاعتي، وإفرادي بالألوهية والعبادة، وترك وساوس الشيطان بعبادة الأصنام، والأوثان.

ثم ذكر سبحانه جهلهم واغترارهم، ووضعهم كفران النعمة مكان شكرها. فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾؛ أي: واتخذ هؤلاء المشركون مع هذه الوجوه من الإحسان ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين الله، المتفرد بالقدرة المتفضل بالنعمة

﴿ءَالِهَةً﴾؛ أي: معبودات من الأصنام، وأشركوها به تعالى في العبادة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل المشركين ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ أي: رجاء أن ينصروا من جهة آلهتهم، فيما أصابهم من الأمور، أو ليشفعوا لهم في الآخرة.

وجملة قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ مستأنفة، مسوقة لبيان بطلان ما رجوه منها، وأملوه من نفعها. وجمعهم بالواو والنون جمع العقلاء، بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون ويضرون ويعقلون؛ أي: لا تستطيع تلك الآلهة على نصر المشركين، ولا تقدر على نفعهم في أمر ما. ﴿وَهُمْ﴾ المشركون ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لآلهتهم ﴿جُندٌ﴾؛ أي: عسكر ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ إثرهم في النار؛ أي: يشيعون عند مساقهم إلى النار، ليجعلوا وقوداً لها. قال الكواشي: روي: أنه يؤتى بكل معبود من دون الله، ومعه أتباعه كأنهم جنده فيحضرون في النار، هذا لمن أمر بعبادة نفسه، أو كان جماداً، انتهى.

وقيل المعنى: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المشركون لآلهتهم بمنزلة الجند، فهم قائمون بين أيديهم كالعبيد، ويخدمونها، ويغضبون لها في الدنيا. قال الحسن: يمنعون منهم، ويدفعون عنهم. وقال الزجاج: ينتصرون للأصنام، وهي لا تستطيع نصرهم. وقيل المعنى: يعبدون الآلهة، ويقومون بها. فهم لهم بمنزلة الجند. هذه[1] الأقوال على جعل ضميرهم للمشركين، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ للآلهة. وقيل: و﴿هُمْ﴾؛ أي: الآلهة ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للمشركين جند محضرون معهم في النار، ليكونوا وقوداً لهم، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: معناه: وهذه الأصنام لهؤلاء المشركين، جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونهم، ويتبرؤون منهم. وقيل المعنى: إن الكفار يعتقدون أن الأصنام جند لهم، يحضرون يوم القيامة لإعانتهم.

والمعنى[2]: أي واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة، يعبدونهم طمعاً في نصرتهم، ودفع العذاب عنهم، وتقريبهم إلى الله زلفى. ثم بيّن بطلان آرائهم،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وخيبة رجائهم، وانعكاس تدبيرهم. فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلخ؛ أي: لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها. فهي أضعف من ذلك، وأحقر، ولا تقدر على الاستنصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع، ولا تعقل. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾؛ أي: والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهم لا يسوقون إليهم خيراً ولا يدفعون عنهم ضراً.

والخلاصة: أنّ العابدين وهم المشركون، كالجند لحمايتهم والذب عنهم في الدنيا، والمعبودون يوم القيامة، لا يستطيعون أن يقدموا لهم معونة، ولا يدفعون عنهم مضرة.

ثم سلّى رسوله على ما يلقاه من قومه من الأذى، بنحو قولهم: هو شاعر، وهو كاهن، وهو ساحر إلى نحو ذلك، من مقالاتهم التي كانوا يجابهون بها الرسول إرادة تحقيره وإهانته. فقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ والفاء: فيه فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سمعت قولهم في الله: أن له شريكاً وولداً، وفيك: إنك كاذب شاعر، وتألمت من إيذائهم وجفائهم وأردت بيان ما هو الأصلح لك، والأكثر أجراً.. فأقول لك: لا يحزنك قولهم؛ أي: لا يهمنك قولهم في الله بالإلحاد والشرك، وفيك بالتكذيب والتهجين، وتسل بإحاطة علمي بجميع أحوالهم. فـ ﴿إنا نعلم ما يسرون﴾؛ أي: جميع ما يضمرون في صدورهم من العقائد الفاسدة، ومن العداوة لك، والبغضاء ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: وجميع ما يظهرون بألسنتهم من كلمات الشرك، والكفر بالله، والإنكار للرسالة. فنجازيهم على جميع جناياتهم الخافية والبادية.

قال ابن الشيخ[1]: والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ جزائية؛ أي: إذا سمعت قولهم في الله: أن له شريكاً وولداً، وفيك: أنك كاذب شاعر، وتألمت من إيذائهم وجفائهم، فتسل بإحاطة علمي بجميع أحوالهم، وبأني أجازيهم على تكذيبهم إياك وإشراكهم بي. وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ بفتح الياء وضم

(١) روح البيان.

الزاي، وهي لغة قريش. وقرأ نافع: بضم الياء وكسر الزاي. وهي لغة بني تميم. وهما لغتان، يقال: حزنه وأحزنه.

والمعنى[1]: أي فلا يحزنك أيها الرسول، قول هؤلاء المشركين من قومك: إنك شاعر، وما جئتنا به شعر، ولا تكذيبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك. ثم ذكر أنه، سيجازيهم على ما يضمرون في أنفسهم، ويتفوهون بألسنتهم. فقال: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: إنا نعلم أن الذي يدعوهم إلى قول ذلك، إنما هو الحسد، وأنهم يعقدون أن الذي جئتهم به ليس بشعر، ولا يشبه الشعر، وأنك لست بكذاب.

والخلاصة: أنّا نعلم ما يسرون من معرفتهم، حقيقة ما تدعوهم إليه، وما يعلنون من جحود ذلك بألسنتهم علانية، وسنجزيهم وصفهم، ونعاملهم بما يستحقون، يوم يجدون جليل أعمالهم وحقيرها حاضراً لديهم. وجملة قوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تعليل لما قبله من النهي عن الحزن. فإن علمه سبحانه بما يسرون وما يعلنون، مستلزم للمجازاة لهم بذلك، وأن جميع ما صدر منهم، لا يعزب عنه، سواء كان خافياً أو بادياً سراً أو جهراً مظهراً أو مضمراً وتقديم[2] السر على العلن، إما للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى، لجميع المعلومات، كأن علمه تعالى، بما يسرون، أقدم منه بما يعلنون، مع استوائهما في الحقيقة. فإن علمه تعالى، بمعلوماته، ليس بطريق حصول صورها، بل وجود كل شيء في نفسه عُلم بالنسبة إليه تعالى. وفي هذا المعنى، لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة. وإما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن، إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو. أو مبادية مضمر في القلب قبل ذلك، فتعلق علمه بحالته الأولى، متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقةً.

وفي الآية: إشارة إلى أن كلام الأعداء، الصادر من العداوة والحسد، جدير بأن يُحزن قلوب الأنبياء، مع كمال قوتهم، وأنهم ومتابعيهم مأمورون بعدم

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

الالتفات، وتطييب القلوب في مقاساة الشدائد في الله، بأن لها ثمرات كريمة عند الله تعالى. وإذا علم العبد، أن ألمه آت من الحق، هان عليه ما يقاسه، لا سيما إذا كان في الله، كما في «التأويلات النجمية». قال بعضهم: ليخفف ألم البلاء، علمك بأن الله هو المبتلي.

قال في «برهان القرآن» قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ﴾ هنا، وفي يونس: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ تشابها[1] في الوقف على لفظة ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في السورتين؛ لأن الوقف عليه لازم. و﴿إِنَّ﴾ فيهما مكسورة في الابتداء لا في الحكاية، ومحكي القول فيهما محذوف. ولا يجوز الوصل؛ لأن النبي ﷺ منزه عن أن يخاطب بذلك، انتهى.

وجملة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مستأنفة[2] مسوقة لبيان إقامة الحجة، على من أنكر البعث، وللتعجيب من جهله. فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم، على هذه الصفة من البداية إلى النهاية.. مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم، على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام، وردها كما كانت، والإنسان المذكور في الآية، المراد به جنس الإنسان، كما في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين، كما قيل: إنه عبد الله بن أبي، وأنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. وقال الحسن: هو أمية بن خلف. وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمي. وقال قتادة، ومجاهد: هو أبي بن خلف الجمحي، فإن أحد هؤلاء وإن كان سبباً للنزول، فمعنى الآية: خطاب الإنسان من حيث هو لا إنسان معين، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً أولياً. والنطفة هي اليسير من الماء. وقيل: هي الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ للاستفهام التقريري المضمن للتعجب، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو: عاطفة على ذلك المقدر، والرؤية قلبية،

---

(١) برهان القرآن.

(٢) الشوكاني.

والتقدير: ألم يتفكر الإنسان، المنكر للبعث، أياً كان، ولم يعلم علماً يقينياً، أنا خلقناه من نطفة. وفي «الإرشاد»: وإيراد الإنسان موضع المضمر؛ لأن مدار الاستفهام متعلق بأحواله، من حيث هو إنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿فَإِذَا هُوَ﴾؛ أي: الإنسان ﴿خَصِيمٌ﴾؛ أي: شديد الخصومة والجدال بالباطل. ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: مظهر الجدال في خصومته أو مظهر للحجة. والجملة الاسمية[1] معطوفة على الجملة المنفية، داخلة في حيز الاستفهام والتعجيب كأنه قيل: أولم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء، وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر، يشهد بصحته، وتحققه مبدأ فطرته شهادةً بينة. فهذا حال الإنسان الجاهل الغافل. ونعم ما قيل:

أُعَلِّمُهُ ٱلرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِيْ

أُعَلِّمُهُ ٱلْقَوَافِيَ كُلَّ حِيْنٍ ... فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِيْ

وما قيل:

لَقَدْ رَبَّيْتُ جَرْوَاً طُوْلَ عُمْرِيْ ... فَلَمَّا صَارَ كَلْبَاً عَضَّ رِجْلِيْ

قال السمرقندي: العامل في ﴿إذا﴾ المفاجأة معنى المفاجأة، وهو عامل لا يظهر، استغني عن إظهاره بقوة ما فيها من الدلالة، عليه، ولا يقع بعدها إلا الجملة المركبة من المبتدأ والخبر. وهو في المعنى فاعل؛ لأن معنى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: فاجأه خصومة بينة، كما أن معنى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فاجأهم قنوطهم أو مفعول؛ أي: فاجأ الخصومة، وفاجؤوا القنوط. يعني: خاصم خالقه مخاصمة ظاهرةً، وقنطوا من الرحمة.

والمعنى[2]: أي أو لا يستدل من أنكر البعث بسهولة المبدأ، على سهولة الإعادة. فإن من بدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، ثم جعله بشراً سوياً يخاصم ربه، فيما قال إني فاعل، فيقول: من يحيي العظام وهي رميم إنكاراً منه

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

لقدرته على إحيائها، قادر على إعادته بعد موته وحسابه وجزائه على أعماله.

والخلاصة: أنه تعالى خلق للإنسان ما خلق من النعم ليشكر، فكفر وجحد المنعم والنعم. وخلقه من نطفة قذرة، ليكون متذللاً فطغى وبغى وتجبر وخاصم ربه، واستبعد البعث والإعادة.

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ معطوف[1] على الجملة الفجائية؛ أي: ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلاً؛ أي: أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر. وهي في الغرابة والبعد عن العقول كالمثل، وهي إنكار إحيائنا العظام ونفي قدرتنا عليه. قال ابن الشيخ: المثل يستعار للأمر العجيب تشبيهاً له في الغرابة بالمثل العرفي، الذي هو القول السائر، ولا شك أن نفي قدرة الله سبحانه على البعث، مع أنه من جملة الممكنات، وأنه تعالى على كل شيء قدير، من أعجب العجائب. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ عطف على ﴿ضرب﴾، داخل في حيز الاستفهام والتعجيب أو حال بتقدير ﴿قد﴾. وهو مضاف إلى المفعول؛ أي: نسي خلقنا إياه من النطفة القذرة؛ أي: ترك التفكر في بدء خلقه ليدله ذلك على قدرته على البعث. فإنه لا فرق بينهما من حيث إن كلاً منهما إحياء مواتٍ وجماد. وقرأ زيد بن علي ﴿ونسي خالقه﴾ اسم فاعل، والجمهور ﴿خَلْقَهُۥ﴾؛ أي: نشأته، مصدراً.

وقوله: ﴿قَالَ﴾؛ أي: الإنسان، كلام مستأنف، واقع في جواب سؤال مقدر، نشأ عن حكاية ضرب المثل، كأنه قيل: أي مثل ضرب أو ماذا قال؟ فقيل: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ منكراً له أشد النكير، مؤكداً له بقوله: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾؛ أي: بالية أشد البلى بعيدة من الحياة غاية البعد حيث لا جلد عليها، ولا لحم، ولا عروق، ولا أعصاب.

وهذا[2] الاستفهام للإنكار؛ لأنه قاس قدرة الله سبحانه على قدرة العبد فأنكر أن الله تعالى، يحيي العظام البالية، حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر،

---

(1) روح البيان.　　(2) الشوكاني.

وعدم تأنيث الرميم، مع وقوعه خبراً للمؤنثة، حيث لم يقل: وهي رميمة، لأنه اسم لما بلي من العظام، غير صفة كالرفات والرمة. والأولى: أن يقال: إنه فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث، كما قيل في جريح وقتيل.

ومعنى الآية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾؛ أي: وذكر أمراً عجيباً ينفي به قدرتنا على إحياء الخلق، فـ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ونسي خلقنا له، أفلم يكن نطفة فجعلناه خلقاً سوياً ناطقاً. ولا شك أن من فعل ذلك، لا يعجزه أن يعيد الأموات أحياءً، والعظام الرميم بشراً كهيئتهم التي كانوا عليها قبل الفناء.

وإجمال ذلك: أن بعض المشركين استبعدوا إعادة الله، ذي القدرة العظيمة، التي خلقت السموات والأرض، للأجساد والعظام الرميم، ونسوا أنفسهم، وأنه تعالى خلقهم من العدم، فكيف هم بعد هذا، يستبعدون أو يجحدون.

ونحو الآية، حكايةً عن المشركين قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾، وقوله أيضاً، على طريق الحكاية: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

ثم أمر الله سبحانه، نبيه ﷺ، أن يجيبهم عن استبعادهم ويبكتهم بتذكيرهم بما نسوه من حقيقة أمرهم، وخلقهم من العدم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، تبكيتاً لذلك الإنسان، المنكر للبعث، بتذكير ما نسيه من الفطرة، الدالة على حقيقة الحال. ﴿يُحْيِيهَا﴾؛ أي: يحيي تلك العظام الخالق ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾؛ أي: خلقها وأوجدها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: في أول مرة ولم تكن شيئاً، ومن قدر على النشأة الأولى، قدر على النشأة الثانية. فإن قدرته كما هي لاستحالة التغير فيها، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها. وهو من النصوص القاطعة، الناطقة بحشر الأجساد، استدلالاً بالابتداء على الإعادة. وفيه رد على من لم يقل به، وتكذيب له.

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الله المنشىء سبحانه ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾؛ أي: مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، ولا يخرج عن علمه خارج كائناً ما كان، يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها. فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتفرقة في المشارق والمغارب، والتي بعضها في أبدان السباع، وبعضها في جدران الرباع، أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض، من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق، فيعيد كلاً من ذلك، على النمط السابق، مع القوى التي كانت قبل.

وقد استدل أبو حنيفة[1]، وبعض أصحاب الشافعي، بهذه الآية، على أن العظام، مما تحله الحياة. وقال الشافعي: لا تحله الحياة، وأن المراد بقوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ﴾؛ أي: من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف، ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر.

وعبارة الروح هنا: وقد تمسك[2] بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة، وبنى عليه الحكم بنجاسة عظم الميت. وهو الشافعي، ومالك، وأحمد. وأما أصحابنا الحنفية، فلا يقولون بنجاسته كالشعر، ويقولون: المراد بإحياء العظام: ردها إلى ما كانت عليه من الغضاضة والرطوبة في بدن حي حساس. واختلفوا في الآدمي هل يتنجس بالموت؟. فقال أبو حنيفة: يتنجس؛ لأنه دموي، إلا أنه يطهر بالغسل كرامة له، وتكره الصلاة عليه في المسجد. وقال الشافعي، وأحمد: لا يتنجس به، ولا تكره الصلاة عليه فيه. وعن مالك خلاف، والأظهر عنه: الطهارة، وأما الصلاة عليه في المسجد فالمشهور من مذهبه كراهتها، كقول أبي حنيفة، انتهى. انظر ما بين عبارة الشوكاني، وعبارة البروسوي من التناقض فيما قاله الشافعي. والصواب ما في البروسوي.

والمعنى[3]: أي قل أيها الرسول لهذا المشرك القائل لك: من يحيي العظام وهي رميم: يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئاً، وهو العليم

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بالعظام، وأين تفرقت في سائر أقطار الأرض، وأين ذهبت؟، لا يخفى عليه شيء من أمر خلقه، فهو يعيده على النمط السابق والأوضاع التي كان عليها مع قواه السالفة.

ثم ذكر دليلاً ثانياً يرفع استبعادهم، ويبطل إنكارهم. فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُم﴾؛ أي: لمنفعتكم ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾؛ أي: الرطب ﴿نَارًا﴾ محرقة، بدل من الموصول الأول، وعدم الاكتفاء بعطف الصلة للتأكيد، ولتفاوتهما في كيفية الدلالة؛ أي: الذي خلق لأجلكم ومنفعتكم من الشجر الرطب الندي، كالمرخ والعفار ناراً محرقة. فنبه[1] سبحانه، على وحدانيته، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه، من إخراج النار المحرقة، من العود الندي الرطب. وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، والشجر المعروف بالعفار، إذا قُطع عودان وضُرب أحدهما على الآخر، انقدحت منهما النار، وهما أخضران. قيل: المرخ هو الذكر، والعفار هو الأنثى. ويسمى الأول الزند، والثاني الزندة. والمرخ[2] بالخاء المعجمة: شجر سريع الورى. والعفار بالعين المهملة كسحاب: شجر معروف تقدح منه النار. قال الحكماء: لكل شجر نار إلا العناب. فمن ذلك يدق القصار الثوب عليه، ويُتخذ منه المطرقة، والعرب تتخذ زنودها من المرخ والعفار، وهما موجودان في أغلب المواضع من بوادي العرب، يقطع الرجل منهما غصنين كالمسواكين، وهما أخضران يقطر منهما الماء، فيُسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار بإذن الله تعالى. وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم﴾ أيها المشركون ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من الشجر الأخضر، متعلق بـ﴿تُوقِدُونَ﴾. و﴿إذا﴾ للمفاجأة؛ أي: تشتعلون النار وتقدحونها من ذلك الشجر، لا تشكون في أنها نار تخرج منه، كذلك لا تشكون في أن الله يحيي الموتى، ويخرجهم من القبور للسؤال والجزاء من الثواب والعقاب. فإن من قدر على إحداث النار، وإخراجها من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفية، كان أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً فطرأ عليه اليبوسة

---

(١) الشوكاني.　　(٢) روح البيان.

والبلى. وعُلم منه أن الله تعالى، جامع الأضداد، ألا ترى: أنه جمع الماء والنار في الشجر، فلا الماء يطفىء النار، ولا النار تحرق الشجر.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾ اعتباراً باللفظ. وقرىء ﴿الخضراء﴾ اعتباراً بالمعنى. وقد تقرر، أنه يجوز تذكير اسم الجنس وتأنيثه كما في قوله تعالى: ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وقوله: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. فبنو تميم ونجد يذكرونه، وأهل الحجاز يؤنثونه إلا نادراً.

والمعنى[1]: أي وهو الذي بدأ خلق الشجر من ماء، حتى صار أخضر ناضراً، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، ومن فعل ذلك، فهو قادر على ما يريد، لا يمنعه شيء. إذ من أحدث النار في الشجر الأخضر على ما فيه من المائية المضادة للاحتراق، فهو أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً، فيبس وبلي.

ثم ذكر بعد ذلك بدليل ثالث على قدرته، أعجب من سابقيه، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ﴾ الهمزة[2] فيه للإنكار، وإنكار النفي إيجاب، فصار الاستفهام تقريرياً، كما هو القاعدة عندهم، خلافاً لمن تغافل عنها، فجعل الاستفهام في أمثال هذه المواضع إنكارياً. داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو عاطفة على ذلك المقدر. فهمزة الاستفهام، وإن دخلت على حرف العطف ظاهراً، لكنها في التحقيق، داخلة على كلمة النفي قصداً، إلى إثبات القدرة له وتقريرها.

والمعنى: أليس القادر المقتدر، الذي أنشأ الأناسي أول مرة، وأليس الذي جعل لهم من الشجر الأخضر ناراً، وأليس ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: الأجرام العلوية وما فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: الأجرام السفلية وما عليها مع كبر جرمهما وعظيم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في تقدير النصب؛ لأنه خبر ليس؛ أي: قادراً ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ﴾ في الآخرة ﴿مِثْلَهُم﴾؛ أي: مثل الأناسي في الصغر والحقارة بالنسبة إليهما، ويعيدهم أحياءً كما كانوا. فإن بديهة العقل قاضية بأن من قدر على

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

خلقهما فهو على خلق الأناسي أقدر، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾. أو مثلهم في أصول الذات وصفاتها، وهو المعاد، فإن المعاد مثل الأول في الاشتمال على الأجزاء الأصلية والصفات المشخصة، وإن غايره في بعض العوارض؛ لأن أهل الجنة جرد مرد، وإن الجهنمي ضرسه مثل أحد وغير ذلك. وقال بعضهم: لفظ ﴿مثل﴾ في قوله: ﴿مِثْلَهُم﴾ مقحم كقولك مثل يجود؛ أي: على أن يخلقهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ بباء الجر، داخلة على اسم الفاعل. وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وسلام بن المنذر، وأبو يعقوب الحضرمي ﴿يقدر﴾ فعلاً مضارعاً.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من جهته تعالى، وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري من تقرير ما بعد النفي، وإيذان بتعين الجواب بهذا نطقوا به، أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام. قال ابن الشيخ: هي مختصة بإيجاب النفي المتقدم ونقضه، فهي هٰهنا لنقض النفي الذي بعد الاستفهام؛ أي: بلى إنه قادر، كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾؛ أي: بلى أنت ربنا.

وقوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ معطوف على ما يفيده الإيجاب؛ أي: بلى وهو قادر على أن يخلق مثلهم، وهو المبالغ في الخلق والعلم كماً وكيفاً، على أكمل وجه وأتمه. وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ بصيغة المبالغة لكثرة مخلوقاته. وقرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار، وزيد بن علي ﴿وهو الخالق﴾ بصيغة اسم الفاعل. وقال بعضهم معنى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ العليم؛ أي: كثير المخلوقات والمعلومات، يخلق خلقاً بعد خلق، ويعلم جميع الخلق.

وذكر البرهان الرشيدي: أن صفات الله تعالى، التي على صيغة المبالغة كلها مجاز؛ لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة أن يثبت للشيء أكثر مما له، وصفاته تعالى متناهية في الكمال، لا يمكن المبالغة فيها، وأيضاً

---

(١) البحر المحيط.

فالمبالغة تكون في صفات تفيد الزيادة والنقصان، وصفات الله منزهة عن ذلك. واستحسنه الشيخ تقي الدين السبكي.

وقال الزركشي في «البرهان»: التحقيق: أن صيغة المبالغة قسمان:

أحدهما: ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل.

والثاني: بحسب زيادة المفعولات. ولا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة، إذ الفعل الواقع قد يقع على جماعة متعددين. وعلى هذا القسم تنزل صفات الله، وارتفع الإشكال. ولهذا قال بعضهم، في حكيم، معنى المبالغة فيه، تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع. وقال في «الكشاف»: المبالغة في «التواب» للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه بليغ في قبول التوبة، ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه.

ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته، وتيسر المبدأ والإعادة عليه فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ﴾؛ أي: إنما شأنه سبحانه وتعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾؛ أي: إذا تعلقت إرادته بوجود شيء من الأشياء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الشيء ﴿كُن﴾؛ أي: احدث، واحصل ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: فيحدث، ويحصل من غير توقف على شيء آخر أصلاً. قرأ الجمهور: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرفع، بناءً على أنه في تقدير فهو يكون فتعطف الجملة الاسمية على الجملة الاسمية المتقدمة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾. وقرأ الكسائي: بالنصب عطفاً على ﴿يَقُولَ﴾.

والمعنى: أي إنما شأنه تعالى في إيجاد الأشياء، أن يقول لما يريد إيجاده: تكوّن فيتكوّن، ويحدث فوراً بلا تأخير، ولا افتقار إلى مزاولة عمل، ولا استعمال آلة.

وبعد أن أثبت لنفسه القدرة التامة، والسلطة العامة، نزّه نفسه عما وصفوه به، وعجّب السامعين مما قالوه. فقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ والفاء، فيه: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا تقرر ما يوجب تنزهه تعالى وتنزيهه أكمل إيجاب من الشؤون

المذكورة كالإنشاء والإحياء، وأن إرادته لا تتخلف عن مراده ونحو ذلك، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: نزهوا الإله ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ﴾؛ أي: تحت يده وقبضته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: ملك كل شيء، وضبطه وتصرفه عما وصفوه تعالى به من العجز، وتعجبوا مما قالوه في شأنه تعالى من النقصان. ونزهوا الذي ﴿إليه﴾ لا إلى غيره. إذ لا مالك سواه على الإطلاق ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم. وهو وعد للمقرين، ووعيد للمنكرين؛ لأن الخطاب عام للمؤمنين والكافرين.

وقرأ الجمهور: ﴿مَلَكُوتُ﴾. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف، وإبراهيم التيمي ﴿ملكة﴾ بزنة شجرة. وقرىء ﴿مملكة﴾ بزنة مفعلة. وقرىء ﴿ملك﴾. والملكوت أبلغ من الجميع. وقرأ الجمهور: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالفوقية على الخطاب مبنياً للمفعول. وقرأ السلمي، وزر بن حبيش، وأصحاب بن مسعود بالتحتية على الغيبة مبنياً للمفعول أيضاً. وقرأ زيد بن علي على البناء للفاعل.

الإعراب

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، ﴿فِى شُغُلٍ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ الثاني، ﴿فَٰكِهُونَ﴾: خبرها الأول. ويجوز العكس. ويجوز أن يتعلق ﴿فِى شُغُلٍ﴾ بـ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أو في محل نصب على الحال. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لبيان أحوال الجنة، وتقريرها، إغاظة للكفار وتقريعاً وزيادة في ندامتهم وحسرتهم. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: معطوف على هم، ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: خبر المبتدأ؛ أي: لا تصيبهم الشمس لانعدامها بالكلية. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: متعلق بـ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، خبر ثان لـ﴿هُمْ﴾. ويجوز أن يكون ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: حالاً من المبتدأ على رأي سيبويه. والجملة الاسمية مستأنفة، استئنافاً بيانياً، مسوقة لبيان كيفية شغلهم.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿لَهُمْ﴾، خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال، من ضمير الغائبين، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾: مبتدأ، مؤخر. والجملة مستأنفة. ﴿وَلَهُم﴾: خبر مقدم، و﴿مَّا﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ويجوز أن تكون ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة أو مصدرية، وجملة ﴿يَدَّعُونَ﴾: صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد محذوف، تقديره: يدعونه. ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو؛ أي: ما يدعون سلام. ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف؛ أي: يقال قولاً، وجملة القول المحذوف صفة لسلام. ﴿مِّن رَّبٍّ﴾: صفة لـ﴿قَوْلًا﴾، ﴿رَّحِيمٍ﴾ صفة لـ﴿رَّبٍّ﴾. وجملة ﴿سَلَٰمٌ﴾ مع مبتدئه المحذوف بدل من ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ أو مستأنفة. أو ﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، خبره جملة القول المحذوف الناصب لـ﴿قَوْلًا﴾، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء؛ أي: سلام، يقال لهم: قولاً من رب رحيم. وقيل: تقديره: سلام عليكم، حال كونه قولاً من رب رحيم. وقيل: إنه مبتدأ، وخبره ﴿مِّن رَّبٍّ﴾، و﴿قَوْلًا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة، وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿امتازوا﴾: فعل أمر، وفاعل، مبني على حذف النون، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق به. والجملة في محل النصب. مقول لقول محذوف؛ أي: يقول الله لهم امتازوا اليوم؛ أي: انفردوا عن المؤمنين. وجملة القول المحذوف مستأنفة. ﴿أَيُّهَا﴾ ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بدل من؛ أي: على اللفظ. وجملة النداء أيضاً مقول للقول المحذوف. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، المضمن للتوبيخ والتبكيت ﴿لَمْ﴾: حرف جزم، ﴿أَعْهَدْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بـ﴿لم﴾ والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف؛ أي: يقول الله لهم أيضاً: ألم أعهد إليكم.

و﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعْهَدْ﴾، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: منادى مضاف منصوب بالياء. وجملة النداء في محل النصب، مقول للقول المحذوف. ﴿أَن﴾: مفسرة؛ لأنها وقعت بعد جملة، فيها معنى القول دون حروفه، ﴿لَّا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَعْبُدُواْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بلا الناهية، ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية جملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب. ويجوز أن تكون ﴿أَن﴾: مصدرية، فتكون هي ومدخولها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: ألم أعهد إليكم يا بني آدم ترك عبادة الشيطان؛ أي: بترك عبادته. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾، و﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿عَدُوٌّ﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف، على كونها معللة للنهي المذكور قبلها. ﴿وَأَنِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ﴾، ﴿أَن﴾ مفسرة أو مصدرية، ﴿ٱعْبُدُونِي﴾ فعل أمر، وفاعل، ونون وقاية، ومفعول به، مبني على حذف النون. والجملة إما مفسرة أو في محل جر بحرف جر محذوف؛ أي: بعبادتي. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿صِرَٰطٌ﴾: خبره، ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾: صفة. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول للقول المحذوف، على كونها معللة لأمر المذكور قبلها.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَضَلَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أضل﴾، ﴿جِبِلًّا﴾: مفعول به، ﴿كَثِيرًا﴾: صفة لـ﴿جِبِلًّا﴾. والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿أَفَلَمْ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر، تقديره: أتشاهدون آثار عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون. والجملة المحذوفة جملة استفهامية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم، ﴿تَكُونُواْ﴾ فعل مضارع ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿تَكُونُواْ﴾: معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، مسوقة لمجابهتهم المصير الهائل، الذي يصيرون إليه، بعد أن بلغ الغاية في تقريعهم وتوبيخهم. ﴿ٱلَّتِي﴾: صفة لـ﴿جَهَنَّمُ﴾، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾: من الفعل المغير، ونائب فاعله في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول. ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول، ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ظرف متعلق به. والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ أيضاً، والباء حرف جر وسبب، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿كَانَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء؛ أي: بسبب كفركم، ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿نختم﴾، ﴿نَخۡتِمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله، ﴿عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿نَخۡتِمُ﴾ أيضاً. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَتُكَلِّمُنَآ﴾: الواو عاطفة، ﴿تكلمنا﴾: فعل مضارع، ومفعول به، ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾: فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿نَخۡتِمُ﴾. ﴿وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تكلمنا﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تشهد﴾، و﴿مَا﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية أو موصولة؛ أي: بكسبهم، أو بالذي يكسبونه.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لَوۡ﴾: حرف شرط، ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿لَطَمَسۡنَا﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوۡ﴾، ﴿طمسنا﴾: فعل، وفاعل، والجملة جواب شرط لـ﴿لو﴾، وجملة ﴿لَوۡ﴾ مستأنفة أو معطوفة على ﴿نَخۡتِمُ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿طمسنا﴾، ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿استبقوا﴾ فعل ماض، وفاعل معطوف على ﴿طمسنا﴾، ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: مفعول به على التوسع؛ لأنه ظرف مكان أو

منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلى الصراط، ﴿فَأَنَّىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى: كيف، في محل نصب على الحال، ﴿يُبْصِرُونَ﴾: فعل، وفاعل معطوف على ﴿استبقوا﴾. والاستفهام هنا معناه النفي؛ أي: لا يبصرون. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط، ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿مسخناهم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من مفعول ﴿مسخناهم﴾. وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الأولى. ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿مسخناهم﴾. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر، من غير سابك لإصلاح المعنى، معطوف على ﴿مُضِيًّا﴾، والتقدير: فما استطاعوا مضياً ولا رجوعاً.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به مجزوم بمن الشرطية على كونها فعل شرط لمن الشرطية. ﴿نُنَكِّسْهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به مجزوم بمن الشرطية على كونه جواباً لها. وجملة ﴿مَنْ﴾: الشرطية مستأنفة. ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾: متعلق بننكسه، ﴿أَفَلَا﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَعْقِلُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المقدر، والتقدير: أيرون ذلك التنكيس فلا يعقلون، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾: الواو استئنافية، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾: فعل، وفاعل ومفعولان. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَنۢبَغِى﴾ فعل مضارع، وفاعل

مستتر يعود على الشعر، ﴿لَهُۥٓ﴾ متعلق بينبغي. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر، ﴿وَقُرْءَانٌ﴾: معطوف عليه، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة قرآن. والجملة مستأنفة. ﴿لِّيُنذِرَ﴾ اللام حرف جر وتعليل، ﴿ينذر﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد أو على القرآن. والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإنذاره من كان حيا، الجار والمجرور متعلق بمحذوف معلوم من السياق، تقديره: أرسل أي: محمد لإنذاره أو أنزل القرآن لإنذاره. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول لينذر، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿حَيًّا﴾: خبره، وجملة كان صلة لمن الموصولة. ﴿وَيَحِقَّ﴾ فعل مضارع، معطوف على ينذر، ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: فاعل، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بيحق، ﴿أَوَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: ألم يتفكروا ولم يروا، ﴿يَرَوْا۟﴾: فعل، وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿خَلَقْنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ﴿خَلَقْنَا﴾، وجملة ﴿خَلَقْنَا﴾ في محل الرفع خبر أن، وجملة ﴿أنّ﴾ سادة مسد مفعولي رأى. وجملة الرؤية معطوفة على تلك الجملة المحذوفة. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَنْعَٰمًا﴾، ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فعل، وفاعل، صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما عملته أيدينا، ﴿أَنْعَٰمًا﴾ مفعول خلقنا، ﴿فَهُمْ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع، ﴿لَهَا﴾ متعلق بمالكون، و﴿مَٰلِكُونَ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة مفرّعة على جملة ﴿خَلَقْنَا﴾.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿ذللنا﴾. والجملة

معطوفة على جملة ﴿خَلَقْنَا﴾. ﴿فَمِنْهَا﴾: الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿مِنْهَا﴾: خبر مقدم، ﴿رَكُوبُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة مفرّعة على جملة ﴿ذللنا﴾. ﴿وَمِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وجملة ﴿يَأْكُلُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ عطف فعلية على اسمية. ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: حال من ﴿مَنَافِعُ﴾، و﴿مَنَافِعُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ معطوف عليه. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ﴿أَفَلَا﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أيشاهدون تلك النعم، فلا يشكرون المنعم عليها. والجملة المقدرة، جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَا﴾: نافية، وجملة ﴿يَشْكُرُونَ﴾: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اتخذوا﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿اتخذوا﴾، ﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول أول لـ﴿اتخذوا﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائب فاعله في محل الرفع، خبره. وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿اتخذوا﴾؛ أي: حالة كونهم راجين النصر من آلهتهم. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿نَصْرَهُمْ﴾ مفعول به، ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿لَهُمْ﴾ حال من جند؛ لأنه كان في الأصل صفة له، ﴿جُندٌ﴾ خبرهم، ﴿مُحْضَرُونَ﴾ خبر ثان لهم أو نعت لـ﴿جند﴾. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ أو من ضمير ﴿نَصْرَهُمْ﴾. ﴿فَلَا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سمعت قولهم في الله وفيك، وأردت بيان ما هو الأكثر لك أجراً وأرفع لك درجةً فأقول لك. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿يَحْزُنكَ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، مجزوم بلا الناهية، ﴿قَوْلُهُمْ﴾ فاعل. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به

لـ﴿تَعۡلَمُ﴾، وجملة ﴿يُسِرُّونَ﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما يسرونه، ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ معطوف على ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ﴾: الهمزة: فيه للاستفهام التقريري المضمن للتعجب، داخلة على مقدر يقتضيه السياق، والواو عاطفة على ذلك المقدر. والجملة المقدرة مستأنفة. ﴿لَمۡ﴾ حرف جزم، ﴿يَرَ﴾ فعل مضارع، مجزوم بلم، ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: فاعل. والجملة معطوفة على تلك المقدرة. ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في محل النصب، سادة مسد مفعولي ﴿يرى﴾. ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ متعلق بـ﴿خلقنا﴾، ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إِذَا﴾ فجائية، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿خَصِيمٞ﴾ خبر، ﴿مُّبِينٞ﴾ صفة خصيم. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿خَلَقۡنَا﴾؛ لأنه في تأويل خلقناه من نطفة ففاجأ خصومتنا.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾.

﴿وَضَرَبَ﴾ (الواو): عاطفة، ﴿ضرب﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، ﴿لَنَا﴾ متعلق بـ﴿ضرب﴾، ﴿مَثَلٗا﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة إذا الفجائية؛ لأنها في تأويل الفعل، كما مر. ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ضرب، ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الإنسان. والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع، مبتدأ، ﴿يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب مقول قال. ﴿وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من العظام. ﴿قُلۡ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿يُحۡيِيهَا﴾ فعل، ومفعول، ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ فاعل. والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿أَنشَأَهَآ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به،

والجملة صلة الموصول، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ﴿أنشأ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ، ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل أنشأ. ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من الموصول الأول، ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول، ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور في موضع المفعول الثاني، ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ﴾ حال من ﴿نَارًا﴾؛ لأنه في الأصل صفة نار، ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾ صفة لـ﴿ٱلشَّجَرِ﴾ ﴿نَارًا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾ وجملة ﴿جَعَلَ﴾ صلة الموصول، ﴿فَإِذَآ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾ حرف فجأة، ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ، ﴿مِّنْهُ﴾ متعلق بـ﴿تُوقِدُونَ﴾، وجملة ﴿تُوقِدُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾؛ لأنه في تأويل ففاجأتم الإيقاد.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

﴿أَوَلَيْسَ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو: عاطفة على ذلك المقدر، ﴿ليس الذي﴾: فعل ناقص، واسمه، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ خبر ﴿ليس﴾، والباء: زائدة. وجملة ﴿ليس﴾ معطوفة على تلك المقدرة، والجملة المقدرة مستأنفة. ﴿عَلَىٰٓ أَن﴾ متعلق بقادر، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَخْلُقَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿مِثْلَهُم﴾ مفعول ﴿يَخْلُقَ﴾، وجملة ﴿يَخْلُقَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾، تقديره: بقادر على خلق مثلهم. ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات النفي، والواو: عاطفة على ما يفيده الإيجاب؛ أي: بلى هو قادر على ذلك. والجملة المحذوفة، جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر ثان. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ﴾: كافة ومكفوفة، ﴿أَمْرُهُۥٓ﴾ مبتدأ، ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من

الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿يَقُولَ﴾، ﴿أَرَادَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَقُولَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿يَقُولَ﴾. والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية، تقديره: إنما أمره قوله لشيء: كن وقت إرادة إيجاده. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كُن﴾ فعل أمر، تام بمعنى أحدث، وفاعله ضمير يعود على الشيء. والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولَ﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿يكون﴾: فعل مضارع تام، وفاعله ضمير يعود على الشيء. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهو يكون. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾. وقرىء بالنصب عطفاً على ﴿يَقُولَ﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا تقرر ما يوجب تنزهه تعالى وتنزيهه عما لا يليق به، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: سبحان الله.. إلخ. وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿سُبْحَٰنَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الذي بيده ملكوت كل شيء سبحاناً؛ أي: نزّهوه تنزيهاً. وجملة ﴿سُبْحَٰنَ﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿سُبْحَٰنَ﴾ مضاف، ﴿ٱلَّذِى﴾ مضاف إليه، ﴿بِيَدِهِۦ﴾: خبر مقدم، ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر مضاف إليه. والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، و﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل، ونائب فاعل، معطوف على جملة الصلة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِى شُغُلٍ﴾ بسكون الغين وضمها، وقد قرىء بهما. وفي «القاموس»: الشغل بالضم وبضمتين، وبالفتح وبفتحتين: ضد الفراغ، وجمعه أشغال وشغول، وشغله كمنعه شغلاً ويضم، وأشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة، واشتغل به وشُغل

كعُني، ويقال منه ما أشغله وهو شاذ؛ لأنه لا يتعجب من المجهول. وأنكر شارح «القاموس» أشغل، وقال: لا يُعرف نقله عن أحد من أئمة اللغة. قال في «المفردات» الشغُل بضم الغين وسكونها: العارض الذي يُذهل الإنسان. وفي «الإرشاد»: والشغل: هو الشأن الذي يصد المرء، ويشغله عما سواه من شؤونه، لكونه أهم عنده من الكل، إما لإيجابه كمال المسرة والبهجة، أو كمال المساءة والغم. والمراد هنا: هو الأول. وما فيه من التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان، والمراد به: ما هم فيه من فنون الملاذ، التي تلهيهم عما عداها بالكلية، كما فصّلناه في مبحث التفسير.

﴿فَٰكِهُونَ﴾؛ أي: ناعمون أو متلذذون في النعمة، من الفكاهة بالضم. وهي التمتع والتلذذ، مأخوذ من الفاكهة. قال الجوهري في صحاحه: الفكاهة بالضم: المزاح، والفكاهة بالفتح: مصدر فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب العيش فرحاناً ذا نشاط من التنعم. فإذا فسرنا قوله: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ بأنهم ناعمون كانت من الفكاهة بالفتح. وفي «القاموس»: الفاكهة: الثمر كله، وقول مخرج التمر والعنب والرمان منها مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ باطل مردود. والفاكهاني: بائعها، وكخجل آكلها، والفاكه صاحبها، وفكههم تفكيهاً أتاهم بها، والفاكهة: النخلة المعجبة واسم الحلواء، وفكههم بملح الكلام تفكيهاً أطرفهم بها، والاسم الفكيهة والفكاهة بالضم. وقال أبو زيد: الفاكه: الطيب النفس، الضحوك.

﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ والمراد: نساءهم اللاتي كن لهم في الدنيا، أو الحور العين. ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظل كشعاب جمع شعب. والظل: ضد الضح، أو جمع ظلة، كقباب جمع قبة. وهو الستر الذي يسترك من الشمس. وقال في «المفردات»: ويعبر بالظل عن العز والمنعة، وعن الرفاهة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: في عزة ومنعة. وأظلني فلان؛ أي: حرسني، وجعلني في ظله؛ أي: في عزه ومنعته، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ كناية عن نضارة العيش، انتهى.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، وهي كسفينة سرير في حجلة، والحجلة محركة موضع يزين بالثياب والستور للعروس، كما في «القاموس». وقيل: الفرش الكائن في الحجلة، بفتحتين أو بسكون الجيم مع ضم الحاء، وقيل مع كسرها، والمراد: نحو قبة تعلق على السرير، وتزين به العروس. ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ من الاتكاء، وهو الاعتماد.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾؛ أي: يطلبون مضارع ادعى بوزن افتعل الشيء إذا فعله لنفسه من دعا يدعو بمعنى طلب. وقد أشرب هنا معنى التمني، ومن مجيء الادعاء بمعنى التمني، كما قال في «تاج المصادر» قولهم: ادع علي ما شئت، بمعنى: تمنه علي. والمعنى هنا: ولهم ما يتمنونه من ربهم. وأصل ﴿يَدَّعُونَ﴾ يدتعيون على وزن يفتعلون، استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى ما قبلها، فحُذفت الياء لالتقاء الساكنين، فصار يدتعون، ثم أبدلت التاء دالاً وأُدغمت الدال في الدال فصار يدعون، اهـ زاده. وقيل: افتعل بمعنى تفاعل؛ أي: ما يتداعونه.

﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: انفردوا، وابتعدوا عن المؤمنين. يقال: مازه عنه يميزه ميزاً؛ أي: عزله ونحاه. فامتاز والتمييز: الفصل بين المتشابهات. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ والعهد: الوصية، وعرض ما فيه خير ومنفعة. ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ وعبادة الشيطان كناية عن عبادة غير الله تعالى، من الآلهة الباطلة، وأُضيفت إلى الشيطان، لأنه الآمر بها، والمزين لها.

﴿جِبِلًّا﴾ والجبل: الجماعة العظيمة من الخلق، أقلها عشرة آلاف، والكثير الذي لا يُحصيه إلا الله تعالى. ويقال فيه: جبلاً بكسر الجيم والباء وتشديد اللام كسجل، وجبلاً بضم الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام، وجبلاً بكسر وسكون الباء. وهذه اللغات في الجبل بمعنى الخلق.

﴿ٱصْلَوْهَا﴾؛ أي: ذوقوا حرها. يقال: صلى اللحم كرمى يصليه صليا شواه وألقاه في النار، وصلى النار قاسى حرها، وأصله: اصليوها، فأعل كاخشوا. وهو أمر تنكيل وإهانة.

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ والختم على الأفواه يراد به: المنع من الكلام. والأفواه جمع فم، وأصل فم فوه بالفتح. وهو مذهب سيبويه والبصريين كثوب وأثواب، حذفت الهاء حذفاً على غير قياس لخفائها، ثم الواو لاعتدالها، ثم أبدل الواو المحذوفة ميماً لتجانسهما؛ لأنهما من حروف الشفة، فصار فم. فلما أضيف رد إلى أصله ذهاباً به مذهب أخواته من الأسماء. وقال الفراء: جمع فوه بالضم كسوق وأسواق، اهـ من «الروح».

﴿لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ طمس الشيء: إزالة أثره بالكلية. يقال: طمسته؛ أي: محوته، واستأصلت أثره كما في «القاموس». ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ الاستباق افتعال من السبق. والصراط من السبيل: ما لا التواء فيه، بل يكون على سبيل القصد؛ أي: ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ المسخ تحويل الصورة إلى ما هو أقبح منها، سواء كان ذلك التحويل، بقلبها إلى صورة البهيمية، مع بقاء الصورة الحيوانية، أو بقلبها حجراً ونحوه من الجمادات، بإبطال القوى الحيوانية. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾؛ أي: في أماكنهم حيث يجترحون القبائح، والمكانة، بمعنى: المكان، إلا أن المكانة أخص، كالمقامة والمقام. ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا﴾ أصله: مضوي بزنة فعول، قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء، وكُسرت الضاد قبل الياء لتسلم الياء. ومن قرأ ﴿مضيا﴾ بكسر الميم، فإنما كسرها اتباعاً للضاد.

﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ﴾؛ أي: ومن نطل عمره في الدنيا. والعمر: مدة عمارة البدن بالروح. ﴿نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ من التنكيس، وهو أبلغ من النكس، والنكس أشهر. وهو قلب الشيء على رأسه، ومنه: نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه. والنكس في المرض: أن يعود في مرضه بعد إفاقته. والنكس في الخلق: الرد إلى أرذل العمر.

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ قال الراغب: يقال: شعرت أصبت الشعر، ومنه استُعير شعرت كذا؛ أي: علمت علما في الدقة كإصابة الشعر. وسمي الشاعر شاعراً لفطنته ودقة معرفته. يقال: شعر به كنصر وكرم علم به، وفطن له، وعقله. وفي

«القاموس»: الشعر غُلِّب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية، وإن كان كل علم شعراً. والجمع أشعار، انتهى. والشعر: ضرب من ضروب الكلام، ذو وزن خاص، ينتهي كل بيت منه بحرف خاص يسمى قافية. وهو يسير مع العواطف والأهواء، ولا يتبع ما يمليه العقل والمنطق الصحيح. ومن ثم كان مستقر الأكاذيب والمبالغات في الأهاجي، والمدائح، والتفاخر، والتنافر. فإذا غضب الشاعر أقذع في القول، وبالغ في الذم، وضرب بالحقيقة عرض الحائط، ولا يرى في ذلك ضيراً، وإذا هو استرضي بعد قليل رفع من هجاه إلى السماكين، وأدخله في زمرة العظماء الشجعان، أو الكرماء الأجواد إلى نحو هذا، مما تراه في شعر الهجائين المداحين، حتى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا: أعذب الشعر أكذبه. والقرآن الكريم آداب، وأخلاق، وحكم، وأحكام وتشريع. فيه سعادة البشر في دنياهم ودينهم، وآخرتهم فرادى وجماعات، فحاشى أن يكون شعراً ولا كهانةً ولا سحراً.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ البغاء: الطلب، والانبغاء انفعال منه. يقال: بغيته؛ أي: طلبته فانطلب. ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ العمل: كل فعل من الحيوان يقصد. فهو أخص من الفعل. قال الراغب: الأيدي جمع يد بمعنى الجارحة، خص لفظ اليد لقصورنا، إذ هي أجل الجوارح التي يتولى بها الفعل فيما بيننا. ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا﴾ وفي «المفردات»: الذل: ما كان عن قهر، والذل ما كان بعد تصعب وشماس من غير قهر، وذلت الدابة بعد شماس ذلاً، وهي ذلول ليست بصعب.

﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ والركوب بفتح الراء بمعنى: المركوب كالحلوب بمعنى: المحلوب، والركوب بالضم: كون الإنسان على ظهر حيوان. وقد يُستعمل في السفينة والسيارة وغيرهما؛ أي: مركوب كان. والراكب اختص في التعارف بممتطي البعير. ﴿وَمَشَارِبُۖ﴾ جمع مَشرب بالفتح مصدر أو مكان. والظاهر أن المراد به: ضروعها، اهـ شيخنا. والشرب: تناول كل مائع ماءً كان أو غيره.

﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ والخصيم: المبالغ في الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية أو هو فعيل بمعنى فاعل؛ أي: مخاصم مجادل. والخصومة: الجدل. قال في

«القاموس»: خاصمه مخاصمة وخصومة فخصمه يخصمه غلبه، وهو شاذ؛ لأن فاعلته ففعلته يرد يفعل منه إلى الضم إن لم تكن عينه حرف حلق. فإنه بالفتح كفاخره ففخره يفخره.

﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ والرميم كالرمة، والرفات العظم البالي؛ أي: بالية. وفي «المختار»: رم بالفتح يرم رمة بالكسر فيهما إذا بلي، وبابه ضرب، فهو اسم لا صفة ولذلك لم يؤنث، وقد وقع خبر المؤنث، ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول. وإيضاح هذا الكلام: أن فعيلاً بمعنى فاعل، لا تلحق التاء في مؤنثه إلا إذا بقيت وصفيته، وما هنا انسلخ عنها وغلبت عليه الاسمية؛ أي: صار بالغلبة اسماً لما بلي من العظام.

﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ والشجر من النبت ما له ساق. والخضرة أحد الألوان بين البياض والسواد، وهو إلى السواد أقرب. فلهذا سمي الأسود أخضر، والأخضر أسود. وقيل: سواد العراق للموضع الذي تكثر فيه الخضرة، ووصف الشجر بالأخضر دون الخضراء نظراً إلى اللفظ، فإن لفظ الشجر مذكر، ومعناه مؤنث؛ لأنه جمع شجرة كثمر وثمرة، والجمع مؤنث لكونه بمعنى الجماعة.

﴿بَلَىٰ﴾ كلمة جواب كنعم، تأتي بعد كلام منفي. وفي «المفردات»: بلى جواب استفهام مقترن بنفي، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾. ونعم يقال في الاستفهام المجرد نحو: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ ولا يقال ههنا بلى. فإذا قيل: ما عندي شيء فقلت: بلى، فهو رد لكلامه، فإذا قلت: نعم فإقرار منك. انتهى.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الملكوت، والرحموت، والرهبوت، والجبروت مصادر. زيدت الواو والتاء فيها للمبالغة في الملك، والرحمة، والرهبة، والجبر. قال في «المفردات»: الملكوت مختص بملك الله تعالى. والملك ضبط الشيء، والتصرف فيه بالأمر والنهي. والعرب تقول: جبروتي خير من رحموتي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنوين للتفخيم في قوله: ﴿فِى شُغُلٍ﴾؛ أي: في شغل عظيم الشأن.

ومنها: التعبير بالجملة الاسمية في قوله: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ عن حالهم هذه، قبل تحققها، تنزيلاً للمترقب المتوقع منزلة الواقع، للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها، ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك. وهم الكفار.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِى﴾ فالأول سلب، والآخر إيجاب.

ومنها: التنوين في ﴿صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ للتفخيم.

ومنها: تقديم النهي في قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ على الأمر في قوله: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِى﴾ رعاية للقاعدة عندهم، من تقديم التخلية على التحلية، وليتصل به قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾.

ومنها: تقديم الجارين على متعلقهما في قوله: ﴿فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ لمراعاة الفواصل.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ حيث أن الإضلال من الشيطان لكونه سبب ضلالهم.

ومنها: الالتفات من قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ الخ إلى الغيبة في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم، ويحكي أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الإيماء إلى أن ذلك من مقتضيات الختم؛ لأن الخطاب لتلقي الجواب، وقد انقطع بالكلية.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾، وفي قوله:

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، وأمثال ذلك.

منها: الطباق بين ﴿مُضِيًّا﴾ ﴿يَرْجِعُونَ﴾.

ومنها: وضع الفعل موضع المصدر في قوله: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ لمراعاة الفاصلة؛ لأن الأصل مضيا ولا رجوعاً.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾؛ لأنه كناية عن نفي كونه شاعراً، فنفى اللازم الذي هو تعليم الشعر وأراد نفي الملزوم الذي هو كونه شاعراً، بطريق الكناية، التي هي أبلغ من التصريح.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ الآية، قابل بين الإنذار والإعذار، وبين المؤمنين والكفار في قوله: ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وهو من ألطف العبارة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ الأنعام تُخلق ولا تُعمل، ولكن شبّه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمراً بيديه، ويصنعه بنفسه. واستعار لفظ العمل للخلق، بطريقة الاستعارة التمثيلية.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ بعد قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الآية. وفائدته تفخيم النعمة، وتعظيم المنة.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾؛ أي: كالجند في الخدمة والدفاع، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، فأصبح بليغاً.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾، وقوله: ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾، وفي قوله: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لأنه صيغة مبالغة من الملك، ومعناه: الملك الواسع التام مثل: الرحموت، والرهبوت، والجبروت.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ حيث استعار المثل الذي هو القول السائر للأمر العجيب تشبيهاً له في الغرابة بالمثل العرفي الذي هو القول السائر.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فشبه سرعة تأثير قدرته تعالى، ونفاذها في الأشياء، بأمر المطاع، من غير توقف ولا امتناع. فإذا أراد شيئاً وجد من غير إبطاء ولا تأخير. وهو من لطائف الاستعارة، وعبارة الروح: وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى، فيما أراده بأمر الآمر، المطاع للمأمور المطيع، في سرعة حصول المأمور به، من غير توقف على شيء ما، وهو قول أبي منصور الماتريدي، لأنه قال: لا وجه لحمل الكلام على الحقيقة، إذ ليس هناك قول ولا آمر ولا مأمور.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا وقفت الأقلام في كتابة ما أردنا إيراده على سورة يٓس من التفسير والتأويل في تاريخ ٢٥/ ٢/ ١٤١٤، في صباح يوم الجمعة، بعيد صلاة الفجر، اليوم الخامس والعشرين من شهر صفر المبارك من شهور، سنة ألف وأربع مئة وأربع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات، وأتم الصِلات، وأزكى التحيات، وعلى آله وأصحابه، وجميع الأمّات.

اللهم يا ذا الجلال والإكرام، كما أعنتنا على كتابة ما مضى فأكرمنا بإتمام ما بقي من كتابة تفسير كتابك الكريم، خالصاً مخلصاً لوجهك الكريم، مع النفع التام به إلى يوم القيامة، لي ولجميع المسلمين، آمين يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

أهم مقاصد هذه السورة

١ ـ بيان أن محمداً ﷺ، رسول من عند الله حقاً، وأنه نذير للأميين وغيرهم.

٢ ـ المنذرون من النبي ﷺ صنفان: صنف ميؤوس من صلاحه، وآخر قد سعى لفلاحه.

٣ ـ أعمال الفريقين تحصى عليهم، فتحفظ أخبارهم، وتكتب آثارهم.

٤ ـ ضرب المثل لهم بأهل أنطاكية، إذ كذبوا الناصح لهم وقتلوه، فدخلوا النار، ودخل الجنة بما قدم من إيمان وعمل صالح وهداية وإرشاد.

٥ ـ الدليل الطبيعي والعقلي على البعث.

٦ ـ تبيان قدرة الله ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة.

٧ ـ جزاء الجاحدين على كفرانهم أنعم الله عليهم، وسرعة أخذهم، وندمهم حين معاينة العذاب.

٨ ـ الجنة ونعيمها وما أعد للمؤمنين فيها.

٩ ـ توبيخ الكافرين على اتباعهم همزات الشياطين.

١٠ ـ قدرته تعالى على مسخهم في الدنيا وطمسهم.

١١ ـ الانتفاع بالأنعام في المأكل والمشرب والملبس.

١٢ ـ إثبات البعث بما أقامه من أدلة في الآفاق والأنفس.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة الصافات

سورة الصافات مكية قال القرطبي في قول الجميع، وأخرج ابن الضريس، وابن النحاس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت بمكة.

وهي[١] مئة واثنتان وثمانون آية، وثمان مئة وستون كلمة، وثلاث آلاف وثمان مئة وستة أو تسعة وعشرون حرفاً.

تسميتها: وسميت[٢] باسم أول كلمة منها، من باب تسمية الشيء باسم بعضه على حكم عادته سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.

فضلها: ومن فضائلها ما أخرجه[٣] النسائي والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: كان رسول الله يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. قال ابن كثير: تفرد به النسائي، وأخرج ابن أبي داود في فضائل القرآن، وابن النجار في تاريخه من طريق نهشل بن سعد الورداني، عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يٓس والصافات يوم الجمعة، ثم سأل الله، أعطاه سؤله»، وأخرج أبو نعيم في «الدلائل»، والسلفي في «الطيوريات» عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما سأله ملوك حضرموت، عند قدومهم عليه، أن يقرأ عليهم شيئاً مما أنزل الله قرأ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ حتى بلغ ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الحديث. وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصافات أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل جن وشيطان، وتباعدت عنه مردة الجن والشياطين، وبرىء من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين».

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من وجوه[٤]:

---

(١) الخازن.
(٢) الصاوي.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

١ ـ أن فيها تفصيل أحوال القرون الغابرة، التي أشير إليها إجمالاً في السورة السابقة في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٢ ـ أن فيها تفصيل أحوال المؤمنين، وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة، مما أشير إليه إجمالاً في السورة قبلها.

٣ ـ المشاكلة بين أولها وآخر سابقتها، ذاك أنه ذكر فيما قبلها قدرته تعالى على المعاد وإحياء الموتى، وعلل ذلك بأنه منشئهم، وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان. وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك. وهو وحدانيته تعالى، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلا إذا كان المريد واحداً، كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة أول هذه السورة لآخر يّس[1]: أنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته على إحياء الموتى، وأنه هو منشئهم، وإذا تعلقت إرادته بشيء كان.. ذكر تعالى هنا وحدانيته. إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة وجوداً وعدماً إلا بكون المريد واحداً. وتقدم الكلام على ذلك في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: ذكر أبو عبد الله محمد بن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ» سورة الصافات كلها محكم إلا أربع آيات:

الأولى والثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، نسختا بآية السيف.

الثالثة والرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، نسختا أيضاً بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا (١) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا (٢) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ (٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ (٣٦) بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ...﴾ الآيات، افتتح سبحانه هذه

السورة بإثبات وجود الخالق ووحدانيته وعلمه وقدرته بذكر خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلق المشارق والمغارب، وهنا أثبت الحشر، والنشر، وقيام الساعة، ببيان أن من خلق هذه العوالم، التي هي أصعب في الخلق منكم، فهو قادر على إعادة الحياة فيكم بالأولى، كما جاء في السورة السابقة: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾، وجاء في قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] فيما سلف إنكارهم للبعث في الدنيا، وشديد إصرارهم على عدم حدوثه.. أردف هذا، ببيان أنهم يوم القيامة يرجعون على أنفسهم بالملامة، إذا عاينوا أهوال هذا اليوم، ويعترفون بأنهم كانوا في ضلال مبين، ويندمون على ما فرّطوا في جنب الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين فيما سلف، أن الكافرين يندمون يوم القيامة، على ما فرط منهم، من العناد والتكذيب للبعث، حيث لا يجدي الندم.. أردف هذا بذكر أنهم يتلاومون فيما بينهم حينئذ، ويتخاصم الأتباع والرؤساء، فيلقي الأولون تبعة ضلالهم على الآخرين، فيجيبونهم بأن التبعة عليكم أنفسكم دوننا، إذ كنتم قوماً ضالين بطبيعة حالكم، وما ألزمناكم بشيء مما كنتم تعبدون، أو تعتقدون، بل تمنينا لكم من الخير ما تمنينا لأنفسنا، فاتبعتمونا دون قسر ولا جبر منا لكم. ثم أعقبه بذكر ما أوقعهم في هذا الذل والهوان، فبين أنهم قد كانوا في الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد، أعرضوا عنها استكباراً، وقالوا: أنترك دين آبائنا اتباعاً لقول شاعر مجنون. ثم رد عليهم مقالهم بأنه ليس بالمجنون، ولا هو بالشاعر، بل جاء بما هو الحق، الذي لا محيص عن تصديقه، وهو التوحيد الذي جاء به المرسلون كافة.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف حوار الأتباع والرؤساء من أهل الضلال، وإلقاء كل منهما تبعة ما وقعوا فيه من الهلاك على الآخرين.. بيّن هنا أن لا فائدة من مثل هذا الخصام والجدل. فإن العذاب واقع بكم لا محالة، جزاء ما قدمتم من عمل. ثم أردفه ما يلقاه عباده المخلصون من النعيم المقيم، واللذات التي قصها علينا في تلك الآية، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

التفسير وأوجه القراءة

والواو في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ للقسم. والصافات[1]: جمع صافة بمعنى جماعة صافة، فالصافات بمعنى الجماعات الصافات. ولو قيل: والصافين وما بعدها بالتذكير لم يحتمل الجماعات. والصف: أن يجعل الشيء على خط مستقيم، كالناس لأداء الصلاة أو الحرب أو الأشجار في الغرس.

وقوله: ﴿صَفًّا﴾ مصدر مؤكد لما قبله؛ أي: صفاً بديعاً. أقسم الله سبحانه، بالملائكة الذين يصفون للعبادة في السماء، ويتراصون في الصف؛ أي: بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على أن المراد: إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول، واللاتي يقفن صفاً صفاً، في مقام العبودية والطاعة، أو الصافات أنفسها؛ أي: الناظمات لها في سلك الصفوف، بقيامها في مواقف الطاعة ومنازل الخدمة. وفي الآية[2] بيان شرف الملائكة حيث أقسم بهم، وفضل الصفوف. وقد صح أن الشيطان يقف في فرجة الصف، فلا بد من التلاصق والانضمام والاجتماع ظاهراً وباطناً.

والفاء في ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ وما بعده للعطف، والترتيب الرتبي، أو الوجودي كما سيأتي. وقوله: ﴿زَجْرًا﴾ مصدر مؤكد لما قبله. والزجر: الصرف عن الشيء بتخويف؛ أي: فأقسمت بالملائكة الذين يزجرون السحاب زجراً، ويؤلفونه

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ويسوقونه إلى البلد الذي لا مطر فيه، أو الذين يزجرون العباد عن المعاصي، أو الشيطان عن الوسوسة والإغواء، وعن استراق السمع زجراً بليغاً. وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ معطوف أيضاً على ما قبله. وقوله: ﴿ذِكۡرًا﴾ مفعول ﴿التاليات﴾؛ أي: فأقسمت بالملائكة الذين يتلون ذكراً عظيم الشأن، من آيات الله وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، وغيرهما من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد، أو المراد بالمذكورات: نفوس العلماء، العمال، الصافات أنفسها في صفوف الجماعات، وأقدامها في الصلاة الزاجرات بالمواعظ، والنصائح التاليات، آيات الدارسات شرائعه وأحكامه، أو طوائف الغزاة، الصافات أنفسهم في مواطن الحرب، كأنهم بنيان مرصوص، أو طوائف قوادهم، الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقاً، والعدو في المعارك طرداً، التاليات آيات الله وذكره وتسبيحه في تضاعيف ذلك، لا يشغلهم عن الذكر مقابلة العدو. وذلك لكمال شهودهم وحضورهم مع الله. وفي الحديث: «ثلاثة أصوات يباهي الله بهن الملائكة: الأذان، والتكبير في سبيل الله، ورفع الصوت بالتلبية».

وهذه الصفات إن أجريت على الكل فعطفها بالفاء، للدلالة على ترتيبها في الفضل، إما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة، فيكون من باب الترقي، أو على العكس، فيكون من باب التدلي. وإن أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة، فهو للدلالة على ترتيب الموصوفات في مراتب الفضل، بمعنى: أن طوائف الصافات ذوات فضل، والزاجرات أفضل، والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس. وفي تفسير الشيخ وغيره: وجاء بالفاء، للدلالة على أن القسم بمجموع المذكورات. وفي «الصاوي»[1]: الفاء للترتيب في الوجود الخارجي؛ لأن مبدأ الصلاة الاصطفاف، ثم يعقبه زجر النفس، ثم يعقبه التلاوة، وهكذا. ويحتمل أنها للترتيب في المزايا، ثم هو إما باعتبار الترقي، فالصافات ذوات فضل، فالزاجرات أفضل، فالتاليات أكثر فضلاً أو باعتبار التدلي، فالصافات أعلى ثم الزاجرات ثم التاليات، وكل صحيح، انتهى.

---

(١) الصاوي.

والمعنى: أي أقسمت لكم يا بني آدم، أو يا أهل مكة ﴿بالصافات﴾؛ أي[1]: بالملائكة الناظمات لأنفسها في سلك الصفوف، بقيامها في مقاماتها المعلومة أو الصافات أقدامها في السماء، لأداء العبادات أو الباسطات أجنحتها في الهواء، واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد. ﴿صَفًّا﴾ بديعاً. ﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ﴾؛ أي: فأقسمت لكم بالملائكة التي تزجر السحاب؛ أي: يأتون بها من موضع إلى موضع، أو الزاجرات لبني آدم عن المعاصي، بالإلهامات، أو الزاجرات للشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والإيذاء، وعن استراق السمع. ﴿زَجْرًا﴾ بليغاً. ﴿فَالتَّٰلِيَٰتِ﴾؛ أي: فأقسمت لكم بالملائكة، التي تتلو الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، وغيرها من التسبيح، والتقديس، والتحميد، والتمجيد.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ يا أهل مكة - فإن الآية[2] نزلت فيهم إذ كانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ - أو يا بني آدم؛ أي: أقسمت لكم بهذه المذكورات، على أن إلهكم ومعبودكم الذي يستحق منكم العبادة ﴿لواحد﴾ لا شريك له، فلا تتخذوا آلهة من الأصنام والدنيا والهوى والشيطان. إذ لو لم يكن واحداً لاختل هذا الاصطفاف، والزجر، والتلاوة. وفي «الصاوي»: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ﴾ الواو[3]: حرف جر وقسم، ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ﴾ مقسم به مجرور بواو القسم، وما بعده عطف عليه، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾ جواب القسم، وهو المقسم عليه. والمعنى: وحق الصافات وحق الزاجرات وحق التاليات. وإنما خص ما ذكر لعظم قدرها عنده تعالى. ولا يعكر عليه ما ورد من النهي عن الحلف بغير الله تعالى، لأن النهي للمخلوق حذراً من تعظيم غير الله، وأما هو سبحانه وتعالى، فيقسم ببعض مخلوقاته للتعظيم كقوله: والشمس والليل والضحى والنجم، وغير ذلك.

فإن قلت: ما الحكمة في ذكر القسم هنا، لأنه إن كان المقصود المؤمنين، فلا حاجة إليه؛ لأنهم مصدقون ولو من غير قسم. وإن كان المقصود الكفار، فلا

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) الصاوي.

حاجة إليه أيضاً، لأنهم غير مصدقين على كل حال؟

قلت: إن الحكمة في القسم، تأكيد الأدلة التي تقدم تفصيلها في سورة يس، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويزداد الكافرون بعداً وطرداً. أو الحكمة فيه تعظيم المقسم به، وإظهار شرفه، وتأكيد المقسم عليه على ما هو المألوف في كلامهم. وقد أنزل القرآن على لغتهم، وعلى أسلوبهم في محاوراتهم. وقيل: تقدير الكلام فيها وفي أمثالها: ورب الصافات، ورب الشمس، ورب الضحى، ورب التين والزيتون، ورب الذاريات، ورب النجم إلى غير ذلك.

وقرأ ابن مسعود[1]، ومسروق، والأعمش، وأبو عمرو، وحمزة بإدغام التاء من الصافات والزاجرات والتاليات في صاد ﴿صَفًّا﴾ وزاي ﴿زَجْرًا﴾ وذال ذكراً وكذلك فعلا في ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾، وفي ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ بخلاف عن خلاد في الأخيرين. وهذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما سمعها. وقرأ الباقون بإظهار جميع ذلك.

قال أبو مسلم الأصفهاني: لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة؛ لأنها مشعرة بالتأنيث، والملائكة مبرؤون عن هذه الصفة. وأجيب عنه بوجهين:

الأول: أن الصفات المذكورة جمع الجمع، فإنه يقال جماعة صافة، ثم يُجمع على صافات.

الثاني: أنهم مبرؤون عن التأنيث المعنوي، وأما التأنيث اللفظي فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة، مع أن علامة التأنيث حاصلة، انتهى.

قال الغزالي، رحمه الله سبحانه: الواحد في أسمائه تعالى هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى، وهو سبحانه الواحد المطلق أزلاً وأبداً، وخاصية هذا الاسم، إخراج الكون من القلب، فمن قرأه ألف مرة خرج الخلائق من قلبه، فكُفِيَ خوف الخلق. وهو أصل كل بلاء في الدنيا والآخرة. وسمع النبي ﷺ رجلاً يقول في

---

(١) الفتوحات.

دعائه: «اللهم إني أسألك باسمك الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»، فقال: سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. قال السهروردي: يذكره من توالت عليه الأفكار الرديئة فتذهب عنه. وإن قرأه الخائف من السلطان بعد صلاة الظهر، خمس مئة مرة فإنه يأمن ويُفرَّج همه، ويصدقه أعداؤه، انتهى.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خبر ثان ﴿لأن﴾؛ أي: مالك السموات والأرض، ومالك ما بينهما من الموجودات، ومربيها، ومبلغها إلى كمالاتها ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾؛ أي: مشارق الشمس، وهي ثلاث مئة وستون مشرقا، تشرق كل يوم من مشرق منها، وبحسبها تختلف المغارب، ولذلك اكتفى بذكرها على حد ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾. وإنما اقتصر على المشارق ولم يعكس؛ لأن نفعه أعم من الغروب. يعني: إذا كانت المشارق بهذا العدد، تكون المغارب أيضاً بهذا العدد، فتغرب في كل يوم من مغرب منها. وأما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما. وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أراد به الجهة، فالمشرق جهة والمغرب جهة.

وإعادة[1] الرب في المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها، وتجددها كل يوم كما ذكر آنفاً.

والخلاصة: هو رب جميع الموجودات، وربوبيته لذاته، لا لنفع يعود إليه، بخلاف تربية الخلق. والربوبية بمعنى الخالقية والمالكية، ونحوهما عامة، وبمعنى التربية خاصة بكل نوع بحسبه، فهو تعالى مربي الأشباح بأنواع نعمه، ومربي الأرواح بلطائف كرمه. والرب عنوان الأدعية، فلا بد للداعي من استحضاره لساناً وقلباً، حتى يستجاب في دعائه: اللهم ربنا إنك أنت الواحد وحدة حقيقية، ذاتية، لا انقسام لك فيها، فاجعل توحيدنا توحيداً حقانياً ذاتياً سرياً لا مجازية فيه، وإنك أنت الرب الكريم الرحيم، فكما أنك ربنا وخالقنا، فكذا مربينا

---

(١) روح البيان.

ومولانا، فاجعلنا في تقلبات أنواع نعمك، شاغلين بك فارغين عن غيرك، وأوصل إلينا من كل خيرك.

فإن قلت[1]: لم جمع هنا ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ وحذف مقابله، وثنّاه في الرحمٰن، وجمعه في المعارج، وأفرده في المزمل مع ذكر مقابله في الثلاثة؟.

قلت: لأن القرآن نزل على المعهود من أساليب كلام العرب وفنونه. ومنها: الإجمال والتفصيل، والذكر والحذف، والجمع والتثنية، والإفراد باعتبارات مختلفة. فأفرد وأجمل في المزمل بقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، لأنه أراد بهما: الجهة، فالمشرق جهة والمغرب جهة. وجمع وفصّل في المعارج بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾؛ لأنه أراد جميع مشارق السنة ومغاربها، وهي تزيد على سبع مئة. وثنّى وفصّل في الرحمٰن، لأنه أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربهما. وجمع وحذف هنا بقوله: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾، لأنه أراد جميع مشارق السنة، واقتصر عليه لدلالته على المحذوف، وخص ما هنا بالجمع، موافقة للجموع أول السورة، وبالحذف مناسبة للزينة في قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾. إذ الزينة إنما تكون غالباً بالضياء والنور، وهما ينشآن من المشرق لا من المغرب. وخص ما في الرحمٰن بالتثنية، موافقة للتثنية في ﴿يَسْجُدَانِ﴾، وفي ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وبذكر المتقابلين مقابلةً، لبسط صفاته تعالى وإنعامه. ثم خص ما في المعارج بالجمع، موافقةً للجمع قبله وبعده، وبذكر المتقابلين موافقةً لكثرة التأكيد في القسم وجوابه. وخص ما في المزمل بالإفراد موافقةً لما قبله من إفراد ذكر النبي ﷺ، وما بعده من إفراد ذكر الله تعالى، وبذكر المتقابلين موافقة للحصر في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ولبسط أوامر الله تعالى لنبيه ﷺ.

وإجمال المعنى[2]: أنه سبحانه أقسم بملائكته الذين كملت أرواحهم،

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) المراغي.

وتجردوا لعبادته، يسبحونه الليل والنهار لا يفترون، ويحضون الناس على فعل الخير، ويدفعون عنهم وسوسة الشيطان، ويتلون آياته على أنبيائه، حين نزولهم بالوحي إن ربكم لواحد، وهو رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغارب.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: القربى منكم من الأرض، وأما بالنسبة إلى العرش فهي البعدى منه. والدنيا: تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب ﴿بِزِينَةٍ﴾ عجيبة بديعة ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجر بدل من الزينة، على أن المراد بها: الاسم؛ أي: ما يزان به، لا المصدر. والتقدير: بعد طرح المبدل منه: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب، فإن الكواكب في أنفسها زينة عظيمة، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِزِينَةِ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بإضافة زينة إلى الكواكب. والمعنى: زيناها بتزيين الكواكب؛ أي: بحسنها. وقرأ ابن مسعود، ومسروق بخلاف عنه. وأبو زرعة، وابن وثّاب، وطلحة، والأعمش، والنخعي، وحمزة بتنوين ﴿زينة﴾، وخفض ﴿الكواكب﴾ على أنها بدل من الزينة، كما مر آنفاً. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه، وابن وثّاب، ومسروق بخلاف عنهما. والأعمش، وطلحة ﴿بزينةٍ﴾ منوناً ونصب ﴿الكواكبَ﴾ على أن الزينة مصدر، وفاعله محذوف، والتقدير: بأن الله زيّن الكواكب، بكونها مضيئة حسنة في أنفسها، أو تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعني، أو بدلاً من السماء بدل اشتمال. وقرأ زيد بن علي، وابن عباس، وابن مسعود بتنوين ﴿زينة﴾، ورفع ﴿الكواكب﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: بزينة هي الكواكب. فإن قلت: لم خص سماء الدنيا بزينة الكواكب، مع أن بقية السموات مزينة بذلك.

قلت: لأنا إنما نرى سماء الدنيا دون غيرها.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أن الزينة التي تدرك بالبصر يعرفها الخاصة

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) روح البيان.

والعامة، وإلى الزينة التي يختص بمعرفتها الخاصة، وذلك إحكامها وسيرها. والكواكب معلقة في السماء كالقناديل، أو مكوكبة عليها كالمسامير على الأبواب والصناديق. وكون الكواكب زينة للسماء الدنيا، لا يقتضي كونها مركوزة في السماء الدنيا، ولا ينافي كون بعضها مركوزة فيما فوقها من السموات؛ لأن السموات إذا كانت شفافة وأجراماً صافية، فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو في سموات أخرى، فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا، وتلوح منها. فتكون سماء الدنيا مزينة بالكواكب.

والحاصل: أن المراد هو التزيين في رأي العين، سواء كانت أصول الزينة سماء الدنيا أو في غيرها. وهذا مبني على ما ذهب إليه أهل الهيئة، من أن الثوابت مركوزة في الفلك الثامن وما عدا القمر في الستة المتوسطة، وإن لم يثبت ذلك بنقل، فحقيقة ذلك عند الله تعالى.

وانتصاب[1] ﴿حفظاً﴾ على المصدرية بإضمار فعل؛ أي: حفظناها حفظاً أو على أنه مفعول لأجله؛ أي: زيناها بالكواكب للحفظ أو بالعطف على محل ﴿زينة﴾، كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للمساء، وحفظاً لها ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ برمي الشهب المنقضة منها إليه ﴿مَّارِدٍ﴾؛ أي: عال على الله، خارج عن الطاعة، متعرّ عن الخير من قولهم: شجر أمرد إذا تعرى من الورق. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

والمعنى[2]: أي إنا جعلنا الكواكب والنجوم زينة في السماء القريبة منكم، بما لها من البهجة والجمال وتناسب الأشكال وحسن الأوضاع، ولا سيما لدى الدارسين لنظامها، المفكرين في حسابها، إذ يرون أن السيارات منها متناسبة المسافات، بحيث يكون كل سيار بعيداً من الشمس، ضعف بُعد الكواكب الذي قبله. ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾؛ أي: وحفظنا السماء أن يتطاول، لدرك جمالها، وفهم محاسن نظامها، الجهال والشياطين، المتمردون من الجن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

والإنس، لأنهم غافلون عن آياتنا، معرضون عن التفكر في عظمتها، فالعيون مفتحة ولكن لا تبصر الجمال، ولا تفكر فيه حتى تعتبر بما فيه.

وكانت الشياطين[١] أولاً لا يحجبون عن السموات كلها، وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها فيلقونها على الكهنة. فلما ولد عيسى عليه السلام، مُنعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ مُنعوا من السموات كلها. فما منهم أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب. وهو الشعلة من النار فلا يخطئه أبداً، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يخبله فيصير غولاً يضل الناس في البراري.

وقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾؛ أي: الشياطين، ولا يُصغون ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كلام[٢] مستأنف، مسوق لبيان حال الشياطين، بعد بيان حفظ السماء منهم، مع التنبيه على كيفية الحفظ، وما يعتريهم في أثناء ذلك من العذاب. والملأ الأعلى: الملائكة أو أشرافهم أو الكتبة وصفوا بالعلو لسكونهم في السموات العلى، والجن والإنس هم الملأ الأسفل، لأنهم سكان الأرض.

والمعنى: لا يتطلبون السماء والإصغاء إلى الملائكة الملكوتية. وقيل: إن جملة ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ صفة لكل شيطان. وقيل: جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿يسْمَعون﴾ بسكون السين وتخفيف الميم، وعدّاه بإلى لتضمنه معنى الإصغاء. وقرأ ابن عباس بخلاف عنه. وابن وثّاب، وعبد الله بن مسلم، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص، وعاصم في رواية حفص ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين والميم بمعنى لا يتسمعون. والقراءة الأولى تدل على انتفاء سماعهم دون استماعهم، والقراءة الثانية تدل على انتفائهما. وفي

---

(١) الصاوي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

معنى القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾. قال مجاهد: كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون. واختار أبو عبيدة القراءة الثانية، قال: لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، وتقول: تسمعت إليه. وظاهر[1] الأحاديث أنهم يتسمعون حتى الآن لكنهم لا يسمعون، وإن سمع أحد منهم شيئاً لم يُفلِت حرساً وشهباً من وقت بعثة رسول الله ﷺ.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾؛ أي: يُرجمون، ويُرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء، ومن كل جهة يصعدون بالشهب، إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع. والمرجوم بها هي التي يراها الناس تنقض، وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا تُرى حركتها، وهذه الراجمة نَرى حركتها لقربها منا. وقرأ محبوب عن أبي عمرو ﴿ويقذفون﴾ مبنياً للفاعل، وهي قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني.

وانتصاب ﴿دُحُورًا﴾ على أنه مفعول لأجله. والدحور: الطرد والإبعاد؛ أي: يُقذفون لأجل الطرد والإبعاد عن السماء أو على الحال؛ أي: يقذفون حال كونهم مدحورين مطرودين أو مصدر ليقذفون؛ لأنه متضمن معنى الطرد؛ أي: ويدحرون من كل جانب دحوراً، ويقذفون من كل جهة قذفاً. وقيل: هو جمع داحر، نحو: قاعد وقعود، فيكون حالاً أيضاً. وقرأ الجمهور: ﴿دُحُورًا﴾ بضم الدال. وقرأ علي، والسلمي، وابن أبي عبلة، ويعقوب الحضرمي، والطبراني عن رجاله عن أبي جعفر ﴿دحورا﴾ بنصب الدال أي: قذفاً دحوراً بنصب الدال. ويجوز أن يكون مصدراً كالقبول والولوع إلا أن هذه ألفاظ ذكر أنها محصورة.

واختلف[2]، هل كان هذا الرمي لهم بالشهب، قبل المبعث أو بعده؟ فقال بالأول طائفة، وبالآخر آخرون. وقالت طائفة، بالجمع بين القولين: إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رمياً يقطعها عن السمع، ولكن كانت ترمى وقتاً ولا ترمى وقتاً آخر، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب آخر. ثم بعد المبعث،

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

رميت في كل وقت ومن كل جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شيء من السمع إلا من اختطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب.

فإن قلت: تقدم[1] أن الكواكب ثابتة في السماء أو في العرش زينة، ومقتضى كونها رجوماً للشياطين أنها تنفصل وتزول، فكيف الجمع بين ذلك؟.

أجيب: بأنه ليس المراد: أن الشياطين بذات الكواكب ترمى، بل تنفصل منها شهب تنزل على الشياطين والكواكب باقية بحالها.

إن قلت: إذا كان الشياطين خلقوا من النار فكيف يحترقون؟

أجيب: بأن الأقوى يحرق الأضعف، كالحديد يقطع بعضه بعضاً.

إن قلت: إذا كان الشيطان يعلم أنه لا يصل لمقصوده بل يصاب، فكيف يعود مرة أخرى؟.

أجيب: بأنه يرجو وصوله لمقصوده وسلامته، كراكب البحر، فإنه يشاهد الغرق المرة بعد المرة، ويعود طمعاً في السلامة.

وقيل معنى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي[2]: إن كثيراً من أولئك الجهّال، والشياطين محبوسون في هذه الأرض غائبة أبصارهم عن الملأ الأعلى، لا يفهمون رموز هذه الحياة وعجائبها، ولا ترقى نفوسهم إلى التطلع إلى تلك العوالم العليا، والتأمل في إدراك أسرارها، والبحث في سر عظمتها. ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ أي: وقد قذفتهم شهواتهم وطردتهم من كل جانب، فهم تائهون في سكراتهم، تتخطفهم الأهواء والمطامع والعداوات. فلا يبصرون ذلك الجمال الذي يُشرف للحكماء، ويبهر أنظار العلماء، ويتجلى للنفوس الصافية ويسحرها بعظمته. وهم ما زالوا يدأبون على معرفة هذا السر، حتى ذاقوا حلاوته، فخروا ركعاً سجداً مذهولين من ذلك الجمال والجلال.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: وللشياطين في الآخرة غير ما في الدنيا، من عذاب الرمي بالشهب. ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي: عذاب دائم غير منقطع، من وصب الأمر وصوباً

---

(١) الصاوي.

(٢) المراغي.

إذا دام. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم. وقال السدي، وأبو صالح، والكلبي: هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء[1] من واو ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾، و﴿من﴾ بدل من الواو. والخطف: اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة؛ أي: لا يسمع جماعة الشياطين إلى الملأ الأعلى، إلا الشيطان الذي خطف؛ أي: اختلس الخطفة؛ أي: المرة الواحدة. يعني: كلمة واحدة من كلام الملائكة. ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾؛ أي: أتبع ذلك المختلس، ولحقه ﴿شِهَابٌ﴾؛ أي: شعلة نار ساطعة، والمراد هنا: ما يرى منقضاً من السماء. ﴿ثَاقِبٌ﴾؛ أي: مضيء غاية الإضاءة، يثقب بإضاءته ونوره ما يقع عليه؛ أي: كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع.

والمعنى[2]: لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي اختلس الكلمة الواحدة، من كلام الملائكة على وجه المسارقة، فلحقه شهاب مضيء يحرقه، أو يخبله أو يجرحه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في نفر من أصحابه، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية»؟ فقالوا: يموت عظيم أو يولد عظيم، فقال: «إنه لا يرمى لموت أحد، ولا لحياته، ولكن الله إذا قضى أمراً، يسبحه حملة العرش وأهل السماء السابعة يقولون؛ أي: ـ أهل السماء السابعة لحملة العرش ـ: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، فيستخبر أهل كل سماء أهل سماء، حتى ينتهي الخبر إلى السماء الدنيا، فيتخطف الجن فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون فيه ويكذبون، فما ظهر صدقه فهو من قسم ما سُمع من الملائكة، وما ظهر كذبه فهو من قسم ما قالوه». قيل: كان ذلك في الجاهلية أيضاً، لكن غُلِّظ المنع، وشُدد حين بعث النبي ﷺ.

قيل: هيئة استراقهم، أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

فيسمع من فوقهم الكلام، فيلقيه إلى من تحته ثم هو يلقيه إلى الآخر، حتى إلى الكاهن. فيُرمون بالكوكب فلا يُخطىء أبداً، فمنهم من يحرق بعض أعضائه وأجزائه، ومنهم من يُفسد عقله، ومنهم من يجرحه، كما مر. وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيه، وربما ألقاه قبل أن يدركه. ولأجل أن يصيبهم مرة ويسلمون أخرى لا يرتدعون عن الاستراق بالكلية كراكب البحر للتجارة، فإنه قد يصيبه الموج وقد لا يصيبه، فلذا يعود إلى ركوب البحر رجاء السلامة. ولا يقال: إن الشيطان من النار فلا يحترق؛ لأنه ليس من النار الصرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها، كما مر كل ذلك.

ثم إن المراد بالشهاب: شعلة نار تنفصل من النجم، لا أنه النجم نفسه، لأنه قار في الفلك على حاله. وقالت الفلاسفة: إن الشهب إنما هي أجزاء نارية، تحصل في الجو عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة، واتصالها بالنار التي دون الفلك، انتهى. وقال بعض كبار أهل المعرفة: لولا الأثير ـ الركن من النار ـ الذي هو بين السماء والأرض ما كان حيوان ولا نبات ولا معدن في الأرض، لشدة البرد الذي في السماء الدنيا. فهو؛ أي: الأثير يسخن العالم لتسري فيه الحياة، بتقدير العزيز العليم. وهذا الأثير الذي هو ركن النار متصل بالهواء، والهواء حار رطب، ولما في الهواء من الرطوبة، إذا اتصل بهذا الأثير أثّر فيه، لتحركه اشتعالاً في بعض أجزاء الهواء الرطبة، فبدت الكواكب ذوات الأذناب، لأنها هواء محترق لا مشتعل، وهي سريعة الاندفاع. وإن أردت تحقيق هذا، فانظر إلى شرر النار، إذا ضرب الهواء النار بالمروحة، يتطاير منها شرر مثل الخيوط في رأى العين، ثم تنطفىء كذلك هذه الكواكب المنقضة. وقد جعلها الله رجوماً للشياطين الذين هم كفار الجن، كما قال الله تعالى. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

يقول الفقير[1]: كلام هذا البعض، يفيد حدوث بعض الكواكب ذوات

---

(١) روح البيان.

الأذناب، من التحريك المذكور، وهي الكواكب المنقضة، سواء كانت ذوات أذناب أو لا، وهذا لا ينافي ارتكاز الكواكب الغير الحادثة في أفلاكها أو تعليقها في السماء، أو بأيدي الملائكة كالقناديل المعلقة في المساجد، أو كونها ثقباً في السماء، أو عروقاً نيرة من الشمس على ما ذهب إلى كل منها طائفة من أهل الظاهر والحقيقة. قال قتادة: جعل الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك، فقد تكلف ما لا علم به، اهـ من «روح البيان».

وقرأ الجمهور[1] ﴿خَطِفَ﴾ ثلاثياً بكسر الطاء. وقرأ الحسن، وقتادة بكسر الخاء والطاء مشددة. قال أبو حاتم: ويقال: هي لغة بكر بن وائل، وتميم بن مرة. وقرىء ﴿خَطِّف﴾ بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة، ونسبها ابن خالويه إلى الحسن، وقتادة، وعيسى. وعن الحسن أيضاً التخفيف. وأصله في هاتين القراءتين اختطف، ففي الأولى لما سكنت التاء للإدغام والخاء ساكنة كسرت لالتقاء الساكنين، فذهبت ألف الوصل وكسرت الطاء اتباعاً لحركة الخاء. وعن ابن عباس ﴿خِطِف﴾ بكسر الخاء والطاء مخففة، أتبع حركة الخاء لحركة الطاء، كما قالوا: نعم. وقرىء ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ مخففاً ومشدداً.

وقيل في تفسير معنى الآية على نهج ما سبق: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي[2]: وأولئك لهم عذاب دائم، لتقصيرهم عن البحث في سر عظمة هذا الكون، والوصول بذلك إلى عظمة خالقه وبديع قدرته. ثم بيّن من وفّقهم الله تعالى، وأنعم عليهم ممن ظفروا بالمعرفة فقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: إلا من لاحت له بارقة من ذلك الجمال، وعنَّت له سانحة منه، فتخطفت بصيرته كالشهاب الثاقب، فحن إلى مثلها وصبت نفسه إلى أختها، وهام بذلك الملكوت العظيم باحثاً عن سر عظمته ومعرفة كنه جماله. وهم من اصطفاهم الله تعالى من عباده، وآتاهم الحكمة من لدنه، وأيدهم بروح من عنده.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وهم أنبياؤه، وأولياؤه الذين أنعم عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

والخلاصة: أن الدنيا بيت فرشه الأرض، وسقفه السماء، وسراجه الكواكب، والبيوت الرفيعة العماد العظيمة البناء، كما تزين بالأنوار تزين بالنقوش التي تكسبها لألاء وبهجة في عيون الناظرين، ولكن لن يصل إلى إدراك تلك المحاسن إلا الملائكة الصافون، والأنبياء، والعلماء المخلصون. أما الجهال، والشياطين المتمردون من الجن والإنس فأولئك عن معرفة محاسنها غافلون. فلقد يعيش المرء منهم، ويموت وهو لاه عن درك هذا الجمال. إذ لا ينال العلم إلا عاشقوه، وقد تبدو لهم أحياناً بارقة من محاسن هذا الجمال، فتخطف بصائرهم كالشهاب الثاقب، فيخطفون منها خطفةً يتبعها قبس من ذلك النور يضيء قلوبهم، وينير ألبابهم. فيكونون ممن كتب الله لهم السعادة، وقيَّض لهم التوفيق والهداية، وممن اصطفاهم ربهم برضوانه والفوز بنعيمه. وقد نحونا بهذا التفسير نحواً آخر يخالف ما في كثير من التفاسير، إذ أنهم قالوا: إن خطف الخطفة كان من الشيطان حين أراد أن يسترق السمع ويأخذ أخبار السماء، فأتبعه شهاب ثاقب فأحرقه ولم يستطع أخذ شيء منها، وعصم الله وحيه وكتابه، اهـ.

قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والضمير لمشركي مكة المنكرين للبعث. والمراد[1] بالاستفتاء هنا: الاستخبار كما في قوله تعالى في قصة أهل الكهف: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، وليس المراد سؤال الاستفهام بل التوبيخ. والمعنى: فاستخبر يا محمد مشركي مكة، توبيخاً لهم، واسألهم سؤال محاجة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وأقوى أجساماً، وأعظم أعضاء، وأحكم خلقة، وأمتن بنية، أو أصعب على الخالق خلقاً، أو أشق إيجاداً ﴿أَم مَّنْ﴾؛ أي: أم الذي ﴿خَلَقْنَآ﴾ هم من السموات والأرض وما بينهما من الملائكة، والمشارق، والمغارب، والكواكب، والشهب الثواقب، والشياطين المردة؛ أي: أأنتم أشد خلقاً من هؤلاء المذكورين، أم أشد منكم خلقاً. و﴿مَّنْ﴾ لتغليب العقلاء على

(١) روح البيان.

غيرهم. قال الزجاج[1]: المعنى: فاسألهم سؤال تقرير أهم أشد خلقاً؛ أي: أحكم صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة، يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب.

ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾؛ أي: خلقنا أصلهم، وهو آدم، وهم من نسله ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾؛ أي: لاصق يلصق ويعلق باليد، لا رمل فيه. والباء في ﴿لَّازِبٍۭ﴾ بدل من الميم، والأصل: لازم مثل: بكة ومكة، كما في كشف الأسرار. واللازب: الثابت كما يقال: صار الشيء ضربة لازب، ومنه: قول النابغة:

لاَ تَحْسَبُوْنَ ٱلْخَيْرَ لاَ شَرَّ بَعْدَهُ   وَلاَ تَحْسَبُوْنَ ٱلشَّرَّ ضَرْبَةَ لاَزِبِ

والمراد من الآية[2]: إثبات المعاد، ورد استحالتهم إياه. وتقريره: إن استحالة المعاد، إما لعدم قابلية المادة، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب، الحاصل من ضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي، وهما باقيان قابلان الانضمام بعد. وإما لعدم قدرة الفاعل، وهو باطل. فإن من قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة.. قادر على ما لا يعتد به، بالإضافة إليها، وهو خلق الإنسان وإعادته سيما، ومن الطين اللازب بدأهم، وقدرته ذاتية لا تتغير. فهي بالنسبة إلى جميع المخلوقات على السواء.

والمعنى في الآية: أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد، وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف، ولم ينكره من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم. وأعظم وأكمل وأتم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ بتشديد الميم، وهي أم المتصلة. وقرأ الأعمش ﴿أمن﴾ بتخفيف الميم دون ﴿أَمْ﴾ استفهاماً ثانياً تقريرياً أيضاً، فهما جملتان مستقلتان في التقرير على قراءته. و﴿مَن﴾: مبتدأ، والخبر محذوف،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

تقديره: أشد، فعلى أم من هو تقرير واحد، ونظيره: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾. قيل: وقرىء ﴿لازم﴾ و﴿لاتب﴾، ولا أدري من قرأ بذلك. واللاتب: الثابت. قال الأصمعي: واللاتب: اللاصق مثل: اللازب. وفي مصحف عبد الله: ﴿أم من عددنا﴾، وهو تفسير لمن خلقنا؛ أي: من عددنا من الصافات وما بعدها من المخلوقين.

ومعنى الآية[1]: أي سل يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث؛ أي أصعب إيجاداً أهم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة؟. والسؤال للتوبيخ والتبكيت، فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد منهم خلقاً؛ أي: وإذاً فكيف ينكرون البعث وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا؟ فأين هم بالنسبة لهذه العوالم التي خلقناها؟. ثم زاد الأمر بياناً، وأوضح هذا التفاوت، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾؛ أي: إنا خلقنا أباهم آدم من طين رخو ملتصق بعضه ببعض. وفي هذا شهادة عليهم بالضعف، والرخاوة دون الصلابة والقوة، فأين هم من كواكب السماء وعالم الملائكة، وتلك العوالم المشرقة، وإذا قدرنا أن نخلق تلك العوالم العظيمة، فهل يعجزنا أن نعيد ما هو مخلوق من طين، لا يصلح للحياة إلا بإشراق الأنوار عليه، ووصول الآثار من العوالم الأخرى إليه.

ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق، إلى خطاب الرسول ﷺ بقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون﴾ منك بسبب تعجبك، أو ويسخرون منك بما تقوله، من إثبات المعاد. وفي «المفردات»: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من إنكارهم البعث لشدة تحققك بمعرفته، ويسخرون بجهلهم. قال سعدي المفتي: وهذا إضراب عن الأمر بالاستفتاء؛ أي: لا تستفتهم فإنهم معاندون ومكابرون لا ينفع فيهم الاستفتاء، وانظر إلى تفاوت حالك وحالهم، أنت تعجب من قدرة الله تعالى، على خلق هذه الخلائق العظيمة، ومن قدرته

---

(١) المراغي.

على الإعادة، وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث. وقال قتادة: عجب نبي الله ﷺ من هذا القرآن، حين أنزل، وضلال بني آدم. وذلك أن النبي ﷺ كان يظن، أن كل من يسمع القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن، فسخروا منه، ولم يؤمنوا، عجب من ذلك النبي ﷺ. فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾. والسخرية: الاستهزاء، والعجب والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء.

والخلاصة: إن قلوبهم غلف، فلا تنظر فيما حولها من البراهين، والآيات الدالة على البعث، ولا تقدر أن تنفذ إلى الإيقان به. فحالهم عجب، ويحق لك أن تكثر التعجب منها، فلقد بلغ من عنادهم وإصرارهم على إنكارهم أن يسخروا من مقالك ومن اهتمامك بإقناعهم في وجوب تسليمهم بالبعث والاعتقاد بحصوله.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء على الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: بل عجبت يا محمد، من قدرة الله، على هذه الخلائق العظيمة، وهم يسخرون منك ومن تعجبك، ومما تريهم من آثار قدرة الله، أو عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث، أو عجبت من إعراضهم عن الحق وعماهم من الهدى، وأن يكونوا كافرين مع ما جئتهم به من عند الله تعالى. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن سعدان، وابن مقسم بتاء المتكلم. ورويت عن علي وعبد الله، وابن عباس، والنخعي، وابن وثاب، وطلحة، وشقيق، والأعمش، وأنكر شريح القاضي هذه القراءة، وقال: الله لا يعجب. فقال إبراهيم: كان شريح معجباً بعلمه، وعبد الله أعلم منه يعني: عبد الله بن مسعود. والظاهر: أن ضمير المتكلم هو لله تعالى، والعجب لا يجوز على الله تعالى؛ لأنه روعة تعتري المتعجب من الشيء. قال الحسن بن الفضل[2]: التعجب من الله إنكار الشيء، وتعظيمه. ومعنى ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾؛ أي: استعظمت كفرهم وإنكارهم البعث، وسخطت منه. وقال علي بن

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

سليمان: معنى القراءتين واحد، والتقدير: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بل عجبت من إنكاركم البعث، مع قيام البراهين الدالة عليه؛ لأن النبي ﷺ مخاطب بالقرآن. قال النحاس: وهذا قول حسن، وإضمار القول كثير. قال القاضي زكريا[1] قوله: ﴿بل عجبتُ ويسخرون﴾ بضم التاء على قراءة حمزة والكسائي. فإن قلت: ما وجهه، مع أن التعجب، روعة تعتري الإنسان عن استعظام الشيء، والله منزه عنها؟.

قلت: أراد بالتعجب: الاستعظام، وهو جائز على الله تعالى، أو معناه: قل يا محمد: بل عجبت. وفي الذي تعجب قولان:

أحدهما: كفرهم بالقرآن.

والثاني: إنكارهم البعث، انتهى.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾؛ أي: ودأبهم المستمر، أنهم إذا وُعظوا بشيء من المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يتعظون. قال سعيد بن المسيب؛ أي: إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه، ولم يتدبروا، انتهى. وفيه إشارة إلى أنهم نسوا الله غاية النسيان، بحيث لا يذكرونه إذا ذكروا. يعني: بالله تعالى لا يتذكرون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ أي: معجزة تدل على صدق القائل بالبعث. والسين، والتاء في قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ للمبالغة والتأكيد؛ أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء. أو للطلب على أصله؛ أي: يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها. ﴿وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الخارق الذي تأتينا به ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: إلا سحر واضح، ظاهر سحريته. وفيه إشارة إلى أن أهل الإنكار إذا رأوا رجلاً يكون آية من آيات الله سبحانه يسخرون منه، ويعرضون عن الإيمان به، ويقولون لما يأتي به: إن هذا إلا سحر مبين، لانسداد بصائرهم عن رؤية حقيقة الحال، بغطاء الإنكار ونسبة أهل الهدى إلى الضلال.

---

(١) فتح الرحمٰن.

وحاصل معنى الآيات[1]: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ⑬﴾؛ أي: وهم لقسوة قلوبهم إذا وعظوا لا تنفعهم العظة؛ لأنه قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فماذا تفيد العبر أو تجدي الذكرى مع قوم هذه حالهم. ثم بالغ في ذمهم وشديد غفلتهم عن النظر في دلائل الحق فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ⑭﴾؛ أي: وإذا أقيمت لهم الأدلة والمعجزات التي تُرشد إلى صدق من يعظهم، ويذكرهم بأيام الله، نادى بعضهم بعضاً، متضاحكين مستهزئين: هلموا وانظروا إلى ما يفعله هذا الساحر، الذي يخلب ألبابنا، ويسلب عقولنا، ويريد أن يصدنا عما كان يعبد آباؤنا. وهذا ما أشار إليه حاكياً قولهم: ﴿وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑮﴾؛ أي: وقالوا: ما هذا الذي يأتينا به الفينة بعد الفينة، مما يدعي أنه أدلة ظاهرة على صدق ما يدعيه، إلا ألاعيب ساحر، وخدعة أريب ماهر يريد أن يلفتنا عما كان يعبد آباؤنا، وما هي من دلائل الحق في شيء، فإياكم أن تخدعوا بها، وترجعوا عن الدين الحق، الذي عليه آباؤكم، وقد مرت عليه القرون ونحن له متبعون.

ثم خصصوا بعض ما ينكرون مما يدعيه من الحشر والبعث، فقالوا: ﴿إئذا﴾؛ أي: أنبعث إذا ﴿مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾؛ أي: وكان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً. وتقديم[2] التراب لأنه منقلب عن الأجزاء البالية، فالعامل في ﴿إذا﴾ هو ما دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهو أنبعث لا نفس مبعوثون لتوسط ما يمنع من عمله فيه؛ أي: لا نُبعث، فإن الهمزة فيه للإنكار الذي يراد به: النفي. وتقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية المنافاة. وهذا[3] الإنكار منهم للبعث هو السبب الذي لأجله كذبوا الرسل وما نزل عليهم، واستهزؤوا بما جاؤوا به من المعجزات. والهمزة في قوله: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري أيضاً، والواو للعطف، و﴿ءَابَآؤُنَا﴾ مبتدأ، خبره محذوف عند سيبويه؛ أي: و﴿ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ أي: الأقدمون أيضاً مبعوثون؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

لا يبعثون. ومرادهم زيادة الاستبعاد، بناء على أنهم أقدم، فبعثهم أبعد على زعمهم.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ بفتح الواو على أن الواو حرف عطف، دخلت عليه همزة الاستفهام. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وابن عامر، ونافع في رواية قالون بسكون الواو على أن ﴿أَوْ﴾ هي العاطفة. وفي «فتح الرحمٰن»: ختم الآية هنا بقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وختم التي بعدها بقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ أي: لمجزيون ومحاسبون، لأن الأولى في حق المنكرين للبعث، والثانية في حق المنكرين للجزاء، وإن كان كل منهما مستلزماً للآخر، انتهى.

ومعنى الآية: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا...﴾ إلخ؛ أي[1]: إنا لو تقبلنا منه بعض ما يقول، وإن كان فيه ما يدهش العقول، لا نتقبل منه تلك المقالة. وهي إحياء العظام النخرة، والأجسام التي صارت تراباً إن هذا إلا إحدى الكبر، فلا ينبغي أن نوجه النظر إلى مثل هذه الآراء التي لا يقبلها العقل، ولا يصل إلى مثلها الفكر. ثم زادوا في استبعادهم وتعظيم تعجبهم، فقالوا: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أيبعث آباؤنا الأولون أيضاً. وهذا أغرب؛ لأن أباءهم أقدم منهم، فبعثهم أشد غرابة وأكثر استبعاداً.

وبعد أن حكى عنهم هذه الشبهة.. أجاب عنها بقوله ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول تبكيتاً لهم ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون يوم القيامة، بعدما تصيرون تراباً وعظاماً ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: والحال أنكم صاغرون أذلاء أمام القدرة البالغة. ونحو الآية قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. و﴿نَعَمْ﴾[2] بفتحتين، يقع في جواب الاستخبار، المجرد من النفي، ورد الكلام الذي بعد حرف الاستفهام. والخطاب لهم ولآبائهم على التغليب. والدخور: أشد الصغار، والذلة. والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم؛ أي: كلكم مبعوثون، والحال أنكم صاغرون، ذليلون على زعم منكم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ثم ذكر سبحانه، أن بعثهم يقع بزجرة واحدة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ الضمير للقصة، أو البعثة المفهومة مما قبلها؛ أي: إنما قصة البعث أو البعثة ﴿زَجْرَةٌ﴾؛ أي: صيحة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ من إسرافيل بنفخه في الصور عند البعث، لا تحتاج إلى الأخرى. و﴿هِيَ﴾ إما ضمير مبهم، يفسره خبره، أو ضمير البعثة المذكورة في ضمن ﴿نَعَمْ﴾؛ لأن المعنى: نعم مبعوثون. والجملة جواب شرط مضمر، أو تعليل لنهي مقدر؛ أي: إذا أمر الله بالبعث، فإنما هي إلخ، أو لا تستصعبوه فإنما هي إلخ. والزجرة: الصيحة، كما سيأتي. وهي النفخة الثانية. ﴿فَإِذَا هُم﴾ إذا للمفاجأة، والضمير للمشركين. وفي بعض التفاسير للخلائق كلهم؛ أي: فإذا هم قائمون من مراقدهم أحياء ﴿يَنظُرُونَ﴾ حيارى إلى ما كانوا يوعدون به من قيام الساعة، أو يبصرون كما كانوا، أو ينتظرون ما يفعل بهم من الحساب والجزاء.

﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: قال أولئك المبعوثون، لما عاينوا البعث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾؛ أي: يا هلاكنا احضر إلينا لنتعجب منك، فهذا أوان حضورك. وصيغة الماضي في ﴿قَالُوا﴾ للدلالة على التحقق والتقرر. وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم، بطريق الاستئناف؛ أي: هذا اليوم، هو اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا، من الكفر والتكذيب للرسل. وإنما علموا ذلك، لأنهم كانوا يسمعون في الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجازون بأعمالهم، فلما شاهدوا البعث، أيقنوا بما بعده أيضاً. فتقول الملائكة لهم بطريق التوبيخ والتقريع: ﴿هَٰذَا﴾ اليوم الحاضر هو ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ والقضاء بين الخلائق، أو يوم الفرق بين فريقي الهدي والضلال. ﴿الَّذِي كُنتُم﴾ على الاستمرار ﴿بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: تكذبون به، وتقولون: إنه كذب ليس له أصل أبداً. وتقديم الجار لرعاية الفاصلة.

والمعنى[1]: أي وقال المنكرون للبعث في الدنيا، حين رأوا العذاب لنا: الويل والهلاك، فقد حل ميعاد الجزاء، وسنجازى بما قدمنا من عمل، كما وعدنا

---

(١) المراغي.

بذلك على ألسنة الرسل، فكذبناهم، وسخرنا منهم، وأنكرنا صدق ما قالوا. ثم أقبل بعضهم على بعض يتناجون، ويقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ...﴾ إلخ؛ أي: هذا اليوم، هو اليوم الذي يمتاز فيه المحسن، بما قدم من عمل، عن المسيء الذي دسّى نفسه، بما ران على قلبه من الفسوق والعصيان، ومخالفة أوامر الملك الديّان، وينال كل منهما جزاء ما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فيدخل الأول جنات النعيم على فرش بطائنها من استبرق، ويدخل الثاني في سقر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

فيقول الله تعالى للملائكة: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك، واجمعوهم. والمراد بالظالمين: المشركين من بني آدم. ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾؛ أي: أشباههم من أهل الشرك، والكفر، والنفاق، والعصيان عابد الصنم مع عبدته، وعابد الكواكب مع عبدتها، واليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمجوس مع المجوس، وغيرهم من أهل الملل المختلفة. ويجوز أن يكون المراد بالأزواج: نساءهم اللاتي على دينهم، أو قرناءهم من الشياطين، كل كافر مع شيطانه في سلسلة. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، من الأصنام والشياطين ونحوها، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم.

وهذا[1] العموم المستفاد من ﴿مَا﴾ الموصولة، فإنها عبارة عن المعبودين لا عن العابدين، كما قيل مخصوص لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح، ومنهم من عبد الملائكة، فيخرجون بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾. ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل، هو زيادة التبكيت لعابديها، وتخجيلهم، وإظهار أنها لا تنفع ولا تضر. ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾؛ أي: فاهدوا أيها الملائكة الظالمين وأزواجهم ومعبوديهم، وسوقوهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ودلوهم عليها؛ أي: عرّفوهم طريق جهنم، ووجهوهم إليها. وفي هذا تهكم بهم. ويقال: الظالم في الآية عام على من ظلم نفسه وغيره، فيحشر كل

---

(١) الشوكاني.

ظالم، مع من كان معيناً له، أهل الخمر مع أهل الخمر، وأهل الزنا مع أهل الزنا، وأهل الربا مع أهل الربا، وغيرهم كل مع مصاحبه.

ومعنى الآية[1]: أي ويقال للملائكة: احشروا الظالمين من كل مكان إلى موقف الحساب، مع أشباههم وأمثالهم، فاجعلوا ذوي المعاصي المتشابهة بعضهم مع بعض، فاجعلوا الزناة معاً، والآكلين لحوم الناس والناهشين لأعراضهم كذلك، واجعلوا عابدي الأصنام ومعبوديهم من الأوثان والأصنام معاً، ليكون في ذلك زيادة لهم في الحسرة، وعظيم التخجيل على ما أتوه من عظيم الشرك، وكبير المعصية. ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم ودلوهم عليها. وفي هذا زيادة في النكاية بهم. والازدراء بشأنهم. إذ كانوا في الدنيا يزدرون المؤمنين ويتقحمونهم. ﴿وَقِفُوهُمْ﴾؛ أي: قفوا أيها الملائكة المشركين، واحبسوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن أعمالهم، وأقوالهم، وأفعالهم تعليل للجملة الأولى. وقال الضحاك: عن خطاياهم. وقيل: عن لا إله إلا الله. وقيل: عن ظلم العباد. وقرأ الجمهور: بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾. وقرأ عيسى بن عمر بفتحها. قال الكسائي: أي: لأنهم أو بأنهم؛ أي: واحبسوهم أيها الملائكة في الموقف، حتى يسألوا عما كسبت أيديهم، واجترحوا من المعاصي والآثام، وعن تلك العقائد الزائغة التي زينها لهم الشيطان، فأضلهم عن سواء السبيل.

وقولوا أيها الملائكة للمشركين عند ذلك: ﴿مَا لَكُمْ﴾؛ أي: أي شيء ثبت لكم أيها المشركون حالة كونكم ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾؛ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً بالتخليص من العذاب، كما كنتم تزعمون في الدنيا، كما قال أبو جهل يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. وجملة ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ حال من معنى الفعل في ﴿مَا لَكُمْ﴾؛ أي: ما تصنعون حال كونكم غير متناصرين، ومعناه: ما سبب عدم تناصركم، ولأي شيء لا ينصر بعضكم بعضاً، وقد كنتم في الدنيا تزعمون أنكم تتناصرون.

---

(١) المراغي.

وقرىء ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ بتاء واحدة، وبتاءين، وبإدغام إحداهما في الأخرى. وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت، لأنه وقت تنجّز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة، وحالة انقطاع الرجاء منها بالكلية. فالتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً وفي الأثر: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن خمس: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله مم كسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به». وقد جاء في الآثار: «إن مذاكرة العلم ساعة خير من إحياء الليلة». خصوصاً إذا كان مما يتعلق بالله ويقل أهله في هذا الزمان، وانقطعت مذاكرته عن اللسان، لانقطاع ذوق الجنان وانسداد البصيرة. والعياذ بالله من الخذلان والحرمان.

والخلاصة: إن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم، إنما يكون بعد إقامة الحجج عليهم، وقطع أعذارهم بعد حسابهم.

ثم أضرب سبحانه، عما تقدم إلى بيان الحالة التي هم عليها هنالك، فقال: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: فيقول الله سبحانه: بل هم في هذا اليوم الرهيب ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، ذليلون خاضعون بالاضطرار لظهور عجزهم. إذ قد سدت أمامهم وجوه الحيل، وعجزوا عن الوصول إلى السلام من أي طريق يلتمسونها، فلا فائدة في المنازعة، ولا سبيل إلى الجدل والمخاصمة. فأسلم بعضهم بعضاً إلى الهلكة وخذله عن عجز، فكل مستسلم صاحبه غير منتصر له، كقوم متحابين انكسرت سفينتهم، فوقعوا في البحر، فأسلم كل واحد منهم صاحبه إلى الهلكة لعجزه عن تنجية نفسه فضلاً عن غيره، بخلاف حال المتحابين في الله سبحانه. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾؛ أي: بعض الكفار بوجهه. وهم الأتباع أو الكفرة. والإقبال ضد الإدبار ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الرؤساء أو القرناء حال كونهم ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ ويتخاصمون؛ أي: يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ، بطريق الخصومة والجدال، كأنه قيل: كيف يتساءلون؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: الأتباع للرؤساء أو الكفرة للقرناء ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الرؤساء أو القرناء ﴿كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة والإجبار. فـ﴿عن﴾ بمعنى الباء، واليمين بمعنى القوة كقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣﴾؛ أي: بالقوة،

فتجبروننا على الغي والضلال فاتبعناكم خوفاً منكم بسبب القهر والقوة. وعبر[1] عن القوة باليمين بمعنى الجارحة؛ لأن أكثر الأعمال تزاول بها، أو كنتم تأتوننا عن اليمين؛ أي: عن الناحية التي كان منها الحق، فتصرفوننا عنها، كما في «المفردات». أو تأتوننا عن الجهة التي كنا نأمنكم منها، لحلفكم أنكم على الحق، فصدقناكم فأنتم أضللتمونا، كما في «فتح الرحمٰن» فاليمين إذاً بمعنى الحلف؛ أي: تأتوننا بالأيمان التي كنتم تحلفونها فوثقنا بها. والأول أوفق للجواب الآتي، كما في «الإرشاد». أو كنتم تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك عن جهة النصح، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين، وتسميه السانح.

والمعنى[2]: أي وأقبل التابعون من الكفار على رؤسائهم المضلين لهم، يسأل بعضهم بعضاً سؤال تقريع وتعنيف، على طريق الجدل والخصومة، إذ أيقنوا أنهم هالكون لا محالة، وأنهم صائرون إلى عذاب دائم في النار. فألقى الأتباع مسؤولية ما هم فيه على رؤسائهم في الكفر والضلال، ورد الرؤساء عليهم حجتهم بما جاء في الآية بعد.

ثم فصل طريق التساؤل، وكيف يحدث. فقال: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾؛ أي: قال الأتباع لرؤساء الضلال والكفر: إنكم كنتم تمنعوننا عن فعل الخير، وتصدوننا عن سلوك طريقه، وترغّبوننا فيما تديّنون به وتعتقدونه. ومن ثم أضللتمونا، وأوقعتمونا في الهلاك الذي نحن صائرون إليه لا محالة. فرد الرؤساء عليهم، وأجابوهم بجوابين:

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: فماذا قال الرؤساء أو القرناء؟ فقيل: قالوا: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لم نمنعكم نحن من الإيمان بالقوة والقهر أو بغير ذلك، بل لم تؤمنوا باختياركم، وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه، وآثرتم الكفر عليه؛ أي: فردوا عليهم منكرين إضلالهم إياهم، قالوا: إننا ما أضللناكم بل أنتم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

كنتم بطبيعة أنفسكم مستعدين للكفر، بما دسيتم به أنفسكم، من أفعال الشرك والمعاصي. إذ كنتم تشركون بالله سواه من الأوثان والأصنام، وترتكبون من أنواع الفجور وما كان سبباً في الطبع على القلوب والأفئدة حتى لم تعرفوا للحق سبيلاً ولا للخير طريقاً.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾؛ أي: من قهر وتسلط نسلب به اختياركم. والسلاطة: التمكن من القهر، ومنه: السلطان: بمعنى الغالب والقاهر. والسلطان يطلق على السلاطة أيضاً، ومنه: ما في هذه الآية ونظائرها ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾؛ أي: مختارين للطغيان مصرين عليه. والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان.

والمعنى[1]: أي إننا على فرض إضلالكم وتزيين الكفر لكم، لم نجبركم عليه، ولم نسلبكم اختياركم. فقلوبكم كانت محبة لما تفعلون، مسرورة مما تأتون وما تذرون، مائلة إلى الكفر والعصيان، تواقة للسير على سننه واتباع طريقته. فما كان منا إلا أن دعوناكم لتؤمنوا بما اخترناه لأنفسنا، وزيّنه الشيطان لنا، ووسوس به إلينا، فلبيتم دعوتنا سراعاً، وسرتم فيما نحن فيه سائرون، إذ كنتم لذلك مستعدين ولمثله محبين، فما كان منا إلا الدعوة، وكانت منكم الإجابة باختياركم لا جبراً لكم.

ثم ذكروا نتيجة لما تقدم، فقالوا: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾؛ أي: لزم وثبت علينا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ وقضاؤه بتعذيبنا، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾؛ أي: العذاب الذي ورد به الوعيد.

والمعنى: أي ولأجل أنا بطبعنا، كنا قوماً طاغين، وللكفر وتدسية أنفسنا مستعدين، وعن الإيمان بربنا معرضين، ثبت علينا وعيده، بأنا ذائقوا العذاب لا محالة، إذ كان من عدله أن يجازي كل نفس بما كسبت، ويثيبها بما عملت. وهو الخبير بها، وبما اجترحت. وهذا جزاء لا محيص عنه، وهو نتيجة حتمية لما

---

(١) المراغي.

فعلنا باختيارنا، واقتضاه استعدادنا، فلا يلومنَّ كل منا إلا نفسه، ولا يلم بعضنا بعضاً، ولا داعي إلى الجدل والخصام وشد النكير، فلا يُجنى من الشوك العنب، ولا يعقب الضلال إلا النار عدلاً من ربنا، كما وعد بذلك على ألسنة رسله، وكنا بذلك عالمين، ولكنا كنا عن الخير معرضين، وعن اتباعه مستكبرين ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛ أي: فدعوناكم إلى الغي والضلال، دعوة غير ملجئة، فاستجبتم لنا باختياركم الغي على الرشد ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾؛ أي: ثابتين على الغواية، فلا عتب علينا في تعرضنا لإغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة، لتكونوا أمثالنا في الغواية؛ أي: إنه لم يكن منا في شأنكم إلا حبنا أن تكونوا مثلنا. وهو غير ملزم لكم، وإنما أضركم سوء اختياركم، وقبح استعدادكم. وهو الذي جعل مصيركم ما تشاهدون من العذاب، الذي وعدتم به على ألسنة الرسل.

وبعد أن ذكر حالهم.. أعقبه بذكر العذاب الذي سيحل بهم جميعاً، رؤساء ومرؤوسين. فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: فإن الأتباع والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يتساءلون، وهو يوم القيامة ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية؛ أي: فإن الفريقين المتسائلين حينئذ مشتركون في العذاب لا محالة، كما اشتركوا في الضلال والغواية وإن كان المغوون أشد عذاباً، لأنهم تحملوا أوزارهم وأوزاراً مثل أوزار من أضلوهم، كما ثبت في الحديث. وقد تقدم ذكره مراراً.

ثم ذكر سبحانه، أن هذا عدل منه على مقتضى سننه، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الفعل البديع الذي تقتضيه الحكمة التشريعية. وهو الجمع بين الضالين والمضلين في العذاب. ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتناهين في الإجرام. وهم المشركون، كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بطريق الدعوة والتلقين بأن يقال لهم: قولوا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: يتكبرون، ويتعظمون عن القول بهذه الكلمة المشرّفة. ومحل ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النصب على أنه خبر كان، أو الرفع على أنه خبر إن، وكان ملغاة.

والمعنى: أي إن مثل ذلك الجزاء العظيم نفعل بالمشركين، وفاقاً لما

تقتضيه الحكمة، ويوجبه العدل بين العباد. فيعطي كل عامل جزاء ما قدمت يداه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ثم فصل بعض ما استحقوا لأجله العذاب، فقال: إنهم كانوا إذا لقنوا كلمة التوحيد نفروا منها، وأعرضوا عن قبولها، وصعروا خدودهم أنفة وكبرا أن يسمعوا مثلها.

واعلم: أنه وقع ذكر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في القرآن في موضعين:

أحدهما: في هذه السورة.

والثاني: في سورة القتال في قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وليس في القرآن لهما ثالث.

ثم ذكروا السبب الذي لأجله امتنعوا من استجابة دعوته، فيما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: المشركون بعضهم لبعض. والهمزة في قوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا﴾ للاستفهام الإنكاري؛ أي: ما نحن بتاركي عبادة آلهتنا وهي الأصنام. ﴿لِشَاعِرٍ﴾؛ أي: لأجل قول شاعر ﴿مَّجْنُونٍ﴾؛ أي: مغلوب على عقله، يعنون محمداً ﷺ؛ أي: أنترك عبادة الآلهة التي ورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر، ونستمع لقول شاعر يخلط ويهذي. فمثله لا يستمع لكلامه، ولا يصغي إلى قوله.

ولقد كذبوا في ذلك حيث جنّنوه وشعّروه، وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً، وأحسنهم رأياً، وأشدهم قولاً، وأعلاهم كعباً في المآثر والفضائل كلها، وأطولهم باعاً في العلوم والمعارف بأسرها. ويشهد بذلك خطبة أبي طالب في تزويج خديجة الكبرى في محضر بني هاشم، ورؤساء مضر على ما سبق في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ الآية.

وقد جمعوا في كلامهم هنا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة. فإنكار الأولى في استكبارهم حين سماع كلمة التوحيد، وإنكار الثانية في قولهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾.

ثم كذبهم سبحانه، فيما قالوا، فقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ليس الأمر على ما قالوه من الشعر والجنون، بل جاء محمد ﷺ بالحق. وهو التوحيد.

﴿وَصَدَّقَ﴾؛ أي: محمد ﷺ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قبله جميعاً في مجيئهم بذلك. فما جاء به هو الذي أجمع عليه كافة الرسل، فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة؟.

والمعنى: أي أنه ﷺ جاء بالحق الذي لا شك فيه، وهو التوحيد الذي يثبته العقل، ويؤيده البرهان، وبمثله جاء الأنبياء السابقون. فهو لم يكن بدعاً من بين الرسل، بل سار على شاكلتهم، واتبع نهجهم. فكيف يكون من هذه حاله شاعراً أو مجنوناً؟!.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿وصدق﴾ بالتخفيف، ﴿المرسلون﴾ بالواو رفعا؛ أي: وصدق المرسلون في التبشير به، وفي أنه يأتي آخرهم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول والاستكبار ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لذائقو العذاب﴾ بحذف النون للإضافة، وأبو السمال وأبان عن ثعلبة عن عاصم بحذفها لالتقاء لام التعريف ونصب العذاب، كما حذف بعضهم التنوين لذلك في قراءة من قرأ ﴿أحد الله﴾. ونقل ابن عطية عن أبي السمال: أنه قرأ ﴿لذائق﴾ منوّناً، ﴿العذاب﴾ بالنصب. ويخرّج على أن التقدير: جمع، وإلا لم يتطابق المفرد وضمير الجمع في ﴿إِنَّكُمْ﴾. وأنشد سيبويه في مثل هذه القراءة بالحذف للنون، والنصب للعذاب قول الشاعر:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ... وَلاَ ذَاكِرِ ٱللَّهَ إِلاَّ قَلِيْلاَ

وقرىء ﴿لذائقون﴾ بالنون ﴿العذاب﴾ بالنصب. والمعنى؛ أي: إنكم أيها الكفار المجرمون لتذوقون العذاب الأليم، الذي لا تنفك أوجاعه عنكم، وما هو أبداً بمزايلكم.

ثم بيّن العلة في لحوقه بهم، فقال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ أيها الكفرة ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا جزاء ما كنتم تعملونه من السيئات، أو إلا بما كنتم تعملونه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

منها؛ أي: وما ينالكم من العذاب إنما هو نتيجة ما قدمتم من عمل وأسلفتم من معصية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

قال ابن الشيخ[1]: ولما كان المقام مظنة أن يقال: كيف يليق بالكريم الرحيم المتعالي، عن النفع والضر أن يعذب عباده؟ أجاب عنه بقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ...﴾ إلخ. وتقريره: أن الحكمة تقتضي الأمر بالخير والطاعة، والنهي عن القبيح والمعصية، ولا يكمل المقصود من الأمر والنهي إلا بالترغيب في الثواب والترهيب بالعقاب. ولما وقع الإخبار بذلك، وجب تحقيقه صوناً للكلام عن الكذب. فلهذا السبب وقعوا في العذاب، انتهى. فعلى العاقل: أن يحذر من يوم القيامة وجزائه، فينتقل من الإنكار إلى الإقرار، ومن الشك إلى اليقين، ومن الكبر إلى التواضع، ومن الباطل إلى الحق، ومن الفاني إلى الباقي، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص.

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما علامة المؤمن؟ قال: أربع: أن يطهر قلبه من الكبر والعداوة، وأن يطهر لسانه من الكذب والغيبة، وأن يطهر قلبه من الرياء والسمعة، وأن يطهر جوفه من الحرام والشبهة. وأعظم الكبر أن يتكبر عن قول: لا إله إلا الله الذي هو أساس الإيمان، وخير الأذكار.

وبعد أن أبان حال المجرمين، ذكر حال عباد الله المؤمنين العاملين، وما يلاقونه من الجزاء والنعيم. فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ استثناء منقطع من ضمير ﴿ذائقون﴾، وما بينهما اعتراض، جيء به مسارعةً إلى تحقيق الحق، ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم، لا من جهة غيرهم أصلاً، ولكون الاستثناء منقطعاً و«إلا» بمعنى لكن.

قال في «كشف الأسرار»: تم الكلام هھنا؛ أي: عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. والمعنى: إنكم لذائقوا العذاب الأليم، لكن عباد الله المخلصين لا يذوقونه.

---

(١) روح البيان.

قرأ أهل المدينة والكوفة[1]: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، جمع مخلص بصيغة اسم المفعول، وهو من أخلصه الله واصطفاه لدينه وعبادته، واختاره لجناب حضرته كقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾؛ أي: اصطفاهم الله تعالى، فلهم سلامة من الأزل إلى الأبد. وقرأ الباقون: بكسر اللام جمع مخلص على صيغة اسم الفاعل، وهو من أخلص عبادته لله تعالى، ولم يشرك بعبادته أحداً كقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾. وحقيقة[2] الفرق بينهما على ما قال بعضهم: إن الصادق والمخلص بالكسر من باب واحد، وهو من تخلص من شوائب الصفات النفسانية مطلقاً. والصديق والمخلص بالفتح من باب واحد، وهو من تخلص من شوائب الغيرية أيضاً. والثاني أوسع فلكاً، وأكثر إحاطة. فكل صديق ومخلص بالفتح صادق ومخلص بالكسر من غير عكس. فرحم الله حفصاً حيث قرأ بالفتح حيثما وقع في القرآن.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المخلصين، وهو كلام مستأنف. فكأن[3] سائلاً سأل ما لهؤلاء المخلصين من الأجر والثواب؟ فقيل: أولئك الممتازون عمن عداهم بالإضافة والإخلاص ﴿لَهُمْ﴾ بمقابلة إخلاصهم في العبودية ﴿رِزْقٌ﴾ لا يدانيه رزق، ولا يحيط به وصف على ما يفيده التنكير. والرزق اسم لما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله، كما سيأتي. ﴿مَّعْلُومٌ﴾ الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، ونحوها من نعوت الكمال.

والظاهر: أن معناه: معلوم وجوداً وقدراً وحسناً ولذة وطيباً ووقتاً بكرة وعشياً، أو دواماً كل وقت اشتهوه. فإن فيه فراغ الخاطر. وإنما يضطرب أهل الدنيا في حق الرزق، لكون أرزاقهم غير معلومة لهم كما في الجنة. ﴿فَوَٰكِهُ﴾ بدل من ﴿رِزْقٌ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو فواكه، وهو الظاهر، جمع فاكهة. وهي الثمار كلها رطبها ويابسها. وتخصيصها بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه؛ أي: ما يؤكل بمجرد التلذذ دون الاقتيات؛ لأنهم مستغنون عن القوت

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

لكون خلقتهم على حالة تقتضي البقاء، فهي محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل، بخلاف خلقة أهل الدنيا فإنها على حالة تقتضي الفناء، فهي ضعيفة محتاجة إلى ما يحصل به القوام. وقال بعضهم: خصها بالذكر؛ لأن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة، فذكرها مغن عن ذكر غيرها.

يقول الفقير[1]: والظاهر أن الاقتصار على الفواكه للترغيب والتشويق من حيث إنه لا يوجد في أغلب ديار العرب خصوصاً في الحجاز أنواع الفواكه. وجملة قوله: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿لهم﴾؛ أي: معظمون عنده تعالى، برفع درجاتهم عنده، وسماع كلامه ولقائه في الجنة، لا يلحقهم هوان. وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولي الهمم. وقال بعضهم: لما فصل خصائص رزقهم بيَّن أن ذلك الرزق، يصل إليهم بالتعظيم والإكرام. لأن مجرد المطعوم من غير إعزاز وإكرام يليق بالبهائم. وقرأ الجمهور[2] ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بتخفيف الراء. وقرأ ابن مقسم ﴿مكرمون﴾ بفتح الراء مشدداً.

ومعنى الآية: أي لكن عباد الله، الذين أخلصوا له العمل، وأنابوا إليه أولئك لهم جنات يتمتعون فيها بكل ما لذ وطاب، فيتمتعون بلذيذ الفواكه ذات الطعم الجميل، والرائحة الشذية، وتأتيهم وهم مكرمون. كما تقدم للملوك المترفين وذوي اليسار في الدنيا. وفي ذلك إيماء إلى أن ما يأكلونه في الجنة، إنما هو للتفكه والتلذذ لا للتقوّت، كما مر، لأنهم في غنى عنه لعدم تحلل شيء من أجسامهم بالحرارة الغريزية، حتى يحتاجوا إلى بدل منه. وما جاء في قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ فهو بيان لأنواع ما يأكلون.

ثم بيَّن المكان الذي يأتيهم فيه الرزق، وذكر حالهم إذ ذاك. فقال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يجوز أن يتعلق بـ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، وأن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً. والنعيم: النعمة؛ أي: في جنات ليس فيها إلا النعيم. فالإضافة للاختصاص، والظرف يقرر محل الرزق والإكرام. وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتمل أن

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

يكون حالاً، وأن يكون خبراً ثالثاً، جمع سرير. وهو الذي يُجلس عليه من السرور إذ كان كذلك لأولي النعمة. ويجوز أن يتعلق ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ بقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: حال كونهم متقابلين على سرر. وهو حال من الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾. والتقابل وهو أن ينظر بعضهم وجه بعض أتم للسرور والأنس. وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم. ثم أن استئناس بعضهم برؤية بعض صفة الأبرار، فإن من صفة الأحرار أن لا يستأنسوا إلا بمولاهم. وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ بضم الراء. وقرأ أبو السمال بفتحها. وهي لغة بعض تميم وكلب، يفتحون ما كان جمعاً على فعل من المضعف إذا كان اسماً.

والمعنى: أي إنهم يأتيهم ذلك الرزق وهم في جنات النعيم جالسين على سرر متقابلين ليأنس بعضهم ببعض، ويتمتعوا بطيب الحديث. وفي ذلك لذة روحية لا يدركها إلا ذوو النهى وأرباب الحجا.

وبعد أن ذكر صفة مأكل المخلصين ومسكنهم ذكر صفة شربهم، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ استئناف مبني على ما نشأ عن حكاية تكامل مجالس أنسهم؛ أي: يدار عليهم وهم على سرر ﴿بِكَأْسٍ﴾؛ أي: بإناء فيه خمر[1]. فإن الكأس يُطلق على الزجاجة ما دام فيها خمر، وإلا فهو قدح وإناء. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ صفة كأس؛ أي: كائنة من شراب معين؛ أي: ظاهر للعين أو من نهر معين؛ أي: جار على وجه أرض الجنة. فإن في الجنة أنهاراً جارية من خمر، كأنها جارية من ماء.

وفي الآية إشارة إلى أن قوماً شربوا، ومشربهم الشراب بالكأس، والشراب معين محسوس، وقوماً شربوا، ومشربهم الحب، والحب مغيب مستور، وقوماً شربوا، ومشربهم المحبوب هو سر مكنون.

نَسِيمُ ٱلْحُبِّ يُحْيِيْكُمْ رَحِيقُ ٱلْحُبِّ يُلْهِيْكُمْ
مِنَ ٱلْمَحْبُوبِ يَأْتِيْكُمْ إِلَىٰ ٱلْمَحْبُوبِ يُنْهِيْكُمْ

والمعنى[2]: أي وكما يتمتعون بطيب المأكل، يتمتعون بجيد الشراب،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

تتميماً للنعمة، كما هو حال العظماء في الدنيا، فيؤتى لهم بصنوف الخمور على سبيل السعة والكثرة، كأنها تؤخذ من نهر جار، فلا تقتير ولا بخل، بل كلما طلبوا وجدوا. وفي ذلك إشارة إلى أنها رقيقة لطيفة، وأنها ليست كخمر الدنيا تداس بالأقدام، كما قال شاعرهم:

وَشَمُولَةٍ مِنْ عَهْدِ عَادٍ قَدْ غَدَتْ ... صَرْعَىٰ تُدَاسُ بِأَرْجُلِ ٱلْعُصَّارِ
لاَنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ ٱنْتَشَوْا فَتَمَكَّنَتْ ... مِنْهُمْ فَصَاحَتْ فِيهِمُ بِٱلثَّارِ

وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ ممنوع من الصرف لألف التأنيث؛ أي: يطاف عليهم بكأس بيضاء لوناً أشد من لون اللبن، والخمر البيضاء لم تر في الدنيا، ولن تُرى. وهذا من جملة: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وبيضاء تأنيث أبيض، صفة ثانية أيضاً لكأس، وكذا قوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ صفة ثالثة له؛ أي: لذيذة لكل من يشرب منها. ووصفها[1] بلذة ـ الذي هو مصدر ـ إما للمبالغة؛ أي: كأس لذيذة عذبة شهية طيبة، صارت في لذتها كأنها نفس اللذة، أو لأنها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ. وصفها باللذة بياناً لمخالفتها لخمور الدنيا لانقطاع اللذة من خمور الدنيا كلها رأساً بالكلية.

والمعنى[2]: أي يطاف عليهم بكأس لونها مشرق حسن بهي، لا كخمر الدنيا ذات المنظر البشع واللون الأسود أو الأصفر أو الذي فيه كدورة إلى نحو ذلك مما ينفّر الطبع السليم. وهي لذيذة الطعم كما هي طيبة اللون وطيبة الريح. وقد وصفوا خمر الدنيا بالصفرة، كما قال أبو نواس:

صَفْرَاءُ لاَ تَنْزِلُ الأَحْزَانُ سَاحَتَهَا ... لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

وجاء وصفها بالحمرة قبل المزج والصفرة بعده، كما قال الآخر:

وَحَمْرَاءُ قَبْلَ ٱلْمَزْجِ صَفْرَاءُ بَعْدَهُ ... أَتَتْ فِيْ ثِيَابِيْ نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ
حَكَتْ وَجْنَةَ ٱلْمَحْبُوْبِ صِرْفَاً فَسَلَّطُوْا ... عَلَيْهَا مِزَاجَاً فَٱكْتَسَتْ لَوْنَ عَاشِقِ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ثم زاد في مدحها، وامتيازها عن خمر الدنيا فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾؛ أي: ليس في تلك الكأس غول. قال ابن عباس، وقتادة: هو صداع في الرأس. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وابن زيد: وجع في البطن، انتهى. ولكن لفظ الغول يشمل جميع أنواع المفاسد الناشئة من شرب الخمر، فينتفي جميعها من صداع وسكر ومغص وخمار؛ أي[1]: هي لا تؤثر في الأجسام كما تؤثر خمور الدنيا، فلا تصدع الرأس ولا تفسد العقل بالسكر، كما يكون في خمر الدنيا، كما قال:

فَمَا زَالَتِ ٱلْكَأْسُ تَغْتَالُنَا وَتَذْهَبُ بِٱلأَوَّلِ ٱلأَوَّلِ

والخلاصة: أنه ليس فيها شيء من أنواع المفاسد التي تكون حين شرب الخمر في الدنيا. فهي لا تحدث صداعاً، ولا خماراً، ولا سكراً، ولا عَرْبدةً، ولا نحو ذلك، مما هو لازم لخمور الدنيا. وجملة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ من المبتدأ والخبر صفة رابعة لكأس أيضاً، وبطل عمل لا، وتكررت لتقدم خبرها.

﴿وَلَا هُمْ﴾؛ أي: المخلصون ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن خمر الجنة ﴿يُنزَفُونَ﴾؛ أي: يسكرون، من نزف الشارب فهو نزيف إذا ذهب عقله من السكر.

قرأ الحرميان[2]: نافع وابن كثير، والعربيان: أبو عمر وابن عامر ﴿ينزفون﴾ بضم الياء وفتح الزاي هنا، وفي الواقعة مبنياً للمفعول، من نزف الثلاثي، يقال: نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله من السكر. وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء وكسر الزاي فيهما، من أنزف الرباعي، يقال: أنزف الرجل إذا سكر وذهب عقله أو نفد شرابه. وقرأ عاصم: بفتحها هنا، وكسرها في الواقعة. وقرأ ابن أبي إسحاق بفتح الياء وكسر الزاي. وقرأ طلحة بفتح الياء وضم الزاي.

ثم إنه[3] أفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله من نفي الغول عنها لما أنه من معظم مفاسد الخمر، كأنه جنس برأسه.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

والمعنى: لا فيها نوع من أنواع الفساد من مغص؛ أي: وجع في البطن أو صداع أو حمى أو عربدة؛ أي: سوء خلق. والمعربد مؤذ نديمه في سكره، اهـ «قاموس»، أي: لا لغو فيها ولا تأثيم ولا هم يسكرون. وفي «بحر العلوم»: وبالجملة ففي خمر الدنيا أنواع من الفساد من السكر، وذهاب العقل، ووقوع العداوة والبغضاء والصداع والخسارة في الدين والدنيا، حتى جُعل شاربها كعابد الوثن ومن القيء والبول، وكثيراً ما تكون سبباً للقتال والضراب والزنى، وقتل النفس، بغير حق، كما شُوهد من أهلها، ولا شيء من ذلك كله في خمر الجنة. قال بعضهم: جميع البلاء والارتكابات ليس إلا لكثافتنا. فلولا هذه الكثافة، لما عرض لنا الأمراض، والأوجاع، ولم يصدر منا ما يقبح في العقول والأوضاع. ألا ترى: أنه لا مرض في عالم الآخرة، ولا شيء مما يتعلق بالكثافة، ولكن معرفة الله تعالى لا تحصل لو لم تكن تلك الكثافة، فهي مدار الترقي والتنزل. ولذلك لا يكون للملائكة ترقّ وتدل، فهم على خلقتهم وجبلتهم الأصلية.

ثم ذكر محاسن زوجاتهم، ليكون في ذلك تتميم لبيان ما آتاهم ربهم من النعم. فقال: ﴿وَعِندَهُمْ﴾؛ أي: عند المخلصين ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: حور قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم، ولا يبغين بهم بدلاً لحسنهم عندهنَّ ولعفتهنَّ. ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء بمعنى واسعة الأعين. وهو صفة بعد صفة لموصول، ترك ذكره للعلم به؛ أي: حور قاصرات الطرف حسان الأعين وعظامها واسعات العيون في جمال.

ثم زاد بياناً في وصف جمالهن بما شبههن به، فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾؛ أي: تلك القاصرات ﴿بَيْضٌ﴾ بفتح الباء وسكون الياء، جمع بيضة، سمي البيض لبياضه والمراد به هنا: بيض النعام. ﴿مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: مصون مستور تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فيكون لونها أبيض في صفرة؛ أي: لم تنله الأيدي، فإن ما مسته الأيدي يكون متدنساً ويقال: هذا من أحسن ألوان النساء. وهو أن تكون المرأة بيضاء مشوبة بصفرة، والعرب تشبه المرأة ببيض النعامة، وتسميهن بيضات الخدور. وهذا عند العرب، وإلا فأحسنها عند العجم والروم الأبيض المشرب

بحمرة، اهـ «قارى». قال المبرد: وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطى بالريش. وقيل: ﴿ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ المصون عن الكسر؛ أي: إنهن عذارى. وقيل: المراد بالبيض: اللؤلؤ كما في قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣﴾. والأول أولى. وإنما قال: ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ ولم يقل مكنونات؛ لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ. وقال الطبري: أولى الأقاويل: أن يقال: إن البيض هي الجلدة التي في داخلِ القشرة قبل أن يمسها شيء؛ لأنه مكنون. يعني: هو البيض أول ما ينحى عنه قشره.

والمعنى: أي إنهن في بياض يشوبه قليل من الصفرة كالبيض المستور في الأعشاش الذي لم تمسه الأيدي، ولم يعله الغبار. وهذا اللون مما تهيم به العرب. فقد شبهت النساء ببيضات الخدور، كما قال امرء القيس:

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِبَاؤُهَا ... تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجِلِ

يقول الفقير: ذكر الله تعالى في هذه الآيات ما كان لذة الجسم ولذة الروح. أما لذة الجسم التنعم بالفواكه، وأنواع النعم، والخمر التي لم يكن عند العرب أحب منها، والتمتع بالأزواج الحسان. وأما لذة الروح فالسرور الحاصل من الإكرام والأنس الحاصل من صحبة الإخوان، والانبساط الحاصل من النظر إلى وجوه الحسان. وفي الحديث: «ثلاث يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن». قال ابن عباس رضي الله عنهما: والإثمد عند النوم. نسأل الله سبحانه أن يجلي أبصارنا وبصائرنا، ويبارك لنا في أعمارنا، وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها، آمين.

الإعراب

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧﴾.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿الصَّافَّاتِ﴾ مقسم به، مجرور

بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالصافات. والجملة المحذوفة مستأنفة و﴿الصافات﴾ اسم فاعل يعمل عمل الفعل، وفاعله ضمير مستتر يعود على الملائكة، والمفعول محذوف تقديره: والصافات نفوسهن. ﴿صَفًّا﴾ مفعول مطلق مؤكد لما قبله. ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ الفاء عاطفة، ﴿الزاجرات﴾: معطوف على الصافات، ﴿زَجْرًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لما قبله، ﴿فَالتَّالِيَاتِ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿التاليات﴾: معطوف على الصافات، ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول به للتاليات، ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَوَاحِدٌ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿واحد﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾: بدل من واحد أو خبر ثان لـ﴿إن﴾، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على المسوات، ﴿وَمَا﴾ اسم موصول، معطوف على السموات، ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف مضاف متعلق بمحذوف صلة لما، ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾: معطوف على رب السموات، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿زَيَّنَّا﴾ فعل، وفاعل، ﴿السَّمَاءَ﴾ مفعول به، ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة للسماء، ﴿بِزِينَةٍ﴾ متعلق بـ﴿زَيَّنَّا﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ بدل من زينة أو عطف بيان له. ﴿وَحِفْظًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة لفعل محذوف معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، ﴿حفظاً﴾ مفعول مطلق لذلك المحذوف مؤكد له، والتقدير: وحفظناها حفظاً، والفعل المحذوف معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿حفظنا﴾، ﴿مَارِدٍ﴾ صفة لـ﴿شَيْطَانٍ﴾.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾.

﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَى الْمَلَإِ﴾: متعلق بـ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾، ﴿الْأَعْلَىٰ﴾: صفة لـ﴿الْمَلَإِ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: فعل، ونائب فاعل، معطوف على ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾، ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يقذفون﴾، ﴿دُحُورًا﴾: مفعول لأجله منصوب بـ﴿يقذفون﴾؛ أي: يقذفون للدحور والطرد أو على الحال؛ أي: يقذفون مدحورين أو مفعول مطلق

معنوي. ﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَاصِبٌ﴾ صفة لـ﴿عذاب﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿يقذفون﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر واستثناء، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع، بدل من واو ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾، أو في محل النصب على الاستثناء، ﴿خَطِفَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، صلة ﴿مَنْ﴾: الموصولة، ﴿الْخَطْفَةَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أتبعه﴾: فعل، ومفعول به مقدم، ﴿شِهَابٌ﴾ فاعل مؤخر، ﴿ثَاقِبٌ﴾ صفة شهاب. والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿خَطِفَ﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم وإنكارهم للمعاد، وأردت أن تبكتهم وترد عليهم في أمر إثبات المعاد فأقول لك: استفتهم. ﴿استفت﴾: فعل أمر، مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، والهاء مفعول به. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَهُمْ﴾: الهمزة حرف استفهام لطلب تعيين أحد الأمرين، و﴿هُمْ﴾: مبتدأ، و﴿أَشَدُّ﴾ خبر، ﴿خَلْقًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل. والجملة الاسمية جملة إنشائية، مسوقة لبيان الاستفتاء وتفسيره، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمْ﴾ حرف عطف، وهي هنا متصلة لمعادلتها بهمزة الاستفهام، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على هم، ﴿خَلَقْنَا﴾ فعل، وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أم من خلقناهم. وفي قراءة تخفيف ﴿أمن﴾ الهمزة للاستفهام، ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، ﴿خَلَقْنَا﴾: صلة من الموصولة، والخبر محذوف، تقديره: أمن خلقناهم أشد. فهما جملتان مستقلتان. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿خَلَقْنَاهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿مِنْ طِينٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بخلقناهم، ﴿لَازِبٍ﴾:

صفة ﴿طِينٍ﴾. وناهيك بهذا دليلاً على ضعفهم، وأن من كان شأنه هذا لا ينبغي له أن يتكبر ويتطاول. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿عَجِبْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على مقدر دل عليه الاستفهام؛ أي: هم لا يقرون، ولا يثبتون المعاد بل عجبت أنت يا محمد ﷺ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة، وأثبت المعاد. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والواو حالية، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: وهم يسخرون. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿عَجِبْتَ﴾. ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾: الواو عاطفة، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ذُكِّرُوا﴾ فعل ونائب فاعل والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَذْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل، جواب إذا، لا محل لها من الإعراب. وجملة إذا معطوفة على جملة ﴿يسخرون﴾. ﴿وَإِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿رَأَوْا ءَايَةً﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن رأى بصرية. والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾، وجملة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ جوابه، وجملة إذا معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾: الأولى. ﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على يستسخرون، ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿سِحْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سِحْرٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَءِذَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر معلوم مما سيأتي تقديره: أنبعث. والجملة المقدرة في محل النصب مقول قالوا. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بالفعل المقدر، ﴿مِتْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ أي: أنبعث وقت موتنا وكوننا تراباً. ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على متنا، ﴿وَعِظَٰمًا﴾: معطوف على تراباً، ﴿أَءِنَّا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري مؤكدة للأولى، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مبعوثون﴾:

خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قالوا. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري مؤكدة للأولى، والواو: عاطفة ﴿ءَابَآؤُنَا﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ صفة، وخبر المبتدأ محذوف؛ أي: أو آباؤنا مبعوثون. والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ والجملة مستأنفة. ﴿نَعَمْ﴾ حرف جواب قائم مقام المجاب به؛ أي: نعم تبعثون. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿دَٰخِرُونَ﴾: خبره. والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿مبعوثون﴾: المقدر. ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت إنكارهم للبعث، وأردت بيان حقيقة البعث.. فأقول لك إنما هي زجرة. ﴿إنما﴾: أداة حصر، ﴿هِىَ زَجْرَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿وَٰحِدَةٌ﴾: صفة ﴿زَجْرَةٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾ فجائية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الواو استئنافية، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾: على كونها جواب النداء. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾: ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول. ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به. والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقول الله سبحانه للملائكة: احشروا الذين ظلموا. والجملة المحذوفة مستأنفة. وجملة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ صلة الموصول، ومفعول ﴿ظَلَمُوا۟﴾ محذوف، تقديره:

أنفسهم. ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: معطوف على الموصول أو مفعول معه، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول معطوف على الموصول أو مفعول معه، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْبُدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾؛ أي: حال كونهم مجاوزين الله في عبادتهم. ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿اهدوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ٱحْشُرُوا۟﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اهدوهم﴾، ﴿وَقِفُوهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿اهدوهم﴾. ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل الأمر قبلها. ﴿مَّا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: ما لكم. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَنَاصَرُونَ﴾: فعل، وفاعل. والجملة في محل النصب حال من كاف المخاطبين. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿هُمُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾: خبرهم. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أقبل بعضهم﴾: فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بأقبل، وجملة ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في محل النصب حال من الفاعل والمجرور. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنتُمْ﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول قالوا. ﴿تَأْتُونَنَا﴾: فعل، وفاعل، وفعول به. والجملة الفعلية في

محل النصب خبر كان ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿تَأْتُونَنَا﴾: أي حالة كونكم أقوياء إن فسرنا اليمين بالقوة والقهر أو مقسمين حالفين إن فسرنا اليمين بالحلف. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿بَل﴾ حرف إضراب للإضراب الإبطالي، ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم ونفي، ﴿تَكُونُوا۟﴾: فعل مضارع ناقص واسمه، ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: خبره. والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿وَمَا﴾ الواو عاطفة، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَنَا﴾ خبرها مقدم، ﴿عَلَيْكُم﴾ حال من سلطان، و﴿مِّن﴾ زائدة، ﴿سُلْطَٰنٍۭ﴾: اسم كان مؤخر، وجملة كان في محل النصب معطوفة على جملة الإضراب على كونها مقول قالوا. ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب للإضراب الإبطالي، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًا﴾: خبره، ﴿طَٰغِينَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمًا﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَحَقَّ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿حق﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به، ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾: فاعل، ومضاف إليه. والجملة معطوفة على جملة الإضراب. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ ناصب واسمه، واللام: حرف ابتداء، ﴿ذائقون﴾: خبره. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أغويناكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على حق، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿غَٰوِينَ﴾: خبره. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما جرى بين الأتباع والرؤساء من المخاصمة، وأردت بيان مصائرهم وعواقبهم فأقول لك: إنهم. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بمحذوف حال من ضمير الغائبين، ﴿يومَ﴾: مضاف، ﴿إذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ يتساءلون ويتلاومون. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ و﴿مُشْتَرِكُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّهُمْ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب

واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف مقدم على فعله، تقديره: إنا نفعل بالمجرمين فعلاً كائناً كذلك. ﴿نَفْعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: متعلق به، وجملة ﴿نَفْعَلُ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُوٓاْ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق به، ونائب فاعله جملة محذوفة، تقديرها: إذا قيل لهم: قولوا: لا إله إلا الله. وجملة ﴿قِيلَ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مقول قول محذوف تقديره: قولوا ﴿قولوا﴾: فعل أمر وفاعل. والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾. وإن شئت قلت: ﴿قولوا﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿لَآ﴾: نافية للجنس تعمل عمل ﴿إِنَّ﴾، ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب، اسمها، وخبر ﴿لَا﴾ محذوف، تقديره: لا إله موجود إلا الله، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱللَّهُ﴾ بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب مقول للقول المحذوف. وجملة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾. ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿تاركوا آلهتنا﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ومضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾، ﴿لِشَاعِرٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تاركوا﴾، ﴿مَّجْنُونٍۭ﴾: صفة لـ﴿شاعر﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء للإضراب الإبطالي، ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَصَدَّقَ

﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على جاء، ﴿إِنَّكُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ومضاف إليه، واللام حرف ابتداء، ﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة ﴿مَا﴾: الموصولة، والعائد محذوف تقديره: تعملونه. ويحتمل كون ﴿مَا﴾ مصدرية، والكلام حينئذ على حذف مضاف، والتقدير: وما تجزون إلا جزاء عملكم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن، ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾: مستثنى من الواو في ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾، ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: صفة لعباد الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول، ﴿لَهُمۡ﴾: خبر مقدم، ﴿رِزۡقٞ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، ﴿مَّعۡلُومٞ﴾: صفة ﴿رِزۡقٞ﴾، وجملة المبتدأ الثاني في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة. ﴿فَوَٰكِهُۖ﴾: بدل أو عطف بيان لـ﴿رِزۡقٞ﴾ بدل كل من كل، ﴿وَهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو حالية، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾: خبره. والجملة إما معطوفة على جملة ﴿لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾: أو حال من ضمير ﴿لَهُمۡ﴾. ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ أو خبر ثان لهم أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾. ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ متعلق بـ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله أعني: ﴿فِي جَنَّٰتِ﴾، وكذا ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: حال من الضمير المستكن فيه، ﴿يُطَافُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيۡهِم﴾ متعلق به، ﴿بِكَأۡسٖ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل. والجملة الفعلية صفة

لـ﴿مكرمون﴾ أو حال من الضمير في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾: أو جملة مستأنفة. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: جار ومجرور صفة لكأس، ﴿بَيْضَآءَ﴾: صفة ثانية لكأس، ﴿لَذَّةٍ﴾ صفة ثالثة له، وصفت بالمصدر مبالغة أو على حذف مضاف؛ أي: ذات لذة. ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ متعلقان بـ﴿لَذَّةٍ﴾ ﴿لَا﴾: نافية ملغاة لتكررها، ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿غَوْلٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة في محل الجر صفة رابعة لكأس. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿هُمْ عَنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يُنزَفُونَ﴾، وجملة ﴿يُنزَفُونَ﴾: من الفعل المغير، ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَعِندَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿عندهم﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿ٱلطَّرْفِ﴾: مضاف إليه مرفوع المحل، على أن ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾: صفة مشبهة، أو منصوب المحل على أن ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ اسم فاعل. و﴿عِينٌ﴾: صفة لـ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾. والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾: ناصب واسمه، ﴿بَيْضٌ﴾: خبره، ﴿مَّكْنُونٌ﴾ صفة ﴿بَيْضٌ﴾، وجملة ﴿كأن﴾: في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾: هم جماعة الملائكة، يقفون صفوفاً لكل واحد منهم، مرتبة معينة في الشرف والفضيلة. ﴿صَفًّا﴾: والصف: أن يجعل الشيء على خط مستقيم، كالناس والأشجار. تقول: صففت القوم، من باب رد، فاصطفوا إذا أقمتهم على خط مستقيم، لأداء الصلاة أو لأجل الحرب. ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾: أصل الزجر: الدفع عن الشيء بتسلط وصياح، ثم استعمل في السوق والحث على الشيء، وفي المنع والنهي. والمراد بها هنا: الملائكة؛ لأن لهم تأثيراً في قلوب بني آدم بزجرهم عن المعاصي وإلهامهم فعل الخير. يقال: زجرت البعير إذا حثثته ليمضي، وزجرت فلاناً عن سوء فانزجر؛ أي: نهيته فانتهى فزجر البعير كالحث له، وزجر الإنسان كالنهي. وفي «كشف الأسرار»: الزجر: الصرف عن الشيء بتخويف. وفي «المفردات»: الزجر: الطرد بصوت، ثم يُستعمل في الطرد

تارةً، وفي الصوت أخرى.

﴿لَوَٰحِدٌ﴾؛ أي: لا ثاني له سبحانه. وفي «المفردات» الوحدة: الانفراد. والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يُطلق على كل موجود، حتى إنه ما من عدد إلا ويصح وصفه، فيقال: عشرة واحدة، ومئة واحدة. فالواحد لفظ مشترك، يُستعمل في خمسة أوجه:

الأول: ما كان واحداً في الجنس أو في النوع كقولنا: الإنسان والفرس واحد في الجنس، وزيد وعمرو واحد في النوع.

والثاني: ما كان واحداً بالاتصال، إما من حيث الخلقة كقولك: شخص واحد، وإما من حيث الصناعة كقولك: حرفة واحدة.

والثالث: ما كان واحداً لعدم نظيره. إما في الخلقة كقولك: الشمس واحدة، وإما في دعوى الفضيلة كقولك: فلان واحد دهره، وكقولك: هو نسيج وحده.

والرابع: ما كان واحداً لامتناع التجزي فيه، إما لصغره كالهباء، وإما لصلابته كالماس.

والخامس: للمبتدأ إما لمبدأ العدد، كقولك: واحد اثنين، وإما لمبدأ الخط كقولك: النقطة الواحدة. والوحدة في كلها عارضة، فإذا وصف الله عز وجل بالواحد فمعناه: هو الذي لا يصح التجزي، ولا التكثر. ولصعوبة هذه الوحدة قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، انتهى.

﴿ٱلدُّنْيَا﴾ مؤنث الأدنى؛ أي: قرب السموات من أهل الأرض. ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾؛ أي: متعر عن الخير، متجرد عنه من قولهم: شجر أمرد إذا تعرى من الورق، ومنه: الأمرد لتجرده عن الشعر، والمارد والمريد بمعنى واحد، وهو المتعري عن كل خير. وفي «المختار»: مرد من باب ظرف، فهو مارد ومريد، وهو العاتي.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ أصل ﴿يسمعون﴾: يتسمعون، فأدغمت التاء في السين بعد تسكينها وقلبها سيناً من التسمع، وتعديته بإلى لتضمنه معنى الإصغاء. ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ والملأ: جماعة يجتمعون على رأي واحد، فيملؤون العيون رواءً، والنفوس جلالة وبهاء. والملأ الأعلى هم الملائكة أو أشرافهم، كما مر. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ القذف: الرمي البعيد، لاعتبار البعد فيه قيل: منزل قذف وقذيف، وقذفته بحجر رميت إليه حجراً، ومنه: قذفوه بالفجور؛ أي: رموه. ﴿دُحُورًا﴾ مصدر دحره إذا طرده وأبعده، وبابه خضع، يقال: دحره دحراً ودحوراً إذا طرده. ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي: دائم غير منقطع، من وصب الأمر وصوبا إذا دام. وفي «المختار»: وصب الشيء يصب بالكسر وصوباً دام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، انتهى. قال في «المفردات» الوصب: السقم اللازم.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ والخطف: الاختلاس بسرعة. والمراد هنا: اختلاس الكلام؛ أي: كلام الملائكة مسارقة. ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ في «المختار»: تبعه من باب طرب إذا مشى خلفه أو مر به فمضى معه، وكذا اتبعه وهو افتعل، وأتبعه على أفعل. وقال الأخفش: تبعه وأتبعه بمعنى مثل: ردفه وأردفه، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾. قال ابن الكمال: الفرق بين أتبعه وتبعه أنه يقال: أتبعه إتباعاً إذا طلب الثاني اللحوق بالأول، وتبعه تبعاً إذا مر به ومضى معه. ﴿شِهَابٌ﴾ والشهاب: الشعلة الساطعة من النار الموقدة. وفي «القاموس»: الشهاب ككتاب شعلة من نار ساطعة، انتهى. والمراد هنا: ما يُرى منقضّاً من السماء. ﴿ثَاقِبٌ﴾ قال في «المفردات»: الثاقب: النيِّر المضيء، يثقب بنوره وإضاءته ما يقع عليه، انتهى؛ أي: مضيء في الغاية، كأنه يثقب الجو بضوئه، يُرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ والفتيا والفتوى: الجواب عما يشكل من الأحكام. يقال: استفتيته فأفتاني بكذا. قال بعضهم: الفتوى من الفتي، وهو الشاب القوي، وسمي الفتوى فتوى؛ لأن المفتي يقوي السائل في جواب الحادثة، وجمعه

فتاوى، بالفتح والكسر، والمراد بالاستفتاء هنا: الاستخبار، يقال: استفتى فلاناً إذا استخبره، وسأله من أمر يريد علمه.

﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ أي: أصعب خلقاً، وأشد إيجاداً. ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قال في «المفردات»؛ اللازب: الثابت الشديد الثبوت، ويعبر باللازب عن الواجب، فيقال: ضربة لازب، اهـ. والباء بدل من الميم، والأصل لازم مثل: بكة ومكة، يقال: لزب يلزب لزوباً من باب دخل اشتد وثبت، ولزب به لصق، ولزب يلزب لزباً من باب تعب، ولزب يلزب لزباً ولزوباً من باب كرم الطين لزق وصلب، ولزب الشيء دخل بعضه في بعض. واللازب اسم فاعل: الثابت، يقال: صار الأمر ضربة لازب؛ أي: صار لازماً ثابتاً.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ والسخرية: الاستهزاء والعجب والتعجب حالة تَعْرُضُ للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العجب: ما يُعرف سببه، ولهذا قيل: لا يصح على الله التعجب. إذ هو علام الغيوب لا تخفى عليه خافية. ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ والسين والتاء للمبالغة والتأكيد؛ أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء أو للطلب على أصله؛ أي: يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ إلخ، أصله: أنبعث إذا متنا. فبدّلوا الفعلية بالاسمية وقدّموا الظرف، وكرّروا الهمزة مبالغة في الإنكار وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه، وفي هذه الحالة أشد استنكاراً، اهـ «بيضاوي». ﴿نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾؛ أي: صاغرون. وكلمة ﴿نَعَمْ﴾ بفتحتين: تقع في جواب الاستخبار المجرد من النفي، ورد الكلام الذي بعد حرف الاستفهام. والخطاب لهم ولآبائهم على التغليب. والدخور: أشد الصغار والذلة، يقال: دخر يدخر من باب فتح، ودخر يدخر من باب تعب دخراً ودخوراً؛ أي: ذل وصغر، ويقال: أدخرته فدخر؛ أي: أذللته فذل.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ والزجرة: الصيحة، من زجر الراعي غنمه، أو إبله إذا صاح عليها. وهي النفخة الثانية. ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ قال الزجاج: الويل: كلمة يقولها

القائل وقت الهلكة. ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ والدين: الجزاء كما جاء في قولهم: كما تدين تدان. ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؛ أي: الفرق بين المحسن والمسيء، وتمييز كل منهما عن الآخر. ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: اجمعوا، الحشر يأتي بمعنى البعث، وبمعنى الجمع والسوق، وهو المراد هٰهنا دون الأول، كما لا يخفى.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أمر من وقفه وقفاً بمعنى حبسه، لا من وقف وقوفاً بمعنى دام قائماً. فالأول متعد، والثاني لازم. والمعنى: احبسوا المشركين أيها الملائكة عند الصراط. ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾ من الاستسلام، يقال: استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع، وأصله: طلب السلامة، ويلزمه الانقياد عرفاً. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يقال: أقبل عليه بوجهه، وهو ضد الإدبار. ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾؛ أي: قهر وتسلط. والسلاطة: التمكن من القهر، يقال: سلطه فتسلط، ومنه: سمي السلطان بمعنى الغالب والقاهر، كما مر.

﴿رِزْقٌ﴾ والرزق اسم لما يسوقه الله تعالى، إلى الحيوان، فيأكله. قال أحمد بن رسلان في زبده:

يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ شَاءَ أَحْرَمَا   وَالرِّزْقُ مَا يَنْفَعُ وَلَوْ مُحَرَّمَا

﴿فَوَاكِهُ﴾ جمع فاكهة، وهي كل ما يتفكه به؛ أي: يتنعم بأكله من الثمار كلها رطبها ويابسها. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير، وهو الذي يجلس عليه من السرور، إذ كان كذلك لأولي النعمة. وسرير الميت يشبه به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق بالميت برجوعه إلى الله، وخلاصه من السجن المشار إليه بقوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن». ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ من التقابل، وهو أن ينظر بعضهم وجه بعض. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ والطواف: الدوران حول الشيء، وكذا الإطافة كما قال في «التهذيب». ﴿بِكَأْسٍ﴾ والكأس يطلق على الزجاجة، ما دام فيها خمر، وإلا فهو قدح وإناء، وتسمى الخمر نفسها كأساً. قال الأعشى:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ   وَأُخْرَىٰ تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

لِكَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنِّي امْرُؤٌ   أَتَيْتُ الْمَعِيشَةَ مِنْ بَابِهَا

والكأس مؤنثة بدليل ضميرها وصفتها، وتُجمع على كؤوس وأكؤس وكاسات وكئاس. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ قال أبو حيان: اسم فاعل من معن بضم العين كشريف من شرف؛ أي: من شراب معين، أو نهر معين ظاهر للعيون، أو خارج من العيون. وهو صفة للماء، من عان الماء، إذا نبع وُصف به خمر الجنة؛ لأنها تجري كالماء. ومعنى ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي: بخمر من نهر جار على وجه الأرض. ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ أي: ذات بياض. ﴿لَذَّةٍ﴾؛ أي: ذات لذة أو هي تأنيث اللذ، يقال: لذ الشيء فهو لذ ولذيذ كقولك: رجل طب؛ أي: طبيب. فاللذ وصف، واللذة مؤنثة. وهي اسم للكيفية القائمة بالنفس، واسم للشيء اللذيذ.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ والغول اسم بمعنى الغائلة، يُطلق على كل أذية ومضرة. والغول أيضاً ما يغتال العقول، يقال: غاله يغوله غولاً إذا أفسده، ويقال: غالته الخمر شربها فذهبت بعقله أو بصحة بدنه. والغول مصدر، وهو الصداع، والسكر، وبُعد المسافة، والمشقة، وما انهبط من الأرض، والتراب الكثير. ويقال: غاله الشيء إذا أخذه من حيث لم يدر، وأهلكه من حيث لا يحس به. ومنه سمي السعلاة غولا بالضم. والسعلاة: سحرة الجن، كما سبق في سورة الحجر. وفي «بحر العلوم»؛ ومنه الغول الذي يراه بعض الناس في البوادي ولا يكذبه ولا ينكره إلا المعتزلة من جميع أصناف الناس، حتى جعلوه من كذبات العرب، مع أنه يشهد بصحته قوله ﷺ: «إذا تغولت الغيلان فنادوا بالأذان»، انتهى.

﴿يُنزَفُونَ﴾ بالبناء للمجهول، من نزف الشارب إذا ذهب عقله، ويقال للسكران: نزيف ومنزوف، ويقال للمطعون: نزف فمات إذا خرج دمه كله. وفي «المفردات»: نزف الماء، نزحه كله من البئر شيئاً بعد شيء، ونزف دمه ودمعه؛ أي: نزح كله، ومنه قيل: سكران نزف؛ أي: نزف فمه بسكره. وقرىء ﴿ينزفون﴾ بالسكر من قولهم: أنزف القوم إذا نزف ماء بئرهم، انتهى.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: حابسات الأعين على أزواجهن لا ينظرن إلى

غيرهم، من القصر بمعنى الحبس والمنع. وطرف العين: جفنه. والطرف: تحريك الجفن، وعُبر به عن النظر؛ لأن تحريك الجفن يلازمه النظر. ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء بمعنى واسعة العين، وهي التي اتسع شقها سعةً غير مفرطة. وأصل ﴿عِينٌ﴾ فُعل بالضم نظير حمر، كسرت الفاء لتسلم الياء كما في بيض جمع بيضاء وأبيض. قال في «المفردات»: يقال للبقر الوحشي: عيناء وأعين لحسن عينه، وشُبّه بها الإنسان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإتيان بأسلوب القسم في قوله: ﴿وَالصَّـٰٓفَّـٰتِ﴾ إلخ، إظهاراً لشرف المقسم به، وتأكيداً للمقسم عليه، على ما هو المألوف في كلامهم. وقد أنزل القرآن على لغتهم، وعلى أسلوبهم في محاوراتهم.

ومنها: التأكيد بأن، واللام في قوله: ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ ومقتضى الكلام يقتضيه لإنكار المخاطبين الوحدانية.

ومنها: إعادة لفظ الرب في قوله: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ لما فيها من غاية ظهور آثار الربوبية، وتجددها كل يوم، فإنها ثلاث مئة وستون مشرقاً.

ومنها: الاكتفاء بالمشارق عن ذكر المغارب، على حد قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾. واقتُصر على المشارق ولم يُعكس؛ لأن شروق الشمس سابق على غروبها، وأيضاً فالشروق أبلغ في النعمة، وأكثر نفعاً من الغروب.

ومنها: جمع المشارق موافقةً للجموع أول السورة.

منها: تخصيص المشارق بالذّكر مناسبة للزينة في قوله: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ إذ هي إنما تكون غالباً بالضياء والنور، وهما ينشآن من المشرق لا من المغرب.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿زينا، وزينة﴾.

ومنها: مراعاة الفواصل في قوله: ﴿شهاب ثاقب، وعذاب واصب، وطين لازب﴾؛ لأنها من المحسنات البديعية.

ومنها: الجناس بين ﴿خَطِفَ﴾ و﴿ٱلۡخَطۡفَةَ﴾، وبين ﴿أغويناكم﴾ و﴿غَٰوِينَ﴾.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وردت الهداية بطريق التهكم؛ لأن الهداية تكون إلى طريق النعيم لا الجحيم.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾؛ لأن السخرية في مقابلة التعجب.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لأن الأصل فيه: إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا الله، فحُذف لدلالة السياق عليه.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ فإن فيه تغليب العقلاء على غيرهم، حيث عبّر بمن التي للعاقل.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ و﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا﴾ للدلالة على تحقق وقوعه. وفيه أيضاً نداء غير العاقل لشدة الدهشة والحيرة.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ٣٨﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: إنهم لذائقوا العذاب، فقد التفت من الغيبة إلى الخطاب لمجابهتهم بالغضب، لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم؛ لأن الغضب عليهم بلغ أقصى الغاية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ كني بذلك عن الحور العين، لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

ومنها: القصر في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٌ﴾ فهو من قصر المسند إليه على المسند يعني: عدم الغول مقصور على الاتصاف بفي، إذ خمور الجنة لا تتجاوز

الاتصاف بفي كخمور الدنيا، اهـ من «الروح».

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ حذف منه وجه الشبه فأصبح مجملاً، وذكر الأداة فصار مرسلاً، والمراد بالبيض: بيض النعام، وأول من شبه المرأة بالبيضة امرؤ القيس بقوله:

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِبَاؤُهَا   تَمَتَّعْتُ مِنَ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجِلِ

والنساء يشبهن بالبيض من ثلاثة أوجه:

أحدها: بالصحة والسلامة عن الطمث، ومنه: قول الفرزدق:

خَرَجْنَ إِلَيَّ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ قَبْلِي   وَهُنَّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ ٱلْحَمَامِ

والثاني: في الصيانة والستر، لأن الطائر يصون بيضه ويحصنه.

والثالث: في صفاء اللون ونقائه؛ لأن البيض يكون صافي اللون نقيّه إذا كان تحت الطائر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ (٦١) أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] حال أهل الجنة وما يتمتعون

---

(١) المراغي.

به من النعيم المقيم، ثم ذكر سرورهم وحبورهم في المآكل، والمشارب، وجميل المساكن، والأزواج الحسان.. بيّن هنا أنهم لخلوّ بالهم من المشاغل وطيب نفوسهم، يسمر بعضهم مع بعض، ويتحادثون فيما كانوا فيه في الدنيا مع أخلائهم، من شتى الشؤون مع اختلاف الأهواء، حتى ليقص بعضهم على بعض أن خليله كاد يوقعه في الهلاك، لولا لطف ربه به، وقد كان مآله أن صار في سواء الجحيم، ثم ذكر نعمة ربه عليه، بسبب ما كان يدين به في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما وصف[1] ثواب أهل الجنة، وذكر ما يتمتعون به من مآكل، ووصف الجنة، ورغّب فيها بقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار، وما يلاقون فيها من العذاب اللازب، الذي لا يجدون عنه محيصاً، وهو عذاب في مآكلهم ومشاربهم وأماكنهم، جزاء ما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال، وما قلدوا فيه آباءهم بلا حجة ولا برهان، من الكفر بالله. وعبادة الأصنام والأوثان.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين يهرعون على آثار آبائهم الأولين، دون نظر ولا تدبر.. أردفه ما يوجب التسلية لرسوله ﷺ، على كفرهم وتكذيبهم، بأن كثيراً من الأمم قبلهم، قد أرسل إليهم الرسل فكذبوا بهم، وكانت عاقبتهم الدمار والهلاك، ونجّى الله المؤمنين ونصرهم، فليكن لك فيهم أسوة، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات، إن عليك إلا البلاغ.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ معطوف[2] على ﴿يُطَافُ﴾؛ أي: يطاف على عباد الله المخلصين في الجنة بشراب، فيشربون فيتحدثون على الشراب، كما هو عادة الشربة في الدنيا، فيُقبل بعضهم على بعض حال كونهم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

يتساءلون عن الفضائل، والمعارف، وعما جرى عليهم ولهم في الدنيا. فالتعبير عنهم بصيغة الماضي للتأكيد، والدلالة على تحقق الوقوع حتماً. وفي الآية، إشارة إلى أن أهل الجنة، هم الذين كانوا ممن لم يُقبلوا على الله بالكلية، وإن كانوا مؤمنين موحدين، وإلا كانوا في مقعد صدق مع المقربين. ولا تكرار في هذه والجملة مع ما سبق من نظيرها؛ لأن تلك في بيان حال الكفرة. وهذه في بيان حال أصحاب الجنة.

والمعنى[1]: أي يطاف عليهم بكأس من معين، فيشربون ويتحادثون على الشراب، وما ألذ الحديث لدى الأخلاء، إذ ذاك كما أفصح عن ذلك شاعرهم:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ ٱللَّذَّاتِ إِلاَّ ... مُحَادَثَةُ ٱلْكِرَام عَلَىٰ الشَّرَابِ

وَلَثْمُكَ وَجْنَتَيْ قَمَرٍ مُنِيْرٍ ... يَجُوْلُ بِوَجْهِهِ مَاءُ ٱلشَّبَابِ

والحديث ذو شجون، فهم يتحادثون في شتى الفضائل والمعارف، وفيما سلف لهم من شؤون الدنيا، وأحلى تذكراً، ما فات حين رفاهية الحال، وفراغ البال واطمئنان النفس وخلوها من المخاوف العاجلة والآجلة.

ثم فصّل هذا التساؤل وبيّنه، فقال: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من العباد المخلصين في تضاعيف محاوراتهم، وأثناء مكالماتهم ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾؛ أي: مصاحب وجليس، كافر بالبعث، منكر له، كما يدل عليه قوله: ﴿يَقُولُ﴾ لي على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث ﴿أَءِنَّكَ﴾ أيها المؤمن ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؛ أي: لمن المعتقدين بالبعث والمقرين الجزاء. وهذا[2] الاستفهام من القرين، لتوبيخ ذلك المؤمن، وتبكيته بإيمانه، وتصديقه بما وعد الله به من البعث، وكان هذا القول منه في الدنيا.

ثم ذكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده، وفي زعمه. فقال: ﴿أَ﴾ ندان ونجازى ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾؛ أي: هل نحن مجزيون

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

بأعمالنا، ومحاسبون بعد أن صرنا تراباً وعظاماً. والاستفهام للإنكار. جمع مدين، من الدين بمعنى: الجزاء، ومنه: كما تدين تدان؛ أي: أئنا نحن لمبعوثون ومجزيون؛ أي: لا نبعث ولا نجازى.

قرأ الجمهور[1]: ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بتخفيف الصاد من التصديق؛ أي: لمن المصدقين بالبعث. وقرىء بتشديدها، ولا أدري من قرأ بها، وهو بعيد؛ لأنها من التصدق لا من التصديق. ويمكن تأويلها: بأنه أنكر عليه التصدق بماله لطلب الثواب، وعلل ذلك باستبعاد البعث. وقد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة، فقرأ نافع الأولى، والثانية بالاستفهام بهمزة، والثالثة بكسر الألف من غير استفهام. ووافقه الكسائي؛ إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، وابن عامر الأولى والثالثة بهمزتين، والثانية بكسر الألف من غير استفهام، والباقون بالاستفهام في جميعها، ثم اختلفوا، فابن كثير يستفهم بهمزةٍ واحدةٍ غير مطولة، وبعده ساكنة خفيفة، وأبو عمرو مطولة، وعاصم وحمزة بهمزتين.

وقد مضت قصتهما في سورة الكهف، والاختلاف في اسميهما. قال قرة بن ثعلبة النهراني[2]: كانا شريكين في بني إسرائيل بثمانية آلاف درهم، أحدهما يعبد الله، واسمه يهوذا، ويقصر في التجارة والنظر، والآخر وهو كافر اسمه نطروس، كان مقبلاً على ماله، فانفصل من شريكه لتقصيره، فكلما اشترى داراً أو جاريةً أو بستاناً ونحوه، عرضه على المؤمن وفخر عليه، فيتصدق المؤمن بنحو من ذلك ليشتري به في الجنة، فكان من أمرهما في الآخرة، ما قصه الله في كتابه في سورة الكهف. وقال الزمخشري[3]: نزلت في رجل، تصدق بماله لوجه الله تعالى، فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه، فقال: وأين مالك؟ فقال: تصدقت به ليعوّضني الله تعالى في الآخرة خيراً منه. فقال: أإنك لمن المصدقين بيوم الدين، أو لمن المتصدقين لطلب ثواب الله تعالى، والله لا أعطيك شيئاً.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط مع زيادة من المراح.
(٣) الكشاف.

﴿قَالَ﴾ ذلك الرجل، الذي هو من أهل الجنة لجلسائه فيها، بعدما حكى لهم، ما قال له قرينه في الدنيا: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، الذي قال لي تلك المقالة، كيف منزلته في النار؟. ولما كان قرينه ينكر البعث علم أنه في النار. قال ابن الأعرابي: والاستفهام هنا هو بمعنى الأمر؛ أي: اطلعوا، وقيل: القائل هو الله سبحانه، وقيل: الملائكة. والأول أولى، فقال له جلساؤه: أنت أعرف به منا، فاطلع أنت، فذهب ذلك المؤمن إلى بعض أطراف الجنة، فاطلع، عندها إلى النار، فرآه؛ أي: فرأى ذلك الرجل المؤمن قرينه، في سواء الجحيم؛ أي: في وسط النار. قال الزجاج: سواء كل شيء وسطه، وسمي وسط الشيء سواء لاستواء المسافة منه إلى جميع الجوانب. وقال ابن عباس: في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى أهل النار، ويناظرونهم؛ لأن لهم في توبيخ أهل النار لذةً وسروراً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾ بتشديد الطاء المفتوحة، وفتح النون، ﴿فاطلع﴾ فعلاً ماضياً، وقرأ أبو عمرو في رواية حسين الجعفي: ﴿مطلعون﴾ بإسكان الطاء وفتح النون، ﴿فأطلع﴾ بضم الهمزة وسكون الطاء وكسر اللام، فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، وهي قراءة ابن عباس، وابن محيصن، وعمار بن أبي عمار، وأبي سراج، وقرىء ﴿فاطلع﴾ مشدداً مضارعاً، منصوباً على جواب الاستفهام. وقرىء ﴿مطلعون﴾ بالتخفيف، ﴿فأطلع﴾ مخففاً فعلاً ماضياً. وقرىء ﴿فأطلع﴾ مخففاً مضارعاً منصوباً. وقرأ أبو البرهشيم، وعمار بن أبي عمار، فيما ذكره خلف عن عمار: ﴿مطلعون﴾ بتخفيف الطاء وكسر النون، ﴿فأطلع﴾ ماضياً مبنياً للمفعول. وأورد هذه القراءة أبو حاتم وغيره لجمعها بين نون الجمع وياء المتكلم، والوجه ﴿مطلعي﴾ كما قال: أو مخرجي هم. وقال الزمخشري: يريد مطلعون إياي، فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله: هم الفاعلون للخير والآمرونه. أو يقال: إن كسر النون في الجمع لغة، وإن كان لا يقع إلا في الشعر.

وحاصل معنى الآيات[2]: أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي قرين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

في الدنيا، يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة، ويستنكره أشد الاستنكار، ويقول متعجباً: أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً، أئنا لمحاسبون، بعد ذلك على أعمالنا وما قدمته أيدينا، ألا إن ذلك لا يدخل في باب الإمكان، ولا يقبله عاقل فأجدر بمن يصدق بمثل هذا أن يعد من البله والمجانين الذين لا ينبغي مخاطبتهم ولا الدخول معهم في باب الجدل والخصام. فهم ساقطون من درجة الاعتبار لدى العقلاء والمنصفين.. وبعد أن ذكر مقالته لأهل الجنة، أراد أن يؤكد لهم صدق ما قال، ويريهم ما آل إليه أمره من دخول النار فـ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؛ أي: قال لجلسائه من أهل الجنة ليزيدهم سروراً على أن عصمهم الله تعالى من مثل حاله، ووفقّهم إلى العمل بما أرشد إليه أنبياءه، هل تودون أن تروا عاقبة ذلك القرين، وكيف خذله الله تعالى، وأوقعه في الهلكة؟.

واعلم: أنه لا ينبغي لنا أن نخوض في بيان كيفية الاطلاع، إذ ذاك مع شاسع المسافات واختلاف مراتب أهل الجنة وأهل النار، فإن ذلك من أمور الغيب، التي يجب أن نؤمن بها دون بحث في شأنها، ولا نقص ولا زيادة فيها.

فاطلع ذلك المؤمن إلى أهل النار، فرأى قرينه في وسطها، يتلظى بحرها وشديد لهبها، ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل المؤمن، مخاطباً لقرينه، متشمتاً به حين رآه على صورة قبيحة، وقال خليل العصري: رآه تبدلت حالته، فلولا ما عرّفه الله به، لم يعرفه، فقال له عند ذلك: ﴿تَاللَّهِ﴾؛ أي: أقسمت لك بالله المنتقم ﴿إِنْ﴾؛ أي: إن الشأن ﴿كِدتَّ﴾؛ أي: قاربت ﴿لَتُرْدِينِ﴾؛ أي: لتهلكني بالإغواء. والردى: الهلاك، والإرداء: الإهلاك، أصله: ترديني بياء المتكلم، فحذفت اكتفاء بالكسرة، كما سيأتي؛ أي: إن الشأن، قاربت لتهلكني بدعائك إياي، إلى إنكار البعث والقيامة، وقرىء[1]: ﴿لتغوين﴾؛ أي: لتضلني عن الدين، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ علي بهدايتي إلى الحق، وعصمتي من الباطل ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾؛ أي: من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك، وفي «التأويلات

---

(١) البيضاوي والمراح.

النجمية»: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾؛ أي: حفظه وعصمته وهدايته ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معكم فيما كنتم فيه من الضلالة في البداية، وفيما أنتم فيه من العذاب والبعد في النهاية.

وإنما أخبر الله تعالى عن هذه الحالة قبل وقوعها، ليعلم أن غيبة الأشياء وحضورها عند الله سبحانه سواء، لا يزيد حضورها في علم الله تعالى شيئاً، ولا ينقص غيبتها من علمه شيئاً، سواء في علمه وجودها وعدمها، بل كانت المعدومات في علمه موجودة.

وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ رجوع إلى محاورة جلسائه في الجنة، بعد إتمام الكلام مع قرينه، سروراً بفضل الله العظيم، والنعيم المقيم، فإن تذكر الخلود في الجنة لذة عظيمة، والهمزة فيه للاستفهام التقريري، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، وفيها معنى التعجب، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أنحن مخلدون، منعمون في الجنة، فما نحن بميتين؛ أي: بمن شأنه الموت ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي كانت في الدنيا، وهي متناولة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال؛ أي: لا نموت في الجنة أبداً، سوى موتتنا الأولى في الدنيا، ونصبها على المصدر من اسم الفاعل يعني: إنه مستثنى مفرّغ معرب، على حسب العوامل، منصوب بميتين، كما ينصب المصدر بالفعل المذكور قبله في مثل قولك: ما ضربت زيداً إلا ضربة واحدة، فكأنه قيل: وما نحن نموت موتة إلى موتتنا الأولى. وقيل: نصبها على الاستثناء المنقطع، بمعنى؛ لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى بعد وسوى، وقرأ زيد بن علي ﴿وما نحن بمائتين﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ كالكفار، فإن النجاة من العذاب أيضاً نعمة جليلة، مستوجبة للتحدث بها، كما أن العذاب محنة عظيمة، مستدعية لتمني الموت كل ساعة. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «الموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده».

والمعنى[1]: أي يقول لهم: أنحن مخلدون منعمون، فما نحن بميتين ولا

(١) المراغي.

بمعذبين إلا موتتنا الأولى بخلاف الكفار، فإنهم يموتون مثلنا، ثم في جهنم يتمنون الموت كل ساعة، ولا يخفى ما في ذلك من سوء الحال، وقيل لحكيم: ما شر من الموت؟ قال: الذي يُتمنى معه الموت.

والخلاصة: أن المؤمن غبط نفسه، بما أعطاه الله من الخلد في الجنة، والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب.

وعلم أهل الجنة أنهم لا يموتون فيها، حصل لهم من إخبار الأنبياء لهم في الدنيا بذلك، وبما ذكر في كتابه، نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، وفي نفي العذاب عنهم إيماء إلى استمرار النعيم، وعدم خوف زواله، فإن خوف الزوال نوع من العذاب، كما قال:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا حَيَاةً هَنِيَّةً فَلاَ تَتَّخِذْ شَيْئاً تَخَافُ لَهُ فَقْدَا

وإلى نفي الهرم واختلال القوى، لأنه ضرب من العذاب أيضاً.

ثم زاد في تأنيب قرينه وزيادة حسرته، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الأمر العظيم، الذي نحن فيه من النعمة والخلود والأمن من العذاب ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم، والسعادة الأبدية، والسلامة السرمدية؛ أي: لهو السعادة والظفر بكل المراد، إذ الدنيا وما فيها تحتقر دونه، كما تحتقر القطرة من البحر المحيط، والحبة من البيدر الكبير، وقرىء ﴿أإن هذا لهو الفوز﴾ بزيادة همزة الاستفهام، قاله في المراح.

والمعنى[1]: أي إن هذا الأمر العظيم، والنعيم المقيم، والخلود الدائم الذي نحن فيه، لهو الفوز العظيم، الذي لا يقادر قدره، ولا يمكن الإحاطة بوصفه.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾؛ أي: لنيل هذا المرام الجليل من تمام كلامه؛ أي: لنيل مثل هذا العطاء، يجب أن يعمل العاملون، ويجتهد

---

(١) الشوكاني.

المجتهدون، فإن هذه هي التجارة الرابحة، لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانقطاع، المشوبة بفنون الآلام والبلايا والصداع، فإنها صفقة خاسرة نعيمها منقطع، وخيرها زائل، وصاحبها عن قريب منها راحل، وقيل[١]: إن هذا من كلامه سبحانه وتعالى، فهو ترغيب في طلب ثواب الله بطاعته، ويقال: المعنى حينئذ: فليحتمل المحتملون الأذى؛ لأنه قد حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات، كما قال بعضهم:

حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِمَكْرُوْهَاتِنَا وَحُفَّتِ ٱلنِّيْرَانُ مِنْ شَهَوَاتِنَا

يعني: جُعلت الجنة محفوفةً بالأشياء التي كانت مكروهة لنا، وجُعلت النار محاطة بالأشياء التي هي محبوبة لنا، فما بين المرء وبين الجنة حجاب إلا المكاره، وهو حجاب عظيم صعب خرقه، وما بين النار وبينه حجاب إلا الشهوات، وهو حجاب حقير سهل لأهله، والعياذ بالله سبحانه، من الإقبال على الشهوات، والإدبار عن الكرامات في الجنات، وقيل: من قول الملائكة، والأول أولى.

والهمزة في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ للاستفهام التقريري. والمراد[٢]: حمل الكفار على إقرار مدخولها، وذلك إشارة إلى نعيم الجنة، وهو مبتدأ، خبره ﴿خَيْرٌ﴾ وهو وارد على سبيل التهكم والاستهزاء بهم، وانتصاب ﴿نُّزُلًا﴾ على التمييز أو على الحالية، وهو ما يهيأ من الطعام النفيس للقادم؛ أي: الضيف ومنه: إنزال الأجناد لأرزاقهم؛ أي: أنعيم الجنة، ورزقها المعلوم للمؤمنين خير طعاماً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؛ أي: ثمرها الذي كان طعام أهل النار، فأيهما خير في كونهما نزلاً، والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق، مرة كريهة الرائحة، تكون بتهامة يعرفها المشركون، سميت بها الشجرة الموصوفة بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ...﴾ إلخ، والإضافة فيها من إضافة المسمى إلى الاسم، واختلف[٣] فيها، هل هي من شجر الدنيا، التي يعرفها العرب، أم لا؟ على قولين:

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا، فقال قطرب: إنها شجرة مرة، تكون بتهامة، من أخبث الشجر، وقال غيره: هو كل نبات قاتل، فعلى هذا، ففي الكلام استعارة.

والقول الثاني: أنها عبارة عن أطعمة كريهة في النار، وفي ذكره ﴿نُّزُلًا﴾ دلالة على أن ما ذكره من النعيم لأهل الجنة، بمنزلة ما يُعد ويرفع للنازل، ولهم وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام، وكذلك الزقوم لأهل النار.

والمعنى: أهذا الرزق المعلوم الذي أعطيته لأهل الجنة، كرامة مني لهم خير، أم ما أوعدت به أهل النار، من الزقوم المر البشع.

والحاصل: أن الله سبحانه، أمر رسوله أن يورد ذلك على كفار قومه، ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر والمعاصي، وهذا ضرب من التهكم والسخرية بهم، وهو أسلوب كثير الورود في القرآن الكريم.

قال قتادة: لما ذكر الله سبحانه هذه الشجرة، افتتن بها الكفار، فقالوا: كيف تكون في النار شجرة؟، فأنزل الله سبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾؛ أي: إنا جعلنا تلك الشجرة ابتلاء، واختباراً للكافرين. فهم حين سمعوا أنها في النار قالوا: كيف يكون ذلك، والنار تحرق الشجر، مع أن هذا ليس بالعجيب ولا بالمستحيل، فإن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار وينعم فيها كحيات جهنم مثلاً فهو أقدر على خلق الشجر فيها، وحفظه من الاحتراق.

وقيل المعنى[١]: أنا جعلناها فتنة؛ أي: عذاباً لهم في الآخرة، فإن الفتن تأتي بمعنى الإحراق، وابتلاءً لهم في الدنيا حيث فتنوا وضلوا عن الحق بسببها، فإن الفاتن قد يطلق على المضل عن الحق، فإن الكفار لما سمعوا كون هذه الشجرة في النار، فتنوا به في دينهم، وتوسلوا به إلى الطعن في القرآن، والنبوة والتمادي في الكفر.

---

(١) روح البيان.

ثم بيَّن سبحانه أوصاف هذه الشجرة، رداً على منكريها، فقال: ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: إن هذه الشجرة الموسومة بالزقوم ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾؛ أي: تنبت ﴿فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: في قعر جهنم وأسفلها، فمنبعها في قعرها، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، ولما كان أصل عنصرها النار لم تحرق بها كسائر الأشجار، ألا ترى، أن السمك لما تولد في الماء لم يغرق، بخلاف ما لم يتولد فيه.

ولعل[1] هذا رد على ابن الزبعرى وصناديد قريش، وتجهيل لهم حيث قال ابن الزبعرى لهم: إن محمداً يخوفنا بالزقوم، والزقوم بلسان البربر، الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل بيته وقال: يا جارية زقمينا، فأتتهم بالزبد والتمر، فقال استهزاءً: تزقموا فهذا ما توعدكم به محمد، فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: فليس الزقوم ما فهم هؤلاء الجهلة الضلال.

﴿طَلْعُهَا﴾؛ أي: حملها وثمرها الذي يخرج منها ويطلع، مستعار من طلع النخلة، لمشاركته له في الشكل والطلع كما سيأتي: شيء يخرج من النخل، كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، قالوا أول الثمر: طلع ثم خلال، ثم بلح، ثم بسر، ثم رطب، ثم تمر، اهـ أبو السعود. ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: كأن ذلك الطلع وثمره في تناهي قبحه وشناعة منظره ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ لأن صورة الشيطان أقبح الصور، وأكرهها في طباع الناس وعقائدهم، ومن ثمة إذا وصفوا شيئاً بغاية القبح والكراهة قالوا: كأنه شيطان وإن لم يروه، فتشبيه الطلع برؤوس الشياطين، تشبيه بالمخيّل كتشبيه الفائق في الحسن بالملك، قال تعالى حكاية: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وفيه إشارة، إلى أن من كان ههنا معلوماته في قبح صفات الشياطين، يكون هناك مكافأته في قبح صورة الشياطين.

والمعنى[2]: أي إن ثمرها في قبح منظره، وكراهة رؤيته، كأنه رؤوس الشياطين، والعرب تتخيل رأس الشيطان صورة بشعة، لا تعدلها صورة أخرى، فيقولون لمن يسمونه بالقبح المتناهي: كأن وجهه وجه شيطان، وكأن رأسه رأس

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

شيطان، ألا ترى إلى امرىء القيس، وقد سلك هذا السبيل، ونهج هذا النهج، فقال:

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فشبه سنان الرمح بأنياب الغول، ولم يرها، فشبه المحسوس بالمتخيل وإن كان غير مرئي، للدلالة على أنه غاية في القبح، وعلى العكس من هذا، تراهم يشبهون الصورة الحسنة بالملك، من قبل أنهم اعتقدوا فيه، أنه خير محض لا شر فيه، فارتسم في خيالهم بأبهى صورة، وعلى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن صواحبات يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقال الزجاج والفراء[1]: الشياطين حيات هائلة، قبيحة المنظر، لها رؤوس وأعراف، جمع عرف بضم العين، وهو شعر تحت الرأس، وهي من أقبح الحيات وأخبثها، وأخفها جسماً. وقيل: إن رؤوس الشياطين اسم لنبت قبيح، معروف باليمن، بناحية يقال لها: الأستن، ويقال له: الشيطان، قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب، وقيل: هو شجر خشن منتن، مر، منكر الصورة، يسمى ثمره رؤوس الشيطان، يوجد بين مكة واليمن.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: الكفار ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من شجرة الزقوم، أو من طلعها، والتأنيث لاكتساب الطلع التأنيث من إضافته إلى الشجرة، ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من شجرة الزقوم ﴿ٱلْبُطُونَ﴾؛ أي: بطونهم، والمالىء اسم فاعل، من ملأ الإناء ماءً كما سيأتي، والبطون: جمع بطن، وهو خلاف الظهر، وذلك لغلبة الجوع عليهم، أو أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلىء بطونهم، فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة وفاكهتهم، ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ بعد الأكل منها ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي[2]: على الشجرة التي ملؤوا منها بطونهم بعد ما شبعوا منها، وغلبهم العطش، وطال استسقاؤهم كما ينبىء عنه كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فتكون للتراخي الزماني، ويجوز أن تكون للرتبي، من حيث إن كراهة شرابهم وبشاعته، لما كانت أشد

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وأقوى بالنسبة إلى كراهة طعامهم، كان شرابهم أبعد من طعامهم من حيث الرتبة، فيكونون جامعين بين أكل الطعام الكريه البشع، وشرب الشراب الأكره الأبشع، ﴿لَشَوْبًا﴾؛ أي: لشراباً مخلوطاً ممزوجاً ﴿مِّنْ﴾ دم وصديد بماء ﴿حَمِيمٍ﴾؛ أي: متناه في الحرارة، والشوب: الخلط، قال الفراء: يقال: شاب طعامه وشرابه، إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشبابة، والحميم: الحار الذي قد انتهى حره؛ أي: إن لهم شراباً من دم أو قيح أسود، أو صديد ممزوجاً مشوباً بماء حار، غاية الحرارة يقطع أمعاءهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شوبا﴾ بفتح الشين، وقرأ شيبان النحوي: بالضم، قال الزجاج: الفتح للمصدر، والضم للاسم، يعني: أنه فعل بمعنى مفعول كالنقض بمعنى المنقوض.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما ملؤوا بطونهم منها، وشربوا عليها شوباً من حميم ﴿إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾؛ أي: مصيرهم ومنقلبهم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: إلى[2] دركاتها أو إلى نفسها، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها، وقيل: الجحيم خارج عنها لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾، يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم من الجحيم إلى شجرة الزقوم، فيأكلون منها إلى أن يمتلئوا، ثم يسقون من الحميم، ثم يردون إلى الجحيم، كما يرد الإبل عن موارد الماء، ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ثم إن مقيلهم﴾، وفي الحديث: «يا أيها الناس اتقوا الله، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت، لأمرت على أهل الدنيا معيشتها، فكيف بمن هو طعامه وشرابه، وليس له طعام غيره»، وقرأ ابن مسعود ﴿ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾.

وقال أبو حيان[3]: ولما كان الأكل يعقبه ملء البطن، كان العطف بالفاء في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، ولما كان الشرب يكثر تراخيه عن الأكل، أتى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط بتصرف.

بثم، المفيدة للتراخي والمهلة، في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾، ولما ذهب بهم من منازلهم، التي أسكنوها في النار، إلى شجرة الزقوم للأكل والتملؤ منها، والسقي من الحميم، وتراخي رجوعهم إلى منازلهم، أتى بـ﴿ثم﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ للدلالة على ذلك؛ لأن الرجوع يدل على الانتقال في وقت الأكل والشرب إلى مكان غير مكانهما.

وحاصل معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ إلى آخر الآيات الثلاث؛ أي: فإنهم[1] ليأكلون من ثمرها، فيملؤون بطونهم منه، وإن كانوا يعرفون مرارة طعمه، ونهاية نتنه، وبشاعة رائحته، ولكن ماذا يعملون، وقد غلب عليهم الجوع، والمضطر يركب الصعب والذلول، ويستروح من الضر بما يقاربه فيه، وبعد أن وصف طعامهم وبيَّن شناعته، أردفه ذكر شرابهم ووصفه بما هو أبشع وأشنع، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: ثم إنهم بعد أن يشبعوا ويغلبهم العطش، يستغيثون منه، فيغاثون بماء كالمهل، قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم، شوى لحوم وجوههم، وإذا شربوه قطع أمعاءهم، ثم ذكر أنهم بعد هذا وذاك، لا مأوى لهم إلا نار جهنم، وبئس المصير، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾؛ أي: ثم إن مصيرهم بعد المأكل والمشرب لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فهم تارة في هذه، وتارة في تلك.

والخلاصة: أنهم يؤخذون من منازلهم في الجحيم، وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن تمتلىء بطونهم، ثم يسقون الحميم، ثم يرجعون إلى تلك الدركات.

ثم علل استحقاقهم للوقوع، في تلك الشدائد، بتقليد الآباء في الدين بلا دليل يستمسكون به، فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾﴾؛ أي: وإنما استحقوا هذا العذاب الشديد؛ لأنهم أي: لأن أصحاب الزقوم وجدوا آباءهم ضالين،

---

(١) المراغي.

مخطئين في نفس الأمر، عن الهدى وطلب الحق، ليس لهم ما يصلح شبهة، فضلاً عن صلاحية الدليل، فقلدوهم في ضلالاتهم وجهالاتهم، ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: الكافرون الظالمون بسبب تقليدهم آباءهم ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾؛ أي: على آثار الآباء وأعقابهم ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ أي: يسرعون من غير أن يتدبروا أنهم على الحق، أو لا، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل، والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يزعجون ويحثون حثاً على الإسراع على آثارهم.

والمعنى: يتبعون آباءهم في سرعة، كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم، وفي هذا دليل، على أن التقليد شؤم على المقلد، وعلى من يتبعه، فالإنسان لا سعادة له إلا بالنظر، والبحث في الحقائق الدنيوية والأخروية، ولو لم يكن في القرآن آية، غير هذه في ذم التقليد، لكفت.

﴿وَلَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ﴿ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل قومك قريش ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم السابقة، أضلهم إبليس، ولم يذكر لأن في الكلام دليلاً، فاكتفي بالإشارة.

والمعنى: أي ولقد ضل قبل قريش كثير من الأمم الماضية، فعبدوا مع الله تعالى آلهة أخرى، كما فعل قوم إبراهيم، وقوم هود، وقوم صالح.

ثم ذكر رحمته بعباده، وأنه لا يؤاخذهم إلا بعد إنذار، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أرسلنا في أولئك الأولين رسلاً أولي عدد كثير، ذوي شأن خطير، بيَّنوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبته الوخيمة، وأوضحوا لهم الحق. فلم يُنجح ذلك فيهم، ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد، أو أيها المخاطب ﴿كَيْفَ كَانَ﴾؛ أي: أي حالة كانت ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: آخر أمر الذين أنذروا من عذاب الله تعالى، فلم يلتفتوا إلى الإنذار، ولم يرفعوا له رأساً من الدمار والهلاك، فقد دمرهم الله تعالى، ونجى المؤمنين ونصرهم.

والخطاب[1]: إما للرسول، أو لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم،

---

(١) روح البيان.

وسماع أخبارهم، وحيث كان المعنى: أنهم أهلكوا إهلاكاً فظيعاً، استثني منهم المخلصين بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان، والعمل بموجب الإنذار، واصطفاهم بالقرب والرضا. يعني: أنهم نجوا مما أهلك به كفار الأمم الماضية. وقرىء[1] ﴿المخلصين﴾ بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا لله طاعاتهم، ولم يشوبوها بشيء مما يغيرها؛ أي: لكن عباد الله الذين أخلصهم الله بتوفيقهم للإيمان والعمل بأوامر دينه أنجاهم من عذابه. ففازوا بالنعيم المقيم، في جنات عرضها السموات والأرض.

وفي الآية[2]: تسلية لرسول الله ﷺ ببيان أنه تعالى، أرسل قبله رسلاً إلى الأمم الماضية، فأنذروهم بسوء عاقبة الكفر والضلال، فكذبهم قومهم ولم ينتهوا بالإنذار، وأصروا على الكفر والضلال، فصبر الرسل على أذاهم، واستمروا على دعوتهم إلى الله تعالى، فاقتد بهم، وما عليك إلا البلاغ، ثم إن عاقبة الإصرار الهلاك، وغاية الصبر النجاة والفوز بالمراد، فعلى العاقل تصحيح العمل بالإخلاص، وتصحيح القلب بالتصفية.

قال الواسطي: مدار العبودية على ستة أشياء: التعظيم، والحياء، والخوف، والرجاء، والمحبة، والهيبة، فمن ذكر التعظيم يهيج الإخلاص، ومن ذكر الحياء يكون العبد على خطرات قلبه حافظاً، ومن ذكر الخوف يتوب العبد من الذنوب ويأمن من المهالك، ومن ذكر الرجاء يسارع إلى الطاعات، ومن ذكر المحبة يصفو له الأعمال، ومن ذكر الهيبة يدع التملك والاختيار، ويكون في إرادته تابعاً لإرادة الله تعالى، ولا يقول إلا سمعنا وأطعنا، ومن الله سبحانه التوفيق، بطريق التحقيق، وقد ذكر الله سبحانه، في هذه السورة ست قصص من قصص الأنبياء:

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

الأولى منها: قصص نوح عليه السلام

ولما ذكر سبحانه، أنه أرسل في الأمم الماضية منذرين، وحسن عاقبة المنذرين بالكسر، وسوء خاتمة المنذرين، بالفتح ذكر تفصيل ما أجمله، فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ﴿نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ عليه السلام، ودعا واستنصر بنا على كفار قومه، لما بالغوا في إيذائه وهموا بقتله، حين دعاهم إلى الدين الحق. ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ له نحن إذ لبينا نداءه، وأهلكنا من كذب به من قومه، والنداء: الدعاء بقرينة ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾.

والمعنى[1]: وبالله لقد دعانا نوح، وهو أول المرسلين حين يئس من إيمان قومه، بعدما دعاهم إليه أحقاباً ودهوراً، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً، فأجبناه أحسن الإجابة، حيث أوصلناه إلى مراده من نصرته على أعدائه، والانتقام منهم بأبلغ ما يكون، فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ قال: «صدقت ربنا أنت أقرب من دُعي، وأقرب من بُغي، فنعم المدعو، ونعم المُعطي، ونعم المسؤول، ونعم المولى، أنت ربنا، ونعم النصير».

ثم بيَّن سبحانه، أن الإنعام حصل في الإجابة من وجوه:

١ - ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾، أي: ونجينا نوحاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: وأهل دينه، وهم من آمن معه، وكانوا ثمانين، ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والغرق العميم، وقيل: من أذى قومه دهراً طويلاً، ومن كل ما يكربه ويسوؤه، والكرب: الغم الشديد كما سيأتي في مبحث اللغة.

٢ - ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ ونسله ﴿هُمُ﴾ فحسب ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ في الدنيا دون غيرهم،

---

(١) روح البيان.

كما يُشعر به ضمير الفصل، وذلك لأن الله سبحانه، أهلك الكفرة بدعائه، ولم يبق منهم باقية، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين، ماتوا كما قيل، ولم يبق إلا أولاده، وقد رُوي: أنه مات كل من كان معه في السفينة، غير أبنائه وأزواجهم، وهم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة، قال قتادة: إنهم كلهم من ذرية نوح، وكان له ثلاثة أولاد: سام، وحام، ويافث. فسام أبو العرب، وفارس، والروم، واليهود، والنصارى، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب، وكنعان، والسند، والهند، والنوبة، والزنج، والحبشة، والقبط، والبربر، وغيرهم. ويافث أبو الترك، والخزر، والصقالب، ويأجوج ومأجوج، وما هنالك.

وهذا هو المشهور على ألسنة المؤرخين[1]، وليس في القرآن ولا في السنة نص قاطع على شيء من هذا، كما أنه ليس في القرآن ما يشير إلى عموم دعوته لأهل الأرض قاطبةً، ولا أن الغرق عم الأرض جميعاً، وأن ما تفيده الآية من جعل ذريته هم الباقون، إنما هو بالنسبة لذرية من معه في السفينة، وذلك لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه، وقد كان في بعض الأقطار الشاسعة، من لم تبلغهم الدعوة، فلم يستوجبوا الغرق، كأهل الصين وغيرهم من البلاد النائية.

٣ - ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على نوح، وأبقينا له ثناءً حسناً وذكراً جميلاً، ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ أي: فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة، ثم ذكر سبحانه، أنه سلم عليه ليقتدى به، فلا يذكره أحد بسوء، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾؛ أي: وقلنا له: عليك السلام في الملائكة، والإنس، والجن، وعلى هذا التفسير المتروك محذوف، كما قدرنا: والسلام من الله تعالى، وقيل: المتروك نفس قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾؛ أي: تركنا هذا الكلام بعينه في الآخرين، وارتفاعه على الحكاية كقولك: قرأت سورة أنزلناها، فلم ينتصب السلام، لأن الحكاية لا تغير عن وجهها. والمعنى: يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له على الدوام أمةً بعد أمة. وقوله: ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على هذا المعنى بدل من قوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لكونه

---

(١) المراغي.

أدل منه على الشمول والاستغراق، لدخول الملائكة والثقلين فيه. والمراد[1]: الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها أبداً في العالمين، من الملائكة والثقلين جميعاً. وفي «تفسير القرطبي»: جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة، فقال نوح: لا أحملكما لأنكما سبب الضر والبلاء، فقالا: احملنا، فنحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك، فمن قرأ حين يخاف مضرتهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ لم يضراه، ذكره القشيري.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير بهذا إلى أن المستحق لسلام الله، هو نوح روح الإنسان؛ لأنه ما جاء أن الله سلم على شيء من العالمين غير الإنسان، كما قال تعالى ليلة المعراج: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فقال عليه السلام: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، وما قال: وعلى ملائكتك المقربين. وإنما كان اختصاص الإنسان بسلام من بين العالمين؛ لأنه حامل الأمانة الثقيلة التي أعرض عنها غيره، فكان أحوج شيءٍ إلى سلام الله، ليعبر بالأمانة على الصراط المستقيم، الذي هو أدق من الشعرة، وأحد من السيف، ولهذا قال النبي ﷺ: «تكون دعوة الرسل حينئذٍ، رب سلم سلم». وهل سمعت أن يكون لغير الإنسان العبور على الصراط، وإنما اختصوا بالعبور على الصراط؛ لأنهم يؤدون الأمانة إلى أهلها. وهو الله تعالى، فلا بد من العبور على صراط الله، الموصل إليه لأداء الأمانة، وقرأ ابن مسعود[2] ﴿سلاما﴾ منصوباً بتركنا.

ثم علل ما فعله به، بأنه جزاء على إحسانه فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الكاف متعلق بما بعدها؛ أي: مثل ذلك الجزاء الكامل، من إجابة الدعاء، وإبقاء الذرية، والذكر الجميل، وتسليم العالمين أبداً، ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الإحسان والإخلاص، لا جزاءً أدنى منه، فهو تعليل لما فُعل بنوح، من الكرامات السنية، بأنه مجازاة على إحسانه، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨١﴾ تعليل لكونه من المحسنين، بخلوص عبوديته وكمال إيمانه، وفيه إظهار لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره، وترغيب في تحصيله والثبات عليه، وفي «كشف

---

(1) روح البيان.
(2) الشوكاني.

الأسرار»: خص[1] الإيمان بالذكر، والنبوة أشرف منه، بياناً لشرف المؤمنين، لا لشرف نوح، كما يقال: إن محمداً ﷺ من بني هاشم. قال عباس بن عطاء: أدنى منازل المرسلين أعلى مراتب النبيين، وأدنى مراتب النبيين أعلى مراتب الصديقين، وأدنى مراتب الصديقين أعلى مراتب المؤمنين.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان ﴿الْآخَرِينَ﴾؛ أي: المغايرين لنوح وأهله، وهم كفار قومه أجمعين، ولم نُبق لهم عيناً ولا أثراً، وهو معطوف على ﴿نَجَّيْنَاهُ﴾، وأتى بـ﴿ثم﴾ لما بين الإنجاء والإغراق من التفاوت الرتبي، وكذا إذا كان عطفاً على ﴿تركنا﴾، وليس للتراخي؛ لأن كلاً من الإنجاء والإبقاء إنما هو بعد الإغراق دون العكس، كما يقتضيه التراخي.

والثانية منها: قصص إبراهيم عليه السلام

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم، وبيّن أنه ممن شايع نوحاً فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ﴾؛ أي: وإن ممن شايع نوحاً وتابعه ووافقه في أصول الدين والدعوة إلى الله سبحانه، وإلى توحيده والإيمان به ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾ وإن اختلفت فروع شريعتهما، ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلي أو أكثري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أي: وإن من أهل دينه وعلى سننه أو ممن شايعه ووافقه على التصلب في دين الله، ومصابرة المكذبين، وما كان بينهما إلا نبيان هود وصالح فقط، والذين قبل نوح ثلاثة: إدريس، وشيث، وآدم، فجملة ﴿مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ من الأنبياء ستة، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وست مئة وأربعون سنة، قال الأصمعي: الشيعة: الأعوان، وهو مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد، وفي بعض التفاسير أن الهاء في ﴿شِيعَتِهِ﴾ عائد على محمد ﷺ، وإن كان غير مذكور.

والمعنى عليه: وإن من شيعة محمد ﷺ لإبراهيم، فإبراهيم وإن كان سابقاً في الصورة، لكنه متابع لرسول الله ﷺ في الحقيقة، ولذا اعترف بفضله، ومدح

---

(١) روح البيان.

دينه، ودعا فيه حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ كذا قال الفراء والكلبي وغيرهما، ولا يخفى ما في هذا من الضعف والمخالفة للسياق.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ منصوب بفعل محذوف، تقديره: اذكر يا محمد لقومك قصةً إذ أقبل إبراهيم إلى طاعة ربه بقلب خالص من الشرك والشك. وقيل: من الغل، والغش، والحقد، والحسد يحب للناس ما يحب لنفسه، وقيل: خالص من جميع آفات القلوب، وقيل: سليم من العلائق بما في الكونين، ومعنى مجيئه به ربه: إخلاصه له، كأنه جاء به متحضناً إياه بطريق التمثيل، وإلا فليس القلب مما ينقل من مكان إلى مكان حتى يُجاء به، وفي الشوكاني: ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين:

أحدهما: عند دعائه إلى توحيده وطاعته.

والثاني: عند إلقائه في النار. وقيل: الظرف متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة؛ أي: تابعه إذ جاء ربه بقلب سليم، واعترضه أبو حيان بلزوم الفصل بينه وبين معموله بأجنبي، وهو قوله: ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وبلزوم عمل ما قبل اللام الابتدائية فيما بعدها، وأجيب: بأنه يُتوسع في الظروف ما لا يُتوسع في غيرها.

ومعنى قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ...﴾ إلخ؛ أي[1]: وإنّ ممن سار على نهج نوح، وسلك طريقه في اعتقاد التوحيد والبعث، والتصلب في دين الله، ومصابرة المكذبين، إبراهيم الخليل، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ...﴾ إلخ؛ أي: إذا أخلص قلبه لربه، وجعله خالياً من كل شؤون الحياة الدنيا، فلا غش لديه، ولا حقد، ولا شيء مما يشينه من العقائد الزائفة، والصفات القبيحة.

ثم فصّل ما سلف، فقال: ﴿إِذْ قَالَ﴾ والظرف بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، أو متعلق بـ﴿سليم﴾؛ أي: اذكر إذ قال، أو جاء ربه بقلب سليم حين قال: ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر بن باعر بن ناحور بن فالغ بن صالح بن أرفخشد بن سام بن نوح ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ وكانوا عبدة الأصنام ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ؛ أي: أي شيء

---

(١) المراغي.

تعبدون؛ أي: حين قال لأبيه آزر وقومه الكفار، منكراً عليهم عبادة الأصنام والأوثان؛ أي: شيء تعبدون، إذ لا ينبغي لعاقل، أن يركن إلى مثل هذه المعبودات، التي لا تضر ولا تنفع.

ثم بيَّن الإنكار وفسّره بقوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري. والإفك[1]: أسوأ الكذب، وهو لا يثبت ويضطرب، ومنه: ائتفكت بهم الأرض. وانتصاب ﴿إفكا﴾ على أنه مفعول لأجله، و﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول به لـ ﴿تريدون﴾. فقدم المفعول على الفعل للعناية، ثم المفعول له على المفعول به؛ لأن الأهم مكافحتهم بأنهم على إفك آلهتهم، وباطل شركهم؛ أي: أتريدون آلهةً من دون الله، تعبدونها إفكاً وكذباً، دون أن تركنوا في ذلك إلى دليل، من نص ولا تأييد من نقل، إن هذا منكم إلا خبال وخطل في الرأي، وقيل: انتصاب ﴿إفكاً﴾ على أنه مفعول به لـ﴿تريدون﴾، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدل منه جعلها نفس الإفك مبالغةً. وهذه أولى من الوجه الأول. وقيل: انتصابه على الحال من فاعل ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ أي: أتريدون آلهة آفكين أو ذوي إفك.

﴿فَمَا﴾ مبتدأ، خبره ﴿ظَنُّكُم﴾؛ أي: فأي شيء ظنكم واعتقادكم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؛ أي: أتظنون أن يغفل عنكم أو لا يؤاخذكم بما كسبت أيديكم؛ أي: لا ظن فكيف القطع. فالاستفهام للإنكار، وهو تحذير مثل: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾. أو المعنى[2]: أتظنون أنه من جنس هذه الأجسام، حتى جعلتموها مساوية له في المعبودية، أو أنه جوّز جعل هذه الجمادات مشاركة له في المعبودية، ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً﴾ واحدة ﴿فِى ٱلنُّجُومِ﴾ جمع نجم، وهو الكوكب الطالع؛ أي: في علمها وحسابها، إذ لو نظر إلى النجوم أنفسها لقال: إلى النجوم، وكان القوم يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروا عليه، واعتذر عن التخلف عن عيدهم؛ أي: عن الخروج إلى معبدهم ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾؛ أي: سقيم القلب مما تفعلون أو سقيم فيما مضى أو سقيم في المستقبل سقماً أموت به أو سقيم سقماً خفياً مما هو موجود في

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

الحال، إذ كان الإنسان لا ينفك من خلل يعتريه، وإن كان لا يحس به، كما ذكره في «المفردات». ففي كلامه تعريض وتورية. وقال ابن عطاء[1]: إني سقيم من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام أو بصدد الموت. فإن من في عنقه الموت سقيم. وقد فوجىء رجل فاجتمع عليه الناس وقالوا: مات، وهو صحيح فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه؟. وأياً ما كان فلم يقل إبراهيم إلا عن تأول. فإن العارف لا يقع في انتهاك الحرمة أبداً. وكان ذلك من إبراهيم لذب عن دينه، وتوسل إلى إلزام قومه.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة: أن العرب تقول للشخص إذا تفكر وأطال الفكر: نظر في النجوم. والمعنى هنا: فأطال إبراهيم الفكر فيما هو فيه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾؛ أي[2]: أحس بخروج مزاجي عن حال الاعتدال، ولا أرى في نفسي خفة ونشاطاً، وكان مقصده من قولته هذه، أن لا يخرج معهم في يوم عيدهم، حين طلبوا منه الخروج، لينفذ ما عزم عليه من كسر أصنامهم، وإعلان الحرب عليهم، في عبادتهم للأوثان والأصنام، ولم يكن لهم علم بما بيَّت عليه النية، ولا دليل على أنه لم يكن صادقاً فيما يقول، إذ من يعزم على تنفيذ أمر ذي بال، يخاف منه الخطر على نفسه، أن يكون مهموماً مغموماً مفكراً في عاقبة ما يعمل.

وكان القوم يتطيرون من المريض[3]، فلما سمعوا من إبراهيم ذلك، هربوا منه إلى معبدهم، وتركوه في بيت الأصنام فريداً ليس معه أحد، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾؛ أي: فتول قومه، وأعرضوا وتفرقوا عن إبراهيم ﴿مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: هاربين مخافة العدوى؛ أي: السراية، وتركوه في مكانه.

فائدة: قال عز الدين بن عبد السلام: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً. فالكذب فيه حرام فإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

ذلك المقصود مباحاً وواجب إن كان ذلك المقصود واجباً، فهذا ضابطه، انتهى.
وفي «الأسئلة المقحمة»: ومن الناس من يجوّز الكذب في الحروب لأجل المكيدة والخداع، وإرضاء الزوجة، والإصلاح بين المتهاجرين، والصحيح: أنه لا يجوز الكذب أيضاً في هذه المواضع؛ لأن الكذب في نفسه قبيح، والقبيح في نفسه لا يصير حسناً باختلاف الصور والأحوال، وإنما يجوز في هذه المواضع بتأويل وتعريض لا بطريق التصريح، مثاله نحو قول الرجل لزوجته إذا كان لا يحبها: كيف لا أحبك وأنت حلالي وزوجتي وقد صحبتك. فأما إذا قال صريحاً: بأني أحبك وهو يبغضها، فيكون كذباً محضاً، ولا رخصة فيه.

وفي «فتح الرحمٰن» قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ لم يقل: إلى النجوم مع أن النظر إنما يتعدى بإلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾؛ لأن ﴿فِي﴾ بمعنى إلى كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، أو أن النظر هنا بمعنى الفكر، وهو يتعدى بفي، كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. فصار المعنى هنا: ففكر في علم النجوم. فإن قلت: لم لم يجز النظر في علم النجوم كما جاز لإبراهيم؟.

قلت: إذا كان الناظر فيه كإبراهيم في أن الله أراه ملكوت السموات والأرض، جاز له النظر فيه.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾؛ أي: ذهب إبراهيم إلى آلهتهم وأصنامهم في خفية، وأصله: الميل بحيلة من روغة الثعلب، وهو ذهابه في خفية وحيلة ﴿فَقَالَ﴾ إبراهيم للأصنام استهزاءً وسخريةً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أيتها الأصنام من الطعام الذي يصنعونه لكم، وخاطبها كما يخاطب من يعقل، لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة، وكانوا يضعون الطعام عند الأصنام لتحصل لهم البركة بسببها، ويأكلوه إذا رجعوا من عيدهم، وقيل: تركوه للسدنة، وقيل: إن إبراهيم هو الذي قرب إليها الطعام مستهزئاً بها، والاستفهام في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ للتهكم بهم؛ أي: أي مانع ثبت لكم غير ناطقين بجوابي ﴿فَرَاغَ﴾ إبراهيم؛ أي: مال مستعلياً ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حال كونه يضربهم ﴿ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: ضرباً حاصلاً باليد اليمنى. فانتصابه على أنه مصدر مؤكد، لفعل محذوف، أو مصدر لراغ؛ لأنه بمعنى ضرب أو على

الحالية؛ أي: أقبل عليهم مستخفياً حال كونه ضارباً باليمين. فالمصدر بمعنى الفاعل؛ أي: ضرباً شديداً قوياً. وذلك لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما، وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وشدته. وقيل: ضرباً بالقوة والمتانة. وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين؛ لأنه يقوّي الكلام ويؤكده. وقيل: ضرباً بسبب الحلف، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

ومعنى الآيات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ إلخ؛ أي: فذهب مستخفياً إلى أصنامهم التي يعبدونها، وقال لها استهزاءً: ألا تأكلون من الطعام الذي يقدم إليكم، وكانوا يصنعون في أيام أعيادهم طعاماً لدى هذه الأصنام لتبارك فيه. وقال أيضاً: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؛ أي: أي شيء منعكم الإجابة عن سؤالي، ومراده بذلك: التهكم بهم، واحتقار شأنهم، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: فاتجه إليهم يضربهم بقوة وشدة، حتى تركهم جذاذاً إلا كبيرهم، كما تقدم في سورة الأنبياء، فلما رجعوا من عيدهم إلى بيت الأصنام، وجدوها مكسورة، فسألوا عن الفاعل، فظنوا أن إبراهيم عليه السلام، فعله، فقيل: فائتوا به. ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟﴾؛ أي: توجه المأمورون بإحضاره ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى إبراهيم، قال ابن الشيخ: قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يجوز أن يتعلق بما قبله وبما بعده، وقوله: ﴿يَزِفُّونَ﴾ حال من واو ﴿أقبلوا﴾؛ أي: حال كونهم يسرعون من زفيف النعام، وهو ابتداء عدوها، فقالوا له: نحن نعبدها وأنت تكسرها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَزِفُّونَ﴾ بفتح الياء من زف إذا أسرع، أو من زفاف العروس، وهو التمهل في المشية، إذ كانوا في طمأنينة أن ينال أصنامهم شيء لعزتهم، وقرأ مجاهد، وعبد الله بن يزيد، والضحاك، ويحيى بن عبد الرحمٰن المقري، وابن أبي عبلة ﴿يزفون﴾ مضارع زف بمعنى أسرع. وقال الكسائي والفراء: لا نعرفها بمعنى زف. وقرأ حمزة، ومجاهد أيضاً، وابن وثّاب، والأعمش ﴿يزفون﴾ بضم الياء من أزف الرباعي، دخل في الزفيف؛ أي: الإسراع، فهي للتعدي، قاله الأصمعي، وقرىء ﴿يزفون﴾ مبنياً للمفعول. وقرىء

---

(١) البحر المحيط.

﴿يزفون﴾ كيرمون بسكون الزاي من زفاه إذا حداه، فكان بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه. وحكى الثعلبي عن الحسن، ومجاهد، وابن السميفع: أنهم قرؤوا ﴿يرفون﴾ بالراء المهملة، وهي ركض بين المشي والعدو.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام؛ أي: بعدما أتوا به، وجرى بينهم وبينه من المحاورات، ما نطق به قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: قال لهم حال كونه يؤنبهم ويعيِّبهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ بهمزة الاستفهام الإنكاري ﴿ما تنحتون﴾ه من الأصنام. فما موصولة؛ أي: أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها، وتبرونها، وتصلحونها. والنحت: النجر والبري، يقال: نحته ينحته بالكسر نحتاً إذا براه والنحاتة: البراية، وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾ مؤكدة للإنكار والتوبيخ، أي: والحال أنه تعالى خلقكم، والخالق هو الحقيق بالعبادة دون المخلوق. ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وخلق ما تعملونه من الأصنام وغيرها، فإن[1] جواهر أصنامهم ومادتها بخلقه تعالى، وشكلُها وإن كان بفعلهم، لكنه بإقدار الله تعالى إياهم عليه، وخلقُه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعدد والأسباب، فلم يلزم أن يكون الشيء مخلوقاً لله ومعمولاً لهم. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: خلقكم وخلق عملكم. ولكن جعلها موصولةً أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام. وظهر من فحوى الآية: أن الأفعال مخلوقة لله تعالى، مكتسبة للعباد، حسبما قالته أهل السنة والجماعة، وبالاكتساب يتعلق الثواب والعقاب.

والمعنى: أي قال لهم: أتعبدون من دون الله تعالى، أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم، فما تحدثون فيه الصنعة بأيديكم، تجعلونه معبوداً لكم، أفلا عاقل منكم، ينهاكم عن مثل هذا، والله خلقكم، وخلق تلك الأصنام التي تعملونها بأيديكم، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق، لا جرم أن عبادتكم لها خطأ عظيم، وإثم كبير.

---

(١) روح البيان.

ولما أورد عليهم إبراهيم هذه الحجة القوية، التي لم يستطيعوا دفعها، عدلوا عن الحجاج إلى الإيذاء واستعمال القوة، فتشاوروا فيما بينهم، واتفقوا على أن يبنوا له حائطاً من حجارة، ويملؤوه حطباً ويضرموه، ثم يلقوه فيه. فـ﴿قالوا﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ﴾؛ أي: لإبراهيم؛ أي: لأجل الانتقام منه لآلهتكم ﴿بُنۡيَٰنٗا﴾ رفيعاً عريضاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ابنوا حائطاً من حجر، طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وملؤوه حطباً، وأشعلوه ناراً، واطرحوه فيها كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: فارموه في النار الشديدة الاتقاد والالتهاب. واللام فيه عوض عن المضاف إليه؛ أي: في جحيم ذلك البنيان.

وقال السهيلي في «التعريف»: قائل هذه المقالة لهم فيما ذكر الطبري، اسمه الهيزن، رجل من أعراب فارس، وهم الترك، وهو الذي في الحديث: «بينا رجل يمشي في حلة، يتبختر فيها فخسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

ثم ألقوه فيها، ونجاه الله منها، وجعلها برداً وسلاماً، وهو معنى قوله: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾؛ أي: شراً، وهو أن يحرقوه بالنار عليه السلام؛ أي: لما قهرهم بالحجة، وألقمهم الحجر قصدوا أن يكيدوا به ويحتالوا لا هلاكه كما كاد أصنامهم بكسره إياهم، لئلا يظهر للعامة عجزهم. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾؛ أي: الأذلين بإبطال كيدهم، وجعله في نحورهم، وجعله برهاناً نيراً على علوّ شأنه عليه السلام، بجعل النار عليه برداً وسلاماً على ما سبق تفصيل هذه القصة في سورة الأنبياء؛ أي: إن إبراهيم في وقت المحاجة، حصلت له الغلبة، وعندما ألقوه في النار، صرف الله عنه ضرر النار، فصار هو الغالب عليهم.

فإن قلت[1]: لم ابتلاه الله تعالى بالنار في نفسه؟.

قلت: لأن كل إنسان يخاف بالطبع من ظهور صفة القهر، كما قيل لموسى

(١) روح البيان.

عليه السلام: ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾. فأراه تعالى أن النار لا تضر شيئاً إلا بإذن الله تعالى، وإن ظهرت بصورة القهر وصفته. وكذلك أظهر الجمع بين المتضادين، بجعلها برداً وسلاماً. وفيه معجزة قاهرة لأعدائه، فإنهم كانوا يعبدون النار والشمس والنجوم، ويعتقدون وصف الربوبية لها، فأراهم الحق تعالى، أنها لا تضر إلا بإذن الله تعالى.

وقد ورد في الخبر: أن النمرود لما شاهد النار، كانت على إبراهيم برداً وسلاماً قال: إن ربك لعظيم نتقرب إليه بقرابين. فذبح تقرباً إليه آلافاً كثيرة، فلم ينفعه لإصراره على اعتقاده وعمله وسوء حاله.

وبعد أن يئس من إيمانهم، أراد مفارقتهم والهجرة من بينهم، كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم بعدما أنجاه الله تعالى من النار، قاله لمن فارقه من قومه، فيكون ذلك توبيخاً لهم، أو لمن هاجر معه من أهله، فيكون ذلك ترغيباً لهم. ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾؛ أي: مهاجر من أرض قومي، الذين فعلوا ما فعلوا، تعصباً للأصنام، وكفراً بالله، وتكذيباً لرسله؛ أي: مهاجر من أرض حران، أو من بابل، أو قرية بين البصرة والكوفة، يقال لها: هرمز بحره ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ أي: إلى حيث أمرني ربي بالمهاجرة إليه. وهو الشام، أو إلى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى؛ أي: موضع كان، فإن الذهاب إلى ذات الرب محال، إذ ليس في جهة من الأرض.

وفي «بحر العلوم»: ولعله أمره الله تعالى، بأن يهجر دار الكفر، ويذهب إلى موضع، يقدر فيه على زيارة الصخرة التي هي قبلته، وعلى عمارة المسجد الحرام، أو هي القرية التي دفن فيها، كما أمر نبينا ﷺ، بالهجرة من مكة إلى المدينة. وفي بعض التواريخ: دُفن إبراهيم بأرض فلسطين، وهي بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين المهملة؛ البلاد التي بين الشام وأرض مصر، منها: الرملة، وغزة، وعسقلان، وغيرها. ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: سيرشدني إلى مقصدي الذي أردت، وهو الشام أو إلى موضع يكون فيه صلاح ديني، أو سيثبتني على هداي ويزيدني هدى. وبتّ القول بذلك لسبق الوعد بذلك، أو لفرط توكله على ربه،

أو للبناء على عادته تعالى معه، ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام، حيث قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ولذلك أتى بصيغة التوقع.

وهذه[1] الآية أصل في الهجرة، من ديار الكفر إلى أرض، يتمكن فيها من إقامة وظائف الدين والطاعة. وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، هاجر مع لوط وصار إلى الأرض المقدسة. ولما هاجر من وطنه، ودخل الأرض المقدسة، طلب الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾ ولداً صالحاً ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: بعض الكاملين في الصلاح، يعينني على الدعوة والطاعة، ويؤنسني في الغربة، هكذا قال[2] المفسرون، وعللوا ذلك، بأن الهبة قد غلب معناها في الولد، فتحمل عليه عند الإطلاق، وإذا وردت مقيدةً، حملت على ما قيدت به، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ وعلى فرض أنها لم تغلب في طلب الولد فقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ على لسان الملائكة ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾؛ أي: ذي حلم، وحلم؛ أي: بلوغ. يدل على أنه ما أراد بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ إلا الولد، والغلام[3]: من جاوز العشر، وأما من دونها فصبي، كما قاله بعض أهل اللغة كما سيأتي، والحليم: من لا يعجل في الأمور، ويتحمل المشاق، ولا يضطرب عند إصابة المكروه، ولا يحركه الغضب بسهولة، ولقد جمع فيه ثلاث بشارات: بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحلم فإن الصبي لا يوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً، وأي حلم يعادل حلمه، حين عرض عليه أبوه الذبح، وهو مراهق فاستسلم.

روي: أن إبراهيم عليه السلام، لما جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، وأهلك عدوه النمرود، وتزوج بسارة، وكانت أحسن النساء وجهاً، وكانت تشبه حواء في حسنها، عزم الانتقال من أرض بابل إلى الشام، فلما دخل الأرض المقدسة، دعا ربه أن يرزقه الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾؛ أي: رب هب لي أولاداً مطيعين، يعينونني على الدعوة، ويؤنسونني في الغربة، ويكونون عوضاً من قومي وعشيرتي الذين فارقتهم، فاستجاب ربه دعاءه، فقال:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح العجائب.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ على لسان الملائكة ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾؛ أي: بمولود ذكر يبلغ الحلم، ويكون حليماً، وقد استفيد بلوغه من وصفه بالحلم؛ لأنه لازم لتلك السن، إذ قلما يوجد في الصبيان سعة الصدر، وحسن الصبر، والإغضاء عن كل أمر. وهذا[1] الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق، باتفاق العلماء من أهل الكتاب والمسلمين، بل جاء النص في التوراة على أن إسماعيل، ولد لإبراهيم وسنه ست وثمانون سنة، وولد له إسحاق، وعمره تسع وتسعون سنة، وأي حلم مثل حلمه، عرض عليه أبوه، وهو مراهق أن يذبحه فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فما ظنك به بعد بلوغه؟ وما نعت الله سبحانه، نبياً من الأنبياء بالحلم غير إبراهيم، وابنه إسماعيل عليهما السلام.

فإن قلت[2]: لم ختم هنا الآية بـ﴿حَلِيمٍ﴾، وفي الحجر والذاريات بـ﴿عَلِيمٍ﴾؟.

قلتُ: ختم في ذينك بـ﴿عَلِيمٍ﴾ إشعاراً بشرف العلم، وختم هنا بـ﴿حَلِيمٍ﴾ لمناسبة حلم الغلام، لوعده بالصبر في جوابه، لسؤال أبيه في ذبحه، حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الإعراب

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَأَقْبَلَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أقبل بعضهم﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بـ﴿أقبل﴾ والجملة معطوفة على ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب، حال من الفاعل، ومن المجرور. ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لـ﴿قَآئِلٌ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّي﴾: ناصب

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمٰن.

واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، ﴿لِي﴾ خبرها مقدم، ﴿قَرِينٌ﴾: اسمها مؤخر. وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿قَرِينٌ﴾، والجملة صفة لـ﴿قرين﴾، ﴿أَءِنَّكَ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي، ﴿إنك﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف دل عليه ما بعده، تقديره: أنُدان ونجازى، ﴿إذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بالفعل المحذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُ﴾ أو مفعول لـ﴿الْمُصَدِّقِينَ﴾؛ أي: لمن المصدقين المداناة والمجازاة وقت موتنا... إلخ، ﴿مِتْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ أي: أندان وقت موتنا، ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الخفض، معطوف على متنا، ﴿وَعِظَامًا﴾: معطوف على ﴿تُرَابًا﴾، ﴿أَءِنَّا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، مؤكدة للأولى، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَدِينُونَ﴾: خبره، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لـ﴿يَقُولُ﴾، على كونها مفسرة للمحذوفة، أو مفعول لـ﴿الْمُصَدِّقِينَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على المؤمن القائل، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام بمعنى الأمر، كأنه قال: اطلعوا كما مر في مبحث التفسير. ﴿أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَاطَّلَعَ﴾ الفاء عاطفة، ﴿اطلع﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على القائل المؤمن، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿فَرَءَاهُ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿رآه﴾: فعل ماض، ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على القائل المذكور، والجملة معطوفة على جملة ﴿اطلع﴾، ورآى هنا بصرية. ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ جار ومجرور

ومضاف إليه، متعلق بـ﴿رآى﴾، ﴿قَالَ﴾ فعل وفاعل مستتر، يعود على القائل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿تَاللَّهِ﴾ التاء: حرف جر وقسم، ولفظ الجلالة مقسم به مجرور بتاء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً، تقديره: أقسم بالله، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً؛ أي: إنه، ﴿كِدتَّ﴾ فعل ناقص واسمه؛ لأنه من أفعال المقاربة. ﴿لَتُرْدِينِ﴾ اللام: حرف ابتداء، فارقة بين النافية والمخففة. ﴿تردين﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير مستتر يعود على القرين، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية، ولرعاية الفاصلة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كاد﴾، وجملة ﴿كاد﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ المخففة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَوْلَا﴾: الواو عاطفة، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾: مبتدأ، ومضاف إليه، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: موجودة. ﴿لَكُنتُ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿كنت﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ المخففة على كونها جواب القسم.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَفَمَا نَحْنُ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، تقديره: أنحن مخلدون منعمون، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿مَا﴾: نافية حجازية. ﴿نَحْنُ﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِمَيِّتِينَ﴾ خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿مَا﴾: الحجازية معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿مَوْتَتَنَا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بميتين. ﴿الْأُولَىٰ﴾: صفة لـ﴿مَوْتَتَنَا﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿نَحْنُ﴾: اسمها. ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ خبرها، وجملة ﴿مَا﴾ معطوفة على جملة ما الأولى.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يعمل﴾. ﴿فَلْيَعْمَلِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حال أهل الجنة، وأردت بيان ما ينبغي لكل عامل، فأقول لك، واللام: لام الأمر، مبني على السكون لسبقه بالفاء. ﴿يعمل﴾ فعل مضارع، مجزوم بلام الأمر، ﴿ٱلْعَٰمِلُونَ﴾: فاعل مرفوع بالواو. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿أَذَٰلِكَ﴾: الهمزة: فيه للاستفهام التقريري؛ لأن المراد من الكلام: حمل الكفار على الإقرار بمدخولها، لا كما قاله بعضهم من أنها للإنكار. ﴿ذلك﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره، ﴿نُّزُلًا﴾ تمييز لخير، أو حال من الضمير المستكن في الخبر، ﴿أَمْ﴾: عاطفة متصلة. ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾: معطوف على ذلك. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: قل لهم يا محمد، على سبيل التقرير: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا...﴾ الخ. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول، ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول ثان، ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه، ﴿شَجَرَةٌ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿تَخْرُجُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على شجرة. ﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ متعلق بـ﴿تَخْرُجُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿شجرة﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿طَلْعُهَا﴾ مبتدأ، ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ خبر كأن، ومضاف إليه، وجملة التشبيه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿شجرة﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء عاطفة، ﴿إنهم﴾ ناصب واسمه، ﴿لَآكِلُونَ﴾ خبره مرفوع بالواو، واللام حرف ابتداء، ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿آكلون﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى. ﴿فَمَالِئُونَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿مالئون﴾ معطوف على ﴿آكلون﴾، ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿مالئون﴾، ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ مفعول لـ﴿مالئون﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَهُمْ﴾ خبرها مقدم، ﴿عَلَيْهَا﴾: حال من ﴿شوبا﴾، ﴿لَشَوْبًا﴾ اسمها مؤخر، واللام: حرف ابتداء، ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ صفة ﴿لَشَوْبًا﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ المذكورة قبلها. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَلْفَوْا۟﴾ فعل ماض، وفاعل، وهي من أخوات ظن تنصب مفعولين. ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ مفعول أول، ﴿ضَآلِّينَ﴾ مفعول ثان. وجملة ألفى في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل رجوعهم إلى الجحيم. ﴿فَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يُهْرَعُونَ﴾. ﴿يُهْرَعُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، والواو: نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ألفى﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿ضَلَّ﴾ فعل ماض، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿ضل﴾. أو حال مما بعده، ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: فاعل، ومضاف إليه. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿فِيهِم﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم قبلها. ﴿فَٱنظُرْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنا أرسلنا

إليهم منذرين، وأردت معرفة عاقبتهم فأقول لك: انظر كيف إلخ. ﴿انظر﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، أو على أي مخاطب، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها وجوباً، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ اسمها، ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب، مفعول ﴿انظر﴾، معلق عنها باسم الاستفهام. وجملة ﴿انظر﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء بمعنى لكن؛ لأن الاستثناء منقطع. ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صفة له.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿نَادَىٰنَا﴾: فعل، ومفعول. ﴿نُوحٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَلَنِعْمَ﴾ الفاء: عاطفة، واللام: موطئة للقسم. ﴿نِعْمَ﴾ فعل ماض لإنشاء المدح. ﴿ٱلْمُجِيبُونَ﴾ فاعل نِعْمَ، والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: نحن وجملة ﴿نِعْمَ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم الثاني، معطوفة على جملة القسم الأول. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على نادانا، ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ معطوف على ضمير المفعول أو مفعول معه، ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ﴾ متعلق بـ﴿نجينا﴾. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكَرْبِ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾. ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ مفعول ثان لـ﴿جعلنا﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَتَرَكْنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تركنا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور صفة لمفعول ﴿تركنا﴾

المحذوف، تقديره: وتركنا ثناء كائناً عليه، ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تركنا﴾ على أنه مفعول ثان له، ﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة ما فيه من معنى الدعاء. ﴿عَلَىٰ نُوحٍ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، بدل من مفعول ﴿تركنا﴾ المحذوف على أنها مفسرة له. ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾. وفي «السمين»: قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾: مبتدأ وخبر، وفيه أوجه:

أحدها: : أنه مفسر لـ﴿تركنا﴾.

والثاني: أنه مفسر لمفعوله؛ أي: تركنا عليه شيئاً، وهو هذا الكلام، وقيل: ثم قول مقدر؛ أي: فقلنا: سلام. وقيل: ضمّن تركنا معنى قلنا، وقيل: سُلّط تركنا على ما بعده. وقال الزمخشري: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ هذه الكلمة، وهي: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾. يعني: يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له. وهو من الكلام المحكي، كقولك: سورة أنزلناها. وهذا الذي قاله قول الكوفيين جعلوا الجملة في محل نصب مفعولاً بتركنا، لا أنه ضمّن معنى القول، بل هو على معناه، بخلاف الوجه الذي قبله، وهو أيضاً من أقوالهم، اهـ من «الفتوحات». ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: جزاء كائناً كذلك المذكور. ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل مجازاة نوح بتلك الكرامة السامية، وهي خلود ذكره وتسليم العالمين عليه أبد الدهر. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ خبره، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ﴿عِبَادِنَا﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ. ﴿أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾. ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ فالترتيب حقيقي؛ لأن نجاتهم حصلت قبل غرق الباقين، ولكن بينهما تراخ. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة عطف قصة ثانية على القصة الأولى، أو استئنافية ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ اسمها مؤخر، واللام حرف ابتداء. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أو مستأنفة.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف ما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر يا محمد ﷺ لقومك قصة حين جاء إبراهيم. ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿رَبَّهُۥ﴾ مفعول به. ﴿بِقَلْبٍ﴾ متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿سَلِيمٍ﴾ صفة قلب، ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الجر مضاف إليه، ﴿لِأَبِيهِ﴾ متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ معطوف على أبيه. ﴿مَاذَا﴾ اسم استفهام مركب في محل النصب، مفعول مقدم لـ﴿تَعْبُدُونَ﴾ أو ﴿مَا﴾ مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول خبره، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة لذا الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: ما الذي تعبدونه، والجملة الفعلية أو الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَئِفْكًا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي. ﴿إفكا﴾ مفعول من أجله، منصوب بـ﴿تُرِيدُونَ﴾. ﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول به لـ﴿تُرِيدُونَ﴾. ﴿دُونَ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تُرِيدُونَ﴾. و﴿تُرِيدُونَ﴾: فعل، وفاعل. والجملة الفعلية مستأنفة، وقدمت معمولات الفعل عليه اهتماماً بها. وقيل: ﴿إفكا﴾: مفعول به لـ﴿تُرِيدُونَ﴾، ﴿ءَالِهَةً﴾: بدل منه، جعلها نفس الإفك مبالغة، فأبدلها منه وفسره بها. وقيل: ﴿إفكا﴾: حال من فاعل ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين أو ذوي إفك. ﴿فَمَا﴾ الفاء عاطفة، ﴿مَا﴾: اسم استفهام للإنكار والتوبيخ في محل الرفع مبتدأ. أي: ليس لكم سبب ولا عذر يحملكم على الظن. ﴿ظَنُّكُم﴾ خبر المبتدأ، ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بظنكم. والجملة الاسمية معطوفة على الفعلية قبلها.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَنَظَرَ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿نظر﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم. والجملة مستأنفة. ﴿نَظْرَةً﴾ مفعول مطلق. ﴿فِى ٱلنُّجُومِ﴾ متعلق بنظر. ﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على نظر.

﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ناصب واسمه وخبره. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.
﴿فَتَوَلَّوْا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿تولوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على قال. ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ﴿تولوا﴾، ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حال من الواو في ﴿تولوا﴾، ﴿فَرَاغَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿راغ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، معطوف على تولوا، ﴿إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿راغ﴾، ﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على راغ. ﴿أَلَا﴾ الهمزة: للاستفهام السخري ﴿لا﴾: نافية، وجملة ﴿تَأْكُلُونَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبره. والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالَ﴾ المحذوف، والتقدير، فقال: ألا تأكلون فلم ينطقوا فقال: ما لكم لا تنطقون. وجملة ﴿لَا تَنطِقُونَ﴾ في محل النصب حال من كاف المخاطبين. ﴿فَرَاغَ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فلم يجيبوا، ﴿راغ﴾: فعل ماض، وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿راغ﴾ ﴿ضَرْبًا﴾ مصدر واقع موقع الحال؛ أي: فراغ عليهم ضارباً أو مصدر لفعل مقدر؛ أي: يضرب ضرباً. والجملة في محل النصب على الحال. و﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ متعلق بضرباً أو بعامله المحذوف. ﴿فَأَقْبَلُوٓا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿أقبلوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على راغ، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أقبلوا﴾، ويجوز تعلقه بما بعده، وجملة ﴿يَزِفُّونَ﴾: حال من فاعل ﴿أقبلوا﴾.
﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر. والجملة مستأنفة. ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب، مقول قال. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَنْحِتُونَ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: ما تنحتونه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾. ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾: ما: اسم موصول، معطوف على كاف ﴿خَلَقَكُمْ﴾، أو ﴿مَا﴾: مصدرية، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: وما تعملونه أو لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: وعملكم.

﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿ابْنُوا﴾: فعل أمر، والواو فاعل، مقول لـ﴿قَالُوا﴾، ﴿لَهُ﴾ متعلق بـ﴿ابْنُوا﴾، ﴿بُنْيَانًا﴾: مفعول به. ﴿فَأَلْقُوهُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿ألقوه﴾: فعل أمر، والواو فاعل، والهاء مفعول به. والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿ابْنُوا﴾. ﴿فِي الْجَحِيمِ﴾: متعلق بـ﴿ألقوه﴾، ﴿فَأَرَادُوا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿أرادوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على قالوا. ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿أرادوا﴾، ﴿كَيْدًا﴾ مفعول به. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾: مفعول ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿أرادوا﴾. ﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: فخرج من النار سالماً، وقال: إني ذاهب. ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. والجملة في محل النصب مقول قال، ﴿إِلَى رَبِّي﴾ متعلق بـ﴿ذَاهِبٌ﴾، ﴿سَيَهْدِينِ﴾: السين حرف استقبال، ﴿يهدين﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير يعود على الله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة، أو اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هَبْ﴾ فعل دعاء مبني على السكون، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿لِي﴾ متعلق بـ﴿هَبْ﴾، ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: ولداً من الصالحين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَبَشَّرْنَاهُ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فاستجبنا له فبشرناه. ﴿بشّرناه﴾ فعل، وفاعل ومفعول به، ﴿بِغُلَامٍ﴾ متعلق بـ﴿بشرناه﴾، ﴿حَلِيمٍ﴾ صفة لـ﴿غلام﴾. والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ من باب تفاعل، يدل على المشاركة من الجانبين، كما هو صريح لفظ السياق. ﴿قَرِينٌ﴾؛ أي: خليل، وصاحب، وجليس. ﴿لَمَدِينُونَ﴾؛

أي: لمجزيون، جمع مدين، كمبيع من الدين، بكسر الدال بمعنى الجزاء، يقال: دانه يدينه بمعنى: جزاه، نظير باعه يبيعه. ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾؛ أي: مشرفون فناظرون إلى أهل النار، من اطلع بمعنى استشرف من باب افتعل. ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: في وسط جهنم. وسمي وسط الشيء، سواء لاستواء المسافة منه، إلى جميع الجوانب، كما مر. ﴿كِدتَّ﴾؛ أي: قاربت. ﴿لَتُرْدِينِ﴾ لتهلكني بالإغواء. والردى: الهلاك، والإرداء: الإهلاك. أصله: لترديني بياء المتكلم، فحذفت اكتفاء بكسر نون الوقاية ولرعاية الفاصفة. ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الإحضار، وهو لا يستعمل إلا في الشر، كما في كشف الأسرار؛ أي: لمن المساقين إلى العذاب.

﴿نُزُلًا﴾ النزل بضمتين أو بضم النون وسكون الزاي: المنزل، وما يهيأ للضيف من الطعام، والجمع أنزال والنزل أيضاً بضمتين: الطعام ذو البركة، والقوم النازلون، وريع ما يزرع ونماؤه، والعطاء، والفضل، والزيادة. ومنه قولهم: العسل ليس من أنزال الأرض؛ أي: من ريعها، وما يحصل منها.

﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ وفي «المفردات»: شجرة الزقوم، عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه: استعير زقم فلان، وتزقّم إذا ابتلع شيئاً كريهاً. قال في «القاموس»: الزقّم: اللقم، والتزقم: التلقم، وأزقمه فازدقمه أبلعه فابتلعه، والزقوم كتنور: الزبد بالتمر، وشجرة بجهنم، ونبات بالبادية له زهر ياسميني الشكل، وطعام أهل النار، وفي «الخازن»: والزقوم: ثمر شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم، يكره أهل النار على تناولها، فهم يتزقمونه على أشد كراهية. وقيل: هي شجرة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر. ﴿طَلْعُهَا﴾؛ أي: حملها وثمرها، والطلع في الحقيقة اسم لثمر النخيل في أول بروزه، فإطلاقه على ثمر هذه الشجرة مجاز بالاستعارة، كما سيأتي في مبحث البلاغة. والطلع من النخل شيء يخرج منه، كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، وما يبدو من ثمرته في أول ظهورها. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ جمع مالىء اسم فاعل من ملأ المهموز. والملء: حشو الإناء لا يحتمل الزيادة عليه، يقال: ملأ الإناء ماءً يملؤه فهو مالىء ومملوء، والبطون جمع بطن، وهو خلاف الظهر في كل شيء.

﴿لَشَوْبًا﴾ والشوب: الخلط، وهو بفتح الشين مصدر على أصله، وقيل: يراد به: اسم المفعول، ويدل على قراءة بعضهم ﴿لشوبا﴾ بالضم. قال الزجاج: المفتوح مصدر، والمضموم اسم بمعنى: المشوب كالنقض بمعنى: المنقوض، والفعل منه شابه يشوبه، من باب قال إذا خلطه فهو الخلط. ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ والحميم: الماء الحار الذي قد انتهى حره، وهو المقصود، هنا، ويطلق على الماء البارد، فهو من الأضداد.

﴿أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: وجدوا من الإلفاء، وهو الوجدان. ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾؛ أي: آثار الآباء، جمع أثر. ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ أي: يسرعون إسراعاً شديداً. والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يزعجون ويحثون حثاً على الإسراع على آثارهم. وفي «المصباح»: هرع وأهرع بالبناء للمفعول فيهما؛ إذا أعجل، اهـ. ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ﴾ والكرب: الغم الشديد، والكربة كالغمة. وأصل ذلك من كرب الأرض، وهو قلبها بالحفر، فالغم يثير النفس إثارة ذلك، ويصح أن يكون الكرب من كربت الشمس إذا دنت للمغيب.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ في «المختار»: الشيعة: أتباع الرجل وأنصاره. وفي «المصباح»: الشيعة: الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت الشيعة اسماً لجماعة مخصوصة، والجمع: شيع مثل: سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع، انتهى. مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار الذي يوقد به الكبار حتى تستوقد، اهـ «قرطبي». وفي «الأساس»: شيعته يوم رحيله، وشايعتك على كذا تابعتك عليه، وتشايعوا على الأمر، وهو شيعته وشيعه وأشياعه، وهذا الغلام شيع أخيه، إذا ولد بعده، وآتيك غداً أو شيعه. قال الشاعر:

قَالَ الخَلِيطُ غَدَاً تَصُدُّ عَنَّا ... أو شِيَعَه أَفَلاَ تُشَيِّعَنَا

وأقمت عنده شهراً أو شيع شهر، وكان معه مئة رجل، أو شيع ذلك، ونزلوا موضع كذا، أو شيعه، وشاع الحديث والسر، وأشاعه صاحبه، ورجل مشياع مذياع، وشاع في رأسه الشيب، وشاعكم الله تعالى بالسلام، وشاعكم

السلام. قال الشاعر:

أَلاَ يَـا نَـخْـلَـةً فِـيْ ذَاتِ عِـرْقٍ   بُـرُوْدُ الـظِّـلِّ شَـاعَـكُـمُ ٱلـسَّـلاَمُ

لمحة عن الشيعة: وقول صاحب «المصباح»: اسم لجماعة مخصوصة، أراد الشيعة، أقدم الفرق الإسلامية، وقد ظهروا بمذهبهم السياسي في آخر عصر عثمان ـ رضي الله عنه ـ، ونما وترعرع في عهد علي ـ رضي الله عنه ـ، وقوام هذا المذهب: أن الإمامة ليست من المصالح العامة، التي تفوّض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين، وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها وتفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويجب أن يكون معصوماً عن الكبائر والصغائر، وأن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، كان هو الخليفة المختار من النبي ﷺ، وأنه أفضل الصحابة، ولها فرق كثيرة يرجع إليها في «كتاب الملل والنحل» للشهرستاني وكتاب «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم.

﴿أَئِفْكًا﴾ الإفك: أسوأ الكذب. ﴿فِى ٱلنُّجُومِ﴾ جمع نجم، وهو الكوكب الطالع. وفي «القرطبي»: فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي. وكان علم النجوم مستعملاً عندهم، منظوراً فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم معتقدهم عذراً لنفسه، وذلك أنهم أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظر في النجوم.

﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ قال في «المفردات»: السَّقَمُ والسُّقْمُ: المرض المختص بالبدن، والمرض قد يكون في البدن وفي القلب. ﴿فَرَاغَ﴾ قال في «القاموس»: راغ الرجل والثعلب روغاً وروغاناً، مال وحاد إلى الشيء في خفية؛ أي: فذهب خفية إلى أصنامهم. وأصل الروغ والروغان: الميل. قال شاعرهم:

وَيُـرِيْـكَ مِـنْ طَـرَفِ ٱلـلِّـسَـانِ حَـلاَوَةً   وَيَـرُوْغُ عَـنْـكَ كَـمَـا يَـرُوْغُ ٱلـثَّـعْـلَـبُ

وفي «المختار»: راغ الثعلب من باب قال وروغاناً بفتحتين، والاسم منه الرواغ بالفتح. ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة والشدة. ﴿يَزِفُّونَ﴾؛ أي: يسرعون، من زف النعام زفيفاً إذا أسرع. ويزفون بضم الياء، من أزف إذا دخل في الزفيف

أو من أزفه إذا حمله على الزفيف؛ أي: يزف بعضهم بعضاً. وفي «المفردات»: أصل الزفيف في هبوب الريح وسرعة النعامة، التي تخلط الطيران بالمشي، وزفزف النعام إذا أسرع. ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ والنحت: نجر الشجر والخشب ونحوهما من الأجسام. ففي «المختار»: نحته براه، وبابه ضرب وقطع أيضاً نقله الأزهري، والنحاتة: البراية.

﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ من الجحمة، وهي شدة التأجج والالتهاب. ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ والكيد: ضرب من الاحتيال كما في «المفردات». ﴿بِغُلَامٍ﴾ والغلام: الطارّ الشاربُ، والكهل ضده، أو من حين يولد إلى أن يشيب كما في «القاموس». وقال بعض أهل اللغة: الغلام من جاوز العشر، وأما من دونها فصبي. ﴿حليم﴾ والحليم من لا يعجل في الأمور، كما سبق.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتماً.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿فاطلع، ومطلعون﴾.

ومنها: التعبير بالماضي في قوله: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ﴾ لإفادة التحقق والوقوع.

ومنها: الجمع بين المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أكده بإن وبضمير الفصل وباللام وباسمية الجملة إفادةً، لفخامة تلك النعمة وعظمها. إذ الدنيا وما فيها تحتقر دونها، كما تحتقر القطرة من البحر المحيط، والحبة من البيدر الكبير.

ومنها: القصر في قوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾؛ أي: لا لغيره من الحظوظ الدنيوية السريعة الانقطاع.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾؛ لأن في التعبير بـ﴿خَيْرٌ﴾ تهكماً بهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿طَلْعُهَا﴾؛ لأن الطلع حقيقة في أول ما يخرج من ثمر النخل، فاستعير لما يخرج من شجرة الزقوم، بجامع الطلوع والبروز في كل.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾. فتشبيه طلعها برؤوس الشياطين في الشناعة والقبح، تشبيه بالمخيل، كتشبيه الفائق في الحسن بالملك، في نحو قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فيما حكى الله سبحانه، عن صواحبات يوسف عليه السلام.

فمنها: الإتيان بصيغة الجمع في قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ للدلالة على العظمة والكبرياء.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿مُّنذِرِينَ﴾ و﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ لأن المراد بالأول: الرسل، وبالثاني: الأمم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ كني به عن الثناء الحسن الجميل.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ لأنه حذف منه المفعول به؛ أي: ثناء حسناً.

ومنها: مراعاة الفواصل في قوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ إلخ؛ لأنه من المحسنات البديعية، وهو من خصائص القرآن.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ شبه إقباله على ربه مخلصاً بقلبه، بمن قدم على الملك بتحفة ثمينة جميلة، ففاز بالرضى والقبول.

منها: تقديم المعمولات على العامل في قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ لإظهار العناية والاهتمام بها.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿ٱبْنُوا۟﴾ ﴿بُنْيَٰنًا﴾، وبين ﴿فَنَظَرَ﴾ ﴿نَظْرَةً﴾.

ومنها: فن الرمز والإيماء في قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾. وهو أن يريد المتكلم إخفاء أمر ما في كلامه، فيرمز في ضمنه رمزاً إما تعمية للمخاطب، وتبرئة لنفسه، وتنصلاً من التبعة، وإما ليهتدى بواسطته إلى طريق استخراج ما أخفاه في كلامه، وقد كان قوم إبراهيم نجّامين، فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم التنجيم على أنه يسقم، فقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾؛ أي: مشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، فقال ذلك ليوجسوا خوفاً، ويتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام، ليس معه أحد ففعل بالأصنام ما فعل، وقد يوهم ظاهر الكلام، أنه ارتكب بذلك جريرة الكذب، والأنبياء معصومون عنه، والصحيح: أن الكذب حرام، إلا إذا عرّض عنه، وورّى. ولقد نوى إبراهيم أن من في عنقه الموت سقيم.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. فقد انطوت هذه البشارة الموجزة على ثلاث: أن الولد ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليماً. وأي حلم أدل على ذلك من حلمه، حين عرض عليه أبوه الذبح، فلم يضطرب، ولم يتخاذل، ولم يعترض على مشيئة أبيه، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ثم استسلم لذلك، ولم يكن ليدور له في خلد، أن الله سيفديه، وسيهيىء له كبش الفداء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما قال[1]: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.. أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به،

---

(١) المراغي.

وبلوغه سن المراهقة بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾. إذ هو لا يقدر على الكد والعمل إلا بعد بلوغ هذه السن، ثم أتبعه بقص الرؤيا عليه، وإطاعته في تنفيذ ما أُمر به، وصبره عليه، ولما حان موعد التنفيذ، كبّه على وجهه للذبح، فأوحى إليه ربه أنه فداه بذبح عظيم، ثم بشره بإسحاق نبياً من الصالحين، وبارك عليه وعلى إسحاق، وأنه سيكون من ذريتهما من هو محسن فاعل للخيرات، ومنهم من هو ظالم لنفسه مجترح للسيئات.

التفسير وأوجه القراءة

والظرف في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلام ﴿مَعَهُ﴾؛ أي: مع إبراهيم، متعلق بقوله: ﴿ٱلسَّعْىَ﴾. وجاز[1] التعلق به؛ لأنه ظرف فيكفيه رائحة من الفعل، لا ببلغ لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي، ولم يكن معاً كذا في «بحر العلوم». والفاء فيه فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنّا بشرناه بغلام حليم، وأردت بيان عاقبته فأقول لك: لما بلغ الغلام أوان أن يسعى مع إبراهيم في أشغاله وحوائجه ومصالحه، وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم للغلام، وهذا جواب الشرط ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير شفقة ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ قرباناً لله تعالى؛ أي: أرى هذه الصورة بعينها، أو ما هذه عبارته وتأويله؛ أي: قال إبراهيم لابنه لما بلغ معه ذلك المبلغ: إني رأيت في المنام هذه الرؤيا. قال مقاتل: رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات. قال قتادة: رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئاً فعلوه. وقيل: إنه[2] رآى ليلة التروية، كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح، روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله تعالى هذا الحلم، أم من الشيطان، فمن ثمة سُمّي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله تعالى، فمن ثمة سمي يوم عرفة، ثم رأى في الليلة الثالثة مثل ذلك، فهم بنحره، فسمي اليوم يوم النحر.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا بني ﴿مَاذَا﴾ منصوب بقوله: ﴿تَرَىٰ﴾ من الرأي فيما ألقيت

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

إليك. سأله عما يبديه قلبه ورأيه أي شيء هو؟ هل هو الإمضاء أو التوقف؟. فقوله: ﴿تَرَىٰ﴾ من الرأي الذي يخطر بالبال، لا من رؤية العين.

قال العلماء بالسير وأخبار الماضين[1]: لما دعا إبراهيم ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، وبشر به قال: هو إذاً لله ذبيح. فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له: أوف بنذرك. هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بالذبح، فقال للغلام: انطلق نقرب لله قرباناً، فأخذ سكيناً وحبلاً، وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال، فقال الغلام: يا أبت أين قربانك؟ فقال: يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر... إلخ.

فإن قلت: لِمَ شاوره في أمر قد علم أنه حتم من الله تعالى، وما الحكمة في ذلك؟.

قلتُ: لَمْ يشاوره ليرجع إلى رأيه، وإنما شاوره ليعلم ما عنده، فيما نزل به من بلاء الله تعالى، وليعلم صبره على أمر الله، وعزيمته على طاعته، ويثبت قدمه، ويصبِّره إن جزع، ويراجع نفسه، ويوطنها، ويلقي البلاء، وهو كالمستأنس، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى، قبل نزوله، وتكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فُرّط منه ذلك.

فإن قلت: لم كان ذلك في المنام دون اليقظة، وما الحكمة في ذلك؟.

قلت: إن هذا الأمر كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح، فورد في المنام كالتوطئة له، ثم تأكد حال النوم بأحوال اليقظة، فإذا تظاهرت الحالتان، كان ذلك أقوى في الدلالة. ورؤيا الأنبياء وحي وحق. وفي أسئلة الحكم: لِمَ أمر الله تعالى إبراهيم بذبح ولده في المنام، ورؤيا الأنبياء حق، وقتل الإنسان بغير حق من أعظم الكبائر؟. قيل: أمره في المنام دون اليقظة؛ لأنه ليس شيء أبغض إلى الله من قتل المؤمن، وقيل: ليُعلم أن رؤيا الأنبياء، ويقظتهم سواء في وجوب العمل به.

---

(١) الخازن.

وقرأ الجمهور: ﴿تَرَىٰ﴾ بفتح التاء والراء. وقرأ عبد الله، والأسود بن يزيد، وابن وثّاب، وطلحة، والأعمش، ومجاهد، وحمزة، والكسائي بضم التاء وكسر الراء. وقرأ الضحاك، والأعمش أيضاً بضم التاء وفتح الراء، فالأول: من الرأي، والثاني: ماذا ترينه وما تبديه لأنظر فيه، والثالث: ما الذي يخيّل إليك ويوقع في قلبك.

والمعنى[1]: أي لما كبر وترعرع، وصار يذهب مع أبيه، ويسعى في أشغاله وقضاء حوائجه قال له: يا بني إني رأيت في المنام أني أذبحك، فما رأيك؟، وقد قص عليه ذلك، ليعلم ما عنده فيما نزل به، من بلاء الله، فيثبّت قدمه إن جزع، وليوطّن نفسه على الذبح، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى.

ثم بيّن أنه كان سميعاً مطيعاً منقاداً لما طلب منه بقوله: ﴿قَالَ﴾ الغلام ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: يا أبي ويا والدي. ولما كان خطاب الأب يا بنيّ، على سبيل الترحم والشفقة، قال هو: يا أبت على سبيل التعظيم والتوقير ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ به من الذبح. فحُذف الجار أولاً على القاعدة المطردة، ثم حذف العائد إلى الموصول بعد انقلابه منصوباً بإيصاله إلى الفعل أو حذفا دفعةً. أو المعنى: افعل أمرك على إرادة المأمور به. والإضافة إلى المأمور. وصيغة[2] المضارع حيث لم يقل: ما أمرت للدلالة على أن الأمر متعلق به، متوجه إليه، مستمر إلى حين الامتثال به. وفي «البيضاوي»: وإنما ذكر بلفظ المضارع. لتكرار الرؤيا، انتهى. ولعله فهم من كلامه، أنه رأى ذبحه مأموراً به، ولذا قال: ﴿مَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: قال الغلام لأبيه: افعل ما أمرت به. قال ابن إسحاق وغيره: لما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمدية، وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب، أخبره بما أمره الله به، فقال: افعل ما تؤمر.

والمعنى[3]: أي قال الغلام: يا أبت سميعاً دعوت، ومن مجيب طلبت،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وإلى راض ببلاء الله وقضائه توجهت، فما عليك إلا أن تفعل ما تؤمر به، وما عليّ إلا الانقياد، وامتثال الأمر. وعلى الله المثوبة، وهو حسبي، ونعم الوكيل، ولما خاطبه بقوله: يا بني، على سبيل الترحم، أجابه بقوله: يا أبت، على سبيل التوقير والتعظيم، وفوّض الأمر إليه حيث استشاره، وأن الواجب عليه إمضاء ما رآه.

ثم أكد امتثاله للأمر بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ يا أبي ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى صبري ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على قضاء الله تعالى وبلائه، أو من الصابرين على الذبح. فاستعان بالله في الصبر على بلائه، حيث قال: إن شاء الله. ومن أسند المشيئة إلى الله تعالى، والتجأ إليه لم يعطب. قال الذبيح[1]: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أدخل نفسه في عداد الصابرين، فرق عليه وموسى عليه السلام تفرد بنفسه، حيث قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، فخرج، والتفويض أسلم من التفرد، وأوفق لتحصيل المرام، ولما كان إسماعيل في مقام التسليم، والتفويض إلى الله تعالى، وقف وصبر، ولما كان في صورة المتعلم، ومن شأن المتعلم، أن يتعرض لأستاذه فيما لم يفهمه، خرج ولم يصبر، وقال بعضهم: ظاهر موسى تعرض، وباطنه تسليم أيضاً؛ لأنه إنما اعترض على الخضر بغيرة الشرع.

والمعنى: أي سأصبر على القضاء، واحتمل هذه اللأواء غير ضجر ولا برم بما قضي وقدّر، وقد صدق فيما وعد، وبر في الطاعة لتنفيذ ما طلب منه، ومن ثم قال سبحانه في شأنه، مادحاً له: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾.

ثم ذكر طريق تنفيذ الرؤيا، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾؛ أي: استسلما لأمر الله، وأطاعاه، وإنقادا له؛ أي: استسلم إبراهيم وابنه لأمر الله، وانقادا، وخضعا له. وعن قتادة: معنى ﴿أَسْلَمَا﴾؛ أي: أسلم إبراهيم ابنه وإسماعيل نفسه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَسْلَمَا﴾. وقرأ عبد الله، وعلي، وابن عباس، ومجاهد،

---

(١) روح البيان.

والضحاك، وجعفر بن محمد، والأعمش، والثوري ﴿سلّما﴾؛ أي: فوّضا أمرهما إليه تعالى في قضائه وقدره، وروى عن ابن عباس: أنه قرأ ﴿استسلما﴾ ثلاث قراءات يقال: سلم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد.

﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: أسقط إبراهيم الغلام، وأوقعه على جبينه على الأرض. والجبين: أحد جانبي الجبهة، فللوجه جبينان، والجبهة بينهما. قال في «القاموس»: تلّه: صرعه، وألقاه على عنقه وحده، والجبين: أحد جانبي الجبهة، فللوجه فوق الصدغ جبينان، عن يمين الجبهة وشمالها. قال الراغب: أصل التل: المكان المرتفع، والتليل: العنق، وتلّه للجبين: أسقطه على التل أو على تليله؛ أي: عنقه. وقال غيره: صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض لمباشرة الأمر بصبر وجلد ليرضيا الرحمن، ويحزنا الشيطان. وكان ذلك عند الصخرة التي بأصل جبل ثبير أو في الموضع المشرف على مسجد منى، أو في المنحر الذي يُنحر فيه اليوم عند الجمار، أو في مكة عند المقام، وقيل: بالشام، وروي: أن إبليس عرض لإبراهيم عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى، وعزم على الذبح، ومنه شُرع رمي الجمرات في الحج، فهو من واجبات الحج، يجب بتركه الفدية باتفاق الأئمة.

قال في «التأويلات النجمية»: ومن دقة النظر في رعاية آداب العبودية في حفظ حق الربوبية في القصة: أن إسماعيل، أمر أباه أن يشد يديه ورجليه، لئلا يضطرب إذا مسه ألم الذبح فيعاتب، ثم لما هم بذبحه قال: افتح القيد عني، فإني أخشى أن أعاتب، فيقال لي: أمشدود اليد حبيبي يطيعني. ولقد قيل في المعنى:

وَلَوْ بِيَدِ ٱلْحَبِيْبِ سُقِيْتُ سُمًّا ... لَكَانَ ٱلسُّمُّ مِنْ يَدِهِ يَطِيْبُ

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: ونودي إبراهيم من جانب الجبل ﴿أَن﴾ مفسرة لمفعول ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ المقدر؛ أي: ناديناه بلفظ هو قولنا ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾

بالعزم على الإتيان بالمأمور به، وترتيب مقدماته. وفي «شرح الفصوص» للمولى الجامي: معناه؛ أي: حققت الصورة المرئية، وجعلتها صادقة مطابقة للصورة الحسية الخارجية بالإقدام على الذبح، والتعرض لمقدماته. وقد قيل: إنه أمر السكين، بقوته على حلقه مراراً، فلم يقطع، ثم وضع السكين على قفاه، فانقلب السكين، فعند ذلك وقع النداء.

والمعنى: أي ناداه من خلفه ملك من قبله تعالى: أن قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، فقد بان امتثالك للأمر، وصبرك على القضاء. وقال القرطبي: قال أهل السنة: إن نفس النسخ لم يقع، ولو وقع لم يتصور رفعه. فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء. قال: ومعنى ﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾: فعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك. هذا أصح ما قيل في هذا الباب.

وقد اختلف في جواب ﴿لما﴾ ماذا هو؟ فقيل: هو محذوف[1] إيذاناً بعدم وفاء التعبير بتفاصيله، كأنه قيل: كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان، من استبشارهما وشكرهما لله تعالى، على ما أنعم به عليهما من رفع البلاء، بعد حلوله، والتوفيق لما لم يوفّق أحد لمثله، وإظهار فضلهما بذلك على العالمين، مع إحراز الثواب العظيم، إلى غير ذلك، هكذا قال البصريون، وقال الكوفيون: الجواب: هو ناديناه، والواو زائدة مقحمة، واعترض عليهم النحاس: بأن الواو من حروف المعاني، ولا يجوز أن تزاد، وقال الأخفش: الجواب: وتلّه للجبين، والواو زائدة، وروي هذا أيضاً عن الكوفيين، واعتراض النحاس يرد عليه كما ورد على الأول.

وقرأ زيد بن علي ﴿وناديناه﴾ قد صدقت بحذف ﴿أن﴾. وقرىء ﴿صدَقت﴾ بتخفيف الدال. وقرأ فيّاض ﴿الريا﴾ بكسر الراء والإدغام.

وقوله: ﴿إِنَّا﴾ نحن ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما جزينا إبراهيم وابنه بتفريج الكرب

---

(١) روح البيان.

﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: نجزي كل محسن، بامتثال الأمر، تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما بإحسانهما، قال مقاتل: جزاه الله سبحانه، بإحسانه في طاعته، العفو عن ذبح ابنه.

والمعنى[1]: أي إنا كما عفونا عن ذبحه لولده، بعد استبانة إخلاصه في عمله حين أعد العدة، ولم تتغلب عليه عاطفة البنوة، فرضي بتنفيذ القضاء منقاداً صاغراً، نجزي كل محسن على طاعته، ونوفيه من الجزاء ما هو له أهل، وبمثله جدير.

ثم ذكر عظيم صبره على امتثال أمر ربه، مع ما فيه من كبير المشقة في مجرى العادة، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذبح المأمور به ﴿لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: لهو الابتلاء البيّن الظاهر، والذي يتميز فيه المخلص من غيره، أو إن هذا لهو المحنة البينة الصعوبة، التي لا محنة أصعب منها. والمعنى؛ أي: إن هذا الذي كان، لهو محنة أيما محنة، واختبار لعباده لا يعدله اختبار، ولله سبحانه أن يبتلي من شاء من عباده بما شاء من التكاليف، قد تخفى علينا أسرارها وحكمها، وهو العليم بها، وبما لأجله شرعها.

وقيل المعنى: إن هذا الفداء الآتي لهو النعمة الظاهرة، حيث سلم الله ولده من الذبح، وفداه بالكبش، يقال: أبلاه الله إبلاء وبلاء إذا أنعم عليه، والأول أولى، وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير والشر، ولكن المناسب للمقام المعنى الأول، فقال أبو زيد: هذا في البلاء الذي نزل به، في أن يذبح ولده، قال: وهذا من البلاء المكروه.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وفدينا إسماعيل ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: بمذبوح عظيم الشأن، متقبل عند الله تعالى. قيل: معناه: بكبش سمين اسمه جرير، وهو الكبش الذي تقرب به هابيل إلى الله تعالى، فقبله، وكان في الجنة يرعى، حتى فدى الله تعالى به إسماعيل، وقال السدي: نودي إبراهيم فالتفت، فإذا هو بكبش أملح

---

(١) المراغي.

انحط من الجبل، فقام عند إبراهيم، فأخذه فذبحه، ثم اعتنق ابنه، وقال: يا بني اليوم وهبت لي. وروي: أنه لما ذبحه قال جبرائيل: الله أكبر الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر ولله الحمد، فبقي ذلك سنة في الإسلام. والفادي في الحقيقة هو إبراهيم. وإنما قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾؛ لأن الله هو المعطي له، والآمر به على التجوز في الفداء أو الإسناد.

وقيل المعنى: وفديناه بوعل أهبط عليه من جبل ثبير، قاله الحسن البصري، فإنه قال: ما فُدي إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير، فذبحه إبراهيم فداءً عن ابنه. قال الزجاج: قد قيل: إنه فدي بوعل، والوعل: التيس الجبلي.

ومعنى الآية: جعلنا الذبح فداءً له، وخلصناه به من الذبح، لكن ولا علينا أن نزيد على ما جاء به الكتاب، ومكان نزوله لا يهم في بيان هذه المنة التي امتن بها عليه، والذبح بالكسر: اسم للمذبوح، وجمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون، وبالفتح: المصدر، ومعنى ﴿عَظِيمٍ﴾: عظيم القدر، ولم يرد عظم الجثة، وإنما عظم قدره لأنه فُدي به نبي ابن نبي، وأي نبي من نسله سيد المرسلين. وقيل معنى ﴿عَظِيمٍ﴾؛ أي: عظيم الجثة سمين، وهي السنة في الأضاحي، كما قال النبي ﷺ: «عظّموا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم».

ثم ذكر أنه منَّ عليه بمنة أخرى، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إبراهيم؛ أي: أبقينا له ذكراً حسناً، وثناءً جميلاً ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾؛ أي: في الأمم المتأخرة التي تأتي بعده إلى يوم القيامة، فصار محبباً بين الناس جميعاً من كل ملة ومذهب، فاليهود يجلّونه، والنصارى يعظمونه، والمسلمون يبجّلونه، والمشركون يحترمونه، ويقولون: إنا على ملة أبينا إبراهيم. وذلك استجابة لدعوته حين قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم ذكر أنه منَّ عليه بمنة ثالثة، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾؛ أي: وقلنا له: عليك السلام في الملائكة، والإنس والجن. أو[1] المعنى؛ أي: تركنا على

---

(١) المراح.

إبراهيم في الباقين من الأمم هذا الكلام بعينه، كما سبق في قصة نوح.

والمعنى: أثبت الله التسليم على إبراهيم، وأدامه في الآخرين، فيسلمون عليه؛ أي: يدعون له بثبوت هذه التحية.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذكره الجميل فيما بين الأمم ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالثناء الحسن. فالكاف[1] متعلقة بما بعدها. وذلك إشارة إلى بقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم، لا إلى ما أشير إليه فيما سبق، فلا تكرار؛ أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي المنقادين لأوامرنا، لا جزاءً أدنى منه، يعني أن إبراهيم من المحسنين، وما فعلناه مما ذكر مجازاة على إحسانه. ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن إبراهيم ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الراسخين في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان. وفي «التأويلات النجمية» أي من عبادنا المخلصين، لا من عباد الدنيا، والهوى، والسوى. وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: لم قال هنا: كذلك نجزي المحسنين بحذف إنا، وأثبته في آخر غيرها من القصص؟

قلت: حذفه في قصة إبراهيم اختصاراً واكتفاءً بذكره له قبل في قصته بقوله: وناديناه أن يا إبراهيم الآية، مع أن ما بعد قصته كان من تكملتها، وهو قوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ بخلاف سائر القصص، انتهى.

ثم أعقب ذلك بنعمة رابعة، وهي نعمة الولد، فقال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾؛ أي: إبراهيم، والتبشير: هو الإخبار بما يظهر سروراً في المخبر به. ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾ من سارة رضي الله عنها حال كونه ﴿نَبِيًّا﴾ أي: مقضياً بنبوته، مقدراً كونه ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: بشرنا إبراهيم بولد يولد له، ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك، وانتصاب ﴿نَبِيًّا﴾ على الحال، وهي حال مقدرة، والأولى[2] أن يقال: إن من فسَّر الذبيح بإسحاق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنما الشرط المقارنة للفعل. وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه، وإيماء إلى أنه

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال، والتكميل بالفعل على الإطلاق. و﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كما يجوز أن يكون صفة لـ﴿نبياً﴾ يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه، فتكون أحوالاً متداخلةً. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿نَبِيًّا﴾؛ أي: ملهماً من الحق تعالى، كما قال بعضهم: حدثني قلبي عن ربي: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: من المستعدين لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة، انتهى.

والمعنى: أي وآتينا إبراهيم إسحاق، ومننا بنعمة النبوة له، وللكثير من حفدته كفاء امتثاله أمرنا، وصبره على بلوانا.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء من بني إسرائيل، وغيرهم كأيوب وشعيب، أو[1] أفضنا عليهما بركات الدنيا والآخرة، فكثَّرنا نسلهما، وجعلنا منه أنبياءَ ورسلاً، وطلبنا من المسلمين في صلواتهم أن يدعوا لهم بالبركة، فيقولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ أي: ومن ذرية إبراهيم وإسحاق ﴿مُحْسِنٌ﴾ في عمله أو لنفسه بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مُبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر ظلمه. وفيه تنبيه على أن الظلم في أولادهما وذريتهما لا يعود عليهما بعيب ولا نقيصة، وأن المرء يجازى بما صدر من نفسه طاعة أو معصية، لا بما صدر من أصله وفرعه، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. وأن النسب لا تأثير له في الصلاح، والفساد والطاعة والعصيان فقد يلد الصالح العاصي، والمؤمن الكافر، وبالعكس، ولو كان ذلك بالطبيعة لم يتغير، ولم يتخلف. فإن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال المبين، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل، فقد ماتوا على الشرك، إلا من أنقذه الله بالإسلام.

أَتَفْخَرُ بِٱتِّصَالِكَ مِنْ عَلِيٍّ وَأَصْلُ ٱلْبَوْلَةِ ٱلْمَاءُ ٱلْقَرَاحُ

---

(١) المراغي.

وَلَيْسَ بِنَافِعٍ نَسَبٌ زَكِيٌّ   تُدَنِّسُهُ صَنَائِعُكَ ٱلْقِبَاحُ

وقال بعضهم:

وَمَا يَنْفَعُ ٱلأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ   إِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ

وباهلة: قبيلة عرفوا بالدناءة؛ لأنهم كانوا يأكلون بقية الطعام مرة ثانية، ويأكلون نقيّ عظام الميتة، وفي المثل: ذهب الناس إلا النسناس، وهم الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس، أو هم خلق في صورة الناس. فعلى العاقل ترك الاغترار بالأنساب والأحساب، والاجتهاد فيما ينفعه يوم الحساب.

والمعنى: أي ومن ذريتهما من أحسن في عمله، فآمن بربه، وامتثل أوامره واجتنب نواهيه، ومنهم من ظلم نفسه، ودسّاها بالكفر والفسوق والمعاصي.

والخلاصة: أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن الظلم في الأعقاب لا يعود إلى الأصول بنقيصة ولا عيب عليهم في شيء منه، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

تتمة: مَنِ الذبيح، أإسحاق أم إسماعيل؟ ليس في هذه المسألة دليل قاطع من سنة صحيحة ولا خبر متواتر، بل روايات منقولة عن بعض أهل الكتاب، وعن جماعة من الصحابة والتابعين، ومن ثم حدث الخلاف فيها:

أولاً: فمن قائل: إنه إسحاق، ويؤيده:

١ ـ ما روي عن يوسف عليه السلام: أنه قال لفرعون مصر في وجهه: أترغب عن أن تأكل معي، وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

٢ ـ ما روي عن أبي الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود، فقال: أنا فلان بن فلان بن الأشياخ الكرام، فقال ابن مسعود: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.

٣ ـ ما حكاه البغوي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، والعباس: أنه

إسحاق. ولكعب الأحبار ضلع في هذه الأخبار وأمثالها التي تلقاها المسلمون منه، وكان يحدث بها عن الكتب القديمة وهي جامعة بين الغث والسمين، ثقةً بأن عمر رضي الله عنه قد استمع منه. ومن ثم احتاج الثقات إلى تمحيصها، وعزل جيدها من بهرجها، وصحيحها من سقيمها.

ثانياً: ومن قائل: إنه إسماعيل، وهو الذي يساوقه صحيح النظر، ونصوص القرآن. ويؤيده:

١ ـ رواية ذلك عن ابن عباس، فقد روى عطاء ابن أبي رباح عنه أنه قال: المفدي هو إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود.،

٢ ـ روى مجاهد عن ابن عمر أنه قال الذبيح إسماعيل.

٣ ـ أن ابن إسحاق قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: إن الذي أمر الله بذبحه من ابني إبراهيم هو إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، فإنه بعد أن فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فلم يكن يأمره بذبح إسحاق، وله فيه من الموعد ما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً.

وعلى الجملة: فظاهر نظم الآية والروايات التي يروونها، يؤيد أنه إسماعيل، ولكن اليهود حسدوا العرب، على أن يكون أباهم هو الذي كان من أمر الله فيه ما كان، ومن الفضل الذي ذكره الله له لصبره، لما أمر به، فجحدوا ذلك، وزعموا أنه إسحاق؛ لأنه أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً مطيعاً لربه.

القصة الثالثة: قصة موسى وهارون عليهما السلام

ولما فرغ الله سبحانه، من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح، وما منّ عليه بعد ذلك من النبوة.. ذكر ما منّ به على موسى وهارون. فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿و﴾ أخيه الشقيق ﴿هارون﴾ بن

عمران، وهو أكبر من موسى سناً بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ وهم المؤمنون من بني إسرائيل؛ أي: خلّصناهم ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ﴾ والبلاء ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: الشديد. والمراد بالكرب العظيم: هو ما كانوا فيه من استعباد فرعون وقومه إياهم، وما كان يصيبهم من جهته من البلاء، وقيل هو الغرق الذي أهلك به فرعون وقومه، والأول أولى.

ولما كانت التنجية عبارة عن التخليص من المكروه، وهي لا تقتضي الغلبة أتبعها بقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ونصرنا موسى وهارون وقومهما على أعدائهم، وأيّدناهم عليهم ﴿فَكَانُوا۟﴾ بسبب نصرنا إياهم ﴿هُمُ﴾ فحسب ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ على أعدائهم فرعون وقومه القبطيين، غلبةً لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما في أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى، فصَّل النعم التي أنعم بها على موسى وهارون وقومهما.

فقال أولاً: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾؛ أي ومن آمن معهما من الكرب العظيم الذي كانوا فيه بإساءة فرعون وقومه إليهم من قتل الأبناء، واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس المهن والصناعات، ومعاملتهم معاملة العبيد والأرقاء إلى ضروب أخرى، من المهانة والمذلة، التي لولا الفهم لها، لكانت كافية في انقراضهم، ولكنهم شعب لا يأبى الخضوع والاستكانة متى وُجد في ذلك السبيل لجمع المال، وحيازته، والتمتع بلذات الدنيا.

وقال ثانياً: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾؛ أي: ونصرناهم على أعدائهم، فغلبوهم، وملكوا أرضهم وأموالهم، وما كانوا قد جمعوه طوال حياتهم، فكانوا أصحاب الصولة، والسلطان، والدولة، والرفعة.

وقال ثالثاً: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾؛ أي: وأعطينا موسى وهارون بعد التنجية المذكورة ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾؛ أي: الكتاب الجلي الواضح المتناهي في البيان، والتفصيل لما يحتاج إليه البشر في مصالح الدين والدنيا، وهو التوراة، فإنه كتاب مشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقال رابعاً: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمَا﴾ بذلك الكتاب ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: الموصل إلى الحق والصواب، بما فيه من تفاصيل الشرائع، وتفاريع الأحكام.

وقال خامساً: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: أبقينا لهما ذكراً حسناً، وثناءً جميلاً ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾؛ أي: فيمن بعدهم من الأمم. وهذا ما تصبو إليه النفوس. قال شاعرهم:

وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَىٰ

وقال الآخر:

الذِّكْرُ لِلإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِي

فهم يسلمون عليهما، ويقولون: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ ويدعون لهما دعاء دائماً إلى يوم الدين، ولا شيء أدعى إلى سعادة الحياة من الطمأنينة وهدوء البال، كما ورد في الحديث: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، فكأنما حيزت الدنيا له بحذافيرها».

ثم ذكر سبب هذه النعم، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا الجزاء الكامل ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين هما من جملتهم، لا جزاء قاصراً عنه ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ يشير إلى[1] أن طريق الإحسان هو الإيمان. فالإيمان هو مرتبة الغيب، والإحسان هو مرتبة المشاهدة. ولما كان الإيمان ينشأ عن المعرفة كان الأصل معرفة الله، والجري على مقتضى العلم.

القصة الرابعة: قصة إلياس عليه السلام

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ إلى بني إسرائيل. قال ابن جرير: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى عليهما السلام.

---

(١) روح البيان.

فهو إسرائيلي من سبط هارون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِلْيَاسَ﴾ بهمزة مكسورة مقطوعة. وقرأ ابن ذكوان بوصلها، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، ويحيى بن وثّاب ﴿وإن إدريس لمن المرسلين﴾. وقرأ أبيّ ﴿وإن إيليس﴾ بهمزة مكسورة، ثمّ تحتية ساكنة، ثمّ لام مكسورة، ثم تحتية ساكنة، ثم سين مهملة مفتوحة.

وحاصل قصته: كما قال محمد بن إسحاق، وعلماء السير والأخبار: لما[2] قبض الله عز وجل، حزقيل النبي عليه السلام، عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك، ونصبوا الأصنام، وعبدوها من دون الله عز وجل، فبعث الله عز وجل إليهم إلياس نبياً، وكان أنبياء يبعثون من بعد موسى عليه السلام في بني إسرائيل، بتجديد ما نسوا من أحكام التوراة. وكان يوشع لما فتح الشام، قسمها على بني إسرائيل، وإن سبطاً منهم حصل في قسمته بعلبك ونواحيها، وهم الذين بعث إليهم إلياس، وعليهم يومئذ ملك اسمه آجب، وكان قد أضل قومه، وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان له صنم من ذهب، طوله عشرون ذراعاً، وله أربعة أوجه، اسمه بعل. وكانوا قد فتنوا به، وعظّموه، وجعلوا له أربع مئة سادن، وجعلوهم أنبياء. فكان الشيطان يدخل في جوف بعل، ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها عنه، ويبلغونها الناس. وهم أهل بعلبك، وكان إلياس يدعوهم إلى عبادة الله عز وجل، وهم لا يسمعون له، ولا يؤمنون به إلا ما كان من أمر الملك، فإنه آمن به وصدقه. فكان إلياس يقوم بأمره، ويسدده، ويرشده، وكان للملك امرأة جبارة، اسمها أربيل، وكانت قتالة للأنبياء والصالحين، يقال: إنها هي التي قتلت يحيى بن زكريا، وقد تزوجت سبعةً من ملوك بني إسرائيل، وقتلتهم كلهم غيلة، إنها ولدت سبعين ولداً. وكان يستخلفها على ملكه إذا غاب، فغضبت من رجل مؤمن اسمه مزدكي له جنينة تصغير جنة، كان يتعيّش منها في جنب

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

قصرها، فحسدته، فأخذتها وقتلته، فبعث الله سبحانه وتعالى إلياس إلى الملك وزوجته، وأمره أن يخبرهما أن الله عز وجل قد غضب لوليّه، حين قُتل ظلماً، وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما، ويردا الجنينة على ورثة المقتول.. أهلكهما في جوف الجنينة، ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها، ولا يتمتعان فيها إلا قليلاً، فجاء إلياس، فأخبر الملك بما أوحى الله إليه في أمره، وأمر امرأته، والجنينة. فلما سمع الملك ذلك غضب، واشتد غضبه عليه، وقال: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلاً، وهمَّ بتعذيب إلياس وقتله. فلما أحس إلياس بالشر رفضه وخرج عنه هارباً، ورجع الملك إلى عبادة بعل، ولحق إلياس بشواهق الجبال، فكان يأوي إلى الشعاب والكهوف، فبقي سبع سنين على ذلك خائفاً مستخفياً، يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر، وهم في طلبه، وقد وضعوا عليه العيون، والله يستره منهم. فلما طال الأمر على إلياس، وسكنى الكهوف في الجبال، وطال عصيان قومه ضاق بذلك ذرعاً، فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود: يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه، ألست أميني على وحي، وحجتي في أرضي، وصفوتي من خلقي، سلني أعطك، فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم، قال: يا رب تميتني وتلحقني بآبائي، فإني قد مللت بني إسرائيل، وملّوني، فأوحى الله تعالى إليه يا إلياس ما هذا باليوم الذي أعرّي منك الأرض وأهلها، وإنما صلاحها وقوامها بك وبأشباهك، وإن كنتم قليلاً سلني أعطك. فقال إلياس: إن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال الله عز وجل: وأي شيء تريد أن أعطيك؟ قال: تملكني خزائن السماء سبع سنين، فلا تسير عليهم سحابة إلا بدعوتي، ولا تمطر عليهم قطرة إلا بشفاعتي، فإنه لا يذلهم إلا ذاك. قال الله عز وجل: يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين. قال: فست سنين، قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، قال: فخمس سنين، قال: أنا أرحم بخلقي، ولكن أعطيك ثأرك ثلاث سنين، أجعل خزائن المطر بيدك، قال إلياس: فبأي شيء أعيش يا رب؟ قال: أسخّر لك جيشاً من الطير ينقل لك طعامك وشرابك من الريف، والأرض التي لم تقحط. قال إلياس: قد رضيت، فأمسك الله عز وجل عنهم المطر، حتى هلكت الماشية والهوام والشجر، وجهد

الناس جهداً شديداً، وإلياس على حاله مستخفياً من قومه، يوضع له الرزق حيث كان، وقد عرف قومه ذلك.

قال ابن عباس: أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحط، فمر إلياس بعجوز، فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: نعم شيء من دقيق وزيت قليل، قال: فدعا به ودعا فيه بالبركة، ومسه حتى ملأ جرابها دقيقاً، وملأ خوابيها زيتاً، فلما رأوا ذلك عندها قالوا: من أين لك هذا؟ قالت: مر بي رجل من حاله كذا، وكذا، فوصفته بصفته فعرفوه، وقالوا: ذلك إلياس، فطلبوه، فوجدوه، فهرب منهم، ثم إنه آوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل، ولها ابن يقال له: اليسع بن أخطوب، به ضر، فآوته وأخفت أمره، فدعا لابنها فعوفي من الضر الذي كان به، واتبع اليسع الياس، وآمن به، وصدّقه، ولزمه، وذهب معه حيثما ذهب، وكان إلياس قد كبر، وأسنّ، واليسع غلام شاب. ثم إن الله تعالى أوحى إلى الياس: أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعص الله من البهائم، والدواب، والطير، والهوام، والشجر بحبس المطر، فيزعمون أن الياس قال يا رب دعني أكن أنا الذي أدعو لهم بالفرج مما هم فيه من البلاء، لعلهم يرجعون عما هم فيه، وينزعون عن عبادة غيرك، فقيل له: نعم. فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال: إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً، وهلكت البهائم والدواب والطير والهوام والشجر بخطاياكم، وإنكم على باطل، فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم، فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل، فنزعتم ودعوت الله تعالى، ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، فقالوا: يا الياس أنصفت، فخرجوا بأوثانهم ودعوها، فلم تفرّج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، فقالوا: إنا قد أهلكنا فادع الله لنا، فدعا إلياس ومعه اليسع بالفرج، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبّقت الآفاق، ثم أرسل الله عز وجل عليهم المطر، وأغاثهم، وحييت بلادهم، فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد، ولم ينزعوا عن كفرهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه، فلما رأى ذلك إلياس دعا ربه عز وجل أن يريحه منهم، فقيل له فيما يزعمون: انظر يوم كذا، وكذا، فاخرج إلى موضع

كذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كان بالموضع الذي أمر به، أقبل فرس من نار، وقيل: لونه كالنار حتى وقف بين يدي إلياس، فوثب عليه، فانطلق به الفرس، فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرني؟ فقذف إليه إلياس بكسائه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخر العهد به. ورفع الله تعالى إلياس من بين أظهرهم، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش، فصار إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً. وسلط الله عز وجل على آجب الملك وقومه عدواً لهم، فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم. فقتل آجب وامرأته أربيل في الجنينة التي اغتصبتها امرأة الملك من ذلك المؤمن، فلم تزل جثَّتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما، ورمَّت عظامهما. ونبأ الله سبحانه وتعالى اليسع، وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى إليه، وأيّده، فآمنت به بنو إسرائيل، وكانوا يعظّمونه وحكم الله تعالى فيهم قائم، إلى أن فارقهم اليسع.

روى السدي عن يحيى بن عبد العزيز عن أبي روّاد قال: إلياس والخضر يصومان رمضان ببيت المقدس، ويوافيان الموسم في كل عام، وقيل: إن إلياس موكل بالفيافي، والخضر موكل بالبحار. فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾ متعلق[1] بمحذوف، تقديره: اذكر يا محمد لقومك قصة وقت قوله ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ بني إسرائيل: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وتخافون عذاب الله تعالى، ونقمته إن خالفتم أمره. و﴿أَلَا﴾ بالتخفيف حرف عرض، وهو الطلب برفق ولين. وقيل: إن الهمزة في ﴿أَلَا﴾ للاستفهام، و﴿لَا﴾ نافية، ويكون الاستفهام بمعنى الأمر؛ أي: اتقوا الله. وقيل: الظرف متعلق بالمرسلين. والأول أولى. والهمزة في قوله ﴿أَتَدْعُونَ﴾؛ أي: أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾؛ أي: صنماً. للإنكار؛ أي: لا تعبدوه، ولا تطلبوا منه الخير، فالبعل اسم صنم كان لأهل بك من

---

(١) روح البيان.

الشام، وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك، وكان من ذهب، طوله عشرون ذراعاً كما مر في القصة.

أي: أتعبدون صنماً عملتموه رباً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾؛ أي: وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق. ثم إن الخلق حقيقة في الاختراع والإنشاء والإبداع، ويستعمل أيضاً بمعنى التقدير والتصوير، وهو المراد به ههنا؛ لأن الخلق، بمعنى: الاختراع لا يتصور من غير الله تعالى، حتى يكون هو أحسنهم. والمعنى: أحسن المصورين أو أحسن الخالقين لو وجدوا.

وانتصاب الاسم الشريف في قوله: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ على أنه بدل من ﴿أَحْسَنَ﴾ هذا على[1] قراءة حمزة، والكسائي، والربيع بن خيثم، وابن أبي إسحاق، ويحيى بن وثاب، والأعمش. فإنهم قرؤوا بنصب الاسمين. وقيل: النصب على المدح. وقيل: على عطف البيان. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى هو الله ربكم. قال النحاس، وأولى ما قيل: إنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. وحكي عن الأخفش: أن الرفع أولى وأحسن. قال ابن الأنباري: من رفع أو نصب لم يقف على ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ على جهة التمام؛ لأن الله مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعاً. والمعنى: إنه خالقكم وخالق من قبلكم، فهو الذي تحق له العبادة.

وقوله: ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ معطوف على ﴿رَبَّكُمْ﴾ على كلا الوجهين. والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم، للإشعار ببطلان آرائهم أيضاً ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: إلياس. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: فإن قومه بسبب تكذيبهم إياه ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: لمدخلون في النار والعذاب، لا يغيبون منها، ولا يخفف عنهم كقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ استثناء متصل من فاعل ﴿كذبوه﴾. فيه دلالة على أن من قومه من

---

(١) الشوكاني.

لم يكذبه، ولم يحضر في العذاب، وهم الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان، والعمل بموجب الدعوة والإرشاد.

والمعنى: أي إلا قوماً منهم أخلصوا العمل لله، وأنابوا إليه، فأولئك يجزون الجزاء الأوفى على ما أسلفوا من عمل صالح، وقدموا من ذخر طيب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: وأبقينا على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: هذا الكلام بعينه، فيدعون له، ويثنون عليه إلى يوم القيامة. وهو لغة[1] في إلياس كسيناء في سينين، فإن كلا من طور سيناء وطور سينين بمعنى الآخر، زيد في أحدهما الياء والنون، فكذا إلياس وإلياسين. وقرىء بإضافة ﴿آل﴾ إلى ﴿ياسين﴾؛ لأنهما في المصحف مفصولان. فيكون ياسين أبا إلياس، والآل هو نفس إلياس. وقرأ[2] زيد بن علي، ونافع، وابن عامر ﴿على آل ياسين﴾، وزعموا أن ﴿آل﴾ مفصولة في المصحف، و﴿ياسين﴾ اسم لإلياس. قيل: اسم لأبي إلياس؛ لأنه إلياس بن ياسين، وآل ياسين هو ابنه إلياس. وقرأ باقي السبعة ﴿على إلياسين﴾ بهمزة مكسورة؛ أي: إلياسيين. جمع المنسوبين إلى إلياس معه، فسلم عليهم. وهذا يدل على أن من قومه من كان تبعه على الدين، وكل واحد ممن نُسب إليه كأنه إلياس، فلما جمعت خففت ياء النسبة بحذف إحداهما كراهة التضعيف، فالتقى ساكنان الياء فيه وحرف العلة الذي للجمع، فحذفت لالتقائهما كما الأشعرون في جمع أشعري، والأعجمون في جمع أعجمي. وحكى أبو عمرو: أن منادياً نادى يوم الكلاب هلك اليزيديون، وقال الزمخشري: لو كان جمعا لعرّف بالألف واللام. وقرأ أبو جعفر، والحسن ﴿على الياسين﴾ بوصل الألف على أنه جمع يراد به: إلياس وقومه المؤمنون، وحذفت ياء النسب كما قالوا: الأشعرون، والألف واللام دخلت على الجمع، واسمه على هذا ياس. وقرأ ابن مسعود، ومن ذكر معه أنه قرأ إدريس ﴿سلام على إدراسين﴾. قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً، فياسين،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وإلياس، وإلياسين واحد.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا الجزاء الكامل ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إحساناً مطلقاً، ومن جملتهم إلياس ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن إلياس. لا شبهة في أن الضمير لإلياس، فيكون إلياس وإلياسين شخصاً واحداً، وليس إلياسين جمع إلياس، كما دل عليه من قبله من قوله: سلام على نوح، وسلام على إبراهيم، وسلام على موسى وهارون ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الراسخين في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان.

القصة الخامسة: قصة لوط عليه السلام

﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ هو لوط بن هاران أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قومه، وهم أهل سدوم بالدال المهملة. فكذبوه وأرادوا إهلاكه، فقال: رب نجني وأهلي مما يعملون، فنجاه الله وأهله. فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، ولا يصح تعلقه بالمرسلين؛ لأنه لم يرسل وقت تنجيته؛ أي: اذكر يا محمد لقومك قصة وقت تنجيتنا إياه ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾؛ أي: أهل بيته يعني: ابنتيه: زاعورا، ورينا ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لما قبله ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾؛ أي: إلا[1] امرأته الخائنة واهلة الكافرة. وكان نكاح الوثنيات، والإقامة عليهن جائزاً في شريعته. وسميت المرأة المسنة عجوزاً لعجزها عن كثير من الأمور، كما في «المفردات». ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة لـ﴿عجوزا﴾؛ أي: إلا عجوزا مقدراً غبورها في الباقين في العذاب والهلاك، وهم قومه، فلا بد من تقدير «مقدراً»؛ لأن الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم. وقيل للباقي: غابر تصوراً، بتخلف الغبار عن الذي يعدو، فيخلفه أو في الماضين الهالكين، وقيل للماضي: غابر تصوراً لمضي الغبار عن الأرض. ﴿ثُمَّ﴾ بعد تنجيتهم ﴿دَمَّرْنَا﴾؛ أي: أهلكنا ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾؛ أي: من بقي بعد لوط وابنتيه بالإئتفاك بهم، وإمطار الحجارة عليهم، فإنه تعالى لم يرض بالإئتفاك حتى أتبعه مطر من حجارة.

---

(١) روح البيان.

وجعلنا محلاتهم من الأرض بحيرةً ذات ماء رديء الطعم، منتن الريح. ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على قربات ديار قوم لوط المهلكين ومنازلهم سدوم، وعموراً، وصبوراً، ودادوما في متاجركم إلى الشام، وتشاهدون آثار هلاكهم. فإن سدوم أعظم قراهم في طريق الشام، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾. وقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تمرون﴾؛ أي: حال كونكم داخلين في الصباح. ﴿و﴾ ملتبسين ﴿بالليل﴾؛ أي: مساءً. ولعلها وقعت بقرب منزل يمر به المرتحل عنه صباحاً، والقاصد له مساء. ويجوز أن يكون المعنى: نهاراً وليلاً، على أن يعمم المرور للأوقات كلها من الليل والنهار، ولا يخصص بوقتي الصباح والمساء.

والمعنى: أي وإنكم لتمرون عليهم، وأنتم مسافرون إلى الشام حين الصباح، أو أول الليل، فترون آثار ديارهم التي عفت وأصبحت خراباً يباباً، لا أنيس فيها، ولا جليس، ولا ديار، ولا نافخ نار.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أي: أفتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فإن من قدر على إهلاك أهل سدوم، واستئصالهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، كان قادراً على إهلاك كفار مكة، واستئصالهم لاتحاد السبب ورجحانه؛ لأنهم أكفر من هؤلاء، وأكذب كما يشهد به قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾. وكان النبي ﷺ يقول لأبي جهل: «إن هذا أعتى على الله من فرعون». فعلى العاقل: أن يعتبر، ويؤمن بوحدانية الحق، ويرجع إلى أبواب فضله وكرمه ورحمته، ويؤدب عجوز نفسه الأمارة، ويحملها على التسليم والامتثال كي لا تهلك مع أهل القهر والجلال.

القصة السادسة: قصة يونس عليه السلام

﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ بن متى بالتشديد، وهو اسم أبيه أو أمه. وفي «كشف الأسرار»: اسم أبيه متى، واسم أمه تنجيس. كان يونس من أولاد هود عليه

السلام، كما في «أنوار المشارق». وهو ذو النون، وصاحب الحوت؛ لأنه التقمهُ.

وأما ذو النون المصري من أولياء هذه الأمة. فقيل: إنما سمي به لأنه ركب سفينة مع جماعة، فقد واحدٌ منهم ياقوتاً فلم يجده، فآل رأيهم إلى أن هذا الرجل الغريب قد سرقه، فعوتب عليه، فأنكر الشيخ فحلف، فلم يصدقوه، بل أصروا على أنه ليس إلا فيه، فلما اضطر توجه ساعة، فأتى جميع الحوت من البحر في فيها يواقيت. فلما رأوا ذلك اعتذروا عن فعلتهم، فقام وذهب إلى البحر، ولم يغرق بإذن الله تعالى. فسُمي ذا النون.

﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى بقية ثمود. وهم أهل نينوى بكسر النون الأولى وفتح الثانية. وقيل: بضمها قرية على شاطىء دجلة في أرض الموصل. ولما بُعث إليهم دعاهم إلى التوحيد أربعين سنة، وكانوا يعبدون الأصنام، فكذبوه وأصروا على ذلك، فخرج من بين أظهرهم، وأوعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث أو بعد أربعين ليلة. ثم إن قومه لما أتاهم أمارات العذاب، بأن أطبقت السماء غيماً أسود يدخن دخاناً شديداً، ثم يهبط حتى يُغشى مدينتهم، حتى إذا صار بينهم وبين العذاب قدر ميل، أخلصوا الله تعالى بالدعاء والتضرع، بأن فرقوا بين الأمهات والأطفال، وبين الأتن والجحوش، وبين البقر والعجول، وبين الإبل والفصلان، وبين الضأن والحملان، وبين الخيل والأفلاء، ولبسوا المسوح، ثم خرجوا إلى الصحراء متضرعين ومستغفرين حتى ارتفع الضجيج إلى السماء، فصرف الله عنهم العذاب، وقبل توبتهم. ويونس ينتظر هلاكهم، فلما أمسى سأل محتطباً مر بقومه كيف كان حالهم؟ فقال: هم سالمون وبخير وعافية وحدثه بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم، وخرج من ديارهم مستنكفاً خجلاً منهم، ولم ينتظر الوحي، وتوجه إلى جانب البحر، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾. والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد قصة وقت إباقه؛ أي: هربه، ولا يصح تعلقه بالمرسلين؛ لأنه لم يُرسل إذا أبق. وأصله: الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه بطريق

المجاز تصويراً لقبحه، فإنه عبد الله فكيف يفر بغير الإذن وإلى أين يفر والله محيط به، وقد صح أنه لا يُقبل فرض الآبق ولا نفله حتى يرجع، فإذا كان الأدنى مأخوذاً بزلة فكيف الأعلى؟.

﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: إلى السفينة المملوءة من الناس، والدواب، والمتاع. ويقال: إلى الفلك المجهز الذي فُرغ من جهازه. رُوي: أن يونس لما دخل السفينة، وتوسطت البحر احتبست عن الجري، ووقفت، وكان ذلك بدجلة؛ لأنه أُرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل. فقال الملاحون: هنا عبد أبق من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها عبد آبق لا تجري. وقال الإمام: فقال الملاحون: إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر. وقال التجار: قد جربنا مثل هذا، فإذا رأينا نقترع فمن خرج سهمه نرميه في البحر، لأن غرق الواحد خير من غرق الكل. فاقترعوا ثلاث مرات، فخرجت القرعة على يونس في كل مرة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي: فتساهموا. فساهم يونس واقترع؛ أي: خرجت عليه القرعة. والمفهوم من تفسير الكاشفي: أن الضمير في ﴿ساهم﴾ إلى يونس. والسهم: ما يُرمى به من القداح ونحوه. وقيل: الضمير إلى القوم، والمعنى: فقارع أهل الفلك من الآبق، وألقوا السهام على وجه القرعة، فخرجت قرعة الرمي على يونس ﴿فَكَانَ﴾ يونس ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: فصار من المغلوبين. وأصل المدحض: المزلق: عن مقام الظفر والغَلبة. ومنه قول الشاعر:

قَتَلْنَا ٱلْمُدْحِضِيْنَ بِكُلِّ فَجٍّ   فَقَدْ قَرَّتْ بِقَتْلِهِمُ ٱلْعُيُوْنُ

أي: قتلنا المغلوبين.

ولما خرجت القرعة على يونس قال: أنا العبد الآبق، أو يا هؤلاء أنا والله العاصي، فتلفف في كسائه، ثم قام على رأس السفينة، فرمى بنفسه في البحر. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾؛ أي: فابتلعه الحوت العظيم. وقال في «كشف الأسرار»: فصادفه حوت جاء من قبل اليمن، فابتلعه فسفل به إلى قرار الأرضين حتى سمع تسبيح الحصى. وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ حال من مفعول ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾؛ أي: داخل في

الملامة. ومعنى دخوله في الملامة: كونه يلام سواء استحق اللوم أم لا، أو آت بما يلام عليه، فيكون المليم بمعنى من يستحق اللوم سواء لاموه أم لا، يقال: ألام الرجل إذا أتى بما يلام عليه أو يلوم نفسه. فالهمزة على هذا للتعدية، لا على التقديرين. وقيل: المليم: المعيب، يقال: ألام الرجل إذا عمل شيئاً صار به معيباً. قال سعيد بن جبير: لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه، ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه في الماء أخذه الحوت، رُوي: أن الله تعالى أوحى إلى السمكة أني لم أجعله لك رزقاً، ولكن جعلت بطنك له وعاء، فلا تكسري منه عظماً، ولا تقطعي منه وصلاً. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة، كما دل عليه كونه منبوذاً على الساحل، وهو سقيم.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ﴾؛ أي: يونس ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ في بطن الحوت، وهو قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أو من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره، وعن سهل: من القائمين بحقوق الله تعالى، قبل البلاع ذكراً أو صلاة أو غيرهما. ﴿لَلَبِثَ﴾ يونس ﴿فِي بَطْنِهِۦٓ﴾؛ أي: في بطن الحوت وجوفه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: إلى يوم يُبعث الخلائق، وهو يوم القيامة؛ أي: لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث. وقيل: للبث في بطنه حياً.

واختلف[1] المفسرون في كم أقام في بطن الحوت؟. فقال السدي، ومقاتل بن سليمان، والكلبي: أربعين يوماً، وقال الضحاك: عشرين يوماً، وقال عطاء: سبعة أيام، وقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقيل: ساعة واحدة قال في «كشف الأسرار»: فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: يبقى هو والحوت إلى يوم البعث.

والثاني: يموت الحوت ويبقى هو في بطنه.

والثالث: يموتان ثم يحشر يونس من بطنه، فيكون بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة، فلم يلبث فيه لكونه من المسبحين.

---

(١) الشوكاني.

وفيه[1]: حث على إكثار الذكر، وتعظيم لشأنه، وإشارة إلى أن خلاص يونس القلب إذا التقمه حوت النفس لا يكون إلا بملازمة ذكر الله تعالى، ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء. والعمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صرع يجد متكأ.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سبح يونس في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، فقال تعالى: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في يوم وليلة عمل صالح، قال: نعم. فشفعوا له، فأمر الحوت فقذفه بالساحل في أرض نِصّبين» وهي بلدة قاعدة ديار ربيعة. وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾.

وحاصل المعنى[2]: أي وإن يونس لرسول من ربه إلى قومه أهل نينوى بالموصل، حين هرب إلى الفلك المملوء بغير إذن ربه، فقارع أهل الفلك فكان من المغلوبين في القرعة؛ أي: فاقترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال: أنا الآبق، وألقى نفسه في الماء، فالتقمه الحوت. وهو فاعل ما يلام عليه من الهجرة بغير إذن ربه. وقد كان عليه أن يصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل، فلولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً، والمسبحين بحمده طوال عمره للبث ميتاً في بطنه إلى يوم البعث. إذ كان يهضم كبقية أنواع الطعام، ويتحول إلى غذاء له كسائر أنواع الأغذية التي يأكلها.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾؛ أي: فألقينا يونس من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ أي: بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت؛ أي: أمرنا الحوت، وحملناه على لفظه، ونبذه، ورميه بالمكان الخالي ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي: والحال أن يونس عليل البدن من أجل ما ناله في بطن الحوت من ضعف بدنه، فصار كبدن الطفل ساعة يولد، لا قوة له، أو بلي لحمه ونتف شعره، حتى صار كالفرخ ليس عليه شعر وريش،

---

(1) روح البيان. (2) المراغي.

ورق عظمه وضعف، بحيث لا يطيق حر الشمس، وهبوب الرياح.

أي[1]: فجعلنا الحوت يلقيه في مكان خال لا نبات فيه ولا شجر، وهو عليل الجسم، سقيم النفس لما لحقه من الغم مما حدث من قومه معه إذ أعرضوا عن دعوته، ولم يصدقوه فيما جاء به. وقد كان يرجو لهم الخير والسعادة في دنياهم وآخرتهم، ولما وجد من شدة وجهد في ابتلاع الحوت له.

ثم بيَّن لطفه به، ورعايته له حتى لا يتعرض لحر الشمس، ولا لزمهرير البرد. فقال: ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: فوقه مظللة عليه ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ أي: من قرع، يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به، فهو موضوع لمفهوم كلي متناول للقرع، والبطيخ، والقثاء، والقند، والحنظل، ونحوها، مما كان ورقه كله منبسطاً على وجه الأرض، ولم يقم على ساق، واحدته يقطينة، أُطلق هنا على القرع استعمالاً للعام في بعض جزئياته. وقال في «القاموس»: اليقطين: ما لا ساق له من النبات ونحوه، وبهاء القرعة الرطبة، انتهى. قال ابن الشيخ: ولعل[2] إطلاق اسم الشجرة على القرع، مع أن الشجر في كلامهم اسم لكل نبات يقوم على ساقه، ولا ينبسط على وجه الأرض مبني على أنه تعالى أنبت عليه شجرةً، عريشاً لما نبت تحتها من القرع، بحيث استولى القرع على جميع أغصانها، حتى صارت كأنها شجرة من يقطين. وكان هذا الإنبات كالمعجزة ليونس، فاستظل بظلها، وغطته بأوراقها عن الذباب، فإنه لا يقع عليها كما يقع على سائر العشب، وكان يونس حين لفظه البحر، متغيراً يؤلمه الذباب، فسترته الشجرة بورقها، قيل لرسول الله ﷺ: إنك تحب القرع، قال: أجل، هي شجرة أخي يونس. وروي: أنه تعالى قيّض له أروية وهي الأنثى من الوعل، تروح عليه بكرةً وعشية، فيشرب من لبنها حتى اشتد لحمه، ونبت شعره، وعادت قوته.

والمعنى: أي[3] فأنبتنا حواليه شجرة من موز يتغطى بورقها، ويستظل

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بأغصانها، فتقيه لفح الشمس، ووهجها، وبرد الصحراء، وشديد حرها. وكذلك يأكل من ثمارها، فتغنيه من طلب الغذاء من أي جهة أخرى. قيل: تخصيص القرع؛ لأنه يجمع الظل، ولين الملمس، وكبر الورق، وإن الذباب لا يقربه.

ثم ذكر أنه لما شُفي من سقمه، ونجا من الهلاك، ورضي ربه عنه عاد إلى قومه ليُتم دعوته، ويبلِّغ رسالته، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾؛ أي: يونس مرة أخرى ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرب منهم. وقيل المراد: إرساله السابق، وهو إرساله إليهم قبل أن يخرج من بينهم، والتقمه الحوت. أخبر أولاً بأنه من المرسلين على الإطلاق، ثم أخبر بأنه قد أرسل إلى مئة ألف جمة. وكان توسيط تذكير وقت هربه إلى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه. وهو ما جرى بينه وبين قومه من إنذاره إياهم عذاب الله، وتعيينه لوقت حلوله، وتعللهم، وتعليقهم لإيمانهم بظهور أماراته. ليعلم أن إيمانهم الذي سيحكى بعد، لم يكن عقيب الإرسال كما هو المتبادر من ترتيب الإيمان عليه بالفاء.

واختلف[1] أهل العلم، هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر، أو لم يرسل إلا بعد ذلك؟. والراجح: أنه كان رسولاً قبل أن يذهب إلى البحر، كما يدل عليه ما تقدم في سورة يونس، وبقي مستمراً على الرسالة. وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته ورسالته.

والمعنى[2]: وكنا أرسلناه إلى مئة ألف. فلما خرج من بطن الحوت أُمر أن يرجع إليهم ثانياً؛ أي: وأرسلناه إلى قوم عددهم مئة ألف. ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: ويزيدون على ذلك، فـ﴿أو﴾ عنده بمعنى الواو. وقيل معناه: بل يزيدون، فـ﴿أو﴾ بمعنى بل. وقيل: ﴿أَوْ﴾ على أصلها، ومعناها: من الشك. والمعنى: أو يزيدون في تقدير الرائي إذا رآهم. قال: هؤلاء مئة ألف أو يزيدون على ذلك، فالشك على تقدير المخلوقين. إذ الشك على الله محال. والأصح هو قول ابن عباس الأول. والمعنى عليه: وأرسلناه إلى قوم عدادهم مئة ألف، وإلى

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

قوم يزيدون على ذلك. وأما الزيادة فقال ابن عباس: كانت عشرين ألفاً، ويعضده ما روى عن أبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً، أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن. وقيل: يزيدون بضعاً وثلاثين ألفاً. وقيل: سبعين ألفاً. والمقصود من هذا الكلام على جميع التقادير: وصفهم بالكثرة.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: ﴿أَوْ﴾ للشك[1] وهو على الله محال.

قلت: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: بل، أو بمعنى الواو، أو المعنى: أو يزيدون في نظرهم، فالشك إنما دخل في قول المخلوقين، انتهى. وقرأ جعفر بن محمد ﴿ويزيدون﴾ بدون ألف الشك.

﴿فآمنوا﴾؛ أي: بعدما شاهدوا علائم حلول العذاب إيماناً خالصاً ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بالحياة الدنيا، وأبقيناهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالهم، ومنتهى أعمارهم. وهذا كناية عن رد العذاب عنهم، وصرف العقوبة.

والمعنى: أي[2] فأرسلناه مرة أخرى إلى هؤلاء القوم، وقد كانوا مئة ألف بل يزيدون، فاستقامت حالهم، وآمنوا به؛ لأنه بعد أن خرج من بين أظهرهم رأوا أنهم قد أخطؤوا، وأنهم إذا لم يتبعوا رسولهم هلكوا كما حدث لمن قبلهم من الأمم. فلما عاد إليهم، ودعاهم إلى ربه لبوا الدعوة طائعين منقادين لأمر الله ونهيه، فمتعناهم في هذه الحياة حتى انقضت آجالهم، وهلكوا فيمن هلك.

فائدة: ها هنا مسألتان[3]:

١ ـ أن القرآن الكريم لم يبين لنا مم أبق، ولو كان في بيانه فائدة لذكرها.

٢ ـ أنه لم يذكر مدة لبثه في بطن الحوت، وتعيين زمن معين يحتاج إلى نقل صحيح، ولم يؤثر ذلك وأياً كان، فبقاؤه حياً في بطن الحوت مدة قليلة، أو

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

كثيرة، معجزة لذلك النبي الكريم.

وصارت[1] قصة يونس آخر القصص، لما فيها من ذكر عدم الصبر على الأذى والإباق. ولعل عدم ختم هذه القصة وقصة لوط بما ختم به سائر القصص، من ذكر سلام وما يتبعه للتفرقة بينهما، وبين أرباب الشرائع الكبار، وأولي العزم من الرسل، أو اكتفاءً بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة، قاله البيضاوي. وقال بعضهم: وجهه أن إلياس ويونس سواء في أن كلاً منهما ليسا من أرباب الشرائع الكبار، وأولي العزم من الرسل، فلا بد لتخصيص أحدهما بالسلام من وجه، وأن التسليم المذكور في آخر السورة شامل لكل من ذكر هنا، ومن لم يذكر، فحينئذ كان الظاهر أن يقتصر على ذكر سلام نوح ونحوه، ثم يعمم عليهم، وعلى غيرهم، ممن لم يكن في درجتهم.

روي: أن يونس عليه السلام نام يوماً تحت الشجرة، فاستيقظ وقد يبست، فخرج من ذلك العراء ومر بجانب مدينة نينوى، فرأى هنالك غلاماً يرعى الغنم، فقال له: من أنت يا غلام؟ فقال: من قوم يونس، قال: فإذا رجعت إليهم فاقرأ عليهم مني السلام، وأخبرهم أنك لقيت يونس ورأيته، فقال الغلام: إن تكن يونس فقد تعلم أن من يحدث، ولم يكن له بينة قتلوه، وكان في شرعهم أن من كذب قتل، فمن يشهد لي، فقال له يونس: تشهد لك هذه الشجرة وهذه البقعة، فقال الغلام ليونس: مرهما بذلك، فقال لهما: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم. فرجع الغلام إلى قومه، فأتى الملك فقال: إني لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام، فأمر الملك أن يقتل، فقال: إن لي بينة، فأرسل معه جماعة فانتهوا إلى الشجرة والبقعة، فقال لهما الغلام: أنشدكما الله عز وجل؛ أي: أسألكما بالله تعالى، هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم. فرجع القوم مذعورين، فأتوا الملك فحدثوه بما رأوا، فتناول الملك يد الغلام، فأجلسه في منزله، فقال له: أنت أحق مني بهذا المقام والملك، فأقام بهم الغلام أربعين سنة.

---

(١) روح البيان.

وروي في بعض التفاسير: أن قومه آمنوا، فسألوه أن يرجع إليهم، فأبى يونس، لأن النبي إذا هاجر لم يرجع إليهم مقيماً فيهم. وروي: أنه لما استيقظ فوجد أنه قد يبست الشجرة، فأصابته الشمس حزن كذلك حزناً شديداً، فجعل يبكي فبعث الله إليه جبرائيل وقال: قل له: أتحزن على شجرة لم تخلقها أنت ولم تنبتها ولم تربها؟ وأنا الذي خلقت مئة ألف من الناس أو يزيدون، تريد مني أن أستأصلهم في ساعة واحدة وقد تابوا، وتبت عليهم، فأين رحمتي يا يونس؟ وأنا أرحم الراحمين.

الإعراب

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت دعاءَهُ لنا، وتبشيرنا إياه وأردت بيان عاقبة الولد.. فأقول لك: لما بلغ. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم، في محل نصب على الظرفية الزمانية ﴿بَلَغَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الغلام. والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، في محل جر بالإضافة. ﴿مَعَهُ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف حال من فاعل بلغ؛ أي: حالة كون الغلام مصاحباً لأبيه، ﴿ٱلسَّعْىَ﴾: مفعول به، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم. والجملة جواب لما، لا محل لها من الإعراب، وجملة لما في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَٰبُنَىَّ﴾: ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿بني﴾: منادى، مضاف إلى ياء المتكلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه، ﴿أَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿فِى ٱلْمَنَامِ﴾: متعلق بـ﴿أَرَىٰ﴾. وجملة ﴿أَرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَذْبَحُكَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به. وجملة أذبح في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾: مع معموليها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿أَرَىٰ﴾، والتقدير: إني أرى في المنام ذبحي إياك. ﴿فَٱنظُرْ﴾: الفاء: عاطفة

﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الغلام. والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تَرَىٰ﴾، ﴿تَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الغلام. وجملة ﴿تَرَىٰ﴾ في محل النصب مفعول به لـ﴿أنظر﴾، معلق عنها لفظاً. و﴿تَرَىٰ﴾ هنا من الرأي، لا من رؤية العين ولا المتعدية إلى مفعولين. وإن شئت، ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبتدأ، و﴿ذا﴾ اسم موصول خبر ﴿مَا﴾، وجملة ﴿تَرَىٰ﴾ صلة ذا الموصولة. والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مفعول به لـ﴿أنظر﴾.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الغلام، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أبت﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المعوّض عنها تاء التأنيث، وجملة النداء في محل النصب مقول قال. ﴿ٱفْعَلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به لـ﴿ٱفْعَلْ﴾. وجملة افعل في محل النصب مقول قال، ﴿تُؤْمَرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر. والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تؤمر به. ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾: السين حرف استقبال، ﴿تجد﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل النصب مفعول أول لتجد، ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ متعلق بـ﴿وجد﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ فاعل شاء، ومفعول شاء محذوف تقديره: إن شاء الله صبري، وجواب إن الشرطية محذوف، تقديره: إن شاء الله صبري ستجدني من الصابرين. وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معترضة، لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الفعل ومعموله.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قال إبراهيم وما قال الغلام، وأردت بيان عاقبتهما.. فأقول لك: لما أسلما. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية، ﴿أَسْلَمَا﴾: فعل ماض، والألف فاعل. والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، في محل جر بالإضافة. ﴿وَتَلَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿تله﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والهاء ضمير عائد على الغلام في محل النصب مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَسْلَمَا﴾: على كونها فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿لِلْجَبِينِ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول في ﴿تله﴾: أو متعلق بـ﴿تل﴾، ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿أَسْلَمَا﴾، وجواب لما الشرطية محذوف تقديره: ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما أجرهما، أو كان ما كان مما تنطق به الحال. وقال الكوفيون والأخفش: الجواب: وتله للجبين بزيادة الواو. وقيل: وناديناه بزيادة الواو أيضاً، والأول أرجح. ﴿أَن﴾ مفسرة؛ لأن النداء فيه معنى القول دون حروفه، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مفسرة لنادينا المذكور، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿صَدَّقْتَ﴾ فعل وفاعل، ﴿الرُّؤْيَا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة للنداء المذكور، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كَذَلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف مقدم على عامله، ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: جملة مفسرة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿إِنَّ هَذَا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿الْبَلَاءُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿الْمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿لبلاء﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة مفسرة لـ﴿ناديناه﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على جواب لما المذكور، أو المحذوف على الخلاف المار فيه. ﴿بِذِبْحٍ﴾ متعلق بـ﴿فديناه﴾، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة لـ﴿ذبح﴾، ﴿وَتَرَكْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على جملة ﴿لما﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تركنا﴾ ومفعول ﴿تركنا﴾ محذوف. ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ صفة لذلك المحذوف، والتقدير: وتركنا له ثناء حسناً كائناً في الآخرين. ﴿سَلَامٌ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ خبره. والجملة الاسمية

في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا سلام على إبراهيم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، مقدم على عامله. ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والتقدير: نجزي المحسنين جزاءً كائناً كذلك الجزاء المذكور. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿عِبَادِ﴾: مضاف. ﴿نا﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿عِبَادِنَا﴾، ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿بشرنا﴾ الأولى. ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾ متعلق بـ﴿بشرناه﴾. ﴿نَبِيًّا﴾: حال من ﴿إِسْحَٰقَ﴾. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: صفة لـ﴿نَبِيًّا﴾ أو حال ثانية. ﴿وَبَٰرَكْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ متعلقان بـ﴿باركنا﴾. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾: خبر مقدم. ﴿مُحْسِنٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَظَالِمٌ﴾: معطوف عليه. ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ظالم﴾، ﴿مُبِينٌ﴾: صفة لـ﴿ظالم﴾. والجملة مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿مَنَنَّا﴾: فعل، وفاعل جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مستأنفة. ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾: متعلق بـ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿وَهَٰرُونَ﴾: معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿وَقَوْمَهُمَا﴾: معطوف على ضمير ﴿هما﴾، ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ﴾: متعلق بـ﴿نجيناهما﴾، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ﴿الكرب﴾، ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿فَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، معطوف على ﴿نصرناهم﴾، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعولان، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾: صفة

لـ﴿الكتاب﴾، ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: مفعول ثان لـ﴿آتينا﴾، ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ صفة لـ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، ﴿وَتَرَكْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿عَلَيْهِمَا﴾ متعلق بـ﴿تركنا﴾، ﴿فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ صفة لمفعول ﴿تركنا﴾ المحذوف؛ أي: وتركنا لهما ثناء حسناً كائناً في الآخرين. ﴿سَلَٰمٌ﴾. مبتدأ ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾: خبر. ﴿وَهَٰرُونَ﴾: معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾. والجملة مقول لقول محذوف؛ أي: وقلنا سلام على موسى وهارون.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف مقدم على عامله، ﴿نَجْزِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنا؛ أي: إنا مجازو، المؤمنين جزاء كائناً كذلك الجزاء المذكور ﴿إِنَّهُمَا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ﴿العباد﴾، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة قصة على قصة. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿إِلْيَاسَ﴾ اسمها، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خبرها، واللام حرف ابتداء. والجملة مستأنفة أو معطوفة على ما سبق من القصص.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد قصة وقت قول إلياس لقومه، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِلْيَاسَ﴾. والجملة في محل الجر مضاف لـ﴿إِذْ﴾، ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿أَلَا﴾ حرف عرض، مبني على السكون. وقيل: الهمزة للاستفهام الأمري.

﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، تقديره: عذاب الله. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول قال. ﴿أَتَدْعُونَ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَتَذَرُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تدعون﴾، ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿اللَّهَ﴾: بالنصب بدل من أحسن الخالقين، ﴿رَبَّكُمْ﴾ بدل من لفظ الجلالة، ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمُ﴾: معطوف على ربكم، ﴿الْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿آبَائِكُمُ﴾. فالكلمات الثلاث منصوبة. وقرىء بالرفع على أنها أخبار لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الله، أو ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، و﴿رَبُّكُمْ﴾: خبره. والجملة الاسمية بدل من ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾. ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمُ﴾: معطوف على ﴿رَبَّكُمْ﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿كذبوه﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة قال. ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت دعوته إياهم إلى الإيمان، وتكذيبهم له وأردت بيان عاقبة أمرهم فأقول لك ﴿إنهم﴾ ناصب واسمه ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منصوب على الاستثناء من فاعل ﴿كذبوا﴾، ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: نعت لعباد الله، ﴿وَتَرَكْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. والجملة مستأنفة. ومفعول ﴿تركنا﴾ محذوف؛ أي: ثناء حسناً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾: صفة لذلك المحذوف، ﴿سَلَامٌ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾: خبر. والجملة الاسمية مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا سلام على إلياسين. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، مقدم على عامله، وجملة ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ خبره، ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿العباد﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو: استئنافية أو عاطفة قصة على قصة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لُوطًا﴾: اسمها، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، واللام: حرف ابتداء. والجملة مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: اذكر. ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ معطوف على ضمير ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لما قبله، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿عَجُوزًا﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة ﴿عَجُوزًا﴾.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب مع التراخي. ﴿دَمَّرْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾، ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾: مفعول به، ﴿وَإِنَّكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿تمرون﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق بـ﴿تمرون﴾، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تمرون﴾. وهو من أصبح التامة. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ أو مستأنفة ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿بالليل﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف، معطوف على مصبحين على كونه حالاً من فاعل ﴿تمرون﴾؛ أي: وملتبسين بالليل. ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر معلوم من المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المقدر، والتقدير: أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو: عاطفة قصة على قصة أو استئنافية، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿يُونُسَ﴾: اسمها، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: خبرها، واللام: حرف ابتداء. والجملة

مستأنفة. أو معطوفة على ما سبق من القصص. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر يا محمد لقومك قصة وقت إباقه. ﴿أَبَقَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على يونس. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ متعلق بـ﴿أَبَقَ﴾، ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفُلْكِ﴾. ﴿فَسَاهَمَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿ساهم﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على يونس. والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَبَقَ﴾. ﴿فَكَانَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على يونس، ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوف على جملة ﴿ساهم﴾. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾: الفاء: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت. والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾، ﴿التقمه﴾: فعل، ومفعول، ﴿ٱلْحُوتُ﴾: فاعل. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو مليم﴾: مبتدأ وخبر. والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿التقمه﴾.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾ الفاء: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على يونس. ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف وجوباً، تقديره: فلولا كونه من المسبحين موجود، ﴿لَلَبِثَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿لبث﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على يونس، ﴿فِى بَطْنِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿لبث﴾، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾: جار ومجرور، متعلق بلبث أيضاً، ﴿يُبْعَثُونَ﴾: فعل مضارع، مغيّر الصيغة، ونائب فاعل. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمِ﴾، وجملة ﴿لبث﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة.

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ

﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿فَنَبَذْنَـٰهُ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: أمرنا الحوت بنبذه فنبذناه. ﴿نبذناه﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ متعلق بـ﴿نبذنا﴾، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو سقيم﴾: مبتدأ وخبر. والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿نبذناه﴾. ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوفة على ﴿نبذنا﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿أنبتنا﴾، ﴿شَجَرَةً﴾: مفعول به، ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾: صفة لـ﴿شَجَرَةً﴾، ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿أنبتنا﴾، ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف بمعنى الواو. ﴿يَزِيدُونَ﴾: فعل، وفاعل، صفة لموصوف محذوف، تقديره: وإلى عدد يزيدون على ذلك، ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾: الفاء: عاطفة، ﴿آمنوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على أرسلناه، ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿متعناهم﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على آمنوا، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ متعلق بـ﴿متعناهم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾؛ أي: فلما بلغ السن التي تساعده على أن يسعى معه في أعماله، وحاجات المعيشة. ﴿أَسْلَمَا﴾؛ أي: استسلما، وانقادا لأمر الله تعالى. يقال: سلم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد. قرىء بهن جميعاً، كما مر. ﴿وَتَلَّهُۥ﴾؛ أي: كبه على وجهه. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: صرعه، وأسقطه، فوقع أحد جنبيه على الأرض، تواضعاً على مباشرة الأمر بصبر، وجلد. وفي «المصباح»: والجبين: جانب الجبهة من محاذاة النزعة إلى الصدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، قاله الأزهري، وابن فارس، وغيرهما فتكون الجبهة بين جبينين، وجمعه جبن بضمتين مثل: بريد وبرد، وأجبنة مثل أسلحة. وفي «القاموس»: تله تلا من باب قتل، فهو متلول وتليل أو ألقاه على عنقه وخده. قال الراغب: أصل التل: المكان المرتفع، والتليل: العنق وتله للجبين: أسقطه على التل أو على تليله.

﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾؛ أي: حققت ما طلب منك. ﴿لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الاختبار البيّن الذي يتميز فيه المخلص من غيره. ﴿بِذِبْحٍ﴾؛ أي: بحيوان يذبح، وهو كبش، قرّبه هابيل، فذبحه إبراهيم فداءً لولده، وقد بقي قرناه معلقين على الكعبة إلى أن احترق البيت في زمن ابن الزبير. قال الشعبي: رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة. وقال ابن عباس والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام، وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد يبس، اهـ الخازن. ومن المعلوم المقرر، أن كل ما هو من الجنة لا تؤثر فيه النار، فلم يطبخ لحم الكبش، بل أكلته السباع والطيور، تأمل.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾: من التبشير، وهو الإخبار بما يظهر سروراً في المخبر به، ومنه: تباشير الصبح لما ظهر من أوائل ضوئه. ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: أفضنا البركات عليه. ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ المنان في صفة الله تعالى، المعطي ابتداء من غير أن يطلب عوضاً. يقال: منّ عليه منّا إذا أعطاه شيئاً، ومنّ عليه منّة إذا أعد نعمته عليه، وامتن وهو مذموم من الخلق، لا من الحق كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾؛ أي: البليغ المتناهي في البيان. فاستبان مبالغة بان بمعنى: ظهر ووضح، وجعل الكتاب بالغاً في بيانه من حيث إنه لكماله في بيان الأحكام، وتمييز الحلال عن الحرام، كأنه يطلب من نفسه أن يبيّنها، ويحمل نفسه على ذلك. وقيل: هذه السين كهي في قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾. فإن بان، واستبان، وتبين واحد نحو: عجل، واستعجل، وتعجل. فيكون معناه: الكتاب المبين.

﴿بَعْلًا﴾ والبعل هو الذكر من الزوجين. ولما تصور من الرجل استعلاء على المرأة، فجُعل سائسها والقائم عليها شُبِّه كل مستعل على غيره به، فسُمِّي باسمه، فسمى العرب معبودهم الذي يتقربون به إلى الله: بعلا لاعتقادهم ذلك. فالبعل اسم صنم كان لأهل بك من الشام، وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك، وكان من ذهب طوله عشرون ذراعاً، كما مر. وفي «تاج العروس»: قال الأزهري: هما

اسمان جُعلاً اسماً واحداً لمدينة بالشام، والنسبة إليها بعلي أو بكي على ما ذُكر في عبد شمس.

﴿وَتَذَرُونَ﴾؛ أي: تتركون. وسمعنا عمن له نصاب في العربية أن كلمتي ذر ودع أمران في معنى الترك، إلا أن ﴿دع﴾ أمر للمخاطب بترك الشيء قبل العلم به، و﴿ذر﴾ أمر له بتركه بعدما علمه. وروي: أن بعض الأئمة سأل الإمام الرازي عن قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ لم لم يقل: وتدعون أحسن الخالقين، وهذا أقرب من الفصاحة للمجانسة؟ فقال الإمام: لأنهم اتخذوا الأصنام آلهةً، وتركوا الله بعد ما علموا أن الله ربهم ورب آبائهم الأولين استكباراً. فكذلك قيل لهم: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ ولم يقل: وتدعون، هذا. وقد أمات العرب ماضي دع وذر، ومصدرهما ولكن روي في الحديث: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات»؛ أي: عن تركهم الجمعات. وقال في «القاموس»: ودعه؛ أي: اتركه، أصله: ودع كوضع، وقد أميت ماضيه، وإنما يقال في ماضيه: تركه، وجاء في الشعر ودعه، وهو مودوع. وقرىء شاذاً ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ﴾، وهي قراءته ﷺ. وقال الجوهري: ولا يقال وادع، وينافيه وروده في الشعر والقراءة إلا أن يحمل قولهم: «وقد أميت ماضيه» على قلة الاستعمال. فهو شاذ استعمالاً، صحيح قياساً.

﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً. ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ العجوز: المرأة المسنة، سميت عجوزاً لعجزها عن كثير من الأمور، كما في «المفردات».

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ التدمير: إدخال الهلاك على الشيء؛ أي: أهلكنا. ﴿أَبَقَ﴾؛ أي: هرب من قومه بغير إذن ربه. وأصل الإباق: هرب العبد من سيده، ولكن أطلق هنا على يونس على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، أو على طريق المجاز المرسل، والعلاقة هي استعمال المقيد في المطلق، وفي «المصباح»: أبق العبد أبقاً من بابي تعب وقتل في لغة، والأكثر من باب ضرب إذا هرب من سيده من غير خوف ولا كد. والإباق بالكسر اسم منه، فهو آبق، والجمع أباق، مثل:

كافر وكفار.

﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: المملوء بالأحمال، يقال: شحن السفينة ملأها كما في «القاموس». ﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي: فقارع من في الفلك؛ أي: عمل قرعة. والسهم: ما يرمى من القداح ونحوه. والمعنى: فقارع أهل الفلك عن الآبق، وألقوا السهام على وجه القرعة.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: فصار من المغلوبين بالقرعة، وأصله: المزلق عن مقام الظفر والغلبة. قال في «القاموس»: دحضت رجله زلقت، والشمس زالت دحوضاً بطلت، انتهى. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾ الالتقام: الابتلاع، يقال: لقمت اللقمة، والتقمتها إذا ابتلعتها؛ أي: فابتلعه الحوت العظيم. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: داخل في الملامة، يقال: ألام فلان إذا فعل ما يلام عليه. وفي «المصباح»: لامه لوماً من باب قال عذله، فهو ملوم على النقص. والفاعل لائم، والجمع لوم مثل: راكع وركع، وألامه بالألف لغة، فهو ملام، والفاعل مليم، والاسم الملامة، والجمع ملاوم، واللائمة مثل الملامة، وألام الرجل إذا فعل ما يستحق عليه اللوم، وتلوّم تلوّماً مكث.

﴿فَنَبَذْنَهُ﴾ النبذ: إلقاء الشيء، وطرحه لقلة الاعتداد به. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ أي: بالمكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه، وهو مشتق من العري. وهو عدم السترة، شبهت الأرض الجرد بذلك لعدم استتارها بشيء. والعراء بالقصر: الناحية، ومنه: اعتراه؛ أي: قصد عراه. وعبارة «القاموس»: العراء: الفضاء لا يُستتر فيه بشيء، وجمعه أعراء، وأعرى سار فيه وأقام.

﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ أي: دباء القرع العسلي المعروف الآن. وقيل: الموز. وهو أظهر، لأن أوراقه أعرض. قال في القاموس: اليقطين: ما لا ساق له من النبات ونحوه، وبهاء القرعة الرطبة. وعبارة الزمخشري: واليقطين: كل ما ينبسط على وجه الأرض، ولا يقوم على ساق كشجرة البطيخ، والقثاء، والحنظل. وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به. وقيل: هو الدباء. وإنما خص القرع لأنه يجمع بين برد الظل، ولين الملمس، وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه.

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ حيث لم يقل: ما أمرت، للدلالة أن الأمر متعلق به، متوجه إليه، مستمر إلى حين الامتثال به.

ومنها: الطباق بين ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ﴾، وبين ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَعْلًا﴾؛ لأن البعل في الأصل: الذكر من الزوجين، شبه كل مستعل على غيره به، فسمي به على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾. شبه خروجه بغير إذن ربه بإباق العبد من سيده، ثم اشتق منه أبق بمعنى خرج بغير إذن ربه، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، أو على طريق المجاز المرسل، والعلاقة هي استعمال المقيد في المطلق.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ لما فيه من إسناد الفعل إلى الآمر لكونه سببه؛ لأن المنادى جبرائيل.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ إشعاراً بفخامة الأمر. لأنه أكده بـ﴿أنّ﴾، وبضمير الفصل، وباللام، وباسمية الجملة.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾؛ لأنه كناية عن الثناء الحسن والذكر الجميل.

ومنها: الإسناد المجازي، في قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ لأنه من قبيل إسناد الفعل إلى السبب الحامل على الفعل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ لأنه كناية عن رد العذاب

عنهم، وصرف العقوبة.

ومنها: استعمال العام بمعنى الخاص في قوله: ﴿يَقْطِينٍ﴾؛ لأن اليقطين في الأصل: كل ما لا ساق له، فأطلق هنا على القرع فقط استعمالاً للعام في بعض جزئياته.

ومنها: الاستعارة التصريحية التحقيقية في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾؛ لأنه استعير ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ من معناه الحقيقي، وهو الطريق المستوي للدين الحق، وهو ملة الإسلام. وهذا أمر تحقق عقلاً، فقد نقل اللفظ إلى أمر معلوم.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾.

ومنها: الزيادة، والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] أمر رسوله ﷺ في صدر هذه السورة بتبكيت قريش، وتوبيخهم على إنكارهم للبعث مع قيام الأدلة، وتظاهرها على وجوده، ثم ساق الكثير منها مما لا يمكن رده ولا جحده، ثم أعقبه بذكر ما سيلقونه من العذاب حينئذ، واستثنى منهم عباد الله المخلصين، وبيّن ما يلقونه من النعيم، ثم عطف على هذا أنه قد ضل قبلهم أكثر الأولين، وأنه أرسل إليهم منذرين، ثم أورد قصص بعض الأنبياء، تفصيلاً متضمناً وصفهم بالفضل والعبودية له عز وجل.. أمره هنا أيضاً بالتشديد عليهم ثانياً بطريق الاستفتاء عن وجه القسمة الجائرة التي عملوها، وهي جعل البنات لله، وجعل البنين لأنفسهم بقولهم: الملائكة بنات الله. ثم بالتقريع

---

(١) المراغي.

ثالثاً على استهانتهم الملائكة بجعلهم إناثاً، ثم أبطل كلاً من هذين بالحجة، التي لا يجد العاقل محيصاً عن التصديق بها والإذعان لها.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أثبت فساد آراء المشركين ومذهبهم.. أتبع ذلك بما نبه به، إلى أن هؤلاء المشركين، لا يقدرون على حمل أحد على الضلال، إلا إذا كان مستعداً له، وقد سبق في حكم الله تعالى، أنه من أهل النار، وأنه لا محالة واقع فيها. ثم حكى اعتراف الملائكة بالعبودية تنبيهاً إلى فساد قول من ادعى، أنهم أولاد الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما هدد[1] المشركين بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.. أردفه بما يقوي قلب رسوله ﷺ بوعده بالنصر، والتأييد، كما جاء في آية أخرى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخبره جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: أنزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء من قريش: سليم وخزاعة وجهينة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد قال: قال كبار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن. فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك، قال: كان الناس يصلون متبددين، فأنزل الله:

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ الآية. فأمرهم أن يصفوا.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ سبب نزوله: ما أخرجه جويبر عن ابن عباس، قال: قالوا: يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به، عجله لنا. فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ الآية، صحيح على شرط الشيخين.

التفسير وأوجه القراءة

ولما كانت قريش، وقبائل من العرب، يزعمون أن الملائكة بنات الله، أمر الله سبحانه رسوله ﷺ باستفتائهم على طريقة التوبيخ والتقريع. فقال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يا محمد؛ أي: استخبر يا محمد هؤلاء المشركين، وسلهم. والفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الله سبحانه موصوفاً بنعوت الكمال، والعظمة والجلال متفرداً بالخلق والربوبية، وجميع الأنبياء مقرين بالعبودية، داعين للعبيد إلى حقيقة التنزيه والتوحيد، وأردت توبيخ هؤلاء المشركين وتقريعهم على زعمهم الفاسد، فأقول لك: استخبرهم على سبيل التوبيخ والتجهيل؛ أي: سل قريشاً وبعض طوائف العرب نحو: جهينة، وبني سلمة، وخزاعة، وبني مليح. فإنهم كانوا يقولون: إن الله تعالى تزوج من الجن، فخرجت منها الملائكة، فهم بنات الله. ولذا يسترهن عن العيون، فأثبتوا الأولاد لله تعالى، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور، وقسموا القسمة الباطلة، حيث جعلوا الإناث لله تعالى، وجعلوا الذكور لأنفسهم. فإنهم كانوا يفتخرون بذكور الأولاد، ويستنكفون من البنات، ولذا كانوا يقتلونهن، ويدفنونهن حياءً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ الآية. ومن[١] هنا أنه: من رأى في المنام أنه اسود وجهه، فإنه يولد له بنت.

وفي «الكشاف» قوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ معطوف[٢] على مثله في أول السورة؛ أي: على قوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وإن تباعدت المسافة بينهما، أمر رسول الله ﷺ باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام

---

(١) روح البيان. (٢) الزمخشري.

موصولاً بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى، التي قسموها، حيث جعلوا لله تعالى الإناث، ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهن، ووأدهم، واستنكافهم عن ذكرهن. وهذا العطف الذي قاله الزمخشري بعيد.

أي: سلهم يا محمد ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ اللاتي هي أوضع الجنسين ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ الذين هم أرفعهما. وفيه تفضيل لأنفسهم على ربهم، وذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل، وارتكبوا[1] في زعمهم ثلاثة أنواع من الكفر: التجسيم؛ لأن الولادة مختصة بالأجسام، وتفضيل أنفسهم حيث نسبوا أرفع الجنسين لهم وغيره لله تعالى، واستهانتهم بمن هو مكرم عند الله تعالى، حيث أنثوهم، وهم الملائكة بدأ أولاً بتوبيخهم على تفضيل أنفسهم بقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾، وعدل عن قوله: ألربكم إلى ما قاله، لما في ترك الإضافة إليهم من تخسيسهم وشرف نبيه بالإضافة إليه.

والمعنى[2]: أي سل يا محمد قريشاً مؤنباً لها، ومقرعاً على ضعف أحلامها، وسفاهة عقولها: ألربي البنات، ولكم البنون؟ فمن أين جاءكم هذا التقسيم، وإلام تستندون؟. وإنكم لتكرهون البنات، وتبغضونها أشد البغض، كما جاء في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم...﴾ الآية. وفيه إشارة إلى كمال جهالة الإنسان، وضلالته. إذا وُكل إلى نفسه الخسيسة، وخُلي إلى طبيعته الركيكة، أنه يظن بربه ورب العالمين نقائص لا يستحقها أدنى عاقل، بل غافل من أهل الدنيا.

ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم، فقال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ جمع أنثى ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم حاضرون، خلقنا إياهم إناثاً، فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه في التبكيت، والتهكم بهم، ويجوز أن تكون[3] ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكاري، وأن تكون متصلة معادلة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) زاده.

للهمزة، كأن المستفهم يدعي ثبوت أحد الأمرين عندهم، ويطلب تعيينه منهم قائلاً: أي هذين الأمرين تدعونه، اهـ «زاده».

والمعنى على الأول: أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق، وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثاً، والأنوثة من أخس صفات الحيوان. ولو قيل لأدناهم: فيك أنوثة لتمزقت نفسه من الغيظ لقائله، ففي جعلهم الملائكة إناثاً استهانة شديدة بهم.

أي: كيف جعلوهم إناثاً وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم. وهذا كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾. فبيَّن سبحانه، أن مثل ذلك لا يُعلم إلا بالمشاهدة، ولم يشهدوا، ولا دل دليل على قولهم من السمع، ولا هو مما يدرك بالعقل، حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم.

وهذا[1] ترق في التوبيخ لهم على هذه المقالة، إذ أن ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة أو النقل، ولا سبيل إلى معرفته بالعقل حتى يقوم الدليل، والبرهان على صحته، والنقل الصحيح الذي يؤيد ما تدعون لا يوجد، فلم تبق إلا المشاهدة، وهذه لم تحصل.

ثم بيَّن فساد منشأ هذه العقيدة الزائفة، فقال: ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّهُم﴾؛ أي: إن هؤلاء المشركين ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، أي: من أجل كذبهم الأسوأ. وهو متعلق بقوله: ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ فيما يتدينون به من قولهم: ذلك كذباً بيّناً لا ريب فيه. قرأ الجمهور: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ فعلاً ماضياً، مسنداً إلى الله سبحانه. وقرىء[2] بإضافة ﴿وَلَدَ﴾ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: يقولون الملائكة ولد الله. وولد فعل بمعنى مفعول، يستوي فيه الواحد، والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، والقليل والكثير. وفيه[3] تجسيم له تعالى، وتجويز الفناء عليه؛ لأن الولادة مختصة بالأجسام القابلة للكون

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

والفساد. يعني: انتبهوا، واعلموا أن مبنى مذهبهم الفاسد ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل قطعي أو شبهة دليل. فإنه تعالى لم يلد ولم يولد.

ثم كرر سبحانه تقريعهم وتوبيخهم، ونقض الدعوى من أساسها مبيناً أن العقل لا يتقبلها. فقال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكاري الاستبعادي، دخلت على ألف الافتعال، أصله: أاصطفى، فحذفت همزة الافتعال التي هي همزة الوصل استغناءً بهمزة الاستفهام، والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء لنفسه؛ أي: أتقولون: إنه تعالى اختار البنات على البنين مع نقصانهن رضىً بالأخس الأدنى؛ أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات، ويترك البنين. والعرف، والعادة، والمنطق السليم شاهد صدق على غير هذا. ونحو الآية قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾. وقرأ[1] نافع في رواية عنه، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش بهمزة وصل مكسورة تثبت ابتداء وتسقط درجاً، ويكون الاستفهام منوياً، قاله الفراء. وحُذف حرفه للعلم به من المقام، أو على أن ﴿أَصْطَفَى﴾ وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول، وعلى تقدير عدم الاستفهام والبدل، فقد حكى جماعة من المحققين، منهم: الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام، كما في قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾. وقيل: هو على إضمار القول.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾؛ أي: أي[2] شيء ثبت لكم في هذه الدعوى ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ على الغني عن العالمين بهذا الحكم، تقضي ببطلانه بديهة العقول، ارتدعوا عنه، فإنه جور. قال ابن الشيخ: هاتان جملتان استفهاميتان، ليس لأحدهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب. استفهم أولاً عما استقر لهم، وثبت استفهام إنكار، ثم استفهم استفهام تعجب من حكمهم هذا الحكم الفاسد، وهو أن يكون أحسن

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

الجنسين لأنفسهم، وأخسهما لربهم.

والمعنى: أي شيء ثبت لكم، كيف تحكمون لله بالبنات، وهو القسم الذي تكرهون، ولكم بالبنين، وهو القسم الذي تحبونه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥﴾ بحذف إحدى التاءين من تتذكرون. والهمزة فيه للتوبيخ، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتلاحظون ذلك الحكم فلا تتذكرون بطلانه، فترجعوا عنه، فإنه مركوز في عقل ذكي وغبي. وقرأ طلحة بن مصرف[1]: ﴿تَذْكُرُونَ﴾ بسكون الذال وضم الكاف.

ثم انتقل إلى تبكيت آخر، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ﴾؛ أي: بل ألكم ﴿سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ وحجة واضحة ظاهرة، نزلت عليكم من السماء، بأن الملائكة بنات الله، ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي. وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلي ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الناطق بصحة دعواكم، فالباء: للتعدية، أو فأتوا بحجتكم الواضحة على هذا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولونه. فإذا لم ينزل عليكم كتاب سماوي فيه ذكر ذلك الحكم، فلم تصرون على الكذب، ولا يخفى ما في هذه الآيات من الدلالة على السخط العظيم والإنكار الشديد لأقاويلهم، وتسفيه أحلامهم مع الاستهزاء بهم والتعجيب من جهلهم.

ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب، وسقوطهم عن درجة الخطاب، واقتضاء حالهم أن يُعرض عنهم ويحكي جناياتهم لآخرين، فقال ﴿وَجَعَلُوا۟﴾؛ أي: وجعل هؤلاء المشركون ﴿بَيْنَهُۥ﴾ تعالى ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾؛ أي: الملائكة. وسُموا جنة لاجتنانهم واستتارهم عن الأبصار ﴿نَسَبًا﴾؛ أي: مشاكلة، ومناسبة. فقالوا: الملائكة بنات الله، والنسب، والنسبة اشتراك من جهة الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض كالنسبة بين الأخوة وبني العم، ويقال: فلان نسيب فلان؛ أي: قريبه.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى[1]: وجعل المشركون بما قالوا نسبة بين الله، وبين الملائكة، وأثبتوا بذلك جنسية جامعة له تعالى، وللملائكة. وقال مجاهد، والسدي، ومقاتل: إن القائل بذلك كنانة، وخزاعة. قالوا: إن الله سبحانه خطب إلى سادات الجن، فزوّجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن. وفي ذكر الله الملائكة، بهذا الاسم في هذا الموضع إشارة إلى أن من صفته الاجتنان، وهو من صفات الأجرام، لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك، وفيه إشارة أيضاً إلى جنة الإنسان، وقصور نظر عقله من كمال أحدية الله، وجلال صمديته، إذا وُكل إلى نفسه في معرفة ذات الله، وصفاته، فيقيس ذاته على ذاته، وصفاته على صفاته، فيُثبت له نسباً كما له نسب، ويثبت له زوجةً وولداً كما له زوجة وولد. وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

ثم إن هذا أعني: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ﴾ إلخ، عبارة عن قولهم: الملائكة بنات الله. وإنما أُعيد ذكره تمهيداً لما يعقبه من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد علمت الجنة؛ أي: الملائكة التي عظموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسباً. ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء الكفرة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النار معذبون بها، لا يغيبون عنها لكذبهم وافترائهم في ذلك، والمراد به. المبالغة في التكذيب ببيان أن الذي يدعي هؤلاء المشركون لهم تلك النسبة، ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال، يكذبون في ذلك، ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكماً مؤكداً.

والمعنى: أي ولقد علمت الملائكة الذين ادعى المشركون، أن بينه تعالى، وبينهم نسباً أن هؤلاء المشركين محضرون إلى النار، ومعذبون فيها لكذبهم وافترائهم في قيلهم. وقيل: علمت الجنة أنهم أنفسهم يحضرون للحساب، والأول أولى؛ لأن الإحضار إذا أطلق فالمراد به: العذاب كما مر.

---

(١) روح البيان.

ثم إن الله سبحانه نزّه نفسه عما قالوه من الكذب، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تنزه الله تعالى تنزهاً لائقاً بجنابه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ به من الولد، والنسب. أو نزهوه تنزيهاً عن ذلك أو ما أبعد، وما أنزه من هؤلاء خلقه وعبيده عما يضاف إليه من ذلك. فهو تعجب من كلمتهم الحمقاء، وجعلتهم العوجاء. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ استثناء منقطع[1] من الواو في ﴿يَصِفُونَ﴾؛ أي: يصفه هؤلاء بذلك، ولكن المخلصين الذين أخلصهم الله بلطفه من ألواث الشكوك والشبهات، ووفقهم للجريان بموجب اللب برآء من أن يصفوه به. وجعل أبو السعود قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بتقدير قول معطوف على علمت الجنة تقديره ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك، وقالوا: سبحان الله عما يصفون به من الولد والنسب، لكن عباد الله المخلصين، الذين نحن من جملتهم، برآء من ذلك الوصف، بل نصفه بصفات العلى، فيكون المستثنى أيضاً من كلام الملائكة، وقد قرىء ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام وكسرها، ومعناهما من بيناه قريباً، وقيل: هو استثناء من المحضرين؛ أي: إنهم يحضرون النار إلا من أخلص. فيكون متصلاً لا منقطعاً. وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة.

ثم خاطب الكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص، فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون. عود إلى خطابهم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ومعبوديكم. وهم الشياطين الذين أغووهم ﴿مَآ أَنتُمْ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، و﴿أَنتُمْ﴾ خطاب لهم ولمعبوديهم تغليباً للمخاطب على الغائب ﴿عَلَيْهِ﴾ الضمير عائد لله، و﴿عَلَىٰ﴾ متعلقة بقوله: ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ جمع فاتن. والفاتن هنا: بمعنى المضل والمفسد، يقال: فتن فلان على فلان امرأته؛ أي: أفسدها عليه وأضلها حاملاً إياها على عصيان زوجها، فعدّى الفاتن بعلى لتضمينه معنى الحمل والبعث. ومفعول ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ محذوف.

والمعنى[2]: ما أنتم بفاتنين أحداً من عباده؛ أي: بمضلين ومفسدين بحمله

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

على المعصية والخلاف. ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ منهم؛ أي: داخلها لعلمه تعالى بأنه يصر على الكفر بسوء اختياره، ويصير من أهل النار لا محالة، فيضلون بتقدير الله من قدّر الله أن يكون من أهل النار، وأما المخلصون منهم فإنهم بمعزل عن إفسادهم وإضلالهم، فهم لا جرم برآء من أن يفتنوا بكم، ويسلكوا مسلككم في وصفه تعالى بما وصفتموه به.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿صَالِ﴾ بكسر اللام، لأنه منقوص مضاف، حُذفت الياء لالتقاء الساكين، وحُمل على لفظ ﴿مَنْ﴾، وأفرد كما أفرد ﴿هُوَ﴾. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة ﴿صالوا الجحيم﴾ بضم اللام مع واو بعدها. وروي عنهما: أنهما قرأا بضم اللام بدون واو. فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو، حملاً على معنى ﴿مَنْ﴾، وحُذفت نون الجمع للإضافة. وأما بدون الواو، فيحتمل أن يكون جمعاً وإنما حذفت الواو خطاً كما حُذفت لفظاً، ويحتمل أن يكون مفرداً، وحقه على هذا كسر اللام.

والمعنى[2]: أن الكفار وما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحدٍ من عباد الله إلا من هو من أهل النار، وهم المصرون على الكفر، وإنما يصر على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة، وأنه ممن يصلى النار؛ أي: يدخلها، فهو لا محالة يكبكب فيها. قال لبيد بن ربيعة:

أَحْمَدُ ٱللَّهَ فَلاَ نِدَّ لَهُ ... بِيَدَيْهِ ٱلْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ ٱلْخَيْرِ ٱهْتَدَىٰ ... نَاعِمَ ٱلْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلْ

واحتج[3] أهل السنة والجماعة بهذه الآية وهي قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ إلخ، على أنه لا تأثير لإلقاء الشيطان ووسوسته، ولا لأحوال معبودهم في وقوع الفتنة، وإنما المؤثر هو قضاء الله، وتقديره، وحكمه بالشقاوة، ولا يلزم منه الجبر،

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

وعدم لوم الضال والمضل بما كسبا، لما أشير إليه، من أنهم لا يقدرون على إضلال أحد، إلا إضلال من علم الله منه اختيار الكفر، والإصرار عليه. وعلم الله، وتقديره، وقضاؤه فعلاً من أفعال المكلفين، لا ينافي اختيار العبد، وكسبه.

قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ حكاية اعتراف الملائكة للرد على عبدتهم، كأنه قيل: ويقول الملائكة الذين جعلتموهم بنات الله، وعبدتموهم بناءً على ما زعمتم، من أن بينهم وبينه تعالى مناسبةً، وجنسية جامعةً. وما منا أحد؛ أي: وما أحد كائن منا معشر الملائكة ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ في السموات، يعبد الله فيه، لا يتجاوزه. وفي «السمين»: في هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أن ﴿مِنَّآ﴾ صفة لموصوف محذوف هو مبتدأ، والخبر الجملة من قوله: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ تقديره: ما أحد منا إلا له مقام معلوم. وحذف المبتدأ مع ﴿مِّن﴾ جيد فصيح.

والثاني: أن المبتدأ محذوف أيضاً، و﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ صفة حذف موصوفها، والخبر على هذا هو الجار المتقدم، والتقدير: وما منا أحد إلا له مقام معلوم، انتهى. وقيل: التقدير: وما منا إلا من له مقام معلوم. يعني[1]: أن جبرائيل قال للنبي ﷺ: وما منا معشر الملائكة ملك إلا له مقام معلوم؛ أي: مرتبة، ومنزلة، ووظيفة لا يتعداها. فمنا الموكل بالأرزاق، ومنا الموكل بالآجال، ومنا الموكل بإنزال الوحي، ومنا راكع لا يقيم صلبه، ومنا ساجد لا يرفع رأسه خضوعاً لعظمته، وخضوعاً لهيبته، وتواضعاً لجلاله، ولكل منزلتُه من العبادة، والتقريب، والتشريف.

ففي الآية تنبيه على فساد قول المشركين: إنهم أولاد الله؛ لأن مبالغتهم في إظهار العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية، فكيف يكون بينه تعالى وبينهم جنسية؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي أو يسبح، بل والعالم مشحون بالأرواح، فليس فيه موضع بيت ولا

---

(١) الخازن.

زاوية إلا وهو معمور بما لا يعلمه إلا الله. ولذا أمر النبي ﷺ، بالتستر في الخلوة، وأن لا يجامع الرجل امرأته عريانين.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ في مواقف الطاعة، ومواطن الخدمة، قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم، وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض، قيل[1]: إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية، وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾؛ أي: المنزهون لله تعالى، المقدسون له عما أضافه إليه المشركون. وقيل: المصلون. وقيل: المراد بقولهم: ﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾ مجموع التسبيح باللسان، وبالصلاة. والمقصود أن هذه الصفات هي صفات الملائكة، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله سبحانه. ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين. و﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة، وضمير الشأن محذوف، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. وفي الإتيان بإن المخففة، واللام إشارة إلى أنهم كانوا يقولون ما قالوه مؤكدين جادين، فكم بين أول أمرهم وآخره.

والمعنى: وإن الشأن كانت قريش تقول قبل المبعث المحمدي إذا عُيروا بالجهل: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾؛ أي: كتاباً من كتب الأولين من التوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾؛ أي: لأخلصنا العبادة لله، ولما خالفنا كما خالفوا. والفاء في قوله: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ عاطفة على محذوف تقديره: فجاءهم ذكر؛ أي ذكر سيد الأذكار، وكتاب مهيمن على سائر الكتب والأسفار. وهو القرآن الكريم فكفروا به، وأنكروه، وقالوا في حقه وفي حق من أنزل عليه ما قالوا. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: عاقبة كفرهم، وغائلته من المغلوبية في الدنيا والعذاب الأليم في العقبى. وهو وعيد لهم وتهديد.

قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ جملة مستأنفة مقررة للوعيد. قرأ الجمهور

---

(١) روح البيان.

بالإفراد. وقرأ الضحاك بالجمع، انتهى من البحر. والمراد بالكلمة[1]: ما وعدهم الله تعالى من النصر والظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾. وقال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم. والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا. فإنه قال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ إلخ، ثم إن السبق والتقدم الموقوف على الزمان إنما هو بالنسبة إلى الإنسان، وإلا فالأمر بالإضافة إلى الله كائن على ما كان؛ أي: وعزتي وجلالي لقد سبقت، وتقدمت في الأزل، أو كتبت في اللوح المحفوظ كلمتنا؛ أي: وعدنا على ما لنا من العظمة. ﴿لِعِبَادِنَا﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة في كل حركة وسكون ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: الذين زدناهم على شرف الإخلاص في العبودية شرف الرسالة.

ثم فسر ذلك الوعد بطريق الاستئناف، فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن عبادنا المذكورين ﴿لَهُمُ﴾ خاصة ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ فمن نصرناه فلا يُغلب، كما أن من خذلناه لا يُنصر. ثم عمم فقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ وحزبنا من المرسلين، وأتباعهم المؤمنين ﴿لَهُمُ﴾؛ أي: لا غيرهم ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على أعدائهم في الدنيا والآخرة. قال الشيباني: جاء هنا بالجمع مع كون المسند إليه مفرد اللفظ، من أجل أنه رأس آية. ووصفهم[2] بالغلبة لا ينافيه انهزامهم في بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو انتصارهم على الأعداء وغلبتهم لهم، فخرج الكلام الغالب، فالحكم للغالب، والنادر كالمعدوم، والمغلوبية قد تكون لعارض لمخالفة أمر القائد، والطمع في الدنيا، والعجب، والغرور بكثرة العدة والعدد، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم أمر الله سبحانه رسوله بالإعراض عنهم، والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات والضلالات، فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ والفاء فيه فاء الفصيحة؛ لأنها

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا علمت أن النصرة والغلبة لك ولأتباعك، وأردت بيان ما هو الأصلح لك: فأقول لك: تول عنهم؛ أي: أعرض عن كفار مكة، واصبر على أذاهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى مضي زمن معلوم عند الله، ومدة يسيرة تؤمر بعدها بجهادهم. فكان ﷺ أول الأمر مأموراً بالتبليغ والإنذار، والصبر على أذى الكفار، تأليفاً لهم، ثم أُمر بالجهاد في السنة الثانية من الهجرة، وهي مدة الكف عن القتال، قال السدي ومجاهد: حتى نأمرك بالقتال. وقيل: إلى يوم بدر. وقيل: إلى يوم فتح مكة، فالآية محكمة لا منسوخة بآية القتال، وقيل: الآية منسوخة بآية السيف. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يا محمد، وانظر إليهم على أسوأ حال وأفظع نكال، حل بهم من القتل والأسر، والمراد بالأمر بإبصارهم: الإيذان بغاية قربه، كأنه بين يديه يبصره في الوقت، وإلا فمتعلق الإبصار لم يكن حاضراً عند الأمر ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما يقع بهم. و﴿سوف﴾ للوعيد، لا للتبعيد، أو فسوف يبصرون ما قضينا لك من التأييد، والنصرة، والثواب في الآخرة، أو انظر إليهم إذا عُذبوا، فسوف يبصرون ما أنكروا، أو أعلمهم فسوف يعلمون.

والمعنى[1]: أي وانظر وارتقب ما يحل بهم من العذاب والنكال، بمخالفتك وتكذيبك، وسوف يبصرون انتشار دينك، وإقبال الناس عليه أفواجاً زرافات ووحداناً، مصداقاً لوعده بقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾. وفي «التأويلات النجمية»: فسوف يبصرون جزاء ما عملوا من الخير والشر، انتهى. و﴿سوف﴾ للوعيد، ليتوبوا ويؤمنوا دون التبعيد؛ لأن تبعيد الشيء المحذر منه كالمنافي لإرادة التخويف به. ولما نزل قوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا استعجالاً، واستهزاء لفرط جهلهم: متى هذا؟ فنزل قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦﴾ والهمزة[2]: للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أي: أبعد هذا التكرير من الوعيد ينكرون

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

عذابنا، فيستعجلون به. ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب الموعود ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾؛ أي: بفنائهم، وقربهم، وحضرتهم، كأنه جيش قد هزمهم، فأناخ بفنائهم بغتة. ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: قبح وبئس صباح الكافرين، الذين أنذروا بعذابنا، وكذبوا به فلم يؤمنوا، والمخصوص بالذم: صباحهم، واللام فيه: للجنس. فإن أفعال المدح والذم تقتضي الشيوع، والإبهام، والتفصيل، فلا يجوز أن تكون للعهد، والصباح: مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب، ولما كثرت منهم الإغارة في الصباح سموها صباحاً وإن وقعت ليلاً.

وقرأ عبد الله: ﴿فبئس﴾. قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل. قيل: المراد به: نزول رسول الله ﷺ بساحتهم يوم فتح مكة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نزل﴾ مبنياً للفاعل.

وقرأ عبد الله بن مسعود على البناء للمفعول، والجار والمجرور قائم مقام الفاعل، وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فلما دخل القرية قال: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، قالها ثلاث مرات». متفق عليه.

ثم كرر سبحانه ذكر ما تقدم، تأكيداً لوعيد العذاب، فقال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم يا محمد ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾. وقيل: المراد من الآية الأولى: ذكر أحوالهم في الدنيا، وهذه ذكر أحوالهم في الآخرة. فعلى هذا القول يزول التكرار. ﴿وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما سيحل بهم من فنون العذاب.

وهذا[2]: تسلية لرسوله ﷺ إثر تسلية، وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول، من الإيذان بأن ما يبصره عليه السلام، من فنون المسار، وما يبصرون من أنواع المضار، لا يحيط به الوصف والبيان، وفي «البرهان»: حذف الضمير من الثاني اكتفاء بالأول.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي وأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين، وخلهم وفريتهم على ربهم، إلى أن يأذن بهلاكهم، وانظر إليهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابنا حين لا تنفعهم التوبة.

ثم ختم سبحانه السورة، بخاتمة شريفة جامعة، لتنزيهه تعالى عما لا يليق به، مع وصف نفسه بصفات الكمال، ومدحه للرسل الكرام، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ يا محمد. خطاب للنبي ﷺ، والإضافة فيه للتشريف، وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ بدل من الأول ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: نزّه يا محمد[1] من هو مربيك، ومكملك، ومالك العزة والغلبة والقوة على الإطلاق، عما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه من الأولاد، والأزواج، والشركاء، وغير ذلك من الأشياء، التي من جملتها ترك نصرتك عليهم، كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب، قال في «بحر العلوم»: أضاف الرب إلى العزة لاختصاصه بها، كأنه قيل: ذي العزة كقولك: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، فلا عزة إلا له سبحانه، على أن العزة ذاتية، أو لمن أعزه من الأنبياء وغيرهم، فالعزة حادثة كائنة بين خلقه، وهي وإن كانت صفة قائمة بغيره تعالى، إلا أنها مملوكة له مختصة به، يضعها حيث يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾. وفيه إشعار بالسلوب والإضافات، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾. وذلك أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ إشارة إلى السلوب كالجلال، فإن كلا منهما يفيد ما أفاد الآخرة في قولنا: سبحان ربنا عن الشريك والشبيه، وجل ربنا عنهما، وقوله: ﴿رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ إشارة إلى الإضافات كالإكرام، وإنما قدم السلب على الإضافة، لأن السلوب كافية فيها ذاته، من حيث هو هو، بخلاف الإضافات، فإنه لا بد في تحققها من غيره؛ لأن الإضافة لا توجد إلا عند وجود المضافين.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ كلمة مشتملة على سلب النقص والعيب عن ذات الله وصفاته، فما كان من أسمائه سلباً فهو مندرج

---

(١) روح البيان.

تحت هذه الكلمة، كالقدوس: وهو الطاهر من كل عيب، والسلام: وهو الذي سلم من كل آفة، فنفينا بسبحان الله كل عيب عقلناه، وكل نقص فهمناه.

ثم إن المرسلين لما كانوا وسائط بين الله، وبين عباده، نبه على علو شأنهم بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ﴾؛ أي: وسلامة، ونجاة من كل المكاره، وفوز بجميع المآرب، كائن ﴿عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين يبلّغون رسالات الله إلى الأمم، ويبيّنون لهم ما يحتاجون إليه من الأمور الدينية والدنيوية، أولهم آدم، وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، فهو تعميم للرسل، بالتسليم بعد تخصيص بعضهم فيما سبق؛ لأن تخصيص كل واحد بالذكر يطول.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء، وقيل: الغرض من ذلك: تعليم المؤمنين أن يقولوه، ولا يخلّوا به، ولا يغفلوا عنه، لما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى، من الأجر يوم القيامة، فليكن أخر كلامه إذا قام من مجلسه ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾. وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ غير مرة، ولا مرتين، يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

والمعنى: أي تنزيهاً لربك أيها الرسول، رب القوة والغلبة، عما يصفه به هؤلاء المفترون، من مشركي قريش من نحو قولهم: ولد الله، وقولهم: الملائكة بنات الله، وأمنة من الله سبحانه للمرسلين، الذين أرسلهم إلى أممهم من العذاب الأكبر، ومن أن ينالهم مكروه من قبله تعالى، والحمد لله رب الثقلين، الجن والإنس، خالصاً له دون من سواه؛ لأن كل نعمة لعباده، فهي منه.

الإعراب

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ الفاء: عاطفة، عطفت هذه الجملة على قوله في أول السورة: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾، وإن بعد المدى، قال البيضاوي: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾: معطوف على مثله في أول السورة، فأمر أولاً باستفتائهم عن وجه إنكار البعث، وساق الكلام في تقريره، جارياً لما يلائمه من القصص، موصولاً بعضها ببعض، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة، حيث جعلوا لله البنات، ولأنفسهم البنين في قولهم: الملائكة بنات الله، وإن شئت قلت: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الله موصوفاً بصفات الكمال، وأردت توبيخ هؤلاء المشركين على زعمهم الفاسد.. فأقول لك: استفتهم على سبيل التوبيخ. ﴿استفتهم﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة أو الجملة معطوفة على ما تقدم في أول السورة. ﴿أَلِرَبِّكَ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، ﴿لربك﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلۡبَنَاتُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿استفتهم﴾؛ لأنه بمعنى: اسألهم. و﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلۡبَنُونَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها. ﴿أَمۡ﴾: حرف عطف معادلة للهمزة؛ كأن المستَفْهِم يدّعي ثبوت أحد الأمرين، ويطلب تعيينه منهم قائلاً: أي هذين الأمرين تدعونه. ﴿خَلَقۡنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مفعول به. ﴿إِنَٰثًا﴾: حال من الملائكة. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾. ﴿وَهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿شَٰهِدُونَ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من الملائكة أيضاً، ولكنها حال سببية، والرابط مقدر، تقديره: أم خلقنا الملائكة إناثاً، والحال أنهم شاهدون خلقهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه واستفتاح، ﴿إِنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿يقولون﴾ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿يقولون﴾: خبر

﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لإبطال مذهبهم الفاسد، ببيان أنه إفك صريح، لا دليل يدعمه. ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿كاذبون﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يقولون﴾. ﴿أَصْطَفَى﴾ الهمزة المفتوحة، للاستفهام الإنكاري، استُغني بها عن همزة الوصل، في التوصل إلى النطق بالساكن. ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول به، ﴿عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾، متعلق بـ﴿أَصْطَفَى﴾ بتضمينه معنى أفضل. وجملة الاستفهام، جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾ اسم استفهام على وجه الإنكار في محل الرفع مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تَحْكُمُونَ﴾ أو على المفعولية المطلقة، والتقدير: أي حكم تحكمون. و﴿تَحْكُمُونَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة أيضاً. فليس لإحدى الجملتين تعلق بالأخرى، كما مر. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتغفلون عن الحقائق فلا تذكرون. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: فعل، وفاعل معطوف على تلك المحذوفة. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿سُلْطَٰنٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سُلْطَٰنٌ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾.

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿فَأْتُوا۟﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت افتراءهم فيما يقولون، وأردت الزام الحجة لهم.. فأقول لك: قل لهم: ائتوا بكتابكم. ﴿ائتوا﴾: فعل أمر، وفاعل. ﴿بِكِتَٰبِكُمْ﴾: متعلق به. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أنْ﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم

بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجوابها معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين فائتوا بكتابكم، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَجَعَلُوا﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَهُ﴾: ظرف، متعلق بـ﴿جعلوا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿جعلوا﴾. ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول. ﴿نَسَبًا﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب على الحال من الجنة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿محضرون﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب، سادة مسد مفعولي ﴿علم﴾.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤)﴾.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الله سبحاناً، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سُبْحَانَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: عما يصفونه به، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾: استثناء منقطع من المحضرين، كأنهم ليسوا من جنسهم، ويحتمل أن يكون استثناء من فاعل ﴿جعلوا﴾ أو من فاعل ﴿يَصِفُونَ﴾؛ أي: لكن عباد الله المخلصين ناجون. ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ صفة ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾: ﴿الواو﴾: واو المعية، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب على أنه مفعول معه، وقد سدت مسد خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: إنكم وآلهتكم قرناء، لا تزالون تعبدونها على حد قولهم: كل رجل وضيعته؛ أي: مقترنان. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية أو حجازية. ﴿أَنْتُمْ﴾: اسمها، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿فاتنين﴾، ﴿بِفَاتِنِينَ﴾: خبر ﴿مَا﴾، والباء: زائدة. والجملة مستأنفة. ويجوز أن تكون جملة ﴿مَا﴾: الحجازية خبر ﴿إِنَّ﴾: على أن ﴿الواو﴾: عاطفة لا معية في قوله: ﴿وَمَا

﴿تَعۡبُدُونَ﴾. ومفعول ﴿فاتنين﴾: محذوف؛ أي: أحداً. والمعنى: ما أنتم ولا معبودكم بفاتنين؛ أي: مفسدين عليه تعالى أحداً من عباده. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من مفعول فاتنين المحذوف. ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿صَالِ﴾: خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، وقد أفرد حملاً على لفظ ﴿مَنۡ﴾: كما أفرد لفظ ﴿هُوَ﴾، كذلك ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مِنَّآ﴾: خبر مقدم، والمبتدأ محذوف أقيمت صفته مقامه، والتقدير: وما كائن منا أحد إلا له مقام معلوم ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مَقَامٞ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مَّعۡلُومٞ﴾: صفة ﴿مَقَامٞ﴾. والجملة الاسمية صفة للمبتدأ المحذوف. وما كائن منا إلا أحد موصوف بكون مقام معلوم له على حد قوله:

أَنَا ٱبْنُ جَلاَ وَطَلاَّعِ ٱلثَّنَايَا مَتَىٰ أَضَعِ ٱلْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

ويجوز أن تكون ﴿مِنَّآ﴾: صفة لمحذوف هو المبتدأ، والخبر جملة ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾؛ أي: وما أحد كائن منا، إلا له مقام معلوم. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مَقَامٞ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّعۡلُومٞ﴾: صفة ﴿مَقَامٞ﴾، والجملة خبر لذلك المحذوف.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾.

﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَنَحۡنُ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ أو ضمير فصل، و﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾: خبر ﴿نَحۡنُ﴾، وجملة ﴿نَحۡنُ﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾: أو ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾. ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾ معطوف أيضاً على الآية السابقة، ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِن﴾: مخففة من الثقيلة مهملة، أو اسمها ضمير الشأن، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَيَقُولُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿يقولون﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل

الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ المخففة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ المخففة معطوفة على ما قبلها. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿عِندَنَا﴾: ظرف، ومضاف إليه، خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها، ﴿ذِكْرًا﴾ اسمها مؤخر. ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ صفة لـ﴿ذِكْرًا﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر، مرفوع على كونه فاعلاً لفعل محذوف بعد ﴿لَوْ﴾ الشرطية؛ لأن ﴿لَوْ﴾: الشرطية، لا يليها إلا الفعل، والتقدير: لو ثبت كون ذكر من الأولين عندنا. ﴿لَكُنَّا﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ خبره، ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صفة لعباد الله، وجملة ﴿كَانَ﴾: جواب لـ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾. ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فجاءهم ذكر أي ذكر ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾. ﴿كفروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿كفروا﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد، ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿كفروا﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿لِعِبَادِنَا﴾: متعلق بـ﴿سَبَقَتْ﴾. ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ صفة لـ﴿عبادنا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَهُمُ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ جملة مفسرة لـ﴿كَلِمَتُنَا﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿جُندَنَا﴾ اسمها، ﴿لَهُمُ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ المذكورة قبلها.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن النصر، والغلبة، والعاقبة لك، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: تول عنهم. ﴿تول﴾: فعل أمر، مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تول﴾، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تول﴾ أيضاً. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ومفعول به. معطوف على تول، ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس. ﴿يُبْصِرُونَ﴾: فعل، وفاعل، والمفعول محذوف، تقديره: ما يحيق بهم جزاء كفرهم. والجملة معطوفة على جملة ﴿أبصرهم﴾ عطف إخبار على إنشاء. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد هذا التكرير من الوعيد، ينكرون عذابنا، فيستعجلون به. ﴿بعذابنا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾، ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت هذا الوعيد المكرر لهم، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك إذا نزل. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿نَزَلَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على العذاب، ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿نزل﴾. والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَسَاءَ﴾ الفاء: رابطة لجواب إذا وجوباً لكون الجواب جملة جامدية، ﴿ساء﴾ فعل ماض لإنشاء الذم، ﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فاعل، ومضاف إليه، والجملة جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: صباحهم، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَتَوَلَّ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على نظيرتها السابقة آنفاً. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: متعلق بـ﴿تول﴾ أيضاً. ﴿وَأَبْصِرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ،

معطوف على ﴿تول﴾، وحذف المفعول اختصاراً لدلالة الأول عليه، ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿سوف يبصرون﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أبصر﴾.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبح ربك سبحاناً، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّكَ﴾: مضاف إليه، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾: بدل من ربك، بدل كل من كل. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سُبْحَٰنَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صفة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: يصفونه به. ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿سلام﴾: مبتدأ، سوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء به، ﴿عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ عطف إخبار على إنشاء؛ لأنه في معنى الإنشاء. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، معطوف على ما قبله، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة أو بدل منه، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ من الاستفتاء، وهو طلب الفتوى، والفتوى، وكذا الفتيا: الجواب عما أشكل من الأحكام، يقال: استفتيته فأفتاني بكذا، والمراد بالاستفتاء هنا: الاستخبار. ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ الإناث ككتاب، جمع الأنثى، من أنث أنوثةً إذا ضعف، والألف في الأنثى، ألف التأنيث المقصورة، فلذلك لا يُصرف. ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ والإفك: أسوأ الكذب، وأقبحه، وأشده عقوبة. ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ بفتح الهمزة على أنها همزة الاستفهام الإنكاري، دخلت على ألف الافتعال، أصله أاصطفى، فحذفت همزة الافتعال التي هي همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام. وأصل ﴿أَصْطَفَى﴾: اصتفى من الصفوة، قلبت تاء الافتعال طاء، لوقوعها بعد حرف الإطباق. والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء لنفسه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ بحذف إحدى التاءين لثقل توالي المثلين، أصله: تتذكرون، إحداهما تاء المضارعة، والأخرى تاء المطاوعة.

﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ الجِنة بكسر الجيم: جماعة الجن، والملائكة أيضاً كما في «القاموس»، والمراد هنا: الملائكة، وسموا جنة لاجتنانهم، واستتارهم عن الأبصار، ومنه: سمي الجنين، وهو المستور في بطن الأم، والجنون، لأنه خفاء العقل، والجنة بالضم: الترس، لأنه يجن صاحبه، ويستره. والجنة بالفتح، لأنها كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض. فمن له اجتنان عن الأعين.. فهو جنس يندرج تحته الملائكة، والجن المعروف. قالوا: الجن واحد، ولكن من خبث من الجن، ومرد، وكان شراً فهو شيطان. ومن طهر منهم، ونسك، وكان خيراً فهو ملك. قال الراغب: يقال الجن على وجهين:

أحدهما: للروحانيين المستترة عن الحواس كلها، بإزاء الإنس، فعلى هذا يدخل فيه الملائكة والشياطين، فكل ملائكة جن، وليس كل جن ملائكة.

وقيل الثاني: بل الجن بعض الروحانيين. وذلك أن الروحانيين ثلاثة أقسام: أخيار وهم الملائكة، وأشرار وهم الشياطين، وأوساط فهم أخيار وأشرار وهم الجن. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾.

﴿نَسَبًا﴾ النسب، والنسبة: اشتراك من جهة الأبوين، وذلك ضربان:

نسب بالطول: كالاشتراك بين الآباء والأبناء.

ونسب بالعرض: كالنسبة بين الإخوة وبني العم. وقيل: فلان نسيب فلان؛ أي: قريبه.

﴿بِفَاتِنِينَ﴾ والفاتن هنا بمعنى: المضل والمفسد، يقال: فتن فلان على فلان امرأته؛ أي: أفسدها عليه، وأضلها حاملاً لها على عصيان زوجها، فعُدّي الفاتن بعلى لتضمينه معنى الحمل والبعث.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ صال بالكسر أصله: صالي على وزن فاعل

من الصلي، وهو الدخول في النار، يقال: صلي فلان النار يصلي صلياً من الباب الرابع، دخل فيها واحترق، فأعلّ كقاض، فترفعه بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، فلما أضيف إلى الجحيم سقط التنوين، وأفرد حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾. والمعنى: داخل النار، ومعذب فيها.

﴿كَلِمَتُنَا﴾؛ أي: وعدنا. ﴿لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾؛ أي: الغالبون في الحرب، وغيرها. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾؛ أي: أتباع رسلنا. والجند: العسكر. وفي المصباح: الجند: الأنصار، والأعوان، والجمع أجناد، وجنود، والواحد جندي، فالياء للوحدة مثل: روم رومي، وجند بفتحتين: بلد باليمن، اهـ.

﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ قال الراغب: الساحة: المكان الواسع، ومنه: ساحة الدار، والسائح: الماء الجاري في الساحة، وساح فلان في الأرض مر مر السائح، ورجل سائح وسياح. وفي «حواشي ابن الشيخ»: الساحة: الفناء الخالي من الأبنية، وفناء الدار بالكسر ما امتد من جوانبها معداً لمصالحها، وجمعها سوح، فألفها منقلبة عن واو، فتصغر على سويحة. وفي «المصباح»: الفناء بوزن كتاب: الوصيد، وهو سعة أمام الدار وقيل: ما امتد من جوانبه، اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿ٱلْبَنَٰتِ﴾ ﴿ٱلْبَنِينَ﴾.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾. وكان مقتضى السياق أن يقال: وجعلتم للإيذان بانقطاعهم عن درجة الخطاب، واقتضاء حالهم أن يُعرض عنهم، وتحكى جناياتهم لآخرين كما في «الكرخي».

ومنها: تتابع الاستفهامات، وتكراره في قوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ للتقريع والتوبيخ.

ومنها: جمع المؤكدات لتحقيق المعنى، وتقريره في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. فقد أكدت كل من الجملتين بأن، وباللام، وباسمية الجملة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾. فقد شبه العذاب النازل بهم، بعدما أنذروا به، فلم يبالوا الإنذار، وأصموا آذانهم عنه بجيش، أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم، فلم يكترثوا لإنذاره، ولم يتخذوا الأهبة والاحتياط حتى اجتاحهم جيش العدو، ففي الضمير المستتر في ﴿نَزَلَ﴾ استعارة بالكناية. والنزول: تخييل، كما في «البيضاوي».

ومنها: إقامة الظاهر مقام المضمر في قوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فساء صباحهم.

ومنها: حذف مفعول ﴿أبصر﴾ الثاني إما اختصاراً لدلالة الأول عليه، وإما اقتصاراً، اهـ «سمين».

ومنها: إضافة رب إلى العزة في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ لاختصاصه بها، كأنه قيل: ذي العزة كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه به.

ومنها: تعميم الرسل بالتسليم بعد تخصيص بعضهم في قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما حوته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ التوحيد، ودليله في الآفاق والأنفس.

٢ ـ خلق السموات والأرض، ووصفه سبحانه لذلك.

٣ ـ إنكار المشركين للبعث، وما يتبع ذلك من محاورة أهل الجنة لأهل النار، وهم يطلعون عليهم.

٤ ـ وصف الجنة، ونعيمها.

٥ ـ قصص بعض الأنبياء: كنوح، وإبراهيم، وإسماعيل.

٦ ـ دفع فرية قالها المشركون، وتوبيخهم عليها، إذ قالوا: الملائكة بنات الله.

٧ ـ تنزيه الله عن ذلك.

٨ ـ بيان أن المشركين لا يفتنون إلا ذوي الأحلام الضعيفة، المستعدة للإضلال.

٩ ـ وصف الملائكة بأنهم صافون مسبحون.

١٠ ـ مدح المرسلين، وسلام الله عليهم.

١١ ـ حمد الله، وثناؤه على نفسه، بأنه رب العزة، ورب الخلق أجمعين.

والله أعلم

* * *

سورة صٓ

سورة صٓ مكية، قال القرطبي عند الجميع. ويقال لها: سورة داود عليه السلام. وآيها ست، وقيل: ثمان وثمانون آية. وكلماتها: سبع مئة واثنتان وثلاثون كلمة. وحروفها: ثلاثة آلاف وسبعة وستون حرفاً، وقيل: تسعة وتسعون.

التسمية: واسمها: سورة صٓ، ويقال لها: سورة داود لذكر قصة داود فيها، وسميت سورة صٓ، وهو حرف من حروف الهجاء، إشارة إلى فضل هذا الكتاب المعجز، الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال محمد بن حزم ـ رحمه الله ـ: سورة صٓ كلها محكم إلا آيتين:

أولهما: قوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ الآية (٧٠) نسخت بآية السيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ الآية (٨٨)، نسخت أيضاً بآية السيف.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي[1] عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة صٓ.. كان له بوزن كل جبل سخّره الله لداود عشر حسنات، وعصمه أن يصر على ذنب صغير أو كبير». ولكن فيه مقال.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[2]: أنها جاءت كالمتممة لها من وجهين:

---

(١) البيضاوي.　　(٢) المراغي.

١ ـ أنه ذكر فيها من قصص الأنبياء، ما لم يذكر في تلك كداود، وسليمان.

٢ ـ أنه بعد أن حكى فيما قبلها عن الكفار، أنهم قالوا: لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين، وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم.. بدأ عز اسمه هذه السورة بالقرآن ذي الذكر، وفصّل ما أجمله هناك من كفرهم.

وقال أبو حيان[١]: مناسبة هذه السورة لآخر ما قبلها، أنه لما ذكر عن الكفار، أنهم كانوا يقولون: لو أن عندنا ذكراً من الأولين؛ لأخلصوا العبادة لله، وأخبر أنهم أتاهم الذكر فكفروا به.. بدأ في هذه السورة بالقسم بالقرآن؛ لأنه الذكر الذي جاءهم، وأخبر عنهم أنهم كافرون، وأنهم في تعزز مشاقة للرسول الذي جاء به، ثم ذكر من أهلك من القرون، التي شاقّت الرسل ليتعظوا.

والله أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰٓئِكَ الْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝١٦ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ۝٢٠ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ۝٢٦ ﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة، وآخر السابقة آنفاً.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ... ﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما

قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنهم إنما توانوا، وتكاسلوا عن النظر والاستدلال، لأنهم لم ينزل بهم العذاب.. بيّن في هذه الآيات أن أقوام الأنبياء الماضين، كانوا كذلك حتى حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وفي هذا، تخويف لأولئك الكافرين، الذين كذبوا الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما تقدم، أن القوم إنما تعجبوا لشبهات تتعلق بالتوحيد، والنبوات، والمعاد.. فأشار إلى الأولى بقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، وإلى الثانية بقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾. أشار هنا إلى الثالثة بقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ سخريةً وتهكماً حين سمعوا بالمعاد، وأن هناك داراً أخرى يحاسبون فيها، ويجازون على ما يعملون، ثم أمر رسوله بالصبر على أذى المشركين، وعلى ما يقولون في شأنه من أنه شاعر، وأنه مفتر كذاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما أمر رسوله، بالصبر على أذى المشركين.. أردف ذلك، ذكر قصص بعض الأنبياء الذين حدث لهم من المشاق والأذى، مثل ما حدث له، فصبروا حتى فرّج الله تعالى عنهم، وأحسن عاقبتهم، ترغيباً له في الصبر وإيذاناً ببلوغه ما يريد، كما كان ذلك عاقبة من قبله.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه[1]، لما مدح داود، وأثنى عليه بما سلف.. أردف ذلك، ذكر نبأٍ عجيب من أنبائه، مشوقاً إليه السامع، ومعجباً له.

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما قص علينا قصص داود عليه السلام، والخصمين.. أردف ذلك، ببيان أنه فوّض إلى داود خلافة الأرض، وأوصاه بالحكم بين الناس

---

(١) المراغي.

بالحق، وعدم اتباع الهوى، حتى لا يضل عن سبيل الله، ثم ذكر أن من ضل عن سبيله فله شديد العذاب، وسوء المنقلب، إذ قد نسي يوم الحساب والجزاء.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات: ما أخرجه[1] ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه. فجاء النبي ﷺ، فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشي أبو جهل أن يجلس إلى أبي طالب ويكون أرق عليه، فوثب، فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك، يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا لكلمته، ولقوله فقال القوم كلمة واحدة: نعم وأبيك لنعطينكها وعشراً، قالوا: فما هي؟ قال: لا إله إلا الله، فقاموا فزعين، ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾. فنزل فيهم: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿صٓ﴾ تقدم[2] الكلام في مثل هذا مراراً، وقلنا: إن هذه حروف يراد بها

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

تنبيه المخاطب، للإصغاء إلى ما يراد بعده من الكلام لأهميته. نحو: ألا ويا. وينطق بأسمائها فيقال: صاد بالسكون.

وقال الشوكاني: وقد اختُلف في معنى «صاد»، فقال الضحاك: معناه: صدق الله، وقال عطاء: صدق محمد ﷺ. وقال سعيد بن جبير: هو بحر يُحيي الله به الموتى بين النفختين. وقال محمد بن كعب: هو مفتاح اسم الله، صادق الوعد، صانع المصنوعات، صبور على ذنوب عباده، الصمد لحوائج عباده. وقال قتادة: هو اسم من أسماء الله تعالى، وروي عنه: أنه قال: هو اسم من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة، وقيل: هو مما استأثر الله بعلمه، وهذا هو الحق كما قدمنا في فاتحة سورة البقرة، قيل: وهو إما اسم للحروف مسروداً على نمط التعبد، أو اسم للسورة أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب بإضمار اذكر أو اقرأ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿صاد﴾ بسكون الدال، كسائر حروف التهجي في أوائل السور، فإنها ساكنة الأواخر على الوقف، وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم، وابن أبي عبلة، وأبو السمال «صادِ» بكسر الدال من غير تنوين، والظاهر: أنه كسر لالتقاء الساكنين، وهو حرف من حروف المعجم، نحو: قَ، ونون. وقال الحسن: هو أمر من صادى يصادي إذا عارض والمعنى: صاد القرآن بعملك؛ أي: عارضه بعملك، وقابله فاعمل به، ومنه: الصدى، وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الصلبة، الخالية من الأجسام. وهذا حكاه النحاس عن الحسن البصري، وقال: إنه فسر قراءته هذه بهذا. وعنه: أن المعنى: أتله، وتعرض لقراءته، وعنه أيضاً: صاديت بمعنى: حادثت؛ أي: حادث. وهو قريب من القول الأول. وقرأ عيسى بن عمر، ومحبوب عن أبي عمر، وفرقة ﴿صادَ﴾ بفتح الدال، والفتح لالتقاء الساكنين، طلباً للتخفيف، وكذا قرأ: ﴿قافَ، ونونَ﴾ بفتح الفاء والنون، وقيل: انتصب على أنه مقسم به، حذف

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

منه خرف القسم، نحوه: قوله: ألله لأفعلن، وهو اسم للسورة، وامتنع من الصرف للعلمية والتأنيث. وقيل: نُصب على الإغراء. وقيل: معناه: صاد محمد ﷺ قلوب الخلق، واستمالها حتى آمنوا به. وروي عن ابن أبي إسحاق أيضاً. أنه قرأ ﴿صادٍ﴾، بالكسر والتنوين، تشبيهاً لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات. وقرأ هارون الأعور، وابن السميقع: ﴿صادُ﴾، بالضم من غير تنوين على البناء، نحو: منذ، وحيث، فجملة القراءات في ﴿صٓ﴾ خمس. والجمهور على السكون. قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندنا السكون؛ لأن ذلك القراءة التي جاء بها قرّاء الأمصار مستفيضة فيهم، وأنها حروف هجاء لأسماء المسميات، فيعربن إعراب الأسماء والأدوات الأصوات، فيسلك بهن مسالكهن، فتأويلها إذا كانت كذلك تأويل نظائرها التي تقدم بيانها فيما مضى، اهـ.

والواو في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ هي واو القسم. والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره، وعلو منزلته. وفي المراد[1] بالذكر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الشرف؛ أي: والقرآن صاحب الشرف، والعظمة، والمنزلة كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: شرفكم؛ أي: أن من آمن به له شرف في الدارين، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي.

والثاني: البيان؛ أي: والقرآن صاحب البيان؛ أي: الذي يبين ما يحتاج إليه في الدين من العقائد والأحكام، قاله قتادة.

والثالث: التذكير، والموعظة؛ أي: القرآن صاحب الموعظة والتذكير لمن اتعظ، قاله الضحاك، ورجح الطبري القول الثالث، وهو أنه بمعنى التذكير. قال: لأن الله تعالى أتبع ذلك قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾، فكان معلوماً بذلك، أنه إنما أخبر عن القرآن، أنه أنزله ذكراً لعباده ذكرهم به، وأن الكفار من الإيمان به في عزة وشقاق، اهـ. وقال ابن كثير: إن في هذا القرآن

---

(١) زاد المير.

لذكرى لمن يتذكر، وعبرةً لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾؛ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: ومخالفة له، ومعاندة، ومفارقة، اهـ.

وقولنا: والواو في قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ للقسم إن جعل[1] ﴿صٓ﴾ اسماً للحرف ومذكوراً للتحدي أو للرمز بكلام، مثل: صدق محمد ﷺ، أو اسماً للسورة خبراً لمحذوف؛ أي: هذه السورة ﴿صٓ﴾، وللعطف إن جعل مقسماً به؛ أي: أقسمت بـ﴿صٓ﴾ وبالقرآن ذي الذكر، والجواب محذوف دل عليه ما في ﴿صٓ﴾ من الدلالة على التحدي، والتقدير؛ أي: أقسمت بـ﴿صٓ﴾ وبالقرآن ذي الذكر أنه لمعجز، أو الواجب العمل به، أو إن محمداً ﷺ لصادق. «وفي الشوكاني»: واختُلف في جواب هذا القسم ما هو؟. فقال الزجاج، والكسائي، والكوفيون، غير الفراء: إن الجواب قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾. وقال الفراء: لا نجده مستقيماً لتأخره جداً عن قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾. ورجح هو، وثعلب: أن الجواب قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾. ومعناه: لكم أهلكنا، فلما طال الكلام حذفت اللام، ومثله قوله: «والشمس وضحاها قد أفلح». فإن المعنى: لقد أفلح، غير أنه لما اعترض بينهما كلام تبعه قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾. وقال الأخفش: الجواب هو قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾. وقيل: الجواب هو صاد؛ لأن معناه: حق وثبت إرسالك أقسمت بالقرآن، أو حق واجب اتباعك أقسمت بالقرآن. أو المعنى: والقرآن ذي الذكر لقد صدق محمد ﷺ كقولك: وجب والله نزل والله، ذكره ابن الأنباري. وروي أيضاً عن ثعلب، والفراء. وهو مبني على أن جواب القسم، يجوز تقدمه، وهو ضعيف جداً. وقيل: الجواب محذوف، تقديره: أقسمت بالقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يزعم الكفار. ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾، ذكره جماعة من المفسرين، وإلى نحوه ذهب قتادة. وهو الذي رجحه الطبري في تفسيره. وقال ابن عطية: والقول بالحذف أولى. وقيل: إن قوله: ﴿صٓ﴾ مقسم به، وعلى هذا القول تكون

---

(١) البيضاوي.

الواو في ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ للعطف عليه كما مر.

ومعنى الآية: أي أقسم[1] بالقرآن ذي الشرف والرفعة إنه لمعجز، وإن محمداً ﷺ لصادق فيما يدعيه من النبوة، وإنه مرسل من ربه إلى الأسود والأحمر، وإن كتابه لمنزل من عنده تعالى.

ولما كان الإقسام بالقرآن دالاً على صدقه، وأنه حق، وأنه ليس بمحل للريب.. قال سبحانه مبيناً للسبب الحقيقي في كفرهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلخ إضراب، وانتقال من قضية إلى أخرى. بيّن به سبب قولهم بتعدد الآلهة؛ أي: ليس الحامل لهم عليه الدليل، بل مجرد الحمية، والخصام، والشقاق، اهـ شيخنا. وكأنه قال: لا ريب فيه قطعاً، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه، بل هم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ عن قبول الحق؛ أي: في تكبر، وتجبر، وأنفة، وحمية جاهلية. وقرأ عمرو بن العاص، وأبو رزين، وابن يعمر، وعاصم الجحدري، ومحبوب عن أبي عمرو، وحماد بن الزبرقان، وسورة عن الكسائي، وميمون بن أبي جعفر ﴿في غرة﴾ بغين معجمة، وراء غير معجمة؛ أي: في غفلة عن قبول الحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: مخالفة للحق، ومعاندة له، وامتناع عن قبوله، وعداوة عظيمة لرسوله ﷺ.

والمعنى: أي إن الذين كفروا من أهل مكة، لم يكفروا بهذا القرآن، لعدم وجدانهم فيه، ما يُصلح حالهم في دينهم ودنياهم، بل كذبوا به لاستكبارهم عن اتباع الحق، ومشاقتهم لرسوله ﷺ وحرصهم على مخالفته.

ثم حذرهم، وخوّفهم ما أهلك به الأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ﴿كَمْ﴾ هي الخبرية الدالة على عدد كثير، وهي في محل نصب بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ على أنها مفعول به. و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ لابتداء الغاية. وقوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لكم الخبرية. والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد.

والمعنى: أهلكنا كثيراً من القرون الخالية، والأمم الماضية الذين كانوا

---

(١) المراغي.

أمنع من هؤلاء، وأشد قوة، وأكثر أموالاً بسبب تكذيبهم رسلهم واستكبارهم عن قبول الحق.

﴿فَنَادَوا﴾؛ أي: فدعوا، واستغاثوا بنا عند نزول بأسنا، وحلول نقمتنا، وعقوبتنا، أو تابوا، واستغفروا عند نزول العذاب بهم لينجوا من ذلك، ﴿و﴾ الحال أنه ﴿لات﴾ الحين، والزمن ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ أي: زمن فرار، وفوت من عذابنا. وجملة ﴿لات﴾ حال من ضمير ﴿نادوا﴾؛ أي: نادوا واستغاثوا طلباً للنجاة، والحال أنه ليس الحين، والوقت حين مناص؛ أي: وقت فرار، وفوت، ونجاة من عذابنا لكونه حالة اليأس. فقوله: ﴿لات﴾: هي[1] لا المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، كما زيدت على رب وثم، وخصت[2] بنفي الأحيان، ولم يبرزوا إلا أحد معموليها اسمها أو خبرها. والأكثر حذف اسمها. وفي بعض التفاسير: ﴿لات﴾ بمعنى: ليس بلغة أهل اليمن، انتهى. والوقف عليها بالتاء عند الزجاج، وأبي علي، وعند الكسائي. نحو: قاعدة، وضاربة. وعند أبي عبيد على ﴿لا﴾، ثم يُبتدأ ﴿تحين مناص﴾، لأنه عنده أن هذه التاء تُزاد مع حين، فيقال: كان هذا تحين كان ذاك كذا.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ بفتح التاء، ونصب النون. وعلى قول سيبويه عملت عمل ليس، واسمها محذوف تقديره: ولات الحين حين فوات، ولا فرار. وعلى قول الأخفش يكون ﴿حِينَ﴾ اسم ﴿لات﴾، عملت عمل إن، نصبت الاسم ورفعت الخبر، والخبر محذوف تقديره: ولات حين مناص لهم. وقرأ أبو السمال ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ بضم التاء، ورفع النون. فعلى قول سيبويه ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ اسم ﴿لات﴾، والخبر محذوف. وعلى قول الأخفش مبتدأ، والخبر محذوف، وقرأ عيسى بن عمر ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ بكسر التاء، وجر النون. والذي ظهر لي في تخريج هذه القراءة الشاذة في جر ما بعد ﴿لات﴾ أن الجر هو على إضمار

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

﴿مِن﴾. كأنه قال: لات من حين مناص، كما جروا بها في قولهم: على كم جذع بيتك؛ أي: من جذع على أصح القولين، وكما قالوا: لا رجل جزاه الله خيراً. وقرأ عيسى أيضاً ﴿وَلَاتِ﴾ بكسر التاء، و﴿حِينَ﴾ بنصب النون، وتقدم تخريج نصب ﴿حين ولات﴾، روي فيها فتح التاء وضمها وكسرها.

والمعنى[1]: أي وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم، فاستغاثوا حين حل بهم العذاب، فلم يُغن ذلك عنهم شيئاً، فقد فات الأوان، وحل البأس، فليس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب، ونحو الآية قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَٱرْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَعَجِبُوٓا﴾؛ أي: عجب كفار أهل مكة، الذين وصفهم الله تعالى، بأنهم في عزة وشقاق من ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: رسول ينذرهم، ويخوفهم من عذاب الله، إن استمروا على الكفر من جنسهم، بل أدون منهم في الرياسة الدنيوية، والمال على معنى: أنهم عدوا ذلك خارجاً عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشد الإنكار، لا أنهم اعتقدوا وقوعه، وتعجبوا منه، قالوا: إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة، والأخلاق الباطنة، والنسب، والشكل، والصورة فكيف يُعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي، ولم يتعجبوا من أن تكون المنحوتات آلهة، وهذه مناقضة ظاهرة.

فلما تحيروا في شأن النبي ﷺ، نسبوه إلى السحر والكذب، كما قال حكايةً عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر غضباً عليهم، وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه، إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿هَٰذَا﴾ الرجل الذي يدّعي النبوة والرسالة ﴿سَٰحِرٌ﴾ فيما يُظهره من الخوارق ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يُسنده إلى الله من الإرسال، والإنزال. ولم يقل: كاذب لرعاية

---

(١) المراغي.

الفواصل، ولأن الكذب على الله ليس كالكذب على غيره، ولكثرة الكذب في زعمهم، فإنه يتعلق بكل آية من الآيات القرآنية، بخلاف إظهار الخوارق، فإنه قليل بالنسبة إليه. هكذا لاح لي هذا المقام.

ثم أنكروا ما جاء به ﷺ من التوحيد، وما نفاه من الشركاء لله. فقالوا: ﴿أَجَعَلَ﴾ محمد ﷺ ﴿ٱلْآلِهَةَ﴾ وصيّرها ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وقصرها على الله سبحانه. والهمزة[1] فيه للإنكار، والاستبعاد. والآلهة: جمع إله، وحقه أن لا يجمع، إذ لا معبود في الحقيقة سواه تعالى، لكن العرب لاعتقادهم أن هٰهنا معبودات جمعوه، فقالوا: آلهة. و﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ مفعول ثان لجعل؛ لأنه بمعنى صيَّر؛ أي: صيرهم إلٰهاً واحداً في زعمه، وقوله: لا في فعله؛ لأن جعل الأمور المتعددة شيئاً واحداً بحسب الفعل محال؛ أي: أصيَّر محمد ﷺ بزعمه الآلهة إلهاً واحداً بأن نفى الألوهية عنهم، وقصرها على واحد؟ أيسعنا، ويكفينا إله واحد في حوائجنا كما يقول محمد ﷺ، ولم يعلموا أنهم جعلوا الإله الواحد آلهة. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ القول الصادر من محمد ﷺ، وهو التوحيد ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾؛ أي: لأمر بليغ في العجب، لأنه خلاف ما اتفق عليه آباؤنا إلى هذا الآن. والعُجاب بمعنى العجيب، كما سيأتي وهو الأمر الذي يتعجب منه كالعجب، إلا أن العجيب أبلغ منه، والعُجّاب بالتشديد أبلغ من العجاب بالتخفيف.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عُجَابٌ﴾ مخففاً، وهو صيغة مبالغة كرجل طوال وسراع في طويل وسريع. وقرأ علي، والسلمي، وعيسى بن عمر، وابن مقسم ﴿عُجَّابٌ﴾ مشدداً، وقالوا: رجل عجّاب، وطعام طيّاب. وهو أبلغ من فعال المخفف.

وفي «فتح الرحمٰن»: قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ قاله هنا بالواو، وفي ﴿قٓ﴾ بالفاء حيث قال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾؛ لأن ما هناك أشد اتصالاً منه هنا؛ لأن ما هنا متصل بما قبله اتصالاً معنوياً فقط، وهو أنهم عجبوا من مجيء المنذر، وقالوا: هذا ساحر

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

كذاب. وما في ﴿قٓ﴾ متصل بما قبله اتصالاً لفظياً ومعنوياً، وهو أنهم عجبوا عقب الإخبار عنهم بأنهم عجبوا، فقالوا: هذا شيء عجيب. فناسب فيه ذكر الفاء دون ما هنا، انتهى.

وحاصل معنى قوله: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم...﴾ إلى آخر الآيتين؛ أي: وما[1] كان أشد تعجبهم حين جاءهم بشر مثلهم يدّعي النبوة، ويدعو إلى الله، وليس له من الصفات الباطنة والظاهرة في زعمهم، ما يجعله يمتاز عنهم، ويختص بهذا المنصب، وتلك المنزلة الرفيعة. ومن ثم قالوا: ما هو إلا خدّاع كذّاب فيما ينسبه إلى الله من الأوامر والنواهي. ثم ذكر شبهتهم في إثبات كذبه من وجوه ثلاثة:

١ - ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا...﴾ إلخ؛ أي: أزعم أن المعبود إله واحد لا إله إلا هو. وقد أنكروا ذلك، وتعجبوا من ترك الشرك بالله، من أجل أنهم تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأُشربته قلوبهم، فلما دعاهم إلى محو ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك، وتعجبوا منه، وقالوا: إن آباءهم على كثرتهم ورجاحة عقولهم، لا يُعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين، ويكون محمد ﷺ وحده محقاً صادقاً. ولا شك أن هذا استبعاد فحسب، ولا مستند له من عقل ولا نقل.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾. وقد قدمنا في مبحث الأسباب، سبب نزول هذه الآية.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: وذهب الأشراف من قريش، وهم خمسة وعشرون نفراً عن مجلس أبي طالب. بعدما أسكتهم رسول الله ﷺ بالجواب الحاضر، وشاهدوا تصلبه ﷺ في الدين، وعزيمته على أن يُظهره على الدين كله، ويئسوا مما كانوا يرجونه، بتوسط أبي طالب من المصالحة، على الوجه المذكور

---

(١) المراغي.

فيما روي عن ابن عباس، كما سبق: أنه لما أسلم[1] عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً، وشق ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون نفراً من صناديدهم، ومشوا إلى أبي طالب، وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، فجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ، وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال، فلا تمل كل الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا يسألونني؟ قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك، فقال ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطونني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟. قالوا: نعم. فقال: قولوا: لا إله إلا الله فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ كيف يكفينا إله واحد في حوائجنا كما يقول محمد ﷺ؟. إن هذا لشيء عجاب. وانطلق الملأ، والرؤساء. منهم: عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث عن مجلس أبي طالب.

﴿أَنِ﴾ مفسرة للمقول المدلول عليه بالانطلاق؛ لأن الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول؛ أي: وانطلق الملأ منهم، حالة كونهم يقول بعضهم لبعض على وجه النصيحة: ﴿ٱمْشُوا۟﴾ أي: سيروا على طريقتكم، وامضوا. وليس المراد بالمشي: المتعارف، بل الاستمرار على الشيء، اهـ كرخي. فلا فائدة في مكالمة هذا الرجل. وحكى المهدوي: أن قائلها عقبة بن أبي معيط. وقال الزمخشري: ويجوز أنهم قالوا: امشوا؛ أي: اكثروا، واجتمعوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها، ومنه: الماشية للتفاؤل، انتهى.

قلت: وهذا بعيد من السياق. وقرأ ابن أبي عبلة بحذف ﴿أَنِ﴾ من قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: اذهبوا. ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾؛ أي: واثبتوا على عبادة آلهتكم، متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الكفار إذا تراضوا فيما بينهم بالصبر

---

(1) المراح.

على آلهتهم فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم، والاستقامة في دينهم، بل الطالب الصادق، والعاشق الوامق أولى بالصبر والثبات على قدم الصدق، في طلب المحبوب المعشوق.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ تعليل للأمر بالصبر، ولوجوب الامتثال به؛ أي: إن هذا الذي شاهدناه من محمد ﷺ من أمر التوحيد، ونفي آلهتنا، وإبطال أمرنا ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ من جهته ﷺ إمضاؤه، وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يقال من طرف اللسان، أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتناع، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه، بواسطة أبي طالب، وشفاعته، وحسبكم أن لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية، فاصبروا عليها، وتحملوا ما تسمعونه في حقها من القدح، وسوء المقالة، هذا ما ذهب إليه أبو السعود في «الإرشاد».

وقال في «تفسير الجلالين»: إن هذا لأمر يراد بنا، ومكر يُمكر علينا، وقال سعدي المفتي: وسنح بالبال، أنه يجوز أن يكون المراد، أن دينكم لشيء يستحق أن يطلب، ويعض عليه بالنواجذ، فيكون ترغيباً وتعليلاً للأمر السابق. وقال «صاحب الروح»: ويجوز أن يكون المعنى: إن الصبر والثبات على عبادة الآلهة التي هي الدين القديم يراد منكم، فإنه أقوى ما يُدفع به أمر محمد ﷺ، كما قالوا: نتربص به ريب المنون، فيكون موافقاً لقرينه في الإشارة إلى المذكور فيما قبله. أو إن شأن محمد ﷺ، لشيء يراد دفعه، وإطفاء نائرته بأي وجه كان، قبل أن يعلو ويشيع، كما دل عليه اجتماعهم على مكره ﷺ مراراً، فأبى الله إلا أن يُتم نوره.

ومعنى الآية[1]: أي وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب، بعد ما بكّتهم رسول الله ﷺ، وشاهدوا تصلبه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجون منه بوساطة عمه، يتحاورون بما جرى، ويقلبون وجوه الرأي فيما يفعلون، ويقولون:

---

(١) المراغي.

اثبتوا على عبادتها متحملين القدح فيها والغض من شأنها والاستهزاء بأمرها، ثم عللوا الأمر بالصبر، بما شاهدوا من تصلبه ﷺ، فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾؛ أي: إن هذا لأمر عظيم، يريد محمد ﷺ إمضاءه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يقال من طرف اللسان، أو يرجى فيه المسامحة بشفاعة إنسان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم، واصبروا على عبادة آلهتكم.

ثم ذكروا أيضاً ما ظنوا أن فيه إبطالاً لدعواه، فقالوا:

٢ - ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهي ملة النصارى، فإنهم يقولون بالتثليث، ويزعمون أنه الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام، وحاشاه وإنما خصوا النصرانية؛ لأنها آخر الأديان المعروفة لديهم من أديان أهل الكتاب، وقوله: ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ظرف لغو لـ﴿سمعنا﴾.

وقيل المعنى: ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد ﷺ، من التوحيد في الملة الآخرة؛ أي: في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، وهي ملة قريش ودينهم الذي هم عليه. فإنها متأخرة عما تقدم عليها من الأديان والملل. وفيه إشارة إلى ركون الجهال إلى التقليد والعادة، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلال وأخطاء طريق العبادة. والملة كالدين اسم لما شرع الله تعالى لعباده، على لسان أنبيائه، ليتوصلوا به إلى ثواب الله. فإطلاق كل منهما على طريقة المشركين، مجاز مبني على التشبيه، كما سيأتي.

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم: ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى: ما أي: ما ﴿هَٰذَآ﴾ الذي يقوله محمد ﷺ من التوحيد ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾؛ أي: كذب اختلقه من عند نفسه لا حقيقة له، وليس له مستند من دين سماوي، ولا من عقل فيما يزعمون.

ثم أخذوا ينكرون اختصاص محمد ﷺ بالوحي، وهو مثلهم، أو أدون منهم في الشرف والرياسة فيما يزعمون، فقالوا:

٣ - ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على محمد ﷺ ﴿ٱلذِّكْرُ﴾؛ أي: القرآن، والوحي ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾؛ أي: دوننا، والاستفهام فيه للإنكار، والاستبعاد؛ أي: كيف يكون

ذلك ونحن رؤساء الناس، وأشرافهم، وأكبرهم سناً، وأكثرهم أموالاً وأعواناً، وأحقاء بكل منصب شريف؟. ومرادهم: إنكار كون القرآن ذكراً، منزلاً من الله تعالى، وأمثال هذه المقالات الباطلة، دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد، على اختصاصه ﷺ بشرف النبوة من بينهم، وحرمانهم منه، وقصر النظر على متاع الدنيا، وغلطوا في القصر، والقياس.

أما الأول: فلأن الشرف الحقيقي، إنما هو بالفضائل النفسانية دون الخارجية.

وأما الثاني: فلأن قياس نفسه ﷺ بأنفسهم فاسد. إذ هو روح الأرواح، وسيد الخليقة، فأنى يكون هو مثلهم؟. وأما الصورة الإنسانية فميراث عام من آدم عليه السلام، لا تفاوت فيما بين شخص وشخص، نعم، وجهه ﷺ كان يلوح منه أنوار الجمال، بحيث لم يوجد مثله فيما بين الرجال.

فإن قلت: لم قال هنا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ بلفظ ﴿أَءُنزِلَ﴾؟ وقال: في سورة القمر: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ بلفظ ﴿ألقي﴾؟. فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: فما هنا حكاية عن كفار قريش، فناسب التعبير بـ﴿أنزل﴾ لوقوعه إنكاراً لما قرأه النبي ﷺ عليهم، من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. وما في القمر حكاية عن قوم صالح، وكانت الأنبياء تلقي إليهم صحفاً مكتوبة، فناسب التعبير ـ﴿ألقي﴾. وقدم الجار والمجرور على الذكر هنا، موافقة لما قرأه النبي ﷺ على المنكرين، وعكس في القمر جرياً على الأصل، من تقديم المفعول بلا واسطة على المفعول بواسطة، اهـ من «فتح الرحمٰن».

والمعنى[1]: أي إنه من البعيد أن يختص محمد ﷺ، من بيننا، بإنزال القرآن عليه، وفينا ذو الجاه والشرف والرياسة والكياسة. كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. ثم نعى عليهم

---

(١) المراغي.

تعرضهم لهذا التفضيل، وإعطاء النبوة لمن يريدون فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾. فهذا منهم دليل على الجهل، وقلة العظة.

ثم ذكر أن سبب الاستبعاد هو الشك في أمر القرآن، وميلهم إلى التقليد فقال: ﴿بَلْ هُمْ﴾؛ أي: كفار قريش ﴿فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِّن ذِكْرِي﴾؛ أي: من القرآن الذي أنزلت على رسولي، أو من الوحي إليه يرتابون فيه لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، وإهمالهم للأدلة، الدالة على أنه حق منزل من عند الله تعالى. والإخبار بأنهم في شك، يقتضي كذبهم في قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَٰقٌ﴾. وليس في عقيدتهم ما يجزمونه، فهم مذبذبون بين الأوهام، ينسبونه تارةً إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن القرآن قديم؛ لأنه سماه الذكر ثم أضافه إلى نفسه، ولا خفاء بأن ذكره قديم؛ لأن الذكر المحدث يكون مسبوقاً بالنسيان، وهو تعالى منزه عنه.

أي: بل هم في شك، من تلك الدلائل التي لو تأملوا فيها، لزال هذا الشك عنهم، إذ هي دالة بأنفسها على صحة نبوته، ولكنهم حين تركوا النظر والاستدلال، لم يصلوا إلى الحق في أمره.

ثم ذكر: أن سبب هذا الشك، هو الحسد لمجيء النبوة إليه من بينهم، وسيزول حين مجيء العذاب، فقال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾؛ أي: بل السبب في شكهم، أنهم لم يذوقوا عذابي، فاغتروا بطول المهلة، ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك والشك.. لصدقوا ما جئت به من القرآن، ولم يشكوا فيه.

والخلاصة: أنهم لا يصدقون إلا أن يمسهم العذاب، فيضطروا حينئذ إلى التصديق بذكري. وفي ذكر ﴿لَمَّا﴾[2] دلالة على أن ذوقهم العذاب على شرف الوقوع؛ لأنها للتوقع؛ أي: بل لم يذوقوا بعد عذابي، فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقة

---

(١) روح البيان.　　(٢) روح البيان.

الحال. وفيه تهديد لهم؛ أي: سيذوقون عذابي فيلجئهم إلى تصديق الذكر حين لا ينفع التصديق. وفيه إشارة إلى أنهم مستغرقون في بحر عذاب الطرد والبعد، ونار القطيعة، لكنهم عن ذوق العذاب بمعزل، لغلبة الحواس إلى أن يكون يوم تبلى السرائر. فتغلب السرائر على الصور، والبصائر على البصر، فيقال لهم: ذوقوا العذاب يعني: كنتم معذبين وما كنتم ذائقي العذاب. فالمعنى: لو ذاقوا عذابي، ووجدوا ألمه لما أقدموا على الجحود، دل على هذا قوله ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

ثم أنكر عليهم استبعاد نبوة محمد ﷺ، وطلبهم نبوة غيره من صناديد قريش، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ ﴿أَمْ﴾[1] منقطعة تقدر ببل وبهمزة الإنكار. والخزائن: جمع خزانة بالكسر بمعنى المخزن والمستودع؛ أي: بل أعندهم مفاتيح خزائن رحمة ربك يا محمد، ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغالب ﴿الْوَهَّابِ﴾؛ أي: المعطي بغير حساب، أو الذي له أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء، يتصرفون فيها حسبما يشاؤون، حتى يصيبوا بها من شاؤوا، ويصرفوها عمن شاؤوا، ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم. والمعنى: أن النبوة عطية من الله تعالى يتفضل بها على من يشاء من عباده، لا مانع له.

والمعنى: أي بل أيملكون خزائن رحمة الله، القهار لخلقه الكثير المواهب لهم، المصيب بها مواقعها، فيتصرفوا فيها بحسب ما يريدون، ويمنحوها من يشاؤون ويصرفوها عمن لا يحبون، ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم. فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم.

والخلاصة: أن أمر النبوة ليس بأيديهم، بل بيد العليم بكل شيء ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. ونحو الآية قوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

---

(١) روح البيان.

ثم ارتقى إلى ما هو أشد في الإنكار، فأمرهم أمر تهكم بارتقاء الأسباب. فقال: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بل ألهم ملك هذه الأشياء، حتى يعطوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاء. وقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جواب شرط محذوف؛ أي: إن كان لهم ملك ذلك فليصعدوا في الأسباب، والطرق التي توصلهم إلى السماء، أو إلى العرش، حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع، ويدبروا أمر العوالم بما يشتهون، أو فليصعدوا ويمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على محمد ﷺ، والأسباب: أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها، قاله مجاهد، وقتادة. ومنه: قول زهير:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ ٱلْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ ٱلسَّمَاءِ بِسُلَّمِ

قال الربيع بن أنس: الأسباب: أدق من الشعر، وأشد من الحديد، ولكن لا تُرى.

والمعنى: أي بل ألهم ملك هذه الأجرام العلوية، والأجرام السفلية حتى يتكلموا في الشؤون الغيبية، ويفكروا في التدابير الإلهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء، فإن كان الأمر كما يزعمون، فليصعدوا في المعارج والمناهج، التي يُتوصل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه، ويدبروا أمر العالم، ويُنزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون، حتى يُظن صدق دعواهم، إذ لا سبيل إلى التصرف فيه إلا بذلك. وفيه من التهكم بهم ما لا غاية وراءه.

والخلاصة[1]: أنه ليس لهم شيء من ذلك، فلا سبيل لهم إلى توزيع رحمة الله تعالى، بحسب ما يريدون، وإعطاء النبوة لمن يشاؤون. فذلك من شؤونه تعالى، فهو الذي يُفضل من يشاء من عباده على من يشاء.

ثم وعد سبحانه، نبيه بالنصر والغلبة عليهم، فقال: ﴿جُندٌ﴾ هو جمع معد للحرب ﴿مَا﴾ مزيدة للتقليل والتحقير، نحو: أكلت شيئاً ما ﴿هُنَالِكَ﴾ مركب من

(١) المراغي.

ثلاث كلمات[1]:

إحداها: ﴿هنا﴾: وهو اسم إشارة للمكان القريب.

والثانية: اللام وهي للتأكيد.

والثالثة: الكاف وهي للخطاب. قالوا واللام فيها كاللام في ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الدلالة على بعد المشار إليه. فجند خبر مبتدأ محذوف، و﴿مَا﴾: زائدة أو صفة لـ﴿جند﴾، و﴿هُنَالِكَ﴾: ظرف ﴿مَهْزُومٌ﴾؛ أي: مغلوب مكسور. وهو صفة ثانية لـ﴿جند﴾. و﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ صفة ثالثة لـ﴿جند﴾؛ أي: هم[2] جند حقيرون ضعيفون من المتحزبين على رسول الله ﷺ سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه تلك الكلمات، وذلك الموضع هو مكة، وذلك الانهزام يوم فتح مكة، فكيف يكونون مالكي السموات والأرض وما بينهما؟. ومن أين لهم التصرف في الأمور الربانية.

والمعنى[3]: أي هؤلاء الذين يقولون هذه المقالة، ويوزعون رحمة ربك، بحسب أهوائهم هم جند كثير من الكفار المتحزبين على المؤمنين، مغلوبون في الوقائع التي ستكون بينك وبينهم، وستنتصر عليهم، كما حدث في بدر وغيرها. فأنى لهم تدبير الأمور الغيبية، والتصرف في الخزائن الربانية؟. وهذا خبر من الله تعالى لنبيه ﷺ، وهو بمكة، ولم يكن له يومئذ جند أنه سيهزم جند المشركين، فجاء تأويله يوم بدر وغيره من المواقع، وهذا من أعظم المعجزات، وأدل الدلائل على نبوة محمد ﷺ، وصدق كتابه، وأنه من عند الله تعالى لا من عند البشر، وهذا الكلام متصل بما تقدم وهو قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾. هم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تحزن لعزتهم وشقاقهم، فإني أسلب عزهم، وأهزم جمعهم، وقد وقع ذلك، ولله الحمد في يوم بدر، وفيما بعده من مواطن الله تعالى.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

ثم ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات الآتية: ستة أقوام من الذين كذبوا رسلهم، وما آل إليه أمرهم لتكون ذكرى لأولئك المكذبين من قومه، فيرعووا عن غيهم، ويثوبوا إلى رشدهم. فقال:

١ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل قومك يا محمد. وهم قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وأنّث الفعل باعتبار المعنى. لأنهم بمعنى: أمة، وطائفة، وجماعة؛ أي: كذبوا نوحاً رسلهم وقد دعاهم إلى الله وتوحيده ألف سنة إلا خمسين عاماً. وقالوا: إنه مجنون، وهزؤوا به. وكلما ألحف في الدعوة، زادوا عتواً وعناداً. فدعا ربه، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾. فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. ونجى الله نوحاً، ومن آمن معه، كما قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

٢ ـ ﴿وَ﴾ كذبت أيضاً قبلهم ﴿عاد﴾ وهم قوم هود رسولهم هوداً، فكذبوه، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، كما قال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ الآيات.

٣ ـ ﴿وَ﴾ كذب ﴿فرعون﴾ وقومه رسولهم موسى بن عمران. وقد بعث الله إليهم موسى، وأيده بآياته التسع، فأصر على الجحود والعناد، وبغى، وتجبر، وقال: أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ونجى موسى وقومه بني إسرائيل، كما قال في سورة يونس: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ الآيات. وقوله: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ أي: صاحب الأوتاد صفة لـ﴿فرعون﴾، جمع وتد بفتح الواو وكسر التاء بزنة كتف، وهو ما غرز في الأرض أو الحائط من خشب، قال المفسرون: لقب بذلك؛ لأنه كانت له أوتاد يعذب بها الناس، وذلك أنه كان إذا غضب على أحد ينصب أربع خشب في الهواء، وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً من حديد، ويتركه في الهواء حتى يموت، وقال مجاهد: كان يمد

المعذب مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويشد رجليه ويديه ورأسه على الأرض بالأوتاد. وقال السدي: ويرسل عليه العقارب والحيات. وقال بعضهم: وهذا المعنى أنسب لما ذكروه في قصة آسية، امرأة فرعون، في سورة التحريم، من أنها لما آمنت بموسى عليه السلام، أوتد لها فرعون بأوتاد في يديها ورجليها، كما سيأتي هناك. وقيل: المراد بالأوتاد: الجموع، والجنود الكثير، سموا بذلك، لأنهم كانوا يقوون أمره، ويشدون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة، على هذا القول قال ابن قتيبة: العرب تقول: هم في عز ثابت الأوتاد، وملك ثابت الأوتاد، يريدون ملكاً دائماً شديداً؛ لأنه استقام له الأمر أربع مئة سنة من غير منازع. ويكفي دليلاً على كثرة جموع فرعون: أنه قال في حق بني إسرائيل: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، مع أنهم كانوا ينيفون على ست مئة ألف مقاتل سوى الصغير والشيخ، ووجه تخصيص هذه الاستعارة: أن أكثر بيوت العرب كانت خياماً، وثباتها بالأوتاد.

٤ ـ ﴿و﴾ كذبت قبلهم ﴿ثمود﴾ وهم قوم صالح رسولهم صالحاً عليه السلام، أرسل الله سبحانه إليهم صالحاً، وكانت الناقة له آيةً، فكذبوه، فعقروها. فأرسل عليهم صاعقة، فأهلكتهم، وجعلتهم كهشيم المحتظر، كما ذكر في سورة القمر قصتهم. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

٥ ـ ﴿و﴾ كذبت قبلهم ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ رسولهم لوطاً عليه السلام، فكذبوه، فأرسل الله عليهم حاصباً، كا ذكره في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾. قال مجاهد: كانوا أربع مئة ألف بيت، في كل بيت عشرة. وقال عطاء: ما من أحد من الأنبياء، إلا ويقوم معه يوم القيامة قوم من أمته، إلا لوطاً فإنه يقوم وحده. كما في «كشف الأسرار».

٦ ـ ﴿و﴾ كذبت قبلهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾؛ أي: أصحاب الغيضة رسولهم شعيباً، وهم قوم شعيب. أرسله الله إليهم فكذبوه، فأهلكهم كما ذكرهم في سورة الحجر: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. والأيكة: الشجر

الملتف بعضه على بعض لكثرته. قيل: نسبوا إلى الأيكة لأنهم كانوا يسكنونها. وقيل: هي اسم بلد لهم. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ بدل[1] من الطوائف المذكورة؛ أي: كذب أولئك المذكورون المتحزبون؛ أي: المجتمعون على تكذيب أنبيائهم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم، أو المعنى: أولئك المذكورون من الأمم هم الأحزاب، الذين تحزبوا على تكذيب أنبيائهم، كما تحزب على تكذيبك قومك. ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة، هم أكثر منهم عدداً، وأقوى أبداناً، وأوسع أموالاً وأعماراً. ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف؛ أي: هؤلاء الذين تحزبوا على الرسل، كالأحزاب الذين تحزبوا عليك.

وقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ كلام مستأنف جيء به تهديداً لما يعقبه. و﴿إِنْ﴾: نافية. والمعنى: ما كان حزب من أولئك الأحزاب، إلا كذب جميع الرسل؛ لأنه تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه، تكذيب لجميع الرسل. أو المعنى[2]: ما كل حزب وجماعة من أولئك الأحزاب، إلا كذب رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع، لتدل على انقسام الآحاد على الآحاد، كما في قولك: ركب القوم دوابهم. والاستثناء مفرّغ من[3] أعم الأحكام في حيز المبتدأ؛ أي: ما كل واحد منهم محكوم عليه بحكم، إلا محكوماً عليه بأنه كذب الرسل. أو من[4] أعم الأحوال؛ أي: ما كل أحد من الأحزاب في جميع أحواله، إلا وقع منه تكذيب الرسل. ويجوز[5] أن يكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾: مبتدأ، وقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: خبره محذوف الرابط. والمعنى: أولئك الأحزاب ما كل واحد منهم إلا كذب الرسل. ﴿فَحَقَّ﴾؛ ثبت، ووقع، ووجب

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.
(٥) روح البيان.

على كل منهم ﴿عقابِ﴾ي الذي كانت جناياتهم، توجبه من أصناف العقوبات المفصلة في مواقعها، فأهلك الله قوم نوح بالغرق والطوفان، وقوم هود بالريح، وفرعون وقومه بالغرق، وقوم صالح بالصيحة، وقوم لوط بالخسف، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة.

والمعنى: أي إن كل هذه الأمم الخالية، والقرون الماضية وقد كانوا أشد من قومك هؤلاء، أهل مكة، كذبوا أنبياءهم، فحل بهم العذاب، فكيف بهؤلاء الضعفاء، إذا نزل بهم ما لا قبل لهم به من عذابي؟. وفي الآية زجر وتخويف للسامعين. وقرأ يعقوب[1]: ﴿عقابي﴾ بإثبات الياء، وحذفها الباقون مطابقة لرؤوس الآي.

وفي «فتح الرحمٰن»[2]: ختم أواخر آياته هنا، بما قبل آخره ألف، وآيات قوله في ﴿قٓ﴾: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ بما قبل آخره ياء، أو واو، موافقةً لبقية فواصل السورتين، انتهى.

ثم بيّن عقاب كفار قريش إثر بيان عقاب أضرابهم، فقال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الإشارة إلى كفار مكة بهؤلاء تحقير لشأنهم، وتهوين لأمرهم، أي: وما ينتظر هؤلاء الكفرة، من أهل مكة، الذين هم أمثال أولئك الطوائف المذكورة المهلكة في الكفر والتكذيب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الثانية؛ أي: ليس بينهم وبين حلول ما أُعد لهم من العقاب الفظيع إلا هي، حيث أُخرت عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه، والنبي ﷺ بين أظهرهم خارج عن السنة الإلهية: المبنية على الحكم الباهرة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

ثم إن[3] الانتظار يحتمل أن يكون حقيقةً أو استهزاءً، فهم وإن كانوا ليسوا بمنتظرين، لأن تأتيهم الصيحة إلا أنهم جُعلوا منتظرين لها تنبيهاً على قربها منهم،

---

(١) الشوكاني.

(٢) فتح الرحمٰن.

(٣) روح البيان.

فإن الرجل إنما ينتظر الشيء، ويمد طرفه إليه مترقباً في كل آن حضوره، إذا كان الشيء في غاية القرب منه.

وجملة قوله: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ صفة ثانية لـ﴿صَيْحَةً﴾. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿مِن فُوَاقٍ﴾ بضم الفاء. وقرأ الباقون: بفتحها. وهما لغتان فيه؛ أي: ما للصيحة من توقف وتأخر مقدار فواق إذا جاءت. ففي الكلام حذف، والفواق بالضم كغراب، ويُفتح كما في «القاموس»: ما بين حلبتي الحالب من الزمن؛ لأن الناقة تحلب أولاً. ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل، لإدرار اللبن، ثم تُحلب ثانية. يعني: إذا جاء وقت الصيحة، لم تستأخر هذا القدر من الزمان، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾. فالفواق: عبارة عن الزمان اليسير. وفي الحديث: «من اعتكف قدر فواق، فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل». وفي الحديث: «من قاتل في سبيل الله، فواق ناقة وجبت له الجنة».

﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: قال كفار مكة بطريق الاستهزاء والسخرية عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة. والقائل[1]: النضر بن الحرث بن علقمة بن كندة الخزاعي، وأضرابه، وكان النضر من شياطينهم، ونزل في شأنه في القرآن بضع عشرة آيةً، وهو الذي قال: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿رَبَّنَا﴾ وتصدير دعائهم بالنداء للإمعان في الاستهزاء، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال. ﴿عَجِّل لَّنَا﴾، أي: أسرع لنا ﴿قِطَّنَا﴾؛ أي: نصيبنا، وحظنا من العذاب ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: قبل يوم المحاسبة، وهو يوم القيامة على ما زعمه محمد ﷺ، والقط في الأصل: القطعة من الشيء، والمراد هنا: النصيب والحظ؛ لأنه قطعة من الشيء مفرزة، فالمعنى: عجّل لنا قسطنا، وحظنا، ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به محمد ﷺ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة، ويقال لصيحة الجائزة أيضاً: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس. فالمعنى عليه: عجّل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها.

---

(١) روح البيان.

قال سهل بن عبد الله التستري رحمة الله عليه: لا يتمنى الموت إلا ثلاثة: رجل جاهل بما بعد الموت، أو رجل يفر من أقدار الله تعالى، أو مشتاق محب لقاء الله تعالى، انتهى. وقال إسماعيل بن أبي خالد[1]: المعنى: عجل لنا أرزاقنا، وبه قال سعيد بن جبير. ومعنى الآية: سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم، وحظهم من العذاب. وهو مثل قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، وقال السدي: سألوا ربهم أن يمثل لهم منازلهم من الجنة، ليعلموا حقيقة ما يوعدون به.

ومعنى الآية: أي وقالوا استهزاء وسخرية حين سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدتنا به، ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة.

ولما بلغ الكفار في السفاهة على رسول الله ﷺ الغاية، إذ قالوا: إنه ساحر كذاب، وقالوا: ربنا عجل لنا قطنا.. أمره الله سبحانه وتعالى بالصبر على سفاهتهم، فقال: ﴿ٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على ما يقوله كفار قومك لك مما تكره من مقالاتهم الباطلة، التي من جملتها، قولهم في تعجيل العذاب: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا...﴾ إلخ. فإنا ممتحنوك بالمكاره، كما امتحنا سائر من أرسلنا من قبلك، ثم عاجلوا الظفر لك على من كذبك وشاقك سنتنا في الرسل، الذين أرسلناهم إلى عبادنا من قبلك، وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

ثم شرع في ذكر قصص لجملة من الأنبياء: كداود، وسليمان، وأيوب، وغيرهم، والقصد به تسليته ﷺ؛ أي: اذكر ما حصل لهم من المشاق والمحن، فصبروا حتى فرّج الله عنهم، فصارت عاقبتهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر، ويؤول أمرك إلى أحسن مآل، اهـ «نهر».

قصص داود عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد من الذكر القلبي؛ أي: تذكر بقلبك، أو من الذكر

---

(١) الشوكاني.

اللساني؛ أي: واذكر لقومك قصة داود؛ أي: وتذكر يا محمد ﴿عَبۡدَنَا﴾ المخصوص بعنايتنا القديمة ﴿دَاوُۥدَ﴾ بن ايشا، من سبط يهودا بن يعقوب عليه السلام، بينه وبين موسى عليه السلام، خمس مئة وتسع وستون سنة، وقام بشريعة موسى، وعاش مئة سنة. ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾؛ أي: صاحب القوة في الدين القائم بمشاقه وتكاليفه. وفي «الكواشي»: ويجوز أن يراد القوة في الجسد والدين، انتهى.

والمعنى: اذكر قصته، فإنك تجد فيها ما تتسلى به؛ أي: تذكر قصته ومن نفسك عن أن تترك ما كُلفت به من مصابرتهم، وتحمل أذاهم، لئلا يلقاك من المعاتبة مثل ما وقع لداود .اهـ «أبو السعود».

واعلم: أنه تعالى ذكر أولاً قوة داود في أمر الدين، ثم زلته بحسب القضاء الأزلي، ثم توبته بحسب العناية السابقة، وأمره ﷺ بتذكر حاله، وقوته في باب الطاعة، ليتقوى على الصبر، ولا يزل عن مقام استقامته، وتمكينه كما زل قدم داود، فظهرت المناسبة بين المسندين، واتضح وجه عطف و﴿اذكر﴾ على ﴿ٱصۡبِرۡ﴾.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لكونه ذا الأيد، من الأوب، وهو الرجوع؛ أي: وإنما وصفناه بالقوة في الدين؛ لأنه كان رجاعاً إلى الله ومرضاته سبحانه؛ أي: رجاعاً عن كل ما يكره الله إلى ما يحب الله سبحانه وتعالى، فهو تعليل لكونه ذا الأيد، ودليل على أن المراد به: القوة في أمر الدين، وما يتعلق بالعبادة لا قوة البدن؛ لأن كونه راجعاً إلى مرضاة الله تعالى، لا يستلزم كونه قويّ البدن. وقد روي: أنه لم يكن جسيماً كسائر الأنبياء، بل قصير القامة، وأكثر القوى البدنية كان فيمن زاده الله بسطةً في جسمه.

وفي «التأويلات النجمية»: تشير الآية إلى كماليته في العبودية، بأنه لم يكن عبد الدنيا، ولا عبد الآخرة، وإنما كان عبدنا خالصاً مخلصاً، وله قوة في العبودية ظاهراً وباطناً، فأما قوته ظاهراً، فبأنه قتل جالوت، وكثيراً من جنوده بثلاثة أحجار رماها عليهم، وأما قوته في الباطن، فلأنه كان أواباً، وقد سرت أوابيته في الجبال والطير، فكانت تؤوب معه، انتهى. ومن قوة عبادته كان يصوم

يوماً، ويفطر يوماً، وكان ينام النصف الأول من الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه.

ومعنى الآية: أي واذكر يا محمد لقومك، قصة عبدنا داود ذي القوة في الطاعة، والفقه في الدين، فقد كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ولا يفر إذا لاقى». وإنما كان هذا النوع أحب، لأن النفس إذا نامت الثلثين من الليل تكون أخف، وأنشط في العبادة، وقيل معناه: ذو القوة في الملك. وإنه كان رجاعاً إلى الله تعالى في جميع شؤونه، فكان كلما ذكر، ذنبه، أو خطر على باله، استغفر الله تعالى، قال النبي ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مئة مرة»، وأخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء، قال: كان النبي ﷺ، إذا ذكر داود، وحدّث عنه، قال: «كان أعبد البشر»، وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: إني أعبد من داود».

ثم عدد سبحانه نعمه عليه، فقال:

١ - ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾؛ أي: ذللناها مع داود، و﴿مع﴾ متعلق بالتسخير، وإيثارها على اللام لكون تسخير الجبال له عليه السلام، لم يكن بطريق تفويض التصرف فيها إليه، كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام، لكون سيرها معه، بطريق التبعية له، والاقتداء به، فتكون ﴿مع﴾ على حالها، ويجوز أن تكون ﴿مع﴾ متعلقة بما بعدها، وهو قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾. وجملة التسبيح، حال من الجبال؛ أي: حالة كون الجبال يقدسن الله سبحانه مع داود، وينزهنه عما لا يليق به من النقائص، وفي هذا، بيان ما أعطاه الله تعالى، من البرهان والمعجزة، وهو

---

(١) روح البيان.

تسبيح الجبالَ معه، ولم يقل: مسبحات، للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال، قال في «كشف الأسرار»: كان داود يسمع، ويفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيصه به، كرامةً له، ومعجزة، انتهى. واختلفوا في كيفية التسبيح، فقيل: بصوت يتمثل له، وهو بعيد، وقيل: بلسان الحال، وهو أبعد. وقيل: بخلق الله في جسم الجبل، حياة وعقلاً وقدرة ونطقاً، فحينئذ يسبح الله معه، كما يسبح الأحياء العقلاء، وهذا قول أهل الظاهر. وقال مقاتل: كان داود، إذا ذكر الله، ذكرت الجبال معه. انتهى. والظاهر: أن تسبيح الجبال مع داود على حقيقته، لكن لما كان على كيفية مخصوصة، وسماعه على وجه مخصوص، خارج عن العقول. . كان من معجزات داود عليه السلام وكراماته، وقد سبق مراراً تحقيق هذا المقام بما لا مزيد عليه.

وقوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾؛ أي: في آخر النهار ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾؛ أي: في أول النهار. متعلق بـ﴿يُسَبِّحْنَ﴾. ووقت الإشراق حين تشرق الشمس؛ أي: تضيء ويصفو شعاعها، وهو وقت الضحى، وأما شروقها فطلوعها، يقال: شرقت الشمس، ولما تشرق، فكان داود يسبح عقب صلاته، عند طلوع الشمس، وعند غروبها، وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾. وقوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ حال من الطير، والعامل فيه ﴿سَخَّرْنَا﴾؛ أي: وسخرنا الطير معه، حال كونها محشورة، مجموعة إليه من كل جانب، وناحية، وكانت الملائكة تحشر إليه ما امتنع عليه منها، كما في «كشف الأسرار»: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان داود، إذا سبح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبحت، وذلك حشرها. وقيل: كانت تجمعها الريح إليه، وإنما لم يراع المطابقة بين الحالين، بأن يقال: والطير يحشرن؛ لأن الحشر جملةً أدل على القدرة منه، متدرجاً كما يفهم من لفظ المضارع، وليس مراداً، لأنه لم يرد أنها تحشر شيئاً فشيئاً، إذ حاشرها، هو الله تعالى، فحشرها جملة واحدة، أدل على القدرة، ذكره أبو حيان.

﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ﴾؛ أي: لأجل داود؛ أي: لأجل تسبيحه. فهو على حذف المضاف. ﴿أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجاع إلى التسبيح، إذا

سبح، سبحت الجبال، والطير معه، ووضع الأواب موضع المسبح؛ لأنها كانت ترجع التسبيح، والمرجع رجّاع؛ لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع، والفرق بينه وبين ما قبله وهو ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: أن ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يدل على الموافقة في التسبيح، وهذا يدل على المداومة عليها، وقيل: الضمير في ﴿لَّهُۥٓ﴾ لله؛ أي: كل من داود، والجبال، والطير، لله أواب، أي: مسبح لله، مرجع التسبيح له. وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ بنصبهما كما مر بيان وجهه، وقرأ ابن أبي عبلة، والجحدري ﴿وَٱلطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ﴾ برفعهما مبتدأ وخبراً.

روي: أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه ما أعطى داود، من حسن الصوت، فلما وصل إلى الجبال ألحان داود، تحركت من لذة السماع، فوافقته في الذكر والتسبيح، ولما سمعت الطيور نغماته، صفرت بصفير التنزيه والتقديس، ولما أصغت الوحوش إلى صوته، دنت منه حتى كانت تؤخذ بأعناقها، فقبل الكل فيض المعرفة، والحالة بحسب الاستعداد، ألا ترى إلى الهدهد، والبلبل، والقمري، والحمامة، ونحوها، فالتأثر، والحركة، والبكاء، ونحوها، ليست من خواص الإنسان فقط، بل إذا نظرت بنظر الحقيقة، وجدتها في الحيوانات، بل في الجمادات أيضاً، لكونها أحياءً بالحياة الحقيقة.

قال بعضهم[2]: سبحت الجبال، وكذا الطير، لتسبيح داود، ليكون له عملها؛ لأن تسبيحها، لما كان لتسبيحه منتشأ منه، لا جرم، يكون ثوابه عائداً إليه، لا إليها، لعدم استحقاقها لذلك، بخلاف الإنسان فإنه إذا وافقه إنسان آخر في ذكره وتسبيحه، أو عمل بقوله.. يكون له مثل ثواب ذكره وتسبيحه، لأحيائه وإيقاظه له، فهو صيده وأحق به، وتخصيص العشي والإشراق لما فيهما من زيادة ظهور أنوار قدرته، وآثار بركة عظمته، ولأن وقت الإشراق، وقت إقبال المخلوقات إلى طلب الأرزاق والمعاش، ووقت العشي، وقت إقبال المصلين إلى المناجاة، وعرض الحاجات على رب البريات.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إنه تعالى، سخر الجبال تسبح معه حين إشراق الشمس، وآخر النهار، وتسبيحها معه، تقديسها لله سبحانه بحال، تليق بها، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر، يدل على اختصاصهما بمزيد شرف العبادة فيهما، فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثراً، في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات، وسخرنا له الطير، حال كونها محبوسة في الهواء، تسبح بتسبيحه، فإذا مر به الطير وهو سابح في الهواء، وسمعه يترنم بقراءة الزبور. يقف ويسبح معه.

وفي هذا إيماء إلى ما لداود من حسن الترتيل، والصوت المتقبل، الذي يعجب منه الحيوان الأعجم، فما بالك بالإنسان؟!. ثم أكد ما سلف من تسخيرها له فقال: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: كل من الجبال، والطير، مرجاع إلى أمره، يسبح تبعاً له.

٢ - ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾؛ أي: قوينا ملكه بكثرة الجنود، وبسطة الثراء والهيبة، ونفوذ الكلمة، والنصر على الأعداء، قيل: كان أربعون ألفاً لابسي درع يحرسونه، فإذا أصبح قيل: ارجعوا، فقد رضي عنكم نبي الله، وكان نبينا ﷺ يحرس أيضاً، إلى نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ومن ذلك أخذ السلاطين الحرس في السفر والحضر، فلا يزالون يحرسونهم في الليالي، ولهم أجر في ذلك، وقرأ الجمهور: ﴿وَشَدَدْنَا﴾ مخففاً. والحسن، وابن أبي عبلة بشد الدال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ادعى رجل على آخر بقرة، وعجز عن إقامة البينة، فأوحى الله تعالى، إلى داود عليه السلام: أن اقتل المدعي إليه. فأعلم الرجل فقال: صدقت يا نبي الله، إن الله لم يأخذني بهذا الذنب، ولكن إني قتلت أبا هذا الرجل غيلة، فقتله داود، فقال الناس: إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه فقتله، فهابوه وعظمت هيبته في القلوب، والغِيلة بالكسر: هو أن يخدع شخصاً، فيذهب به إلى موضع، فإذا صار إليه قتله.

٣ - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: وأعطينا داود عليه السلام الحكمة؛ أي:

---

(١) المراغي.

العلم النافع، والإتقان للعمل. فهو لا يقدم على عمل، إلا إذا عرف موارده، ومصادره مباديه، وغاياته على نحو ما قال الشاعر:

قَدِّرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ ٱلْخَطْوِ مَوْضِعَهَا   فَمَنْ عَلاَ زَلَقاً عَنْ غِرَّةٍ زَلَجَا

أو العلم للأشياء على ما هي عليه، والعمل بمقتضاه، إن كان متعلقاً بكيفية العمل، واعلم: أن الحكمة نوعان:

أحدهما: الحكمة المنطوق بها، وهي علم الشريعة.

والثاني: الحكمة المسكوت عنها، وهي أسرار الحقيقة التي لا يطلع عليها عوام العلماء، على ما ينبغي، فيضرهم أو يهلكهم، كما روي: أن رسول الله ﷺ كان يجتاز في بعض سكك المدينة مع أصحابه، فأقسمت عليه امرأة أن يدخلوا منزلها، فدخلوه فرأوا ناراً موقدة، وأولاد المرأة يلعبون حولها، فقالت: يا نبي الله، الله أرحم بعباده، أم أنا بأولادي؟ فقال النبي ﷺ: «بل الله أرحم، فإنه أرحم الراحمين». فقالت: يا رسول الله، أتُراني أحب أن ألقي ولدي في النار؟ فقال: «لا» فقالت: فكيف يُلقي الله عبيده فيها، وهو أرحم الراحمين بهم؟. قال الراوي: فبكى رسول الله ﷺ، فقال: «هكذا أوحي إلي».

٤ ـ ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: الخطاب الفاصل بين الحق والباطل، والكلام المبين للحق، أو الخطاب المفصول؛ أي: الكلام الملخص المبين الذي ينبه المخاطب على المرام من غير إلباس، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والفصل إما بمعنى الفاعل أو المفعول أو الإفصاح، والبيان في الخطاب والكلام؛ أي: البيان بحقيقة الأمر، وقطع القضايا والأحكام باليقين من غير ارتياب، ولا شك، ولا توقف، فيكون بمعنى فصل الخصام بتبيين الحق وتمييزه من الباطل، والفصل على حقيقته، وأريد بالخطاب: المخاصمة لاشتمالها عليه.

والمعنى[1]: أي وألهمناه حسن الفصل في الخصومات بما يستبين به وجه الحق بلا جنف، ولا ميل مع الهوى، وهذا يحتاج إلى فضل كبير في العلم،

---

(١) المراغي.

ومزيد في الحلم، وتفهم أحوال الخصوم، ورباطة الجأش، وعظيم الصبر، والذكن الذي لا يتوافر لكثير من الناس.

وقال الشعبي[1]: ﴿فصلَ الخطاب﴾ هو قوله: أما بعد. وهو أول من قال: أما بعد، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن.. يفتتح بذكر الله، وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له.. فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أما بعد.

قضية من قضاياه التي حكم فيها

ولما مدح الله سبحانه وتعالى داود عليه السلام، بما تقدم ذكره.. أردف ذلك بذكر هذه القصة الآتية، لما فيها من الأخبار العجيبة، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ وجاءك، ووصلك يا محمد ﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾؛ أي: خبر تحاكم الخصم، وترافعهم إلى داود عليه السلام، والاستفهام هنا معناه: التعجب، والتشويق، إلى استماع ما في حيزه، للإيذان بأنه من الأخبار البديعة، التي حقها أن لا تخفى على أحد. والنبأ: الخبر العظيم الشأن. والخصم بمعنى: المخاصم، وأصل المخاصمة: أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر، بضم الخاء؛ أي: بجانبه، ولما كان الخصم في الأصل، مصدراً متساوياً إفراده، وجمعه أطلق على الجمع في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ﴾؛ أي: إذ تسور الخصوم، وصعدوا أعلى سور الحصن، وحائطه، ونزلوا منه، ودخلوا ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾؛ أي: ودخلوا بعد نزولهم من فوق السور البيت، الذي كان داود يجلس فيه، ويشتغل بعبادة ربه، يقال: تسور المكان، إذا علا سوره، وسور المدينة: حائطها المحيط بها، وقد يطلق على حائط مرتفع، وهو المراد هنا. والمراد من المحراب: البيت الذي كان داود عليه السلام، يدخل فيه، ويشتغل بطاعة ربه، قيل: كان ذلك البيت غرفة، وسمي ذلك البيت محراباً، لاشتماله على المحراب، على طريقة تسمية الشيء بأشرف أجزائه، و﴿إِذْ﴾ متعلقة بمحذوف، وهو التحاكم الذي قدرنا أولاً؛ أي: هل أتاك نبأ تحاكم الخصم، إذ تسوروا المحراب؛ أي: تصعدوا سور الغرفة، ونزلوا إليه.

---

(١) النسفي.

والمراد بالخصم المتسورين: جبرائيل، وميكائيل بمن معهما من الملائكة على صورة المدعي، والمدعى عليه، والشهود، والمزكين من بني آدم.

﴿إِذْ دَخَلُوا﴾؛ أي: الخصوم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على داود. والظرف بدل من الظرف الأول. ﴿فَفَزِعَ﴾ داود، وخاف ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من المتسورين عليه، وإنما فزع منهم، لأنهم أتوه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم، ودخلوا عليه بغير إذنه، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس، لأنه كان مغلقاً، ودخلوا عليه، وهو يتعبد في البيت بغتة من فوق؛ أي: من غير الباب على خلاف العادة. قال ابن الأعرابي: وكان محراب داود من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقي إليه إدمي بحيلة.

وفيه[1] إشارة إلى كمال ضعف البشرية، مع أنه كان أقوى الأقوياء، إذ فزع منهم، ولعل فزع داود، كان لاطلاع روحه على أنه تنبيه له، وعتاب فيما سلف منه، كما سيأتي.

وجملة قوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالوا لداود حين فزع منهم؟؛ أي: فلما رأوه فزعاً، قالوا إزالة لفزعه، وخوفه: لا تخف منا. قال في «التأويلات النجمية»: يشير إلى أنه لا تخف من صورة أحوالنا، فإنا جئنا لتحكم بيننا بالحق، ولكن خف من حقيقة أحوالنا. فإنها كشف أحوالك، التي جرت بينك وبين خصمك أوريا.

وارتفاع ﴿خَصْمَانِ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: نحن فريقان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصماً تجوزاً.

والحاصل: أنه أطلق لفظ الخصم فيما سبق على الجمع بدليل ﴿تسورا﴾، وهنا بلفظ التثنية. لما ذكرنا أولاً من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد، والمثنى، والمجموع، وهو جائز؛ أي: وثني هنا بتأويل الفريق، وهم وإن لم يكونوا فريقين بل شخصين اثنين، بدليل أن هذا أخي، الآية، لكن جعل مصاحب الخصم

---

(١) روح البيان.

خصماً، فكانا بمن معهما فريقين من الخصوم، فحصل الانطباق بين صيغة التثنية في قوله: ﴿خَصۡمَانِ﴾، وبين ما مر من إرادة الجمع، وقرأ أبو يزيد الجراد عن الكسائي ﴿خصمان﴾ بكسر الخاء.

وقوله: ﴿بَغَىٰ﴾ واعتدى ﴿بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ هو على سبيل الفرض والتقدير، وعلى سبيل التعريض لداود، لا على تحقيق البغي من أحدهما، فلا يلزم الكذب، إذ الملائكة منزهون عنه، فلا يحتاج إلى ما قيل: إن المتخاصمين كانا لصين دخلا عليه للسرقة، فلما رآهما اخترعا الدعوى، كما في «شرح المقاصد» ﴿فَٱحۡكُم﴾ يا داود ﴿بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾؛ أي: ولا تجر في الحكومة. وهو تأكيد للأمر بالحكم بالحق. والمقصود من الأمر والنهي الاستعطاف. ﴿وَٱهۡدِنَآ﴾؛ أي: وأرشدنا يا داود ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾؛ أي: إلى الصراط السوي، والطريق الحق، واحملنا عليه بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور، وإرشاده إلى منهاج العدل.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ مفكوكاً من أشط الرباعي. وقرأ أبو رجاء، وابن أبي عبلة، وقتادة، والحسن، وأبو حيوة ﴿تشطط﴾ من شط الثلاثي. وقرأ قتادة أيضاً: ﴿تشط﴾ مدغماً من أشط الرباعي. وقرأ زيد: ﴿تشاطط﴾ بضم التاء، وبالألف، على وزن تفاعل مفكوكاً. وعن قتادة أيضاً: ﴿تشطط﴾ من شطط المضعف، ذكره أبو حيان في «البحر».

والمعنى[1]: أي هل علمت ذلك النبأ العجيب، نبأ الجماعة الذين تسلقوا سور غرفة داود، ودخلوا عليه وهو مشتغل بعبادة ربه، في غير وقت جلوسه للحكم، وحين رآهم فزع منهم، ظناً منه أنهم جاؤوا لاغتياله، إذ كان منفرداً في محرابه للعبادة، فقالوا له: لا تخف منا، نحن اثنان جار بعضنا على بعض، فاحكم بيننا حكماً عادلاً، ولا تجر، واهدنا إلى الطريق السوي، ولا تشطط في الحكومة.

ثم فصلوا موضع الخصومة، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ الحاضر معي

---

(١) المراغي.

﴿أَخِي﴾ في الدين أو في الصحبة، والتعرض لذلك، تمهيد لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه، وقال أبو حيان[1]: والأخوة هنا مستعارة، إذ هما ملكان، لكنهما لما ظهرا في سورة إنسانين تكلما بالأخوة، ومجازها أنها أخوة في الدين، والإيمان، أو على معنى الصحبة، والمرافقة، أو على معنى الشركة والخلطة، لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾، وكل واحدة من هذه الأخوات تقتضي منع الاعتداء، ويندب إلى العدل، والقائل منهما هذا الكلام، هو المدعي منهما. و﴿أخي﴾ عطف بيان عند ابن عطية، وبدل أو خبر ﴿لإن﴾ عند الزمخشري.

﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ﴾ قرأ الجمهور: ﴿تِسْعٌ وَتِسْعُونَ﴾ بكسر التاء فيهما، وقرأ الحسن، وزيد بن علي: بفتحها. وقرأ الجمهور: ﴿نَعْجَةً﴾ بفتح النون، والحسن، وابن هرمز: بكسر النون، وهي لغة لبعض بني تميم، وهي لغة شاذة، والنعجة: هي الأنثى من الضأن، وقد يكنى بها عن المرأة. قال الواحدي: النعجة: البقرة الوحشية، والعرب تكني عن المرأة بها، وتشبه النساء بالنعاج، والكناية[2] والتعريض أبلغ في المقصود، وهو التوبيخ، فإن حصول العلم بالمعرض به يحتاج إلى تأمل، فإذا تأمله، واتضح قبحه.. كان ذلك أوقع في نفسه، وأجلب لخجالته وحيائه.

وعني بهذا داود؛ لأنه كان له تسع وتسعون امرأة، وعنى بقوله: «ولي نعجة واحدة» أوريا زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود، كما سيأتي بيان ذلك، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿ولي﴾ بفتح الياء، والباقون بإسكانها على الأصل. ﴿فَقَالَ﴾ الأخ لي: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: أكفلني هذه النعجة الواحدة؛ أي: ضمها لي إلى ما عندي، وأنزل لي عنها حتى أكفلها، وأضمها إلى ما عندي، وأصير بعلاً لها، قال ابن كيسان: اجعلها كفلي ونصيبي بالتنازل عنها، وفي «الروح»: أي ملكنيها، وحقيقته؛ أي: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، والكافل؛ هو الذي يعولها وينفق عليها وعزني أي غلبني في الخطاب أي: في مخاطبته، ومحاورته إياي، محاجة بأن جاء بحجاج، لم أقدر على رده، وعن ابن عباس

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

ـ رضي الله عنهما ـ: كان أعز مني، وأقوى على مخاطبتي، لأنه كان الملك، فالمعنى: كان أقدر على الخطاب لعزة ملكه، كما في الوسيط، أو غلبني بعزه، وسلطانه، أو أراد[1] خطيب المرأة؛ أي: خطبها هو وخطبتها أنا، وعزني في الخطاب؛ أي: غلبني في خطبتها حيث زوجها دوني، وقرأ أبو حيوة، وطلحة ﴿وعزني﴾ بتخفيف الزاي. قال أبو الفتح: حذف الزاي الواحدة تخفيفاً. وقرأ[2] ابن مسعود، وعبيد بن عمير، وأبو وائل، ومسروق، والضحاك، والحسن: ﴿وعازني في الخطاب﴾ بألف وتشديد الزاي؛ أي: غالبني من المعازة، وهي المغالبة.

والمعنى: أي إن أخي هذا يملك تسعاً وتسعين نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال: ملكنيها، وغلبني في المحاجة، فجاء بحجج لم أطق لها رداً، ولا دفعاً. قال أبو حيان: والظاهر، إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها، من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك؛ لأن ذلك الإخبار، كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة، والفرض لها من غير تلبس بشيء منها، فمثلوا بقصة رجل له نعجة، ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة، فطمع في نعجة خليطه، وأراد انتزاعها منه، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾، وهذا التصوير، والتمثيل أبلغ في المقصود، وأدل على المراد انتهى.

ثم ذكر سبحانه حكم داود في الواقعة بقوله: ﴿قَالَ﴾ داود بعد اعتراف المدعى عليه، أو على تقدير صدق المدعي، وإلا فالمسارعة إلى تصديق أحد الخصمين، قبل سماع كلام الآخر لا وجه له، وفي الحديث: «إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض لأحدهما، حتى تسمع من الآخر»، وقيل[3]: الكلام على تقدير أي: لئن كان ما تقول، لقد ظلمك. وقيل: ثم حذف؛ أي: فأقر المدعى عليه، فقال: لقد ظلمك، ولكنه لم يحك في القرآن اعتراف المدعى عليه، لأنه

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني. (٣) البحر المحيط.

معلوم من الشرائع كلها، إذ لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى عليه؛ أي: قال داود للمدعي: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ أخوك. جواب قسم محذوف، قصد به ـ عليه السلام ـ المبالغة في إنكار فعل صاحبه، وتهجن طمعه، في نعجة من ليس له غيرها، مع أن له قطيعاً منها؛ أي: والله لقد ظلمك أخوك ﴿بِسُؤَالِ﴾ إضافة ﴿نَعْجَتِكَ﴾ الواحدة ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ التسع والتسعين. والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله، وتعديته إلى مفعول آخر بـ﴿إلى﴾ لتضمنه معنى الإضافة والضم، كأنه قيل: بضم نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب. قال النحاس: ويقال: إن خطيئة داود هي قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾؛ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبَّت، وفي هذا إشارة، إلى أن الظلم في الحقيقة من شيم النفوس، فإن وجدت ذا عفة، فالعلة كما قال يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ الآية، فالنفوس جُبلت على الظلم، والبغي، وسائر الصفات الذميمة، ولو كانت نفوس الأنبياء عليهم السلام، كذا في «التأويلات النجمية»، يقول الفقير: هذا بالنسبة إلى أصل النفوس وحقيقتها، وإلا فنفوس الأنبياء مطمئنة، لا أمارة، كما مر بسط الكلام على ذلك، في سورة يوسف.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾؛ أي: الشركاء الذين خلطوا أموالهم، جمع خليط كظريف وظرفاء، والخلطة: الشركة، وقد غلبت في الماشية ﴿لَيَبْغِي﴾؛ أي: ليتعدى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ويظلمه غير مراع لحق الصحبة والشركة، وهذا من كلام داود، يدل على أن زمانه كان فيه الظلم والاعتداء كثيراً، وقرىء ﴿ليبغي﴾ بفتح الياء، على تقدير حذف النون الخفيفة، وأصله: ليبغين كقوله: إضرب عنك الهموم طارقها. يريد اضربن. ويكون على هذا القراءة، على تقدير قسم محذوف، ذلك القسم وجوابه خبر لـ﴿إن﴾. وعلى قراءة الجمهور يكون: ﴿لَيَبْغِي﴾ خبراً لـ﴿إن﴾. وقرىء ﴿ليبغ﴾ بحذف الياء كقوله: محمد تفد نفسك كل نفس؛ أي: تفدى على أحد القولين. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منهم. فإنهم يجتنبون عن البغي، والعدوان ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ أي: وهم قليل، فهم مبتدأ، و﴿قليل﴾ خبره قدم عليه للاهتمام به، وإنما أفرد تشبيهاً بفعيل، بمعنى مفعول. و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد القلة، أو للإبهام أو التعجب من قلة الموصوفين بالإيمان، وصالح العمل. ﴿وَظَنَّ

﴿دَاوُۥدُ﴾؛ أي: علم وأيقن داود ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ و﴿مَا﴾ كافة زائدة؛ أي: علم داود أنا فتناه، واختبرناه بهذه الواقعة؛ لأنها جارية مجرى الامتحان. والظن هنا مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة، يعني: أن الظن الغالب لما كان يقارب العلم استُعير له، فالظن يقين، لكنه ليس بيقين عيان، فلا يقال فيه: إلا العلم.

والمعنى[1]: وعلم داود بما جرى في مجلس الحكومة، إنما فعلنا به الفتنة والامتحان لا غير، بتوجيه الحصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يغايره من الأفعال، فتنبه لذلك ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه إثر ما علم أن ما صدر منه ذنب، كما استغفر آدم عليه السلام بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ إلخ، وموسى عليه السلام بقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، وغيرهما من الأنبياء الكرام، على ما بُيّن في موضعه.

والمعنى: أنه عند ما تخاصما إليه، وقال ما قال، علم عند ذلك أنه المراد، وأن مقصودهما التعريض به، وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته، قال الواحدي: قال المفسرون: فلما قضى داود بينهما، نظر أحدهما إلى صاحبه، فضحك، فعند ذلك علم داود بما أراداه. ورأى أنهما تحولا إلى صورتهما، وذهبا، وعرجا نحو السماء بمرأى منه، وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فعلم داود أنه إنما عُني به.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَتَنَّٰهُ﴾ بتخفيف التاء، وتشديد النون. وقرأ عمر بن الخطاب، وأبو رجاء، والحسن: بخلاف عنه، بتشديد التاء والنون جميعاً مبالغة، وقرأ الضحاك ﴿أفتناه﴾ كقوله: لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت. وقرأ قتادة، وأبو عمرو في رواية، وعبيد بن عمير، وابن السميقع: ﴿افتناه﴾ بتخفيفهما، والألف ضمير الخصمين.

وقد اختلف المفسرون في ذنب داود، الذي استغفر له، وتاب منه على أقوال:

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

منها: ما روي[1]: أن جماعة من الأعداء، طمعوا في أن يقتلوا نبي الله، داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه، ويشغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم، وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونه منهم، فخافوا فوضعوا كذباً، فقالوا: ﴿خَصْمَانِ﴾؛ أي: نحن فريقان إلى آخر القصة. فعلم عليه السلام غرضهم، فهمّ أن ينتقم منهم، فاستغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم. وقيل: إن دخولهم على داود كان فتنة له، إلا أنه عليه السلام، استغفر لذلك الداخل، العازم على قتله.

ومنها: أن أوريا بن حنانا، كان قد خطب امرأة، اسمها نشابع بنت شايع، فأجابوه، ثم خطبها داود، في حال غيبة أوريا في غزواته، فزوجت نفسها منه عليه السلام لجلالته، فعُوتب على ذلك، وعلى هذا القول فمعنى ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: غلبني في خطبة امرأة.

ومنها: ما قيل: كان أهل زمان داود عليه السلام، يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق له امرأته، حتى يتزوجها إذا أعجبته، وكان داود عليه السلام، ما زاد على قوله لأوريا: انزل لي عن امرأتك. وذلك أنه وقع بصره على تلك المرأة من غير قصد، فأحبها، ومال قلبه إليها، فسأل زوجها النزول عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل فتزوجها، وهي أم سليمان عليه السلام، وكانت من أجمل النساء، وكان ذلك جائزاً في شريعته، معتاداً فيما بين الناس غير مخل بالمروءة، وعلى هذا فمعنى ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾: انزل لي عن تلك النعجة الواحدة، وأعطنيها، فعوتب داود بشيئين:

أحدهما: خطبته على خطبة أخيه المؤمن.

والثاني: إظهار الحرص على التزوج مع كثرة نسائه، وهذا وإن كان جائزاً في شريعته، إلا أنه لا يليق بجنابه عليه السلام. فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

---

(١) المراح.

ومنها: ما قيل: إن ذنب داود الذي استغفر منه، ليس بسبب أوريا وامرأته، وإنما هو بسبب قوله لأحد الخصمين: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾. فلما كان هذا الحكم مخالفاً للصواب، اشتغل بالاستغفار والتوبة، فثبت بهذه الوجوه نزاهة داود عليه السلام، مما نُسب إليه من الكبائر، وإنما يلزم في حقه ترك الأفضل والأولى، والله أعلم.

وقال البيضاوي: وما قيل: إنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً، وأمر أن يتقدم حتى قتل، فتزوجها يعني: امرأته، هراء وافتراء، اهـ. وقال الخازن في «تفسيره»: اعلم: أن من خصه الله بنبوته، وأكرمه برسالته، وشرّفه على كثير من خلقه، وائتمنه على وحيه، وجعله واسطة بينه وبين خلقه.. لا يليق أن ينسب إليه، ما لو نسب إلى آحاد الناس، لاستنكف أن يحدث عنه، فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء، والصفوة الأمناء ذلك؟! اهـ. قال الخازن: وقال الإمام فخر الدين الرازي:

حاصل القصة: يرجع إلى أمرين: إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته. قال: وكلاهما منكر عظيم، فلا يليق بعاقل، أن يُظن بداود عليه السلام هذا، اهـ.

وحاصل معنى قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ إلخ؛ أي: وإن كثيراً ممن يتعاملون معاً، يجور بعضهم على بعض حين التعامل كما قال المتنبي:

وَٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ

إلا من يخافون ربهم، ويؤمنون به، ويعملون صالح الأعمال. فإن نفوسهم تعزف عن الظلم، وترعوي خشيةً من خالقها، وما أقل هؤلاء عدداً، وأندرهم وجوداً، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

ثم ذكر أن داود، كان قد ظن أنهما قد جاءا للاغتيال، ثم تبين له غير ما كان قد ظن. فقال: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: وظن أن دخولهما

عليه في ذلك الوقت، ومن تلك الجهة ابتلاء من الله تعالى، لأجل أن يغتالوه، فلم يقع ما كان قد ظنه، فاستغفر ربه من ذلك الظن، إذ لم يقع ما كان قد ظنه.
﴿وَخَرَّ﴾؛ أي: سقط داود حال كونه ﴿رَاكِعًا﴾؛ أي: ساجداً على تسمية السجود ركوعاً؛ لأنه مبدؤه، لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع، وفي كل من الركوع والسجود التحني والخضوع، وبه[1] استشهد أبو حنيفة، وأصحابه في سجدة التلاوة، على أن الركوع يقوم مقام السجود، أو المعنى: خر للسجود راكعاً؛ أي: مصلياً إطلاقاً للجزء وإرادة للكل، كأنه أحرم بركعتي الاستغفار. والدليل على الأول؛ أي: على أن الركوع هٰهنا بمعنى السجود، ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ، كان يقول في سجدة صۤ وسجدة الشكر: «اللهم اكتب لي عندك بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود سجدته» وقيل[2]: بل كان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودهم ركوعاً.

﴿وَأَنَابَ﴾؛ أي: ورجع داود إلى ربه؛ أي: رجوع بالتوبة من جميع المخالفات، التي هي الزلات، وما كان من قبيل ترك الأولى والأفضل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ سجد في صۤ، وقال: «سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً».

وهذه السجدة[3] من عزائم السجود عند أبي حنيفة، ومالك - رحمهما الله تعالى - وكل منهما على أصله. فأبو حنيفة يقول: هي واجبة، ومالك يقول: هي فضيلة، وعند الشافعي، وأحمد سجدة شكر، تستحب في غير الصلاة، فلو سجد بها في الصلاة بطلت عندهما، كما في «فتح الرحمٰن».

ثم أخبر سبحانه، أنه قبل استغفاره، وتوبته بقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ﴾؛ أي: لداود ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ الذنب الذي استغفر منه، وكان ذلك في شهر ذي الحجة، كما في «بحر العلوم». وروي: أنه عليه السلام، بقي في سجوده أربعين يوماً وليلة، لا يرفع

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

رأسه إلا لصلاة مكتوبة، أو لما لا بد منه، ولا يرقأ دمعه، حتى نبت منه العشب حول رأسه، ولا يشرب ماء إلا ثلثاه دمع، وجهد نفسه راغباً إلى الله في العفو عنه، حتى كاد يهلك، واشتغل بذلك عن الملك، حتى وثبت ابن له، يقال له: إيشا على ملكه، فاجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل. فلما نزلت توبته بعد الأربعين، وغُفر له حاربه، فهزمه، وقد قال نبينا ﷺ: «إذا بُويع لخليفتين»؛ أي: لأحدهما أولاً، وللآخر بعده «فاقتلوا الآخر منهما». لأنه كالباغي. هذا إذا لم يندفع إلا بقتله.

قال ابن الأنباري: الوقف على قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ تام، ثم يبتدىء الكلام بقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾؛ أي: لداود ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ أي: لقربة وكرامة بعد المغفرة، كما وقع لآدم عليه السلام. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: ومآباً حسناً؛ أي: مرجعاً طيباً. هو الجنة. وفي «كشف الأسرار»: يعني الجنة هي مآب الأنبياء، والأولياء.

ولما تمم الله سبحانه، قصة داود، أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه. والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على ﴿غفرنا﴾؛ أي: فغفرنا له ذلك، وقلنا له: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا﴾ استخلفناك على الأرض أو ﴿جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً﴾ لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. والخلافة[1]: النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف. وعلى هذا الوجه الأخير، استخلف الله أولياءه في الأرض، إذ الوجوه الأول محال في حق الله تعالى، فالخليفة عبارة عن الملك النافذ الحكم، وهو من كان طريقته وحكومته على طريقة النبي وحكومته، والسلطان أعم، والخلافة في خصوص مرتبة الإمامة أيضاً أعم.

والمعنى: استخلفناك على الملك في الأرض، والحكم فيما بين أهلها؛ أي: جعلناك أهل تصرف نافذ الحكم في الأرض، كمن يستخلفه بعض السلاطين

---

(١) روح البيان.

على بعض البلاد، ويُملكه عليها، وكانت النبوة قبل داود في سبطه، والمُلك في سبط آخر، فأعطاهما الله تعالى داود عليه السلام، فكان يدبر أمر العباد بأمره تعالى، وفيه دليل بيّن على أن حاله عليه السلام، بعد التوبة، كما كان قبلها لم يتغير قط، بل زادت اصطفائيته كما قال في حق آدم عليه السلام: «ثم اجتباه ربه، فتاب عليه وهدى».

والمعنى[1]: أي يا داود إنا استخلفناك في الأرض، وجعلناك نافذ الحكم بين الرعية، لك الملك والسلطان، وعليهم السمع والطاعة، لا يخالفون لك أمراً، ولا يقيمون في وجهك عصا.

ثم ذكر ما يستتبع ذلك، فقال: ﴿فَٱحْكُم﴾؛ أي: فافصل الخصومة الواقعة ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكم العدل المنزل من عندي، والذي شرعته لعبادي لما فيه من المصلحة لهم في الدنيا والآخرة، وبه يكون الحاكم عادلاً لا جائراً؛ لأن الأحكام[2] إذا كانت مطابقةً للشريعة الحقّية الإلهية، انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه، أما إذا كانت أحكام السلطان القاهر على وفق هواه، ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق، فإنه يجعل الرعية فداءً لنفسه، وذلك يُفضي إلى تخريب العالم، ووقوع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يُفضي إلى هلاك الملك.

ثم أكد ما سلف بالنهي عن ضده، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ﴾ يا داود ﴿ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: ما تهواه النفس، وتشتهيه في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا، قال بعضهم: وهذا يؤيد ما قيل: إن ذنب داود الهم الذي هم به حين نظر إلى امرأة أوريا، وهو أن يجعلها تحت نكاحه، أو ما قيل: إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي، وتظليم الآخر قبل مسألته. وفي هذا إرشاد لما يقتضيه منصب النبوة، وتنبيه لمن هو دونه لسلوك هذا الطريق القويم.

ثم بين سوء عاقبة ذلك، فقال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالنصب على أنه

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

جواب النهي؛ أي: فيكون الهوى أو اتباعك للهوى سبباً لضلالك عن دلائله، التي نصبها على الحق تكويناً وتشريعاً. قال بعضهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: ما يخطر لك في حكمك من غير وحي مني ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن الطريق الذي أوحي بها إلى رسل الله تعالى، انتهى.

فإن قلت[1]: كيف يكون اتباع الهوى سبباً للضلال؟.

قلت: لأن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، فيشغل عن طلب السعادات الروحانية، التي هي الباقيات الصالحات، فمن ضل عن سبيل الله، الذي هو اتباع الدلائل المنصوبة على الحق، أو اتباع الحق في الأمور، وقع في سبيل الشيطان، بل في حفرة النيران والحرمان.

ويجوز[2] أن يكون الفعل في ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ مجزوماً بالعطف على النهي، وإنما حرّك لالتقاء الساكنين، فعلى الوجه الأول أعني: النصب يكون المنهي عنه الجمع بينهما. وعلى الوجه الثاني، يكون النهي عن كل واحد منهما على حدة.

والمعنى[3]: أي فيكون اتباعك للهوى سبباً في الضلال عن الدلائل التي نُصبت، والأعلام التي وُضعت للإرشاد، إلى سبل السلام بإصلاح حال المجتمع في دينه ودنياه. وتهذيبه حتى يسلك طريق الحق بينه وبين ربه، وبينه وبين الناس.

ثم بيَّن غائلة الضلال، ووخامة عاقبته. فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعليل للنهي عن اتباع الهوى، والوقوع في الضلال ببيان غائلته، وإظهار ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الإضمار للإيذان بكمال شناعة الضلال عنه، كما سيأتي في مبحث البلاغة. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾؛ أي: أليم والباء في ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ للسببية أو تعليلية. ومعنى النسيان: الترك. ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ مفعول لنسوا؛ أي: لهم عذاب أليم، بسبب نسيانهم يوم الحساب والمجازاة، وترك العمل له، قال الزجاج؛ أي: بتركهم العمل لذلك اليوم، صاروا بمنزلة الناسين، وإن كانوا ينذرون ويذكرون. وقال عكرمة، والسدي: في الآية تقديم، وتأخير، والتقدير:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

ولهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا؛ أي: تركوا القضاء بالعدل، والأول أولى، ولما كان[1] الضلال عن سبيل الله مستلزماً لنسيان يوم الحساب، كان كل منهما سبباً، وعلة لثبوت العذاب الشديد. وتأدب سبحانه وتعالى مع داود؛ أي: وقَّره وعظَّمه حيث لم يُسند الضلال إليه بأن يقول: فلئن ضللت عن سبيلي، فلك عذاب شديد، لما هو مقتضى الظاهر، بل أسنده إلى الجماعة الغائبين، الذين داود عليه السلام، واحد منهم.

والمعنى: أي إن الذين يتركون الحق، ويضلون عن سبيل معالمه لهم، من الله العذاب الشديد يوم الحساب، لنسيانهم ما في ذلك اليوم من الأهوال، وأن الله سيحاسب كل نفس بما كسبت، فمن دسَّى نفسه، وسلك بها سبيل المعاصي.. فقد حق عليه العذاب، الذي كتبه على العاصين، جزاءً وفاقاً على أعمالهم التي كسبوها بأيديهم، فإن تذكر يوم الحساب يقتضي ملازمة الحق، ومخالفة الهوى.

الإعراب

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾.

﴿صٓۚ﴾ إن قلنا: إنه علم للسورة، ففيه سبعة أوجه من الإعراب، كما هو معلوم في أسماء التراجم. والأول منها: أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة ﴿صٓۚ﴾. والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً. وإن قلنا: إنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.. فليس موصوفاً بإعراب، ولا بناء؛ لأن الإعراب والبناء فرع عن إدراك المعنى، ومعناه غير معلوم لنا. ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿القرآنِ﴾: مقسم به، مجرور بواو القسم. ﴿ذِي

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلذِّكۡرِ﴾: صفة لـ﴿القرآن﴾ مجرور بالياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم، محذوف وجوباً، تقديره: أُقسم بالقرآن. وجوابه محذوف، قدّره الحوفيّ: لقد جاءكم الحق. وقال ابن عطية: تقديره: ما الأمر كما تزعمون يا أهل مكة، وقال الزمخشري: تقديره: إن هذا القرآن لمعجز. وجملة القسم مستأنفة. ﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب انتقالي، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلته. ﴿فِى عِزَّةٍ﴾: خبر المبتدأ. ﴿وَشِقَاقٍ﴾: معطوف على ﴿عِزَّةٍ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على جملة القسم. ﴿كَمْ﴾: خبرية، بمعنى عدد كثير، في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾: تمييز ﴿كَمْ﴾ الخبرية، ﴿فَنَادَوا۟﴾: الفاء: عاطفة، ﴿نادوا﴾: فعل، وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿وَّلَاتَ﴾: الواو حالية، ﴿لات﴾: حرف نفي تعمل عمل ليس، ترفع الاسم وتنصب الخبر، واسمها محذوف، تقديره: ولات الحين ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾خبرها منصوب. والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نادوا﴾: والرابط مقدر تقديره: فنادوا بالفرار، والحال أنه ليس الحين حين فرار لهم. ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾: فعل، وفاعل، معطوف على نادوا، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ماض في محل النصب بأن المصدرية، والهاء ضمير الغائبين في محل النصب مفعول به، ﴿مُّنذِرٌ﴾: فاعل جاء، ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة ﴿مُّنذِرٌ﴾. وجملة ﴿جَآءَهُم﴾: مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: عجبوا من مجيء منذر منهم، والجار المحذوف متعلق بـ﴿عجبوا﴾. ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ما قبله، ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿كَذَّابٌ﴾: خبر ثان أو نعت لـ﴿سَٰحِرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ﴾: الهمزة للاستفهام التعجبي؛ أي: تعجبوا من هذا الحصر؛ لأنهم قاسوا الغائب على الشاهد جهلاً منهم، وارتطاماً منهم بسوء الغفلة. ﴿جعل﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ. ﴿ٱلْءَالِهَةَ﴾ مفعول أول، ﴿إِلَٰهًا﴾ مفعول ثان، ﴿وَٰحِدًا﴾ صفة لـ﴿إِلَٰهًا﴾. والجملة الفعلية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه.

﴿لَشَيْءٌ﴾: اللام حرف ابتداء. ﴿شيء﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿عُجَابٌ﴾: صفة ﴿شيء﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل التعجب المفهوم مما قبلها.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَانطَلَقَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿انطلق الملأ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: حال من الملأ، والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتقرير تآمرهم بعد انصرافهم، من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب. ﴿أَنِ﴾: مصدرية؛ أي: بأن امشوا، وعند إضمار القول تسقط ﴿أن﴾. أو مفسرة لانطلقوا؛ لأنه متضمن معنى القول. ﴿امْشُوا﴾: فعل أمر، وفاعل في محل النصب بأن المصدرية، وأن المصدرية مع مدخولها منصوبة بنزع الخافض، المتعلق بقول محذوف؛ أي: وانطلق الملأ منهم قائلين: بأن امشوا، أو انطلق الملأ منهم قائلين: ﴿امْشُوا﴾. ﴿وَاصْبِرُوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿امْشُوا﴾، ﴿عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿اصبروا﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه ﴿لَشَيْءٌ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالصبر، وجملة ﴿يُرَادُ﴾: صفة ﴿لَشَيْءٌ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿بِهَٰذَا﴾: متعلق بـ﴿سَمِعْنَا﴾، والإشارة إلى التوحيد الذي يدعو إليه محمد ﷺ. ﴿فِي الْمِلَّةِ﴾: جار ومجرور، حال من اسم الإشارة، ﴿الْآخِرَةِ﴾: نعت لـ﴿الْمِلَّةِ﴾، والمراد بها: ملة عيسى. ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿اخْتِلَاقٌ﴾: خبر لهذا؛ أي: افتعال ومحض كذب. والجملة مستأنفة. ﴿أَأُنزِلَ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿أنزل﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أنزل﴾، ﴿الذِّكْرُ﴾: نائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن بَيْنِنَا﴾: جار ومجرور، حال من ضمير عليه، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب انتقالي عن مقدر، فكأنه قال: إنكارهم للذكر ليس عن علم، بل هم في شك. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِي شَكٍّ﴾: خبره. والجملة جملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب، أو معطوفة على ذلك المقدر. ﴿مِّن ذِكْرِي﴾: متعلق بـ﴿شَكٍّ﴾، ﴿بَل﴾: حرف للإضراب الانتقالي أيضاً. ﴿لَّمَّا﴾: حرف نفي وجزم بمعنى: لم،

﴿يَذُوقُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمَّا﴾، والواو فاعل، و﴿عَذَابِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، المحذوفة لمراعاة الفواصل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب شكهم؛ أي: سببه أنهم لم يذوقوا العذاب، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن، وآمنوا به.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: حرف عطف منقطعة بمعنى: بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿عِندَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿خَزَآئِنُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾: صفتان لـ﴿رَبِّكَ﴾. والجملة جملة إنشائية، معطوفة على الجمل التي قبلها أو مستأنفة. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف منقطعة بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام أيضاً، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَمَا﴾: معطوف عليه أيضاً، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إن زعموا ذلك، وأردت تبكيتهم، فقل لهم: ارتقوا في الأسباب؛ أي: اصعدوا في المعارج الموصلة إلى العرش حتى تستووا عليه. واللاَّم: لام الأمر، ﴿يرتقوا﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، والواو فاعل، ﴿فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾: متعلق بـ﴿يرتقوا﴾. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿جُندٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم جند، ﴿مَّا﴾: نكرة تامة، صفة أولى لجند على سبيل التحقير؛ أي: هم جند حقير. فإن ﴿مَا﴾ إذا كانت صفة تستعمل للتعظيم أو التحقير، والثاني هو المراد هنا، ولك أن تعربها زائدة. ﴿هُنَالِكَ﴾ ﴿هنا﴾: اسم إشارة يشار به إلى المكان في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على السكون، لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، و﴿اللام﴾: لبعد المشار إليه، والكاف حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بـ﴿مَهْزُومٌ﴾، و﴿مَهْزُومٌ﴾: صفة ثانية لـ﴿جُندٌ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: صفة ثالثة لـ﴿جُندٌ﴾؛ أي: هم جند حقير مهزوم هنالك؛ أي: في مكة يوم الفتح، أو في بدر كائن من الأحزاب المتحزبة

على محاربة رسول الله ﷺ. والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان عاقبتهم. واختلف المعربون في إعراب هذه الآية اختلافاً كثيراً؛ لأنها تحتمل عدة أوجه، ذكرنا أهمها، وأوضحها، وأسهلها على المبتدىء خوف الإطالة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ﴾: فعل ماض، ﴿قَبْلَهُمْ﴾: ظرف متعلق به. ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: فاعل. ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾: معطوفان عليه. ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾: صفة لـ﴿فرعون﴾، مرفوع بالواو المحذوفة، لالتقاء الساكنين. والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير أحوال الطغاة، وبيان مصائر العتاة. ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾: معطوفات أيضاً على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿الْأَحْزَابُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الرفع، بدل من الفاعل، وما عطف عليه، ولك أن تجعل اسم الإشارة بدلاً مما قبله، و﴿الْأَحْزَابُ﴾: بدل منه. ﴿إِن﴾: نافية، لا عمل لها لانتقاض النفي بإلا، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾: فعل ماض، وفاعل يعود على كل، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿فَحَقَّ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿حَقَّ﴾: فعل ماض، ﴿عِقَابِ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه، الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، لمراعاة الفواصل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ﴾: فعل، وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿صَيْحَةً﴾: مفعول به، ﴿وَاحِدَةً﴾ صفة لـ﴿صَيْحَةً﴾. والجملة مستأنفة: مسوقة لتقرير عقاب كفار مكة، بعد بيان عقاب من سبقوهم في الغواية. ﴿مَا﴾: نافية حجازية أو تميمية، ﴿لَهَا﴾: خبر مقدم، ﴿مِن﴾: حرف جر زائد. ﴿فَوَاقٍ﴾: اسم ما مؤخر أو مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية في محل النصب، صفة الثانية لـ﴿صَيْحَةً﴾.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لسرد أنماط من تمحلهم واستهزائهم، بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾ الآية. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿عَجِّل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿لَّنَا﴾ متعلقان به. ﴿قِطَّنَا﴾: مفعول به، ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عجل﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾: على كونها جواب النداء. ﴿ٱصْبِرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: متعلق بـ﴿اصبر﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: صلة لما الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: على ما يقولونه. ﴿وَٱذْكُرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱصْبِرْ﴾. ﴿عَبْدَنَا﴾ مفعول به. ﴿دَاوُۥدَ﴾: بدل من عبدنا، ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: صفة لـ﴿دَاوُۥدَ﴾، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: ناصب واسمه، وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل كونه من أصحاب الأيد. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل قوته في الدين، وكونه رجاعاً إلى مرضاته تعالى، ﴿مَعَهُۥ﴾: حال من الجبال، أو متعلق بـ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: فعل، وفاعل، والمفعول محذوف لعلمه؛ أي: يسبحن الله تعالى، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الجبال. ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: متعلق بـ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: معطوف على ﴿العشي﴾، ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: معطوف على الجبال، أو مفعول به لفعل محذوف، دل عليه ما قبله؛ أي: سخرنا الطير معه، ﴿مَحْشُورَةً﴾: حال من الطير، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم، ﴿لَّهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿أَوَّابٌ﴾، و﴿أَوَّابٌ﴾: خبر ﴿كُلٌّ﴾. والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿سَخَّرْنَا﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعولان، معطوف على سخرنا أيضاً، ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: معطوف على الحكمة.

﴿۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هل﴾: حرف استفهام للاستفهام التعجبي، ﴿أَتَاكَ﴾: فعل ماض، ومفعول به، ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾: فاعل، ومضاف إليه. والجملة مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بمضاف محذوف تقديره: نبأ تخاصم الخصم إلى داود وقت تسورهم المحراب، ﴿تَسَوَّرُوا﴾: فعل، وفاعل، ﴿الْمِحْرَابَ﴾: مفعول به. والجملة في محل الجر مضاف لـ﴿إِذْ﴾. ﴿إِذْ﴾: بدل من ﴿إِذْ﴾: الأولى، وجملة ﴿دَخَلُوا﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿عَلَىٰ دَاوُودَ﴾: متعلق بـ﴿دَخَلُوا﴾، ﴿فَفَزِعَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿فزع﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على داود، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿فزع﴾. والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿دَخَلُوا﴾. ﴿قَالُوا﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَخَفْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود ﴿عَلَىٰ دَاوُودَ﴾. والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿خَصْمَانِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: نحن خصمان، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بـ﴿بَغَىٰ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع صفة خصمان. ﴿فَاحْكُم﴾: الفاء: الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت نحن خصمان، وأردت النصيحة لنا.. فأقول لك احكم. ﴿احكم﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿دَاوُودَ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف مضاف، متعلق بـ﴿احكم﴾، ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿احكم﴾: أو حال من فاعل ﴿احكم﴾، ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُشْطِطْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿دَاوُودَ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿احكم﴾، مؤكدة لها. ﴿وَاهْدِنَا﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿احكم﴾، ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أهدنا﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ ناصب واسمه ﴿أَخِى﴾ بدل من هذا، أو خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿تِسْعٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ أو خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان الخصومة على كونها، مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَتِسْعُونَ﴾: معطوف على تسع، ﴿نَعْجَةً﴾: تمييز للعدد قبله منصوب به، ﴿وَلِىَ﴾: خبر مقدم، ﴿نَعْجَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ صفة ﴿نَعْجَةٌ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿فَقَالَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الأخ. والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الأخ، ونون وقاية، ومفعولان. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَعَزَّنِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿عزني﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الأخ، ونون وقاية، ومفعول به، ﴿فِى ٱلْخِطَابِ﴾: متعلق بـ﴿عزني﴾. والجملة معطوفة على جملة «قال». ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على داود. والجملة مستأنفة. ﴿لَقَدْ﴾: اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ظَلَمَكَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الأخ، ومفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب، مقول قال. ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ظَلَمَكَ﴾، ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف تقديره: ليضمها إلى نعاجه.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن كثيرا﴾: ناصب واسمه، ﴿مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾: صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، ﴿لَيَبْغِى﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿يبغي بعضهم﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بـ﴿يبغي﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر

﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة جواب القسم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مستثنى متصل من الخلطاء، في محل النصب على الاستثناء، مبني على الفتح، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل، وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَقَلِيلٌ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قليل﴾: خبر مقدم، ﴿مَّا﴾: زائدة لتأكيد القلة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة في محل النصب حال من المستثنى. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: قال الملكان: قضى الرجل على نفسه، فتنبه وظن داود ﴿أَنَّمَا﴾: ﴿أنّ﴾: حرف نصب ومصدر، ولكنها كفت عن العمل بما، ﴿مَا﴾: كافة لكفها، ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿فَتَنَّٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، وجملة (أنما) مع مدخولها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿ظَنَّ﴾؛ أي: فتنتنا إياه. ﴿فَٱسْتَغْفَرَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿استغفر﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على داود، ﴿رَبَّهُۥ﴾: مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿ظَنَّ﴾. ﴿وَخَرَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿استغفر﴾، ﴿رَاكِعًا﴾: حال من فاعل خر، ﴿وَأَنَابَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على خر، ﴿فَغَفَرْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على استغفر، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿غفرنا﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول به. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّ﴾: حرف نصب، ﴿لَهُۥ﴾: خبر ﴿إنّ﴾: مقدم على اسمها، ﴿عِندَنَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من زلفى، ﴿لَزُلْفَىٰ﴾: اللام حرف ابتداء، ﴿زلفى﴾: اسم ﴿إنّ﴾: مؤخر، والتقدير: وإنّ زلفى عندنا لكائن له، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: معطوف على زلفى. وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿غفرنا﴾: عطف اسمية على فعلية.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿جَعَلْنَٰكَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به أول، ﴿خَلِيفَةً﴾: مفعول ثان، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لـ﴿خَلِيفَةً﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾،

وجملة ﴿إِنَّ﴾: جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱحْكُم﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدم تقديره: إذا عرفت، جعلنا إياك خليفة في الأرض، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: احكم بين الناس. ﴿احكم﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿احكم﴾، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿احكم﴾. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَتَّبِعِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بلا الناهية، ﴿ٱلْهَوَىٰ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿احكم﴾. ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الفاء: عاطفة سببية، ﴿يضلك﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الهوى، ومفعول به، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يضلك﴾. والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر، معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك، لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن اتباعك الهوى فإضلاله الناس عن سبيل الله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَضِلُّونَ﴾: فعل، وفاعل صلة الموصول، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَضِلُّونَ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿شَدِيدٌۢ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي عن اتباع الهوى. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر وسبب، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿نَسُوا۟﴾: فعل ماض، وفاعل، ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾: المصدرية، ﴿مَا﴾: مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب نسيانهم يوم الحساب، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر المبتدأ أعني قوله: ﴿لَهُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ والذكر: الشرف، والنباهة، أو الذكرى والموعظة، أو ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين، من الشرائع والأحكام وغيرها، من أقاصيص الأنبياء،

وأخبار الأمم الماضية، والوعد، والوعيد، اهـ.

﴿فِي عِزَّةٍ﴾: قال الراغب: العزة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ويمدح بالعزة تارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنها الدائمة الباقية، وهي العزة الحقيقية، ويذم بها أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾؛ لأن العزة التي هي التعزز والاستكبار، وهي في الحقيقة ذل، وقد تستعار للحمية، والأنفة المذمومة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾. انتهى.

﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: مخالفة لله ولرسوله، وعداوة لهما من قولهم: فلان في شق صاحبه. ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في «الوسيط»: والمناص: المنجأ؛ أي: النجاة والفوت عن الخصم، على أنه مفعل من ناصه ينوصه إذا فاته، أريد به: المصدر، ويقال: ناص ينوص؛ أي: هرب، ويقال؛ أي: تأخر. ومنه: ناص قرنه؛ أي: تأخر عنه حيناً. وفي «المفردات»: ناص إلى كذا التجأ إليه، وناص عنه تنحى ينوص نوصاً، والمناص: الملجأ، انتهى. وفي «المختار»: النوص: التأخر. يقال: ناص عن قرنه؛ أي: فر وراغ، وبابه قال: ومناصاً أيضاً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ أي: ليس وقت تأخر وفرار. والمناص أيضاً: المنحى، والمفر، اهـ. وقال النحاس: ويقال: ناص ينوص إذا تقدم، فعلى هذا يكون من الأضداد، اهـ «قرطبي». وأما ﴿لات﴾ فأصلها: لا، النافية، ثم زيدت عليها التاء لتأنيث اللفظ، أو للمبالغة في معناه، وخصت بنفي الأحيان، وزيادة التاء هنا أحسن منها، في ثُمَّت، ورُبَّت. لأن ﴿لَا﴾ محمولة على ليس، وليس تتصل بها التاء، ومن ثم لم تتصل بلا المحمولة على ﴿إن﴾. وهي كلمتان عند الجمهور ﴿لَا﴾: النافية، وتاء التأنيث. وحركت لالتقاء الساكنين.

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ﴾ جمع إله، وحقه أن لا يجمع، إذ لا معبود في الحقيقة سواه تعالى، لكن العرب لاعتقادهم أن هٰهنا معبودات جمعوه، فقالوا: آلهة، ﴿لَشَىْءٌ

﴿عُجَابٌ﴾ العجاب بمعنى: العجيب. وهو الأمر الذي يتعجب منه كالعجب، إلا أن العجيب أبلغ منه، والعجاب بالتشديد، أبلغ من العجاب بالتخفيف. مثل: كبار في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾، فإنه أبلغ من الكبار بالتخفيف. والمعنى: بليغ في العجب.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ الانطلاق: الذهاب. والملأ: الأشراف لا مطلق الجماعة. ويقال لهم: ملأ، لأنهم إذا حضروا مجلساً، ملأت العيون وجاهتهم، والقلوب مهابتهم.

فائدة: جميع القراء يكسرون النون في الوصل، من أن امشوا والهمزة في الابتداء من امشوا، اهـ خطيب. ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ﴾ والملة كالدين: اسم لما شرع الله لعباده، على ألسنة الأنبياء، ليتوصلوا به إلى ثواب الله وجواره. فإطلاق كل منهما في طريقة المشركين مجاز، مبني على التشبيه.

﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ والخزائن: جمع خزانة، بكسر الخاء بمعنى: المخزن كما مر. ﴿فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جمع سبب. قال الراغب: السبب: الحبل الذي يصعد به النخل، وسمي كل ما يتوصل به إلى شيء سبباً، انتهى. والمعنى: فليصعدوا في المعارج والطرق، التي يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش، قاله مجاهد، وقتادة، وقيل: المراد بالأسباب: السموات، لأنها أسباب الحوادث السفلية. وقيل: أبوابها، انتهى «أبو السعود».

﴿جُندٌ﴾ الجند: العسكر المعد للحرب. ﴿مَهْزُومٌ﴾ والهزم: الكسر، يقال: هزم العدو كسرهم، وغلبهم، والاسم الهزيمة، وهزَمَه يهزمه فانهزم غمزه بيده، فصارت فيه حفرة، كما في «القاموس». ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ جمع حزب، والحزب: جماعة فيه غلظ، كما في «المفردات». وهم المجتمعون لإيذاء محمد ﷺ، وكسر شوكته، وإبطال دينه.

﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ جمع وتد محركة، وبكسر التاء، وهو ما غُرز في الأرض أو الحائط من خشب. يقال: وتد يتد، من باب وعد إذا دق، وغرز الوتد في

الأرض أو في الحائط، وفيه لغات: فتح الواو، وكسر التاء وهي الفصحى، وبفتحتين، وود بإدغام التاء في الدال، بوزن وج، اهـ «سمين». وفي «المصباح»: الوتد بكسر التاء، في لغة أهل الحجاز، وهي الفصحى، وجمعه أوتاد، وفتح التاء لغة، وأهل نجد يُسكنون التاء، فيدغمون بعد القلب فيبقى ود، ووتدت الوتد أتده وتداً، من باب وعد أثبته بحائط أو بالأرض، وأوتدته بالألف لغة، انتهى.

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ قال الراغب: الأيك: شجر ملتف، وأصحاب الأيكة؛ أي: الغيضة، قيل: نسبوا إلى غيضة كانوا يسكنونها، وقيل: اسم بلد، كما في «المفردات»، وهم قوم شعيب، كما مر.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ والفواق، بالضم: كغراب، ويُفتح كما في «القاموس»: ما بين حلبتي الحالب من الوقت، ورضعتي الرضيع من أفاق المريض إذا رجع إلى صحته، وأفاقت الناقة ساعة ليرجع اللبن إلى ضرعها، يقال: أفاقت الناقة تفيق إفاقة، رجعت، واجتمعت الفيقة في ضرعها. والفيقة: اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين، ويُجمع على أفواق، وأما أفاويق فجمع الجمع، ويقال: ناقة مفيق ومفيقة، وقيل: ﴿فَوَاقٍ﴾ بالفتح: الإفاقة، والاستراحة كالجواب من أجاب، قاله المؤرخان: السدوسي، والفراء، ومن المفسرين: ابن زيد، والسدي. وأما المضموم فاسم لا مصدر. والمشهور: أنهما بمعنى واحد مقصاص الشعر وقصاصه، اهـ «سمين». وفي «المختار»: الفواق: الزمن الذي بين الحلبتين؛ لأنها تحلب ثم تترك ساعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب، يقال: ما أقام عنده إلا فواقاً. وفي الحديث: «العيادة قدر فواق ناقة». وقوله تعالى: ﴿مِن فَوَاقٍ﴾ يقرأ بالفتح، والضم؛ أي: ما لها من نظرة، وراحة، وإفاقة، اهـ.

﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أي: نصيبنا، وحظنا. والقط: القطعة من الشيء، من قط الشيء إذا قطعه، ومنه: قط القلم، والمعنى: قطعة مما وعدتنا به، ولهذا يطلق على الصحيفة والصك قط، لأنها قطعتان يقطعان، وقيل للجائزة أيضاً: قط، لأنها قطعة من العطية، ويجمع على قطوط مثل: حمل وحمول، وعلى قططة مثل: قرد وقردة، وفي القلة: على أقططة وأقطاط مثل: قدح وأقدحة وأقداح، اهـ

«سمين». قال الراغب: أصل القط: الشيء المقطوع عرضاً، كما أن القد هو المقطوع طولاً.

﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ الأيد بوزن البيع، مفرد. وهو مصدر، وليس جمع يد. وفي المصباح: آد الرجل يئيد أيداً وإياداً بكسر الهمزة مثل: باع يبيع بيعاً، إذا اشتد وقويَ، فهو أيد بوزن سيد وهين، ومنه قولهم: أيدك الله تأييداً اهـ «مصباح».

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ من الأوب. وهو الرجوع؛ أي: رجاع إلى الله، ومرضاته، من قولهم: آب إذا رجع. قال عبيد بن الأبرص:

وَكُلُّ ذِيْ غَيْبَةٍ يَؤُوْبُ   وَغَائِبُ ٱلْمَوْتِ لاَ يَؤُوْبُ

﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ جمع طائر، كركب وراكب، وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء. ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ ﴿هل﴾ هنا كلمة يراد منها: التعجيب، والتشويق إلى سماع ما يرد بعدها. ﴿نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ والنبأ: الخبر العظيم الشأن. والخصم: جماعة المخاصمين، ويستعمل للمفرد والجمع مذكراً ومؤنثاً. قال الشاعر:

وخصم عضاب ينفضون لحاهم   كنفض البراذين العراب المخاليا

﴿تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾؛ أي: قصدوا سوره، ونزلوا من أعلاه. والسور: الحائط المرتفع. وجمع الضمير في ﴿تَسَوَّرُواْ﴾؛ لأن الخصم بمعنى المخاصم، والمنازع، وقد يقع للاثنين، والجمع، والمؤنث، فيقال: هما خصم، وهم خصم، وهي خصم؛ لأنه مصدر في أصله، وقد تقدم له نظير، وهو ضيف في قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾. والمحراب: الغرفة التي كان يتعبد فيها، ويشتغل بطاعة ربه.

﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ والفزع: انقباض، ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف. وهو من جنس الجزع. ولا يقال: فزعت من الله كما يقال: خفت منه.

﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾؛ أي: ولا تجر. وهو بضم التاء، وسكون الشين، وكسر الطاء الأولى من أشطط يشطط إذا تجاوز الحد. قال أبو عبيدة: شططت في الحكم، وأشططت فيه إذا جرت فيه. فهو مما اتفق فيه فعل وأفعل. ﴿نَعۡجَةٗ﴾ النعجة:

الأنثى من المعز، وقد يكنى بها عن المرأة. ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: اجعلني كافلها، والمراد: ملكنيها. وفي «المختار»: كفل عنه بالمال لغريمه، وأكفله المال ضمنه إياه، وكفله إياه بالتخفيف، فكفل هو من باب نصر ودخل، وكفّله إياه تكفيلاً مثله.

﴿وَعَزَّنِي﴾؛ أي: وغلبني. وفي المثل: من عز بز، أي: من غلب سلب. وفي «المختار»: وعز عليه غلبه، وبابه: رد، والاسم: العزة، وهي الغلبة، والقوة. وعزه في الخطاب، وعازه؛ أي: غلبه. ﴿فِي ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: في مخاطبته إياي، ومحاجته. إذ قد أتى بحجاج لم أستطع رده، الخلطاء الشركاء خلطوا أمر الواحد خلطاً، وأوردت معاجم اللغة للخليط عدة معان. منها: المخالط، والمشارك، والقوم الذين أمرهم واحد، والزوج، والجار والصاحب، وخليط الرجل مخالطه، كالجليس بمعنى المجالس.

﴿فَتَنَّٰهُ﴾؛ أي: ابتليناه. ﴿خر﴾؛ أي: سقط. ﴿رَاكِعًا﴾؛ أي: ساجداً قال الشاعر:

فَخَرَّ عَلَىٰ وَجْهِهِ رَاكِعًا وَتَابَ إِلَىٰ ٱللَّهِ مِنْ كُلِّ ذَنْبْ

﴿وَأَنَابَ﴾؛ أي: رجع إلى ربه. والزلفى: القرب من الله، والإزلاف: التقريب والازدلاف: الاقتراب، ومنه: سميت المزدلفة لقربها من الموقف. اهـ من «الروح».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ لأن القرن حقيقة في مئة عام مثلاً، والإهلاك لأهله، ففيه إطلاق الظرف وإرادة المظروف.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بدل. وقالوا

تسجيلاً عليهم، بهذا الوصف القبيح، وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على هذا القول، لما تقرر عندهم، من أن نسبة أمر إلى المشتق يفيد علّيّة المأخذ.

ومنها: الإشارة إلى كفار مكة بهؤلاء في قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقيراً لشأنهم، وتهويناً لأمرهم.

ومنها: صيغة المبالغة في كل من ﴿كذاب، العزيز، الوهاب، أواب﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾؛ لأن السبب في الأصل: الحبل، استعير لمعارج السموات، وطرقها أو أبوابها.

ومنها: المجاز المبني على التشبيه في قوله: ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ لأن الملة حقيقة فيما شرع الله لعباده على يد الأنبياء. فإطلاق كل منهما على طريقة المشركين مجاز، كما في «الروح».

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ لزيادة التعجب، والإنكار. أكده بـ﴿إنّ﴾، وباللام، وباسمية الجملة.

ومنها: زيادة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ للدلالة على القلة والتحقير.

ومنها: الاستعارة البليغة في قوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾. شبه ملك فرعون في ثباته ورسوخه بخيمة عظيمة، شُدت أطنابها بالأوتاد لتثبت، وترسخ، ولا تقتلعها الرياح، ثم استعيرت له استعارة بالكناية، وأثبت له لوازم المشبه به. وهو الأوتاد، تخييلاً، ووجه تخصيص هذه الاستعارة، أن أكثر بيوت العرب كانت خياماً، وثباتها بالأوتاد، ويجوز أن يكون المعنى: ذو الجموع الكثيرة، سموا بذلك لأنهم يشدون البلاد والملك، ويشد بعضهم بعضاً كالوتد يشد البناء، والخباء، فتكون الأوتاد استعارة تصريحية.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.

ومنها: تصدير الدعاء بالنداء في قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ للإمعان في الاستهزاء، والسخرية كأنهم يدعون ذلك، بكمال الرغبة والابتهال.

ومنها: العدول عن الاسمية إلى الفعلية في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حيث لم يقل: مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح، وحدوثه شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، وكأن السامع حاضر تلك الحال، يسمع تسبيحها.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾؛ لأن المراد بهما: المساء، والصباح.

ومنها: أسلوب التشويق، والتعجيب في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾؛ لأن المراد بالاستفهام هنا: التشويق والتعجيب، كما مر.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾؛ لأن النعجة في الأصل: الأنثى من الضأن، فصارت هنا كناية عن المرأة.

ومنها: أسلوب الإطناب في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلخ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: مصلياً، إذ فسر الركوع بالصلاة، لما فيه من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إيذاناً بكمال شناعة الضلال عنه.

ومنها: توافق الفواصل، مراعاة لرؤوس الآيات مثل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾، ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] ذكر أن الذين يضلون عن سبيل الله، لهم العذاب الشديد يوم الحساب، لظنهم أنه ليس بكائن.. أعقب هذا ببيان أن هذا اليوم آت لا ريب فيه؛ لأنه سبحانه، لم يخلق الخلق عبثاً، بل خلقهم لعبادته

(١) المراغي.

وتوحيده، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيعين، ويعذب الكافرين، ثم أردف ذلك، ببيان فضل القرآن، الذي أنزله على رسوله هادياً للناس، ومنقذاً لهم من الضلالة إلى الهدى، فإذا هم تدبروا آياته، واتعظوا بعظاتها.. سعدوا في الدارين، وبلغوا السماكين، وكانوا سادة العالم أجمع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبي ﷺ، فوصفوه بأنه ساحر كذاب، وقالوا استهزاء: ربنا عجل لنا قطنا.. أمره بالصبر على أذاهم لوجهين:

أحدهما: إن المتقين من الأنبياء قبله صبروا على كثير من المكاره، فعليه أن يقتدي بهم، ويجعلهم أسوة لَهُ.

وثانيهما: ما ذكره في هذه الآيات والتي بعدها، من أن من أطاع الله، كان له من الثواب كذا وكذا، ومن خالفه، كان له من العقاب كذا وكذا، وكل ذلك مما يوجب الصبر على الأذى حين تبليغ الرسالة، وعلى ما يلاقيه من المكاره.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات، جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من أمر البعث، والحساب، أي: ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً ﴿بَٰطِلًا﴾؛ أي: عبثا خارجاً عن الحكمة الباهرة، بل[2] خلقناها للدلالة على قدرتنا، وليكون مداراً للعلم والعمل، ومذكراً للآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، فإن الدنيا لا تخلو عن الصفو والكدر، وكل منهما يفصح عما في الآخرة من الراحة والخطر، وأيضاً ليكون مرآة يشاهد فيها المؤمنون الذين ينظرون بنور الله، شواهد صفات الجمال والجلال، فانتصاب ﴿بَٰطِلًا﴾ إما على المصدرية؛ أي: خلقاً

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

باطلاً، أو على الحالية؛ أي[1]: ذوي باطل، بمعنى مبطلين عابثين، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾، أو على أنه مفعول لأجله؛ أي: للعبث واللهو، بل للحكمة.

والمعنى: أي وما أوجدنا السماء، وما فيها من زينة ومنافع للناس، والأرض، وما فيها من فوائد في ظاهرها، وباطنها لهم، وما بينهما مما يعلمون، وما لا يعلمون لهواً ولعباً، بل خلقناها مشتملة على حكم باهرة، وأسرار بالغة، ومصالح جمة، فقد خلقناها للعمل فيها بطاعتنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، فإنا لن نترك الناس سدًى، بل سنعيدهم بعد موتهم إلى حياة أخرى يحاسبون فيها على النقير، والقطمير، والقليل، والكثير، ثم يلقون الجزاء على ما كسبت أيديهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم بيّن أن هذا الظن الفاسد، قد ظنه الذين كفروا بالله تعالى، وجحدوا آياته. فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: كونه خلقاً باطلاً خالياً عن الغاية، والحكمة الباهرة. ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي[2]: مظنون كفار مكة، فإنهم وإن كانوا مقرين بأن الله هو الخالق، لكن لما اعتقدوا بأن الجزاء الذي هو علة خلق العالم باطل، لزمهم أن يظنوا أن المعلول باطل، ويعتقدوا ذلك؛ أي: أنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض، ويقولون: إنه لا قيامة، ولا بعث، ولا حساب، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً.

والفاء في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت كون مظنونهم هذا، وأردت بيان عاقبتهم. فأقول لك: الهلاك كل الهلاك، أو شدة الهلاك حاصل ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خبر لويل. ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ﴿مِن﴾: تعليلية، مفيدة لعلية النار، لثبوت الويل لهم صريحاً، بعد الإشعار بعلية ما يؤدي إليها من ظنهم وكفرهم؛ أي: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم

---

(١) البيضاوي.	(٢) روح البيان.

وكفرهم، فلا بد من رؤية الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتدارك زاد اليوم؛ أي: يوم الجزاء ظاهراً وباطناً، ليحصل الخلاص والنجاة، والنعيم واللذات في أعلى الدرجات.

ثم بيّن سبحانه[1]، أن مقتضى عدله وحكمته، أن لا يساوي بين الذين أحسنوا بالحسنى، والذين اجترحوا السيئات، ودسوا أنفسهم بكبير الآثام، والذنوب. فقال ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطى في الآخرة كما تعطون على تقدير وقوعها، فنزلت الآية. و﴿أَمْ﴾ فيه منقطعة، تقدر ببل التي للإضراب الانتقالي، وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أنجعل الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وعملوا بفرائضه، كالمفسدين في الأرض بالشرك والمعاصي؛ أي[2]: لا نجعلهم سواء. فلو بطل البعث والجزاء، كما يظن الكفار، لاستوت عند الله، حال من أصلح، ومن أفسد، ومن سوّى بينهما كان سفيهاً، والله تعالى منزه عن السفه، فإنما بالإيمان، والعمل الصالح يرفع المؤمنين ويرد الكافرين إلى أسفل سافلين.

ثم أضرب سبحانه إضراباً آخر، وانتقل عن الأول إلى ما هو أوضح استحالة منه، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾؛ أي: بل أنجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين، والمنافقين، والمنهمكين في معاصي الله سبحانه، من المسلمين؛ أي: لا نجعلهم مثلهم. وقيل[3]: إن الفجار هنا خاص بالكافرين. وقيل: المراد بالمتقين: الصحابة. ولا وجه للتخصيص بغير مخصص، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقال ابن عباس: الآية عامة في جميع المسلمين والكافرين. وقيل: في جماعة من المؤمنين والكافرين معينين بارزوا يوم بدر علياً، وحمزة، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، وعتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، ووصف كلا بما ناسبه .اهـ من «البحر».

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

أي[1]: كما لا نجعل[2] أهل الإيمان والعمل الصالح، الذين هم مظاهر صفات لطفنا وجمالنا، كالمفسدين الذين هم مظاهر صفات قهرنا وجلالنا، كذلك لا نجعل أهل التقوى كالفجار، والفجور: شق سر الديانة، أنكر التسوية أولاً بين أهل الإيمان والشرك، ثم بين أهل التقوى والهوى يعني: من المؤمنين، وهو المناسب لمقام التهديد، والوعيد كي يخاف من الله تعالى، كل صنف بحسب مرتبته، ويجوز أن يكون تكرير الإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين، يمنعان التسوية من الحكيم الرحيم.

واعلم[3]: أن الله تعالى، سوّى بين الفريقين في التمتع بالحياة الدنيا، بل الكفار أوفر حظاً من المؤمنين؛ لأن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، لكن الله جعل الدار الآخرة، للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وهم المؤمنون المخلصون، المنقادون لله ولأمره، وإنما لم يجازه في هذه الدار، لسعة رحمته، وضيق هذه الدار، فلذا أخر الجزاءَ إلى الدار الآخرة، فإذا ترقى الإنسان من الهوى إلى الهدى، ومن الفجور إلى التقوى.. أخذ الأجر بالكيل الأوفى.

والمعنى[4]: أي بل أنجعل من آمنوا بربهم، واعتقدوا أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ملكه، وأصلحوا أعمالهم، فأدوا ما يجب للخلق والخالق، وائتمروا بما أمر به ربهم على لسان أنبيائه، وانتهوا عما نُهوا عنه، فلم يدسوا أنفسهم بفعل شيء من كبائر الآثام، خوفاً من يوم، تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، ولا تُقبل الشفاعة ولا الفداء من أحد إلا لمن أذن له الله، كمن كفروا به، وعاثوا في الأرض فساداً، وهاموا فيها على وجوههم، لا دين يمنعهم، ولا زاجر يردعهم، إذ هم ينكرون الجزاء، والحساب، والإعادة بعد الموتة الأولى، ويقولون: ما هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، فأنى لمثل هؤلاء أن يرعووا عن غي، أو يكفوا عن معصية؟ بل هم جهد استطاعتهم يحصلون على اللذات، ويجترحون السيئات بما وسوس إليهم به

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

الشيطان، أن لا حلال، ولا حرام، ولا جنة، ولا نار، فما هذه إلا أساطير الأولين، وإذا كان هذا حقاً، واقتضته الحكمة، وأوجبته العدالة، فلا بد من دار أخرى يجازى فيها المطيع، ويثاب على ما عمل، ويعاقب فيها العاصي، على ما دنس به نفسه من شرك بربه، واجتراح للإثم، والعصيان، ومخالفة أمر الواحد الديان. والعقول السليمة، والفطر الصحيحة، ترشد إلى هذا، وتؤيده، وتدل عليه، وتثبته، فإنا نرى الظالم الباغي، قد يزداد في دنياه مالاً وولداً، ويتمتع بصنوف اللذات من الدور، والقصور، والفراش الوثير، والسكن في الجنات، ويركب فاره الخيول المطهمة، والمراكب الفاخرة، ويشار إليه بالبنان، بينما نرى المطيع لربه المظلوم من بني جنسه، قد يعيش عيش الكفاف، ولا يجد ما يقيم به أوده، ويسد به مخمصته، أفيكون من حكمة الحكيم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، أن يترك الناس سدًى، يفعلون ما شاؤوا بلا حساب ولا عقاب، أو ينتصف للمظالم من الظالم، ويُرجع الحق إلى صاحبه، وربما لا يحصل هذا في الدنيا، فلا بد من دار أخرى، يكون فيها العدل، والإنصاف، والكيل بالقسط، والميزان، وتلك هي الدار التي وعد بها الرحمٰن، على ألسنة رسله الكرام، صدق ربنا، وإن وعده لحق، وإن هذا اليوم آت لا شك فيه، لتُجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم.

ولما كان القرآن، هو الذي يرشد إلى مثل هذه المقاصد الشريفة، والمآخذ العقلية الصحيحة، وكان منبع السعادات والخيرات.. وصفه أولاً، ثم بيّن المصلحة، فقال: ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، وهو عبارة عن القرآن؛ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد. صفة لكتاب ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ خبر ثان للمبتدأ المحذوف، ولا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب، لما تقرر عندهم، من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح، عن غير الصريح، وقد جوزه بعض النحاة، قرأ الجمهور: ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ بالرفع على الصفة لـ﴿كتاب﴾، وقرىء ﴿مباركا﴾ بالنصب على الحال اللازمة، والتقدير؛ أي: هذا القرآن الذي نتلوه عليك يا محمد، كتاب أنزلناه إليك، كثير المنفعة ديناً ودنيا، لمن آمن به، وعمل بأحكامه، وحقائقه، وإشاراته، فإن البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك ما فيه ذلك الخير.

﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾؛ أي: أنزلناه ليتفكروا في آياته بالفكر السليم، فيعرفوا ما يُتّبع ظاهرها من المعاني الفائقة، والتأويلات اللائقة؛ أي: ليتفكروا في معاني آياته، ويتأملوا فيها، وفي الآية دليل على أن الله سبحانه، إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة، بدون تدبر. وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ بياء الغيبة وشد الدال، وأصله: ﴿ليتدبروا﴾. وقرأ علي رضي الله عنه بهذا الأصل. وقرأ أبو جعفر، وشيبة ﴿لتدبروا﴾ بتاء الخطاب، وتخفيف الدال، وجاء كذلك عن عاصم، والكسائي بخلاف عنهما، والأصل: لتتدبروا بتاءين، فحذفت إحداهما على الخلاف الذي فيها، أهي تاء المضارعة، أم التاء التي تليها؟.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: وليتعظ به أصحاب العقول الخالصة عن شوب الوهم. عمم[2] التدبر لعموم العلماء، وخص التذكر بخصوص للعقلاء؛ لأن التدبر للفهم، والتذكر لوقوع الإجلال، والخشية الخاص بأكابر أهل العلم.

فعلم[3] أن المقصود من كلام الحق التفكر، والتذكر والاتعاظ به، لا حفظ الألفاظ فقط، وكان الصحابة يكتفون ببعض السور القرآنية، ويشتغلون بالعمل بها، فإن المقصود من القرآن العمل به.

والمعنى[4]: أي أنزلنا إليك هذا الكتاب، النافع للناس، المرشد لهم، إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في دينهم ودنياهم، الجامع لوجوه المصالح، ليتدبرها أولوا الحجا، الذين قد أنار الله بصائرهم، فاهتدوا بهديه، وسلكوا في أعمالهم ما أرشد إليه، وتذكروا مواعظه وزواجره، واعتبروا بمن قبلهم، فارعووا عن مخالفته، حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالغابرين، ويستأصلهم كما استأصل السابقين، ممن بغوا في الأرض فساداً، وما تدبره بحسن تلاوته، وجودة ترتيله، بل بالعمل بما فيه، واتباع أوامره ونواهيه، ومن ثم قال الحسن البصري: قد قرأ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

القرآن عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه، وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن، فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء، ولا الورعة لا أكثر الله في الناس من مثل هؤلاء، فمن[1] اقتفى بظاهر المتلو، كان مثله، كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نتوج لا يستولدها قال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تعوّذوا بالله من فخر القراء، فإنهم أشد فخراً من الجبابرة». ولا أحد أبغض إلى رسول الله ﷺ، من قارىء متكبر. وعن علي رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من دار الحزن، فإنها إذا فتحت، استجارت منها جهنم سبعين مرة، أعدها الله للقراء المرائين بأعمالهم، وإن شر القراء لمن يزور الأمراء». وفي سلسلة الذهب للمولى الجامي رحمه الله تعالى: رب تال، يفوه بالقرآن، وهو يُفضي به إلى الخذلان.

قصص سليمان حين عُرض عليه الصافنات الجياد

ثم أخبر سبحانه، بأن من جملة نعمه على داود، أنه وهب له سليمان ولداً، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: وآتينا داود ابناً يسمى سليمان من[2] المرأة التي أخذها من أوريا. والهبة[3]: عطاء الواهب بطريق الإنعام والإحسان لا بطريق العوض والجزاء، الموافق لأعمال الموهوب له. فسليمان النعمة التامة على داود؛ لأن الخلافة الظاهرة الإلهية، قد كملت لداود، وظهرت أكمليتها في سليمان، وكذا على العالمين لما وصل منه إليهم من آثار اللطف والرحمة، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: أولادنا من مواهب الله، ثم قرأ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

وروي: أن داود عليه السلام، عاش مئة سنة، ومات يوم السبت فجأة،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

ويوم السبت لهم، كيوم الجمعة لنا، أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه؛ أي: الغرفة، وينزل، وقال: جئت لأقبض روحك، فقال: دعني حتى أنزل وأرتقي، فقال: ما لي إلى ذلك سبيل، نفدت الأيام، والشهور، والسنون، والآثار، والأرزاق، فما أنت بمؤثر بعدها، فسجد داود على مرقاة من الدرج، فقبض نفسه على تلك الحال، وموت الفجأة رحمة للصالحين، وتخفيف ورفق بهم، إذ هم المنقطعون المستعدون، فلا يحتاجون إلى الإيصاء، وتجديد التوبة، ورد المظالم بخلاف غيرهم، ولذا كان من آثار غضب الله على الفاسقين، وأوصى داود لابنه سليمان بالخلافة.

ثم مدح الله سبحانه، وأثنى عليه فقال: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف؛ أي: نعم العبد هو؛ أي: سليمان لصلاحية استعداده للكمال النوعي الإنساني. وهو مقام النبوة والخلافة. وقيل: إن المدح هنا بقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ هو لداود. والأول أولى. وجملة ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لما قبلها من المدح. والأواب: الرجاع إلى الله بالتوبة، كما تقدم بيانه، أي: إن سليمان رجاع إلى الله سبحانه، بإخلاص العبودية، بلا علة دنيوية ولا أخروية، أو رجاع إلى الله في جميع الأحوال، في النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر.

والمعنى: أي ما أحقه بالمدح والثناء؛ لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى ربه في أكثر الأوقات، وفي كثير من المهمات اعتقاداً منه، بأن كل شيء من الخير، لا يتم إلا بإعانته وتوفيقه.

ثم ذكر حالاً من أحواله، التي تستحق الإطراء والثناء، فقال: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: قرّب إليه، وأظهر له ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾؛ أي: في آخر النهار ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾؛ أي: الخيول القائمة على ثلاثة قوائم، جاعلة طرف حافر، الرابعة على الأرض لنشاطها ﴿ٱلۡجِيَادُ﴾؛ أي: السريعة الجري والعدو، والظرف متعلق بمحذوف؛ أي: اذكر يا محمد لقومك، ما صدر عن سليمان حين عرضت عليه الجياد الصافنات، من العصر إلى آخر النهار لينظر إليها، ويتعرف أحوالها مقدار صلاحيتها للقيام بالمهام، التي توكل إليها حين الغزو وغيره، وقد وصفها

بالصفون والجودة ليجمع لها بين وصفين ممدوحين واقفة وجارية، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. وقيل: وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجن، بل يكون في العراب الخلَّص. والصافنات: جمع صافن. قال الزجاج: الصافن هو الذي يقف على إحدى اليدين، ويرفع الأخرى، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها، حتى كأنه يقوم على ثلاث: وهي الرجلان، وإحدى اليدين، وقد يفعل بإحدى رجليه، وهي علامة الفراهة، والجياد: جمع جواد، يقال للفرس إذا كان شديد العدو، وقيل: إنها الطوال الأعناق، من الجيد، وهو العنق.

قيل: كانت مئة فرس، وقيل: ألفاً، وقيل: كانت عشرين ألفاً، وقيل: كانت عشرين فرساً، وقيل: إنها خرجت له من البحر، وكانت لها أجنحة. روي: أن سليمان عليه السلام، غزا أهل دمشق ونصيبين، وهي قاعدة ديار ربيعة، فأصاب ألف فرس عربي، أو أصابها أبوه من العمالقة، فاستخلف عنه فيها؛ لأنها من مال المصالح، وعلى كل تقدير قعد سليمان يوماً، بعدما صلى الظهر على كرسيه، وكان يريد جهاداً، فاستعرض تلك الأفراس؛ أي: طلب عرضها عليه، فلم تزل تعرض عليه، وهو ينظر إليها، ويتعجب من حسنها حتى غربت الشمس، وغفل عن صلاة العصر، وكانت فرضاً عليه، كما في «كشف الأسرار»، وعن ورد: كان له وقتئذ من الذكر، وتهيبه قومه فلم يعلموه، فاغتم لما فاته بسبب السهو والنسيان، فاستردها، فعقرها تقرباً إلى الله، وطلباً لمرضاته على أن يكون العقر قربة في تلك الشريعة، ولذا لم ينكر عليه، أو مباحاً في ذلك اليوم، وإنما أراد بذلك: الاستهانة بمال الدنيا، لمكان فريضة الله، كما قاله أبو الليث. فلم يكن من قبيل تعذيب الحيوان، فلما عقرها لله تعالى، أبدله الله خيراً منها، وأسرع. وهي الريح تجري بأمره حيث شاء.

﴿فَقَالَ﴾ سليمان: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ﴾؛ أي: آثرت ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: حب الخيل ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾؛ أي: على ذكر ربي يعني: صلاة العصر، قاله عليه السلام عند غروب الشمس اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة، وندماً

عليه، وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها، والتعقيب بالفاء باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه، والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب، لا لتحقيق مضمون الخبر، وأصل ﴿أَحْبَبْتُ﴾ أن يُعدى بعلى؛ لأنه بمعنى: آثرت، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، وكل من أحب شيئاً فقد آثره، لكن لما أنيب مناب أنبت، وضمن معناه، عدى تعديته بعن، و﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ مفعوله؛ أي: مفعول به لأنبت المضمن، والذي أُنيب مناب الذكر، هو الاطلاع على أحوال الخيل، لا حب الخيل، إلا أنه عُدّي الفعل إلى حب الخيل، للدلالة على غاية محبته لها، والخير: المال الكثير، والمراد به: الخيل التي شغلته عليه السلام.

ومعنى الآية: أنبت حب الخيل؛ أي: جعلته نائباً عن ذكر ربي، ووضعته موضعه، وكان يجب لمثلي، أن يشتغل بذكر ربه، وطاعته.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الشمس، واستترت ﴿بِالْحِجَابِ﴾؛ أي: بما يحجبها عن الأبصار، وهو معربها، قال قتادة، وكعب: الحجاب: جبل أخضر محيط بالخلائق، وهو جبل قاف، وقيل: هو جبل دون قاف، بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه، اهـ «خازن». وسمي الليل حجاباً، لأنه يستر ما فيه، والضمير في ﴿تَوَارَتْ﴾ للشمس، وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها، إذ لا شيء يتوارى حينئذ غيرها. و﴿حَتَّىٰ﴾ متعلقة بقوله: ﴿أَحْبَبْتُ﴾، وغاية له باعتبار استمرار المحبة، ودوامها حسب استمرار العرض.

والمعنى: أنبت حب الخير عن ذكر ربي، واستمر ذلك حتى توارت؛ أي: غربت الشمس، تشبيهاً لغروبها في مغربها، بتواري الجارية المخبأة بحجابها؛ أي: المستترة بخبائها وخدرها. وقيل: الضمير في ﴿تَوَارَتْ﴾ للصافنات؛ أي: حتى توارت بحجاب الليل؛ أي: بظلامه؛ لأن ظلام الليل يستر كل شيء.

وقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ من تمام مقالة سليمان، والخطاب لأهل العرض من قومه؛ أي: أعيدوا تلك الخيل علي، والفاء في قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ عاطفة على مقدر يقتضيه السياق، و﴿طفق﴾ من أفعال الشروع بمعنى:

أخذ، وشرع. ومسحته بالسيف كناية عن الضرب. والسوق: جمع ساق كدور ودار، والسوق: ما بين الكعبين: كعب الركبة، وكعب القدم، والتقدير: فردوها عليه، فأخذ يمسح بالسيف مسحاً سوقها وأعناقها؛ أي: يقطع أعناقها، ويعرقب رجلها؛ أي: هو وأصحابه، أو يذبح بعضها، ويعرقب بعضها إزالة للعلاقات، ورفعاً للحجاب الحائل بينه وبين الحق سبحانه، واستغفاراً وإنابةً إليه بالترك والتجريد، وفي الآية إشارة إلى أن حب غير الله شاغل عن الله، وموجب للحجاب، وأن كل محبوب سوى الله إذا حجبك عن الله لحظة، يلزمك أن تعالجه بسيف نفي لا إله إلا الله. قال الحسن: إن سليمان، لما شغله عرض الخيل، حتى فاتته صلاة العصر، غضب لله، وقال: ردوها علي؛ أي: أعيدوها إلي. وقيل: الضمير في ﴿رُدُّوهَا﴾ يعود إلى الشمس، ويكون ذلك معجزة له، والخطاب للملائكة الموكلين بالشمس، يعني: ردوا الشمس، فردوها إلى موضع وقت صلاة العصر، حتى صلى العصر في وقتها.

وقال الإمام في «تفسيره»: الصواب أن يقال: إن رباط الخيل، كان مندوباً إليه في دينهم، كما هو مندوب إليه في شرعنا، ثم إن سليمان عليه السلام، احتاج إلى الغزو، فجلس على كرسيه، وأمر بإحضار الخيل، وأمر بإجرائها، وذكر أني لا أجريها لأجل الدنيا وحظ النفس، وإنما أجريها وأحبها، لأمر الله تعالى، وتقوية دينه، وهو المراد من قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، ثم إنه أمر بإجرائها وتسييرها، حتى توارت بالحجاب؛ أي: غابت عن بصره، فإنه كان له ميدان واسع، مستدير، يسابق فيه بين الخيل، حتى تتوارى عنه، وتغيب عن عينه، ثم أنه أمر الرائضين بأن يردوها، فردوا تلك الخيل إليه. فلما عادت إليه، طفق يمسح سوقها وأعناقها؛ أي: بيده حباً لها، وتشريفاً وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان، في قهر الأعداء، وإعلاء الدين، وهو قول الزهري، وابن كيسان وليس فيه نسبة شيء من المنكرات إلى سليمان عليه السلام، فهو أحق بالقبول عند أولي الأفهام، وقال ابن جرير الطبري[1] (٢٣/١٥٦): حدثني علي حدثنا أبو

---

(١) الطبري.

صالح قال: حدثني معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾. يقول: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حباً لها، وقال الطبري: وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية؛ لأن نبي الله عليه السلام، لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة يعني ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف ويهلك مالاً من أمواله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها، اهـ.

وخلاصة معنى الآية على هذا القول[1]: أن سليمان احتياطاً للغزو، أراد أن يعرف قوة خيوله، التي تتكون منها قوة الفرسان، فجلس وأمر بإحضارها وإجرائها أمامه، وقال: إني ما أحببتها للدنيا ولذاتها، وإنما أحببتها لأمر الله، وتقوية دينه، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره، أمر راكضيها بأن يردوها إليه، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها سروراً بها، وامتحاناً لأجزاء أجسامها، ليعرف مابها فربما يكون فيها من عيوب قد تخفى، فتكون سبباً في عدم أدائها مهمتها على الوجه المرضي.

وقال الشوكاني: وقد اختلف[2] المفسرون في تفسير هذه الآية، فقال قوم: المراد بالمسح: قطع أعناقها وعراقيبها بالسيف، وقال آخرون منهم: الزهري، وقتادة: إن المراد بالمسح: كشف الغبار عن سوقها وأعناقها، وإزالته عنها، حباً لها وتشريفاً لها، والقول الأول أولى بسياق الكلام، فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه، حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم بردها عليه، ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك، وما صده عن عبادة ربه، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه، ولا يناسب هذا، أن يكون الغرض من ردها عليه، هو كشف الغبار عن سوقها، وأعناقها بالمسح عليها بيده، أو بثوبه، ولا متمسك لمن قال: إن إفساد المال، لا يصدر عن النبي، فإن هذا مجرد استبعاد، باعتبار ما هو المتقرر في شرعنا، مع جواز أن يكون في شرع سليمان، أن مثل هذا مباح، على أن إفساد المال

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

المنهي عنه في شرعنا، إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح، وأما لغرض صحيح، فقد جاز مثله في شرعنا، كما وقع منه ﷺ، من إكفاء القدور، التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة، ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة، ومن ذلك ما وقع من الصحابة، من إحراق طعام المحتكر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَسْحًۢا﴾، وزيد بن علي: ﴿مساحاً﴾ على وزن قتال، وقرأ الجمهور: ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ بغير همز على وزن فعل، وهو جمع ساق كدار ودور، وقرأ ابن كثير: ﴿بالسؤق﴾ بالهمز. وقال أبو علي: هي لغة ضعيفة، وليست ضعيفة؛ لأن أبا حَيَّةَ النميري، كان يهمز كل واو قبلها ضمة، سماعاً، وكان ينشد:

حب المؤقد بن أبي مؤسى

وجاءت هذه القراءة على هذه اللغة، وقرأ ابن محيصن، وأبو عمران الجوني: ﴿بالسؤوق﴾ بوزن الرؤوس، رواهما بكار عن قنبل، وقرأ زيد بن علي ﴿بالساق﴾ مفرداً اكتفي به عن الجمع لأمن اللبس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ابتلينا سليمان، واختبرناه[2] بمرض عضال ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾؛ أي: طرحناه ﴿عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ وسرير ملكه حال كونه ﴿جَسَدًا﴾؛ أي: جسماً ضعيفاً، لشدة وطأته عليه، والعرب تقول في الضعيف: إنه لحم على وضم، وجسم بلا روح. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: رجع سليمان بعد إلى حاله الأولى، واستقامت له الأمور كما كان، وما روي من قصص الخاتم، والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان، فذلك من أباطيل اليهود، دسوها على المسلمين، وأبى قبولها العلماء الراسخون، ومن ثم قال الحافظ بن كثير: وقد رويت هذه القصة، مطولة عن جماعة من السلف رحمهم الله تعالى كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين. وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، انتهى.

---

(١) البحر المحيط بتصرف وزيادة من زاد المسير.

(٢) المراغي.

وهذه هي التي سنذكرها بعد.

وعبارة «الخازن» هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ بن داود عليهما السلام؛ أي[1]: اختبرناه، وابتليناه، بسلب ملكه عنه، وكان سبب ذلك ما ذكر عن وهب بن منبه قال: سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر، يقال لها: صيدون، وبها ملك عظيم الشأن، ولم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر، وكان الله تعالى، قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً، لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر، إنما يركب إليه الريح، فخرج إلى تلك المدينة، تحمله الريح على ظهر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها، وسبى ما فيها، وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك، يقال لها: جرادة، لم ير مثلها حسناً وجمالاً، فاصطفاها لنفسه، ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه، وأحبها حباً لم يحبه شيئاً من نسائه، وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها، ولا يرقأ دمعها، فشق ذلك على سليمان، فقال لها: ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ؟ قالت: إني أذكر أبي، وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه، فيحزنني ذلك، فقال سليمان: فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه، وسلطاناً أعظم من سلطانه، وهداك إلى الإسلام، وهو خير من ذلك، قالت: إن ذلك كذلك، ولكني إذا ذكرته أصابني ما تراه من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين، فصوروا لي صورته في داري التي أنا فيها، أراها بكرة وعشياً، لرجوت أن يُذهب ذلك حزني، وأن يسلي عني بعض ما أجد في نفسي، فأمر سليمان الشياطين، فقال: مثّلوا لها صورة أبيها في دارها، حتى لا تُنكر منه شيئاً، فمثّلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه؛ إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صنعوه، فألبسته ثياباً مثل ثيابه التي كان يلبسها، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها، تغدوا إليه في ولائدها، فتسجد له، ويسجدن معها كما كانت تصنع في ملكه، وتروح في كل عشية بمثل ذلك، وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً، وبلغ ذلك آصف بن برخيا، وكان صديقاً، وكان لا يُرد عن

(١) الخازن.

أبواب سليمان؛ أي: ساعة أراد دخول شيء من بيوته، دخل حاضراً كان سليمان أو غائباً، فأتاه فقال: يا نبي الله كبر سني، ورق عظمي، ونفد عمري، وقد حان مني الذهاب، وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت، أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى، وأُثني عليهم بعلمي فيهم، وأُعلّم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمرهم، فقال: افعل. فجمع له سليمان الناس، فقام فيهم خطيباً، فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى، وأثنى على كل نبي بما فيه، وذكر ما فضّله الله تعالى به، حتى انتهى إلى سليمان، فقال: ما كان أحكمك في صغرك، وأورعك في صغرك، وأفضلك في صغرك، وأحكم أمرك في صغرك، وأبعدك عن كل ما يكره الله تعالى في صغرك، ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه من ذلك، حتى ملىء غضباً، فلما دخل سليمان داره دعاه فقال: يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى، فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم، وعلى كل حال من أمرهم، فلما ذكرتني جعلت تثني علي خيراً في صغري، وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري، فما الذي أحدثت في آخر عمري؟. فقال آصف: إن غير الله يُعبد في دارك منذ أربعين صباحاً، في هوى امرأة، فقال سليمان: في داري؟ قال: في دارك، قال: فإنا لله وإنا إليه راجعون، قد عرفت أنك ما قلت الذي قلت إلا عن شيء بلغك، ثم رجع سليمان إلى داره فكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها، ثم أمر بثياب الظهيرة فأُتي بها، وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار، ولا ينسجها إلا الأبكار، ولا يغسلها إلا الأبكار، لم تمسها يد امرأة قد رأت الدم، فلبسها، ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، وأمر برماد، ففرش له، ثم أقبل تائباً إلى الله تعالى، حتى جلس على ذلك الرماد، وتمعك به في ثيابه تذللاً إلى الله تعالى، وتضرعاً إليه يبكي، ويدعو، ويستغفر مما كان في داره، فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره، وكانت له أم ولد، يقال لها: أمينة، كان إذا دخل الخلاء، أو أراد إصابة امرأة من نسائه، وضع خاتمه عندها حتى يتطهر، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر، وكان ملكه في خاتمه، فوضعه يوماً عندها، ثم دخل مذهبه، فأتاها شيطان اسمه صخر المارد، في صورة سليمان، لا تُنكر منه شيئاً، فقال: خاتمي أمينة، فتناولته إياه، فجعله في يده، ثم

خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الطير والوحش والجن والإنس، وخرج سليمان، فأتى أمينة وقد تغيرت حالته، وهيئته عند كل من رآه، فقال: يا أمينة خاتمي، قالت: من أنت؟ قال: سليمان بن داود، فقالت: كذبت قد جاء سليمان وأخذ خاتمه، وهو جالس على سرير ملكه، فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته فخرج، فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل، فيقول: أنا سليمان بن داود، فيحثون عليه التراب، ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون أي شيء يقول، يزعم أنه سليمان، فلما رأى سليمان ذلك، عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب السوق، ويعطونه كل يوم سمكتين، فإذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة، ويشوي الأخرى فيأكلها، فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدة ما كان يُعبد الوثن في داره، ثم إن آصف وعظماء بني إسرائيل، أنكروا حكم عدو الله الشيطان في تلك المدة، فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيتم؟ قالوا: نعم، فقال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه، فأسألهن هل أنكرن من خاصة أمره، ما أنكرنا في عامة الناس وعلانيتهم؟ فدخل على نسائه، فقال: ويحكن هل أنكرتن من ابن داود ما أنكرنا؟ فقلن: أشد ما يدع امرأة في دمها، ولا يغتسل من الجنابة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الحسن: ما كان الله سبحانه وتعالى، ليسلط الشيطان على نساء نبيه عليه السلام، قال وهب: ثم إن آصف خرج على بني إسرائيل، فقال: ما في الخاصة أشد مما في العامة، فلما مضى أربعون صباحاً، طار الشيطان عن مجلسه، ثم مر بالبحر، فقذف الخاتم فيه، فبلعته سمكة، فأخذها بعض الصيادين، وقد عمل له سليمان صدر يومه، فلما أمسى أعطاه سمكتيه، فباع سليمان إحداهما بأرغفة، وبقّر بطن الأخرى ليشويها، فاستقبله خاتمه في جوفها، فأخذه وجعله في يده، ووقع لله ساجداً، وعكفت عليه الطير والجن، وأقبل الناس عليه، وعرف الذي كان دخل عليه، لما كان أُحدث في داره، فرجع إلى ملكه، وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين أن يأتوه بصخر، فطلبوه حتى أخذوه، فأُتي به، فأدخله في جوف صخرة، وسُد عليه بأخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص، ثم أمر به، فقذفوه في البحر، فعلى هذا الجسد الذي أُلقي

على كرسيه صخر سمي به، وهو جسم لا روح فيه؛ لأنه كان متمثلاً بما لم يكن كذلك، والخطيئة تغافله عن حال أهله؛ لأن اتخاذ التماثيل كان جائزاً حينئذ، والسجود للصورة بغير علمه لا يضره.

وقيل في سبب فتنة سليمان عليه السلام: إن جرادة كانت أبر نسائه عنده، وكان يأتمنها على خاتمه، فقالت له يوماً: إن أخي بينه وبين فلان خصومة، فأحب أن تقضي له، فقال: نعم، ولم يفعل، فابتلي بقوله: نعم، وذكروا نحو ما تقدم، وقيل: إن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده، فأعاده في يده فسقط، وكان فيه ملكه، فأيقن سليمان بالفتنة، فأتاه آصف، فقال: إنك مفتون بذلك، والخاتم لا يتماسك في يدك، ففر إلى الله تائباً، فإني أقوم مقامك، وأسير بسيرتك إلى أن يتوب الله عليك، ففر سليمان إلى الله تعالى تائباً، وأعطى آصف الخاتم، فوضعه في يده، فثبت في يده، فأقام آصف في ملك سليمان بسيرته، أربعة عشر يوماً، إلى أن رد الله تعالى على سليمان ملكه، وتاب عليه، فرجع إلى ملكه، وجلس على سريره، وأعاد الخاتم في يده، فثبت، فهو؛ أي: آصف الجسد الذي أُلقي على كرسيه.

وروي عن سعيد بن المسيب قال: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله تعالى إليه، احتجبت عن الناس ثلاثة أيام، فلم تنظر في أمور عبادي، فابتلاه الله تعالى، وذكر نحو ما تقدم من حديث الخاتم، وأخذ الشيطان إياه، قال القاضي عياض، وغيره من المحققين: لا يصح ما نقله الأخباريون من تشبيه الشيطان به، وتسليطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، وإن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله تعالى الأنبياء من مثل هذا، والذي ذهب إليه المحققون، أن سبب فتنته، ما أخرجاه في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، كلهن تأتي بفارس، يجاهد في سبيل الله تعالى، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله تعالى، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً، فلم تحمل منه إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وايم الله الذي نفسي

بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون، وفي رواية: لأطوفن بمئة امرأة، فقال له الملك: قل: إن شاء الله، فلم يقل، ونسي، قال العلماء: والشق: هو الجسد الذي ألقي على كرسيه، وهي عقوبته، ومحنته؛ لأنه لم يستثن، لما استغرقه من الحرص، وغلب عليه من التمني، وقيل: نسي أن يستثني، كما صح في الحديث، لينفذ أمر الله، ومراده فيه، وقيل: إن المراد بالجسد، الذي ألقي على كرسيه: أنه وُلد له ولد، فاجتمعت الشياطين، وقال بعضهم: لبعض: إن عاش له ولد لم ننفك من البلاء، فسبيلنا أن نقتل ولده أو نخبله، فعلم بذلك سليمان، فأمر السحاب، فحمله، فكان يربيه في السحاب خوفاً من الشياطين، فبينما هو مشتغل في بعض مهماته إذ ألقي ذلك الولد ميتاً على كرسيه، فعاتبه الله تعالى على خوفه من الشياطين، ولم يتوكل عليه في ذلك، فتنبه لخطئه، فاستغفر ربه. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: رجع إلى ملكه بعد الأربعين يوماً. وقيل: أناب إلى الاستغفار. وهو قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾؛ أي: سأل ربه المغفرة، فقال: رب اغفر لي؛ أي: قال سليمان وهو بدل من ﴿أَنَابَ﴾، وتفسير له: رب اغفر لي ما صدر مني، من الزلة التي لا تليق بشأني. وتقديم[1] الاستغفار على استيهاب الملك الآتي، لمزيد اهتمامه بأمر الدين، وجرياً على عادة الأنبياء عليهم السلام والصالحين، في تقديم الاستغفار على السؤال، ولكون ذلك أدخل في الإجابة.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى﴾؛ أي: لا يكون، ولا يحصل ﴿لِأَحَدٍ﴾ من الخلق ﴿مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ إلي يوم القيامة. وقيل[2]: لا تسلبنيه في باقي عمري، وتعطيه غيري كما سلبته مني فيما مضى من عمري، وقرأ الجمهور[3]: ﴿مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ بسكون الياء، ونافع، وأبو عمر بفتح الياء.

وذلك[4] بأن يكون الظهور به بالفعل في عالم الشهادة، في الأمور العامة والخاصة مختصاً بي. وهو الغاية التي يمكنه بلوغها، دل على هذا المعنى قوله

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) النسفي.
(٤) روح البيان.

ﷺ: «إن عفريتاً من الجن، تفلّت عليّ البارحة، ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم، ويلعب به ولدان أهل المدينة، فذكرت دعوة أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فرددته خاسئاً»؛ أي: ذليلاً مطروداً، لم يظفر بي، ولم يغلب على صلاتي، فدل على أن الملك الذي آتاه الله سليمان، ولم يؤت أحداً غيره من بعده، هو الظهور بعموم التصرف في عالم الشهادة لا التمكن منه، فإن ذلك مما آتاه الله غيره من الكمل نبياً كان أو ولياً. ألا ترى: أن نبينا ﷺ قال: «فأمكنني الله منه»؛ أي: من العفريت، فعلمنا أن الله تعالى، قد وهب التصرف فيه، بما شاء من الربط وغيره، ثم إن الله تعالى ذكره، فتذكر دعوة سليمان، فتأدب معه كمال التأدب، حيث لم يظهر بالتصرف في الخصوص.. فكيف في العموم؟. فرد الله ذلك العفريت، ببركة هذا التأدب خاسئاً عن الظفر به، وكان في وجود سليمان عليه السلام، قابلية السلطنة العامة، ولهذا ألهمه الله تعالى، أن يسأل الملك المخصوص به، فلم يكن سؤاله للبخل، والحسد، والحرص على الاستبداد بالنعمة والرغبة فيها، كما توهمه الجهلة.

وعبارة «الخازن» هنا: فإن قلت: قول سليمان: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ مشعر بالحسد، والحرص على الدنيا.

قلت: لم يقل ذلك حرصاً على طلب الدنيا ولا نفاسة بها، ولكن كان قصده في ذلك، أن لا يسلط عليه الشيطان مرة أخرى، وهذا على قول من قال: إن الشيطان استولى على ملكه، وقيل: سأل ذلك ليكون علماً وآية لنبوته، ومعجزة دالة على رسالته، ودلالة على قبول توبته، حيث أجاب الله تعالى دعاءه، ورد ملكه إليه، وزاده فيه، وقيل: غير ذلك.

وعبارة «فتح الرحمٰن»: إن قلت: كيف[1] قال سليمان ذلك، مع أنه يشبه الحسد والبخل بنعم الله تعالى على عباده، بما لا يضر سليمان؟.

---

(١) فتح الرحمٰن.

قلت: المراد، لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني في حياتي، كما فعل الشيطان الذي لبس خاتمي، وجلس على كرسيي، أو أن الله تعالى، علم أنه لا يقوم غيره مقامه، بمصالح ذلك المكان، واقتضت حكمته تعالى تخصيصه به، فألهمه سؤاله، انتهى.

ثم علل المغفرة والهبة معاً، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ يا إلٰهي ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾؛ أي: الكثير المواهب والعطاء، فأجب طلبي، وحقق رجائي، فإن قيل[1]: قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ هل يتناول النبي ﷺ أم لا؟ قلنا: أما بالصورة فيتناول، ولكن لعلو همته وكمال قدره لا لعدم استحقاقه؛ لأنه عُرض عليه ﷺ ملك أعظم من ملكه، فلم يقبله، وقال: الفقر فخري. وأما بالمعنى: فلم يتناول النبي ﷺ؛ لأنه قال: «فضلت على الأنبياء بست» يعني: على جميع الأنبياء، ولا خفاء في أن سليمان عليه السلام، ما بلغ درجة واحد من أولي العزم من الرسل، مع اختصاصه بصورة الملك منهم، وهم معه مفضولون بست فضائل من النبي ﷺ.

ثم أخبر سبحانه، بأنه أجاب دعاءه، ووفقه لتحصيل ما أراد، وعدد نعمه عليه. فقال:

١ - ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ﴾؛ أي: فذللنا لطاعة سليمان إجابة لدعوته ﴿ٱلرِّيحَ﴾. قال أبو عمرو: إنها ريح الصبا؛ أي: جعلناها مطيعة له، لا تخالفه إجابة لدعوته، فعاد أمره عليه السلام، على ما كان عليه قبل الفتنة، فيكون ذلك مسبباً عن إنابته إلى ربه.

وفيه: إشارة إلى أن سليمان، لما فعل بالصافنات الجياد. ما فعل في سبيل الله، عوّضه الله مركباً مثل الريح، كان غدوها شهراً، ورواحها شهراً. كما في «التأويلات النجمية». وقد سبق أيضاً من «كشف الأسرار»: قال البقلي، رحمه الله: كان سليمان عليه السلام، من فرط حبه جمال الحق، يحب أن ينظر إلى صنائعه، وممالكه ساعة، فساعة من الشرق إلى الغرب، حتى يدرك عجائب ملكه

(١) روح البيان.

وملكوته، فسخر الله له الريح، وأجراها بمراده، وهذا جزاء صبره في ترك حظوظ نفسه.

وقوله: ﴿تَجْرِي﴾ وتهب ﴿بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: بأمر سليمان. بيان لتسخيرها له. وقوله: ﴿رُخَآءً﴾ حال من ضمير ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: حالة كون تلك الريح، لينة الهبوب، طيبة لا عاصفة تزعزع، ولا ينافي[1] هذا قوله في آية أخرى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ لأن المراد: أنها في قوة العاصفة ولا تعصف. وقيل: إنها كانت تارة رخاء، وتارة عاصفة على ما يريده سليمان، ويشتهيه، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين، أو المعنى: لينة في أثناء سيرها عاصفة في أوله.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ ظرف لـ ﴿تجري﴾؛ أي: تجري إلى حيث قصد وأراد من النواحي والأطراف. واعلم: أن المراد بقوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾: جريان الريح بمجرد أمره من غير جمعية خاطر، ولا همة قلب، فهو الذي جعل الله من الملك، الذي لا ينبغي لأحد من بعده، لا مجرد التسخير، فإن الله تعالى، سخر لنا أيضاً ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، ولكن إنما تفعل أجرام العالم لهمم النفوس، إذا أقيمت في مقام الجمعية، فهذا التسخير عن أمر الله، لا عن أمرنا، كحال سليمان عليه السلام، والمعنى؛ أي: فذللنا لطاعته إجابة لدعوته الريح، تجري لينةً طائعة له، لا تمتنع عليه إلى أي جهة قصد.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وقتادة، وأبو جعفر: ﴿الرياح﴾ بالجمع، وهو أعم لعظم ملك سليمان، وإن كان المفرد بمعنى الجمع لكونه اسم جنس.

٢ - ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ معطوف على الريح ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدل من الشياطين، وهو مبالغة بأن اسم فاعل من بنى، وكانوا يعملون له عليه السلام، ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان، كالجواب وقدور راسيات، كما سبق في سورة سبأ، ويبنون له الأبنية الرفيعة بدمشق واليمن، ومن بنائهم: بيت المقدس واصطخر

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

وهي من بلاد فارس، تنسب إلى صخر الجنّي، المراد بقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾. ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ معطوف على ﴿بَنَّآءٍ﴾. مبالغة غائص. اسم فاعل من غاص الماء يغوص غوصاً؛ أي: يغوصون في الماء، ويستخرجون له من البحر الدرر، والجواهر، والحلي، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر.

والمعنى: أي وذللنا لأمره البنائين من الشياطين والغواصين في البحار، منهم يسخرهم فيما يريد من الأعمال، فإذا أراد بناء العمائر والقصور، أو الحصون والقناطر، أنجزوها له في الزمن القصير، وإذا أحب استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار، لجعلهما حلية لمن في قصوره لبوا طلبه سراعاً.

٣ - ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ معطوف على ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾، داخل في حكم البدل؛ أي: وسخرنا له شياطين آخرين، مخالفين أمره ليصفدهم في الأصفاد، وقوله: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ بصيغة اسم المفعول، من التفعيل، صفة لـ﴿آخرين﴾ من قرّنت الشيء بالشيء؛ أي: وصلته به، وشدد العين للمبالغة والكثرة، ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلق بمقرنين، جمع صفد محركة، وهو القيد من الحديد، ويسمى الأغلال، والسلاسل.

ومعنى الآية: وسخرنا له شياطين آخرين لا يبنون، ولا يغوصون، فقرنهم، وأوثقهم في الأصفاد، والسلاسل، والأغلال من الحديد، لكفهم عن الشر والفساد.

وخلاصة ما سلف[1]: أن سليمان قد استعمل الشياطين في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص في الماء، ومن لم يطع أمره، وضعه في السلاسل والأغلال، كفاً لشره، وعقاباً له، وعبرة لغيره، فإن قيل: إن[2] هذه الآية، تدل على أن الشياطين لها قوة عظيمة، قدروا بها على تلك الأبنية العظيمة، التي لا يقدر عليها البشر، وقدروا على الغوص في البحار، واستخراج جواهرها، وأنى يمكن

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

تقييدهم وتصفيدهم بالأغلال والأصفاد؟. وفيه إشكال، وهو أن هذه الشياطين، إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة، فإن كانت كثيفة، وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة، إذ لو جاز أن لا يراهم مع كثافة أجسادهم، لجاز أن يكون بحضرتنا جبال عالية، وأصوات هائلة لا نراها، ولا نسمعها، وذلك سفسطة، وإن كانت أجسادهم لطيفة، واللطافة تنافي الصلابة، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة، بحيث يقدر بها على ما لا يقدر عليه البشر؛ لأن الجسم اللطيف، يكون ضعيف القوام، تتمزق أجزاؤه بأدنى المدافعة، فلا يطيق تحمل الأشياء الثقيلة، ومزاولة الأعمال الشاقة، وأيضاً لا يمكن تقييده بالأصفاد والأغلال، قلنا: إن أجسادهم لطيفة، ولكن شفافة، ولطافتها لا تنافي صلابتها، بمعنى الامتناع من التفرق، فلكونها لطيفة لا تُرى، ولكونها صلبة يمكن تقييدها، وتحملها الأشياء الثقيلة ومزاولتها الأعمال الشاقة، ولو سلم أن اللطافة تنافي الصلابة، إلا أنا، لا نسلم أن اللطيف الذي لا صلابة له، يمتنع أن يتحمل الأشياء الثقيلة، ويقدر على الأعمال الشاقة، ألا ترى: أن الرياح العاصفة تفعل أفعالاً عجيبة، لا تقدر عليها جماعة من الناس.

وفي «الأسئلة المقحمة»: الجن أجسام مؤلفة، وأشخاص ممثلة، ولا دليل يقضي بأن تلك الأجسام لطيفة أو كثيفة، بل يجوز أن تكون لطيفة، وأن تكون كثيفة، وإنما لا نراهم لا للطافتهم كما يزعمه المعتزلة، ولكن لأن الله تعالى لم يخلق فينا إدراكاً لهم، انتهى.

والحق أن يقال[1]: إنا لا نعلم حقيقة تلك القيود، ولا كيف تكون العقوبة، كما لا نعلم كيف يشتغل الشياطين، وكيف يبنون أو يغوصون؟. فكل ذلك في عالم لا ندرك شيئاً من أحواله، فعلينا أن نؤمن، بأن سليمان لعظم ملكه، لم يكتف بتسخير الإنس في أعماله، بل سخر معهم الجن، فيما يصعب عليهم، ونتقبل هذا كما قصه القرآن، دون دخول في التفاصيل خوفاً من الزلل الذي لا

---

(١) المراغي.

تؤمن مغبته، ولا نصل أخيراً إلى معرفة الحق فيه، ولنكتف بذلك، فالعبرة به ماثلة ولا نتزيد فيه.

روي[1]: أن الله تعالى أجاب دعاء سليمان، بأن سخر له ما لم يسخره لأحد من الملوك، وهو الرياح، والشياطين، والطير، وسخر له من الملوك، ما لم يتيسر لغيره مثل ذلك، فإنه روي: أنه ورث ملك أبيه داود، في عصر كيخسرو بن سياوش، وسار من الشام إلى العراق، فبلغ خبره إلى كيخسرو، فهرب إلى خراسان، فلم يلبث إلا قليلاً حتى هلك، ثم سار إلى مرو ثم سار إلى بلاد الترك فوغل فيها، ثم جاز بلاد الصين، ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس، فنزلها أياماً، ثم عاد إلى الشام، ثم أمر ببناء بيت المقدس، فلما فرغ منه سار إلى تهامة، ثم إلى صنعاء، وكان من حديثه مع صاحبة صنعاء، وهي بلقيس، ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. وغزا بلاد المغرب، والأندلس، وطنجة وإفرنجة، ونواحيها.

ثم ذكر سبحانه، أنه أباح له أن يتصرف في كل هذا الملك الواسع، كما شاء، دون رقيب ولا حسيب. فقال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ وهو معمول لقول محذوف؛ أي[2]: فسخرنا له جميع ما ذكر، وقلنا له: هذا الذي أعطيناك من الملك العظيم والبسطة، والتسلط على ما لم يتسلط عليه غيرك، عطاؤنا الخاص بك، الذي لا يقدر عليه غيرنا. ﴿فَٱمْنُنْ﴾؛ أي: فأعط منه من شئت من قولهم: من عليه مناً إذا أنعم عليه. ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ أي: وامنع منه من شئت. و﴿أَوْ﴾ هنا للإباحة. وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من المستكن في الأمر؛ أي: حالة كونك غير محاسب على منّه وإحسانه، ومنعه وإمساكه، لا حرج عليك فيما أعطيت، وفيما أمسكت، لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق. وقيل[3]: الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد بالمن والإمساك: إطلاقهم أو إبقائهم في القيد. وفي «المفردات»: قيل: تصرف فيه تصرف من لا يحاسب؛ أي: تناول كما تحب في

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البيضاوي.

وقت ما تحب، وعلى ما تحب، وأنفقه كذلك، انتهى. قال الحسن. ما أنعم الله على أحد نعمة، إلا كان عليه تبعة إلا سليمان. فإن أعطى أجر عليه، وإن لم يُعط لم يكن عليه تبعة وإثم. وهذا مما خُص به، والتبعة: ما يترتب على الشيء من المضرة، وكل حق يجب للمظلوم على الظالم بمقابلة ظلمه عليه، قال بعض المحققين: كان سؤال سليمان ذلك عن أمر ربه، والطلب إذا وقع عن الأمر الإلهي كان امتثال أمر وعبادة، فللطالب الأجر التام على طلبه، من غير تبعة حساب ولا عقاب، فهذا الملك والعطاء، لا ينقصه من ملك آخرته شيئاً، ولا يحاسب عليه أصلاً، كما يقع لغيره، وأما ما روي: أن سليمان آخر الأنبياء دخولاً الجنة لمكان ملكه، فعلى تقدير صحته، لا ينافي الاستواء بهم في درجات الجنة، ومطلق التأخر في الدخول لا يستلزم الحساب.

وقد روي: أن الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمس مئة سنة، ويجوز أن يكون بغير حساب حالاً من العطاء؛ أي: هذا عطاؤنا ملتبساً بغير حساب، لغاية كثرته، كما يقال للشيء الكثير: هذا لا يحيط به حساب أو صلة له، وما بينهما اعتراض على التقديرين.

وبعد[1] أن ذكر ما أوتيه من نعم الدنيا، التي يحار العقل في إدراكها أبان ما له في الآخرة عند ربه، من مقام كريم وجنات نعيم، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ﴾؛ أي: لسليمان عليه السلام ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ أي: لقربى في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: وحسن مرجع، وهو الجنة؛ أي: وإن له في الآخرة لقربى وكرامة لدينا، فنبوّئه جنات النعيم، ونؤتيه الإجلال والتعظيم، فهو كما كان سعيداً في الدنيا، يكون سعيداً في الآخرة، ويفوز برضا ربه وعظيم كرامته. جعلنا الله ممن كتبت له السعادة في الدنيا، والكرامة، والمثوبة لديه في جنات النعيم، وجملة ﴿إن﴾ حال من الضمير في ﴿سَخَّرْنَا﴾؛ أي: أعدنا له الملك، والحال أن منزلته عندنا، لم تزل بزوال الملك، ولم تتغير بتغيره، بل

---

(١) المراغي.

وقع له امتحان ظاهري فقط، ورتبته على ما هي عليه، اهـ شيخنا.

وختم سبحانه وتعالى قصته، بما ذكر في قصة والده، وهو قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ دفعاً لما يتوهم من نقصان درجاتهما في الآخرة، بسبب ما أوتيا في الدنيا من الملك العظيم، والتسخير العجيب.

وقرأ الجمهور: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لَزُلْفَىٰ﴾. وقرأ الحسن، وابن أبي عبلة بالرفع، ويقفان على ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ ويبتدآن ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وهو مبتدأ خبره محذوف تقديره: وحسن مآب كائن له، وعلى قراءة الجمهور ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾، والخبر ﴿لَهُۥ﴾، والعامل في عند الخبر كما سيأتي، وفي الحديث: «أرأيتم ما أعطي سليمان بن داود من ملكه، فإن ذلك لم يزده إلا تخشعاً، ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشعاً لربه». ولذا وجد الزلفى وحسن المرجع، فطوبى له، حيث كان فقيراً في صورة الغني. روي: أن سليمان عليه السلام، فتن بعدما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة، ثم انتقل إلى حسن مآب.

قصص أيوب عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد لقومك، أو تذكر بقلبك، ليكون أسوة لك، فهو معطوف على ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان، لكمال الاتصال بينه وبين داود، حتى كأن قصتهما قصة واحدة. ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾؛ أي: قصة عبدنا أيوب بن آموى بن رازخ بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأمه من أولاد لوط بن هاران، وزوجته رحمة بنت أفرائيم بن يوسف عليه السلام، أو ليّا بنت يعقوب عليه السلام، ولذا قال في «كشف الأسرار»: كان أيوب في زمان يعقوب. أو ماخير بنت ميشا بن يوسف. والأول أشهر الأقاويل. قال القرطبي: لم يؤمن بأيوب إلا ثلاثة نفر، وعمره ثلاث وتسعون، وقوله: ﴿أَيُّوبَ﴾ عطف بيان للعبد. وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال من ﴿عَبْدَنَآ﴾؛ أي: واذكر إذ دعا أيوب ربه، وتضرع إليه بلسان الاضطرار، والافتقار ﴿أَنِّى﴾؛ أي: بأني ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: أصابني

﴿بِنُصۡبٍ﴾؛ أي: ضر وبلاء ﴿وَعَذَابٍ﴾؛ أي: إيجاع وألم شديد. فعطفه على النصب من عطل المسبب على السبب. وقرأ الجمهور: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى ربه به، ولو لم يحكه لقال: إنه مسه. لأنه غائب. وقرأ عيسى بن عمر: بكسرها على إضمار القول، وأسند المس إلى الشيطان، قال الزمخشري: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس، سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب، نسب إليه، وقد راع الأدب في ذلك، حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله، ولا يقدر عليه أحد إلا هو.

والمعنى: واذكر يا محمد لقومك، صبر أيوب حين نادى ربه، وقال: رب إني أصبت بالمرض، وتفرق الأهل، وضياع الولد. ولا يناسب مناصب الأنبياء ما ذكره الزمخشري، من أن أيوب، كانت منه طاعة للشيطان فيما وسوس به، وأن ذلك، كان سبباً لما مسه الله به من النصب والعذاب.

وقرأ الجمهور: ﴿بِنُصۡبٍ﴾ بضم النون وسكون الصاد، قيل: جمع نصب كوثن ووثن، وأسد وأُسد. وقيل: هو لغة في النصب نحو: رشد ورشد، وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة، ونافع في رواية عنه، وأبو عمارة في حفص، والجعفي، وأبو معاذ عن نافع بضمتين، ورويت هذه القراءة عن الحسن. وقرأ زيد بن علي، والحسن في رواية، والسدي، وابن أبي عبلة، ويعقوب، والجحدري بفتحتين، وقرأ أبو حيوة، ويعقوب في رواية، وهُبيرة عن حفص بفتح النون وسكون الصاد، وهذه القراءات كلها بمعنًى واحد، وإنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات، وقال أبو عبيدة: إن النَّصَبَ ـ بفتحتين ـ: التعب والإعياء. وعلى بقية القراءات: الشر والبلاء.

ومعنى قوله: ﴿وَعَذَابٍ﴾؛ أي: ألم. قال قتادة، ومقاتل: النصب في الجسد والعذاب في المال، قال النحاس: وفيه بعد كذا قال. والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي، وهو التعب والإعياء، وتفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب، وهو الألم، وكلاهما راجع إلى البدن.

وليس هذا المذكور هنا تمام دعائه عليه السلام، بل من جملته قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فاكتفي ههنا عن ذكره، بما في سورة الأنبياء، كما ترك هناك ذكر الشيطان، ثقة بما ذكره هنا، فإن قلت: لا قدرة للشيطان البتة على إيقاع الناس في الأمراض، والأسقام، لأنه لو قدر على ذلك لسعى في إهلاك الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والصالحين، فهو لا يقدر أن يضر أحداً إلا بطريق إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة، فما معنى إسناد المس إليه؟

قلت: إن الذي أصابه، لم يصبه إلا من الله تعالى، إلا أنه أسنده إلى الشيطان، لسؤال الشيطان منه تعالى، أن يمسه الله تعالى بذلك الضر، امتحاناً لصبره، ففي إسناده إليه دون الله تعالى، مراعاة للأدب كما مر آنفاً، وقيل: إنه لما عمل بوسوسته، عوقب على ذلك بذلك النصب والعذاب، فنسبه إليه، فقد قيل: إنه أعجب بكثرة ماله، وقيل: استغاثه مظلوم فلم يغثه، وقيل: إنه قال ذلك؛ لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه، فرفضوه، وأخرجوه من ديارهم، وقيل المراد به: ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه وابتلائه، من تحسين الجزع، وعدم الصبر على المصيبة، وقيل غير ذلك. والله أعلم.

روي: أن أيوب عليه السلام، كان له أموال كثيرة من صنوف مختلفة، وهو مع ذلك كله، كان مواظباً على طاعة الله، محسناً للفقراء واليتامى، وأرباب الحاجات، فحسده إبليس لذلك، وقال: إنه يذهب بالدنيا والآخرة، فقال: إلهي عبدك أيوب قد أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ولو ابتليته بنزع النعمة والعافية لتغير عن حاله، فقال تعالى: إني أعلم منه أن يعبدني ويحمدني على كل حال، فقال إبليس: يا رب سلطني عليه، وعلى أولاده وأمواله.

وقوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ مقول لقول محذوف، معطوف على مقدر تقديره: واذكر يا محمد، إذ نادى أيوب ربه فاستجبنا له، وقلنا له على لسان جبرائيل، حين انقضاء مدة بلائه: اركض، واضرب برجلك وقدمك الأرض، وهي أرض الجابية بلد في الشام من أقطاع أبي تمام، فضربها، فنبعت عين ماء، فقلنا له: ﴿هَٰذَا﴾ الماء النابع ﴿مُغْتَسَلٌۢ﴾؛ أي: ماء يُغتسل به ﴿بَارِدٌ﴾ فاغتسل به،

فباغتسالك به يبرأ ظاهرك مما به ﴿وَشَرَابٌ﴾ تشرب منه، فيبرأ باطنك مما به، والواو لتأكيد الصفة بالموصوف والظاهر[1]: أن المشار إليه كان واحداً، والعين التي نبعت له عينان شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى، وقيل: ضرب برجله اليمنى، فنبعت عين حارة، فاغتسل بها، وباليسرى فنبعت باردة فشرب منها، وهذا مخالف لظاهر قوله: ﴿مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾، فإنه يدل على أنه ماء واحد، وقال الحسن: ركض برجله، فنبعت عين ماء، فاغتسل منها، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً، ثم ركض برجله، فنبعت عين ماء فشرب منها، قيل: والجمهور على أنه ركض ركضتين، فنبعت له عينان شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى، والجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شتت منهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: مكث في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات لم يغمض فيهن، ولم ينقلب من جنب إلى جنب، كما في زهرة الرياض. ولا نعلم[2] على وجه التحقيق، قدر الزمن الذي لحقه فيه الضر، ولا نوع هذا الضر، إذ القرآن لم يصرح بهذا، ولكنا نعلم على وجه، لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفّر منه الناس، ويمنعهم من لقائه والجلوس معه؛ لأن ذلك شرط من شروط النبوة، كما أنّا نعلم من وصف الدواء الآتي الذي أوحى الله تعالى به إليه، أنه من الأمراض الجلدية التي تشفيها المياه المعدنية أو الكبريتية، كما أشار إلى ذلك بقوله واصفاً الدواء: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: حرك الأرض برجلك، واضربها بها يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب، فتبرأ مما أنت فيه من المرض.

وفي هذا[3]: إيماء إلى نوع المرض، الذي كان به، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالأكزيما، والحكة، ونحوهما مما يتعب الجسم، ويؤذيه أشد الإيذاء، لكنه ليس بقتال، وكلما تقدم الطب، أمكن للطبيب أن يبين نوع هذا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

المرض على وجه التقريب، لا على وجه التحديد، كما أن في ذلك إيماء، إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية، ذات الفائدة الناجحة في تلك الأمراض. وهي كما تفيد بالاستعمال الظاهري تفيد بالشرب أيضاً، كما نرى في العيون التي في البلاد، التي أنشئت فيها الحمامات في أوروبا ومصر والحبشة وغيرها، واستُعملت مصحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية، كمياه فيشي، وسويسرا، وحلوان، وكوسم، وعرر من الحبشة.

وكما دفع عنه سبحانه الضر، إجابة لدعائه، أجاب دعاءه في أهله وولده، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ معطوف[1] على مقدر؛ أي: فاغتسل وشرب، فكشفنا بذلك ما به من ضر، كما في سورة الأنبياء، ووهبنا له أهله، وكانوا ثلاثة عشر، روى الحسن: أن الله تعالى، أحياهم بعد هلاكهم؛ أي: بما ذكر من أن إبليس هدّم عليهم البناء فماتوا. ﴿و﴾ وهبنا له ﴿مثلهم معهم﴾ عطف على ﴿أَهْلَهُۥ﴾. فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل؛ أي: زاده على ما كان قبل البلاء، فكانوا مثلي ما كانوا من قبل ابتلائه، وانتصاب قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مفعولان لأجله؛ أي: ووهبناهم له لأجل رحمة عظيمة عليه من عندنا، ولتذكير أصحاب العقول السليمة بذلك، ليصبروا على الشدائد كما صبر، ويلجؤوا إلى الله تعالى، فيما ينزل بهم، كما لجأ هو إليه، ليفعل بهم مثل ما فعل به من حسن العاقبة.

والمعنى[2]: أي وجمعنا له أهله بعد التفرق والتشتت، وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا عليه رحمة منا، وتذكرة لأصحاب العقول السليمة، لتعتبر وتعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين، وأن من العسر يسراً، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة:

عَسَىٰ فَرَجٌ يَأْتِيْ بِهِ ٱللَّهُ إِنَّهُ ... لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِيْ خَلِيْقَتِهِ أَمْرُ

ولم يذكر لنا الكتاب الكريم، ماذا كانت حاله في ماله؟، فنُمسك عن

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الكلام كما أمسك.

ثم ذكر أنه رخص له سبحانه في تحلة يمينه، فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ معطوف[1] على ﴿ارْكُضْ﴾ أو على ﴿وهبنا﴾ بتقدير: وقلنا خذ بيدك إلخ. والأول أقرب لفظاً، وهذا أنسب معنى، فإن الحاجة إلى هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة؛ أي: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾؛ أي: ملء كفك من حشيش، أو عيدان، أو ريحان أو عثكال نخل بشماريخه ﴿فَاضْرِب بِّهِۦ﴾؛ أي: بذلك الضغث زوجك، وبر في يمينك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ فيها، فإن البر يتحقق بذلك، فأخذ ضغثاً، فضربها به ضربة واحدة، يقال: حنث في يمينه إذا لم يف بها، وكان[2] حلف في مرضه ليضربن امرأته مئة سوط إذا برأ. فحلل يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه، وهذه الرخصة باقية إلى يوم القيامة، ويجب أن يصيب المضروب كل واحدةٍ من المئة. والسبب في يمينه، أنها أبطأت عليه ذاهبةً في حاجة، وقيل: باعت ذؤابتيها برغيفين، إذ لم تجد شيئاً، وكان أيوب يتعلق بهما إذا أراد القيام، وقيل: غير ذلك، وهذا الذي ذكرنا أليق بالمقام، والضغث: عثكال النخل بشماريخه، وقال الواحدي: الضغث ملء الكف من الشجر، والحشيش، والشماريخ.

فإن قلت[3]: لم قال الله سبحانه، لأيوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، وقال لمحمد ﷺ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾؟.

قلت: لأن كفارة اليمين لم تكن لأحد قبلنا، بل هي لنا، مما أكرم الله به هذه الأمة، بدليل قوله تعالى: ﴿لكم﴾، كذا في «أسئلة الحكم»، وفي كلام بعض المفسرين: لعل التكفير لم يجز في شرعهم، أو أن الأفضل الوفاء به، انتهى.

والمعنى[4]: أي وخذ حزمة صغيرة من ريحان، أو كلأ أو عثكال نخل، فاضرب بها، فيكون ذلك تحلة ليمينك التي حلفتها، والكتاب الكريم لم يبين لنا

---

(١) الإرشاد.

(٢) النسفي.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

علام حلف، وعلى من حلف. ويذكر الرواة: أنه حلف على زوجته رحمة، بنت أفراثيم، وقد كانت ذهبت لحاجة، فأبطأت عليه، فحلف ليضربنها إن برىء مئة ضربة. فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة، ويضربها بها، وبذا يتحقق البر في يمينه رحمة به، وبها لحسن خدمتها له، وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه.

وفي هذا مخرج، وفرج لمن اتقى الله، وأناب إليه، ولهذا قال عز اسمه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾؛ أي: وجدنا أيوب، وعلمناه ﴿صَابِرًا﴾ على ما أصابه في النفس، والأهل، والمال من البلاء الذي ابتليناه، فإنه ابتلي بالداء العظيم في جسده، وذهاب ماله، وأهله، وولده، فصبر على ذلك، وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن أيوب عليه السلام، لم يكن ليجد نفسه صابراً، لولا أنا وجدناه؛ أي: جعلناه صابراً. يدل على هذا المعنى، قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: هو الذي صبرك وإن لم تكن تصبر، انتهى.

رُوي[1]: أنه بلغ أمر أيوب عليه السلام، إلى أن لم يبق منه إلا القلب، واللسان، فجاءت دودة إلى القلب فعضته، وأخرى إلى السان فعضته، فعند ذلك دعا أيوب، فوقعت دودة في الماء، فصار علقاً، وأخرى في البر، فصار نحلاً يخرج منه العسل، وفي «زهرة الرياض»: أنه بقي على بدنه أربعة من الديدان: واحد طار ووقع على شجرة الفرصاد فصار دود القز، وواحد وقع في الماء فصار علقاً، وواحد وقع في الحبوب فصار سوساً، والرابع طار ووقع في الجبال والأشجار فصار نحلاً، وهذا بعدما كشف الله عنه.

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب، وحسن ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل[2] لمدحه؛ أي: إنما قيل فيه: نعم العبد؛ لأنه رجاع إلى الله تعالى، لا إلى الأسباب، مقبل بجملة وجوده إلى طاعته، أو رجّاع إلى الحضرة في طلب الصبر على البلاء والرضى بالقضاء، ولقد سوى الله سبحانه وتعالى، بين عبديه اللذين، أحدهما: أنعم عليه فشكر، والآخر: ابتلي فصبر، حيث أثنى عليهما ثناءً واحداً، فقال في وصف سليمان:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾، وفي وصف أيوب كذلك، ولم يلزم من الأوابية الذنب، لأن بلاء أيوب، كان من قبيل الامتحان.

والمعنى: أي[1] إنا وجدنا أيوب صابراً على ما أصابه في النفس والأهل والمال، من أذى، فجازيناه بما فرّج كربته وأذهب لوعته، وليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر، وليس فيه شيء من الجزع، فهو كتمني العافية وطلب الشفاء، وقد روي أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة: اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت، وكان يقول في مناجاته: إلٰهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يلهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان.

فإن قلت[2]: كيف وصف الله تعالى أيوب عليه السلام بالصبر، مع أن الصبر ترك الشكوى من ألم البلوى، وهو قد شكا بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، وقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾؟.

قلت: الشكوى إلى الله تعالى لا ينافي الصبر، ولا تسمى جزعاً لما فيها من الجهاد والخضوع والعبودية لله تعالى، والافتقار إليه، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾، وقولهم: الصبر ترك الشكوى؛ أي: إلى العباد، أو أنه عليه السلام، طلب الشفاء من الله تعالى، بعد ما لم يبق منه إلا قلبه ولسانه، خيفة على قومه، أن يفتنهم الشيطان، ويوسوس إليهم، أنه لو كان نبياً لما ابتلي بما هو فيه، ولكشف الله ضره إذا دعاه.

ويروى: أن الله تعالى لما أذهب عن أيوب ما كان فيه من الأذى، أنزل عليه ثوبين أبيضين من السماء، فاتزر بأحدهما، وارتدى بالآخر، ثم مشى إلى منزله، فأقبلت سحابة، فسحت في أندر قمحه ذهباً حتى امتلأ، وأقبلت سحابة

---

(١) المراغي.

(٢) فتح الرحمٰن.

أخرى إلى أندر شعيره، فسحت فيه ورقاً حتى امتلأ، وشكر الله خدمة زوجته، فردها إلى شبابها، وجمالها.

قصص: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد، أو تذكّر ﴿عِبَٰدَنَآ﴾؛ أي: صبر عبادنا المخصوصين من أهل العناية ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق ليكونوا لك قدوة في الصبر، فإبراهيم ألقي في النار فصبر، وإسحاق أضجع للذبح فصبر على قول، ويعقوب ابتلي بفقد ولده وذهاب بصره فصبر. ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾؛ أي: أصحاب القوى في الأعمال الظاهرة، والأفعال الدينية ﴿و﴾ أولي ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: أصحاب الفكر الباطنة والمعارف الإلهية، والأيدي: جمع يد بمعنى: القوة، والتمكن من الأعمال الظاهرة، والأبصار: جمع بصر بمعنى: البصيرة، وهي القوة التي يتمكن بها الإنسان من إدراك المعقولات، والمعنى: أصحاب القوة في الطاعة، والبصيرة في أمور الدين.

وكأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة[1]، ولا يجاهدون في الله، ولا يتفكرون أفكار ذوي الديانات، في حكم الزمنى، الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم، والمسلوبي العقول الذين لا استبصار لهم، وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة، والتأمل مع كونهم متمكنين منهما.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾؛ أي: أولي القوة في طاعة الله تعالى. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: في المعرفة بالله تعالى، وقيل: المراد باليد. أكثر الأعمال، وبالبصر: أقوى الإدراكات، فعبّر بهما عن العمل باليد، وعن الإدراك بالبصر، وللإنسان قوتان عالمية، وعاملية، وأشرف ما يصدر عن القوة

---

(١) النسفي.

(٢) الخازن.

العالمية معرفة الله تعالى، وأشرف ما يصدر عن القوة العاملية طاعته وعبادته، فعبر عن هاتين القوتين بالأيدي، والأبصار.

وقرأ ابن عباس وابن كثير وأهل مكة[1] ﴿عَبْدَنَا﴾ على الإفراد، و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بدل منه أو عطف بيان، وقرأ الجمهور: ﴿عِبَٰدَنَآ﴾: بالجمع، وما بعده من الثلاثة، بدل أو عطف بيان، وقرأ الجمهور: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي﴾ بالياء. وقرأ عبد الله، والحسن، وعيسى، والأعمش: ﴿ٱلْأَيْدِ﴾ بغير ياء، فقيل: يراد به: الأيدي حذفت منه الياء اجتزاء بالكسرة عنها، ولما كانت ﴿أل﴾ تعاقب التنوين حذفت الياء معها، كما حذفت مع التنوين، وهذا تخريج لا يسوغ؛ لأن حذف هذه الياء مع وجود ﴿أل﴾ ذكره سيبويه في الضرورات. وقرىء ﴿الأيادي﴾ جمع الجمع كأوطف وأواطف.

والمعنى: أي واذكر صبر عبادنا، الذين شرفناهم بطاعتنا، وقويناهم على العمل لما يرضينا، وآتيناهم البصيرة في الدين، والفقه في أسراره، والعمل النافع فيه.

ثم علل ما وصفهم به من فاضل الصفات، وجليل المدح بقوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾؛ أي: إنا جعلناهم خالصين بخصلة خالصة عظيمة الشأن، لا شوب فيها ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ مصدر، بمعنى التذكر، مضاف إلى مفعوله، وهو خبر مبتدأ محذوف، والجملة صفة لـ﴿خالصة﴾، والتقدير: إنا خصصناهم بخصلة خالصة لنا، هي تذكرهم للدار الآخرة دائماً، ولا هم لهم غيرها، وإطلاق الدار يعني مراداً بها الدار الآخرة، للإشعار بأنها الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا معبر.

فإن قيل[2]: كيف يكونون خالصين لله تعالى، وهم مستغرقون في الطاعة، وفيما هو سبب لها، وهو تذكر الآخرة؟.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

قلت: إن استغراقهم في الطاعة، إنما هو لاستغراقهم في الشوق إلى لقاء الله، ولما لم يكن ذلك إلا في الآخرة، استغرقوا في تذكرها، وفي «التأويلات النجمية»: إنا صفيناهم عن شوب صفات النفوس، وكدورة الأنانية، وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية، ليس لغيرنا فيهم نصيب، ولا يميلون إلى الغير بالمحبة العارضة، لا إلى أنفسهم، ولا إلى غيرهم، بسبب خصلة خالصة غير مشوبة بهمٍّ آخر، هي ذكرى الدار الباقية، والمقر الأصلي؛ أي: استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس، وإعراضهم عن معدن الرجس، مستشرقين لأنواره، لا التفات لهم إلى الدنيا، وظلماتها أصلاً، انتهى.

وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، ونافع، وهشام[1]: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بغير تنوين أضيفت إلى ﴿ذِكْرَى﴾. وقرأ باقي السبعة بالتنوين، و﴿ذِكْرَى﴾ بدل من ﴿بِخَالِصَةٍ﴾. وقرأ الأعمش، وطلحة ﴿بخالصتهم﴾.

والمعنى: أي إنا جعلناهم خالصين لطاعتنا، عاملين بأوامرنا ونواهينا، لاتصافهم بخصلة جليلة الشأن، لا يساويها غيرها من الخصال، وهي تذكرهم الدار الآخرة، فهي مطمح أنظارهم، ومطرح أفكارهم في كل ما يأتون، وما يذرون، ليفوزوا بلقاء ربهم، وينالوا رضوانه في جنات النعيم.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾؛ أي: لمن المختارين في الدنيا بالنبوة والإسلام ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ عند الله يوم القيامة.

والمعنى[2]: أي وإنهم لمن المختارين، الذين جبلت نفوسهم على الخير فلا تطمح إلى الأذى، ولا تميل إلى التباغض والتحاسد، ولا ترتكب الشرور والآثام.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم عليهما السلام، وإنما فصل ذكره عن ذكر أبيه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وأخيه، للإشعار بعراقته في الصبر، الذي هو المقصود بالتذكر، وذلك لأنه، أسلم نفسه للذبح في سبيل الله، أو ليكون أكثر تعظيماً، فإنه جد أفضل الأنبياء والمرسلين. ﴿و﴾ اذكر ﴿اليسع﴾ هو ابن أخطوب من العجوز، استخلفه إلياس ـ عليه السلام ـ على بني إسرائيل، ثم استُنبىء، ودخلت اللام على العلم، لكونه منكراً، بسبب طرو الاشتراك عليه، فعرّف باللام العهدية على إرادة اليسع الفلاني، مثل قول الشاعر:

رَأَيْـتُ ٱلْـوَلِـيْـدَ بْـنَ ٱلْـيَـزِيْـدِ مُـبَـارَكَـاً

أو هي زائدة، وقرأ حمزة، والكسائي: بتشديد اللام وسكون الياء.

﴿و﴾ اذكر ﴿ذا الكفل﴾ هو ابن عم يسع، أو بشر بن أيوب عليه السلام، بعث بعد أبيه إلى قوم في الشام. واختلف في نبوته، والأكثرون على أنه نبي لذكره في سلك الأنبياء، واختلف أيضاً أنه إلياس أو يوشع أو زكريا أو غيرهم؟. وإنما لقّب بذي الكفل؛ لأنه فرّ إليه مئة نبي من بني إسرائيل من القتل، فآواهم وكفلهم بمعنى: أطعمهم وكساهم وكتمهم من الأعداء.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكل[1] من المتقدمين من داود إلى هنا ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾؛ أي: من المشهورين بالخيرية؛ أي: ممن اختاره الله للنبوة، واصطفاه من خلقه، وهذه الآيات تعزية، وتسلية للرسول ﷺ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذا اجتهدوا في الطاعات، وقاسوا الشدائد والآفات، وصبروا على البلايا والأذيات من أعدائهم، مع أنهم مفضولون، فالنبي ﷺ أولى بذلك لكونه أفضل منهم، والأفضل يقاسي ما لا يقاسي المفضول، إذ به تتم رتبته، وتظهر رفعته، والأخيار: جمع خيِّر أو خير على التخفيف، كأموات جمع ميِّت أو ميت.

﴿هَٰذَا﴾ المذكور من الآيات الناطقة، بمناقب الأنبياء ﴿ذِكْرٌ﴾؛ أي: شرف لهم، وذكر جميل يذكرون به أبداً، كما يقول: يموت الرجل ويبقى اسمه وذكره، ويموت الفرس ويبقى ميدانه.

---

(١) المراح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذا ذكر من مضى من الأنبياء، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: القرآن فيه ذكر ما كان، وذكر الأنبياء وقصصهم، لتعتبر بهم، وتقتدي بهم، وهذا أسلوب يذكر للانتقال من كلام إلى آخر. كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر، ويقول الكاتب، إذا فرغ من فصل من كتابه، وأراد الشروع في آخر: هذا، وكان كيت وكيت، وعلى هذا جاء قوله: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥﴾ كما سيأتي بعد.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الله لا ما سواه، وذلك، لأن جنات عدن مقام أهل الخصوص ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ومرجع في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من الثناء الجميل، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: مآباً حسناً، والمآب: المرجع. والمعنى: أنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله، ورضوانه، ونعيم جنته.

ثم بيّن حسن المرجع، فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان لحسن مآب، وأصل العدن في اللغة: الإقامة، ثم صار علماً بالغلبة على تلك الجنة، وقيل: هو اسم لقصر في الجنة.

قرأ الجمهور[1]: ﴿جَنَّٰتِ﴾ بالنصب بدلاً من ﴿حسن مآب﴾، سواء كان جنات معرفة أو نكرة؛ لأن المعرفة تبدل من النكرة وبالعكس، ويجوز أن يكون ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان إن كانت نكرة، ولا يجوز ذلك فيها، إن كانت معرفة على مذهب جمهور النحاة، وقد جوزه بعضهم، ويجوز أن يكون نصب ﴿جَنَّٰتِ﴾ بإضمار فعل تقديره: سيدخلون جنات. وقرأ زيد بن علي، وعبد الله بن رفيع، وأبو حيوة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً﴾ برفع التائين مبتدأ وخبرا، أو كل منهما خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو جنات عدن هي مفتحة.

---

(١) الشوكاني.

وقوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ حال من ﴿جَنَّٰتِ﴾. والعامل[1] فيها ما في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من معنى الفعل. والأبواب مرتفعة باسم المفعول، كقوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾. والرابط بين الحال وصاحبها ضمير مقدر، إذ الأصل: أبوابها. وقيل: إن ارتفاع ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ على البدل من الضمير في ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ العائد على ﴿جَنَّٰتِ﴾، وبه قال أبو علي الفارسي؛ أي: مفتحة هي الأبواب.

والمعنى[2]: أي حال كون تلك الجنات، مفتحة لهم الأبواب منها؛ أي: إذا وصلوا إليها، وجدوها مفتوحة الأبواب، لا يحتاجون إلى فتح بمعاناة، ولا يلحقهم ذل الحجاب، ولا كلفة الاستئذان، تستقبلهم الملائكة بالتبجيل والترحيب والإكرام، يقولون: سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار، وقيل: هذا مثل ما تقول: متى جئتني وجدت بابي مفتوحاً، لا تمنع من الدخول، فإن قيل: ما فائدة العدول عن الفتح إلى التفتح؟.

قلنا: المبالغة، وليست لكثرة الأبواب بل لعظمها، كما ورد من المبالغة في سعتها، وكثرة الداخلين، ويحتمل أن يكون للإشارة، إلى أن أسباب فتحها عظيمة شديدة، لأن الجنة قد حفت بالمكاره على وجه، لما رآها جبرائيل مع عظمة نعيمها قال: يا رب أنى هذه لا يدخلها أحد.

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ حال من ضمير ﴿لَهُمُ﴾، والعامل فيه ﴿مُّفَتَّحَةً﴾؛ أي: حال كونهم، جالسين فيها جلسة المتنعمين للراحة. ولا شك أن الاتكاء على الأرائك دليل التنعم، ثم استأنفه لبيان حالهم في الجنات، فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يسألون، ويطلبون في الجنات ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾؛ أي: بألوان متنوعة متكثرة، وهي ما يؤكل للذة لا للغذاء، والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان، بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، فإنه لتحصيل بدل المتحلل، ولا تحلل فيها. ﴿وَشَرَابٍ﴾؛ أي: ويدعون فيها أيضاً بشراب كثير؛ أي:

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

ألوانه. فحذف ﴿كثير﴾ لدلالة الأول عليه، ففيه اكتفاء، ويقال: نطق القرآن بعشرة أشربة في الجنة منها: الخمر الجارية من العيون وفي الأنهار، ومنها: العسل واللبن وغيرهما. ولا شك أن الأذواق المعنوية في الدنيا متنوعة، ومقتضاه تنوع التجليات الواقعة في الجنة، سواء كانت تجليات شرابية أو غيرها.

والمعنى[1]: أي والمآب الحسن، هو جنات استقرار وإقامة، وأبوابها فتحت إكراماً لهم، وفي هذا إيماء إلى وصفها بالسعة، وقرة العيون فيها، ومشاهدة أحوالها التي تسر الناظرين، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم ذكر سبحانه ما يدل على مقدار أمنهم فيها، وتنعمهم بنعيمها، فقال: متكئين فيها يدعون فيها بألوان كثيرة من الفاكهة والشراب وهم متكئون على الأرائك، وإنما[2] خص الشراب، والفاكهة من بين ما يتنعم به فيها؛ لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والأشربة، فالنفس إليها أشوق، وفي ذكرها أرغب، كما أن في ذلك إيماء، إلى أن مطاعمهم لمحض التفكه، والتلذذ دون التغذي؛ لأنه إنما يكون لتحصيل بدل المتحلل، ولا تحلل فيها كما مر قريباً.

وبعد أن وصف المسكن، والمأكول، والمشروب وصف الأزواج، فقال: ﴿وَعِندَهُمْ﴾؛ أي: وعند المتقين في الجنة أزواج ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وحابسات النظر عليهم؛ أي: زوجات قصرن طرفهن؛ أي: نظرهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم. قال في «كشف الأسرار»: هذا كقولهم: فلانة عند فلان؛ أي: زوجته ﴿أَتْرَابٌ﴾؛ أي[3]: متحدات في السن أو متساويات في الحسن، قال مجاهد: معنى أتراب: إنهن متواخيات لا يتباغضن، ولا يتغايرن، وقيل: أتراب للأزواج؛ أي: أقران لهم، والأتراب: جمع ترب، كما سيأتي، واشتقاقه من التراب؛ لأنه يمسهن في وقت واحد، لاتحاد مولدهن.

والمعنى: لدات أقران ينشأن معاً، تشبيهاً في التساوي، والتماثل بالترائب

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

التي هي ضلوع الصدر، ولوقوعهن على الأرض معاً، يمسهن التراب في وقت واحد.

قال في «كشف الأسرار»: لدات مستويات في السن، لا عجوز فيهن، ولا صبية، وقال بعضهم: لدات لأزواجهن؛ أي: هن في سن أزواجهن لا أصغر ولا أكبر، وفيه أن رغبة الرجل فيمن هي دونه في السن أتم، وأنه كان التحاب بين الأقران أرسخ، فلا يكون كونهن لدات لأزواجهن صفة مدح في حقهن.

وفي الخبر الصحيح: «يدخل أهل الجنة الجنة، جرداً مرداً، مكهلين أبناء ثلاث وثلاثين سنة، لكل رجل منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من ورائها».

والمعنى: أي وعندهم نساء ذوات خفر، قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، وهن متساويات في السن والجمال، يحب بعضهن بعضاً. وفي ذلك راحة عظيمة للأزواج، إذ في تباغض الضرائر النصب، والتعب والهم الكثير للزوج، ولهن.

وتقول لهم الملائكة: ﴿هَٰذَا﴾ المذكور من الثواب والنعيم ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ به أيها المتقون في الدنيا على لسان نبيكم ﷺ. ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: لأجل وقوع يوم الحساب، وهو يوم القيامة؛ أي: لأجل وقوع الحساب والجزاء في يوم القيامة، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء. وقال بعضهم: ويحتمل أن يكون التقدير: هذا ما توعدون بوقوعه في يوم الحساب والجزاء، واللام بمعنى: في الظرفية.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بتاء الخطاب التفاتاً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، ويعقوب ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ بياء الغيبة، إذ قبله ﴿وَعِندَهُمْ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وأبو حاتم لقوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فإنه خبر.

---

(١) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة، هو ما وعد الله سبحانه به عباده، يصيرون إليه بعد نشورهم، وقيامهم من قبورهم.

ثم أخبر بأن نعيم الجنة دائم، لا يزول ولا ينقطع، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكرناه من أنواع النعم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾؛ أي: عطاؤنا أعطيناكموه. ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾؛ أي: ليس له انقطاع أبداً، وفناء، وزوال؛ أي: إن هذا النعيم، وتلك الكرامة لعطاء دائم غير مجذوذ ولا منقطع، ونحو الآية قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير منقطع ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾. قال ابن عباس[2] رضي الله عنهما: ليس لشيء نفاد، ما أكل من ثمارها خلف مكانه مثله، وما أكل من حيوانها وطيرها عاد مكانه حياً.

وفي «التأويلات النجمية»: وبقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يشير إلى أن هذه الجنات بهذه الصفات مفتوحة لهم الأبواب، وأبواب الجنة بعضها مفتوحة إلى الخلق، وبعضها مفتوحة إلى الخالق لا يُغلق عليهم واحد منها، فيدخلون من باب الخلق، وينتفعون بما أعد لهم فيها، ثم يخرجون من باب الخالق، وينزلون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، لا يقيدهم نعيم الجنة ليكونوا من أهل الجنة، كما لم يقيدهم نعيم الدنيا، ليكونوا من أهل النار، بل أخلصهم من حبس الدارين، ومتعهم بنزول المنزلين، وجعلهم من أهل الله، وخاصته. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾؛ أي: هذا ما رزقناهم في الأزل، فلا نفاد له إلى الأبد، انتهى.

فعلى العاقل: الإعراض عن اللذات الفانية، والإقبال على الأذواق الباقية، فالفناء يوصل إلى البقاء، كما أن الفقر يوصل إلى الغنى. ولكل احتياج استغناء.

إِذَا شَابَ ٱلْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَهَيْهَاتَ ٱلْغُرَابُ مَتَى يَشِيبُ

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

عَسَى ٱلْكَرْبُ ٱلَّذِيْ أَمْسَيْتُ فِيْهِ   يَكُوْنُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيْبُ

الإعراب

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف عليه، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على السماء. ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة لما، ﴿بَٰطِلًاۚ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: خلقاً باطلاً. ويجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: مبطلين أو ذوي باطل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتقرير مضمون ما تقدم من أمر البعث والحساب والجزاء. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: خلقها باطلاً لا لحكمة مبتدأ، ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ﴾ خبر، ومضاف إليه، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلته، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ظنهم ذلك، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: ويل للذين كفروا. ﴿ويل﴾ مبتدأ، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبره، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة للموصول. ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿ويل﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى: بل التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الإنكار، ﴿نَجْعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول أول لنجعل، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ﴾: الكاف اسم بمعنى مثل، في محل النصب مفعول ثان لـ﴿نجعل﴾، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بالمفسدين، ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى: بل

الإضرابية، وهمزة الإنكار أيضاً. ﴿نَجْعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: مفعول أول، ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾: الكاف اسم بمعنى: مثل في محل النصب مفعول ثان لـ﴿نَجْعَلُ﴾. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: صفة أولى لكتاب، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ صفة ثانية له، ومنعه بعضهم بحجة، أن النعت غير الصريح، لا يتقدم على النعت الصريح، فهو عندهم خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف، وقرأ ﴿مباركا﴾: بالنصب على الحال اللازمة، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾: اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يدبروا﴾: فعل، وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل جوازاً، ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلناه لتدبرهم آياته. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام حرف جر وتعليل، ﴿يتذكر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي، ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فاعل، ومضاف إليه مرفوع بالواو؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولتذكر أولي الألباب، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿وهبنا﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِدَاوُۥدَ﴾: متعلق بـ﴿وهبنا﴾، ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾: مفعول به، ﴿نِعْمَ﴾: فعل ماض لإنشاء المدح، ﴿ٱلْعَبْدُ﴾: فاعله، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: هو. والجملة الفعلية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَوَّابٌ﴾: خبره. والجملة الاسمية مسوقة لتعليل جملة المدح. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿أَوَّابٌ﴾ أو بـ﴿نِعْمَ﴾ أو بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد، قصة إذ عرض عليه. ﴿عُرِضَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾

متعلق به، ﴿بِالْعَشِيِّ﴾: حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾، أو من ﴿الصَّافِنَاتُ﴾، ﴿الصَّافِنَاتُ﴾: نائب فاعل لعرض، ﴿الْجِيَادُ﴾: صفة لـ﴿الصَّافِنَاتُ﴾. والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَقَالَ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿سُلَيْمَانَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿عُرِضَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿أَحْبَبْتُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. و﴿أَحْبَبْتُ﴾: ليست جارية على معناها الأصلي، وإنما هي متضمنة معنى فعل، يتعدى بعلى، وهي بمعنى: آثرت. ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾: مفعول به لذلك الفعل، أو مفعول مطلق، ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَحْبَبْتُ﴾، و﴿عَن﴾: بمعنى على، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنى: إلى ﴿تَوَارَتْ﴾: فعل ماض في محل النصب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الشمس، أو على الخيل، ﴿بِالْحِجَابِ﴾: متعلق بـ﴿تَوَارَتْ﴾. والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى؛ أي: إلى مواراتها بالحجاب، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أحببت﴾؛ أي: شغلت عن ذكر ربي إلى مواراتها بالحجاب. ﴿رُدُّوهَا﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول، والجملة مقول لقول محذوف؛ أي: قال: ردوها علي. و﴿عَلَيَّ﴾: متعلق بردوها، ﴿فَطَفِقَ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فردوها عليه، ﴿طفق﴾: فعل ماض من أفعال الشروع، يعمل عمل كان، واسمها ضمير يعود على سليمان، ﴿مَسْحًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: يمسح مسحاً، والجملة المحذوفة في محل النصب خبر ﴿طفق﴾، وجملة ﴿طفق﴾ معطوفة على الجملة المقدرة. ﴿بِالسُّوقِ﴾: متعلق بـ﴿مَسْحًا﴾، ﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾ معطوف على السوق، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿فَتَنَّا﴾: فعل، وفاعل،

﴿سُلَيْمَٰنَ﴾: مفعول به، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿فَتَنَّا﴾، ﴿عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ متعلق بـ﴿ألقينا﴾، ﴿جَسَدًا﴾: مفعول به ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿أَنَابَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ألقينا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، والجملة مستأنفة، مسوقة لتفسير الإنابة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر. ﴿لِى﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَهَبْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ٱغْفِرْ﴾، ﴿لِى﴾: متعلق بـ﴿يهب﴾، ﴿مُلْكًا﴾: مفعول به، ﴿لَّا﴾: نافية ﴿يَنۢبَغِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُلْكًا﴾، والجملة في محل النصب، صفة لـ﴿ملكا﴾. ﴿لِأَحَدٍ﴾: متعلق بـ﴿يَنۢبَغِى﴾، ﴿مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لِأَحَدٍ﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنتَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل الدعاء.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَسَخَّرْنَا﴾: الفاء: عاطفة على محذوف يفهم من السياق؛ أي: فاستجبنا له دعاءه وأعدنا له هذا الملك السليب، وسخرنا. ﴿سَخَّرْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿سخرنا﴾، ﴿ٱلرِّيحَ﴾: مفعول به. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الريح، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلرِّيحَ﴾. ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، ﴿رُخَآءً﴾: حال من الضمير في ﴿تَجْرِى﴾. ﴿حَيْثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بـ﴿تجري﴾ أو بـ﴿سخرنا﴾. ﴿أَصَابَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾،

والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾، ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾: معطوف على الريح، ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾: بدل من الشياطين، بدل تفصيل من مجمل. ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ معطوف على بناء، ﴿وَءَاخَرِينَ﴾: معطوف على ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾، أدخل معه في حكم البدل، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: نعت ﴿لآخرين﴾، ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلق بـ﴿مُقَرَّنِينَ﴾. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿عَطَآؤُنَا﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول، لقول محذوف تقديره: وقلنا له: هذا عطاؤنا. ﴿فَٱمْنُنْ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿امنن﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، والجملة الطلبية معطوفة على الجملة الاسمية، على كونها مقولاً للقول المحذوف. ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ ﴿أو﴾: حرف عطف وتخيير، وجملة ﴿أَمْسِكْ﴾: معطوفة على جملة ﴿امنن﴾. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: متعلق بـ﴿عطاؤنا﴾: أو متعلق بـ﴿امنن﴾، أو ﴿أَمْسِكْ﴾، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف حال، من الضمير المستتر في الفعلين، أعني: امنن أو أمسك؛ أي: حال كونك غير محاسب عليه. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ان﴾: حرف نصب، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم لـ﴿أن﴾، ﴿عِندَنَا﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إنّ﴾، ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿زلفى﴾. اسم ﴿إن﴾، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: معطوف على زلفى، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اذكر﴾: فعل، وفاعل مستتر، ﴿عَبْدَنَآ﴾: مفعول به، ﴿أَيُّوبَ﴾: بدل منه أو عطف بيان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، ولم يذكر ذلك في قصة سليمان، لكمال الاتصال بين سليمان وداود، كأن قصتهما واحدة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، بدل اشتمال من أيوب، ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَنِّى﴾: ناصب واسمه، ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿بِنُصْبٍ﴾ متعلق به، ﴿وَعَذَابٍ﴾: معطوف

على نصب، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ واسمها في محل النصب بنزع الخافض؛ أي: بأني مسني الشيطان، وجملة قوله: ﴿ٱرْكُضْ﴾: مقول لقول محذوف تقديره: وقيل له: اركض برجلك. ﴿ٱرْكُضْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَيُّوبَ﴾، ﴿بِرِجْلِكَ﴾: متعلق بـ﴿ٱرْكُضْ﴾، ومفعول ﴿ٱرْكُضْ﴾ محذوف تقديره الأرض. ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لذلك القول المحذوف. ﴿بَارِدٌ﴾: صفة لـ﴿مُغْتَسَلٌۢ﴾، ﴿وَشَرَابٌ﴾ معطوف على ﴿مُغْتَسَلٌۢ﴾، ﴿وَوَهَبْنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف، يتقضيه السياق تقديره: فاغتسل وشرب، فكشفنا بذلك ما به من ضر، ومسحنا به ما ألم به من أوصاب، ووهبنا له، إلخ. ﴿وهبنا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المقدر، ﴿لَهُۥٓ﴾ متعلق بـ﴿وهبنا﴾، ﴿أَهْلَهُۥ﴾: مفعول به. ﴿وَمِثْلَهُم﴾: معطوف على أهله. ﴿مَّعَهُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من المثل؛ أي: حال كونه كائناً معهم، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول لأجله. ﴿مِّنَّا﴾: صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: معطوف على ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿لِأُو۟لِى﴾، صفة لـ﴿ذكرى﴾. ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: مضاف إليه، ﴿وَخُذْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱرْكُضْ﴾، ﴿بِيَدِكَ﴾: متعلق بـ﴿خذ﴾، ﴿ضِغْثًا﴾ مفعول به، ﴿فَٱضْرِب﴾ الفاء: عاطفة، ﴿اضرب﴾: فعل، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿خذ﴾، ﴿بِّهِۦ﴾ متعلق بـ﴿اضرب﴾، والمفعول محذوف؛ أي: امرأتك. ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية، جازمة، ﴿تَحْنَثْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿اضرب﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾: فعل، وفاعل، ومفعولان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾: فعل، وفاعل، والمخصوص بالمدح محذوف؛ أي: هو، والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل المدح.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ

﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اذكر عبادنا﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾، ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾: بدل من عبادنا، أو عطف بيان له. ﴿وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾: معطوفان على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ﴿أُوْلِي﴾: صفة للثلاثة، ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾: مضاف إليه، مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوف، اجتزاء عنها بكسرة الدال؛ لأنه اسم منقوص. ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما وصفوا به من علو الرتبة، وسموها بالعلم والعمل. ﴿بِخَالِصَةٖ﴾: متعلق بـ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾، والباء، إما للسببية، إن كان ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ بمعنى: جعلناهم خالصين، وإما للتعدية، إن كان أخلصناهم، بمعنى: خصصناهم، و﴿خالصة﴾ صفة لموصوف محذوف؛ أي: بخصلة خالصة. ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾: إما خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي ذكرى الدار، أو بدل من خالصة، ﴿ذِكۡرَى﴾: مضاف، ﴿ٱلدَّارِ﴾: مضاف إليه، فهي من إضافة المصدر إلى المفعول؛ أي: ذكرهم الدار الآخرة. ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾: الواو عاطفة، ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه. ﴿عِندَنَا﴾: حال من اسم ﴿إنّ﴾، ﴿لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿من المصطفين﴾: خبر ﴿إنّ﴾، ﴿ٱلۡأَخۡيَارِ﴾: صفة له، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى. ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ﴾: فعل، وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾، ﴿وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾: معطوفان على إسماعيل، ﴿وَكُلّٞ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿كُلّٞ﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء به، قصد العموم ﴿مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من الثلاثة المذكورة قبله. ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، مسوقة للإيذان بانتهاء ما تقدم، والشروع في موضوع آخر. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إنّ﴾: حرف نصب ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾: خبر ﴿إن﴾ مقدم على اسمها، ﴿لَحُسۡنَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿حسن﴾: اسمها مؤخر، ﴿مَـَٔابٖ﴾: مضاف إليه، من إضافة الصفة إلى الموصوف، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾: بدل، أو عطف بيان لحسن مآب، ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾: حال من جنات عدن، والعامل فيها ما في المتقين، من معنى

الفعل، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق بـ﴿مُّفَتَّحَةً﴾، ﴿الْأَبْوَابُ﴾: نائب فاعل لـ﴿مُّفَتَّحَةً﴾؛ لأنه اسم مفعول من فتّح المضعف.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الهاء في ﴿لَهُمُ﴾، والعامل فيها مفتحة، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، وجملة ﴿يَدْعُونَ﴾: إما مستأنفة لبيان حالهم، أو حال من الهاء المذكور، أو من الضمير المستكن في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من فاعل يدعون؛ أي: حال كونهم فيها. ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾، ﴿كَثِيرَةٍ﴾: صفة لـ﴿فاكهة﴾، ﴿وَشَرَابٍ﴾: معطوف على فاكهة، ﴿وَعِندَهُمْ﴾: عاطفة، ﴿عِندَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَتْرَابٌ﴾: صفة لـ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿تُوعَدُونَ﴾: فعل، ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: هذا ما توعدونه. ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: متعلق بـ﴿تُوعَدُونَ﴾، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف؛ أي: وتقول لهم الملائكة: هذا ما توعدون ليوم الحساب. واللام: فيه للتعليل؛ أي: لأجل يوم الحساب. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَرِزْقُنَا﴾ اللام: حرف ابتداء، و﴿رزقنا﴾: خبر ﴿إن﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿مَا﴾: نافية حجازية، أو تميمية. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿نَّفَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر، والجملة في محل النصب حال من ﴿رزقنا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿بَٰطِلًا﴾؛ أي: عبثاً، ولعباً. ﴿فَوَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك. ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾ من الفجر، وهو شق الشيء شقاً واسعاً، والفجور: شق سر الديانة. ﴿مُبَٰرَكٌ﴾؛ أي: كثير المنافع الدينية والدنيوية، فإن البركة ثبوت الخير الإلٰهي في الشيء، والمبارك ما فيه ذلك الخير. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا﴾ أصله: يتدبروا فأدغمت التاء في الدال، بعد قلبها

دالاً؛ أي: ليتفكروا في آياته بالفكر السليم، فإن التدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور، والتفكر: تصرف القلب في معاني الأشياء، لدرك المطلوب. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾؛ أي: ليتعظ. ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ جع لب، وهو العقل، وقد يجمع على ألب، ويفك إدغامه في ضرورة الشعر. قال الكميت:

إِلَيْكُمْ ذَوِيْ آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعَتْ نَوَازِعُ مِنْ قَلْبِيْ ظِمَاءٌ وَأَلْبُبُ

﴿إِذْ عُرِضَ﴾ يقال: عرض له أمر كذا إذا ظهر، وعرضته له؛ أي: أظهرته، وعرضَ الجند إذا أمرهم بالعرض عليه ونظر ما حالهم. ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ جمع صافن لا صافنة؛ لأنه لذكور الخيل. وصفة المذكر الذي لا يعقل، يجمع هذا الجمع مطرداً، كما عرف في النحو، والصفن: الجمع بين الشيئين ضاماً بعضهما إلى بعض، يقال: صفن الفرس قوائمه، إذا قام على ثلاث وثنى الرابعة؛ أي: قلب أحد حوافره، وقام على طرف سنبك يد أو رجل، والسنبك: طرف مقدم الحافر، وهو من الصفات المحمودة في الخيل، لا يكاد يتفق إلا في العربي الخالص، وقد صفن الفرس من باب جلس، والصافن من الناس الذي يصف قدميه، وجمعه صفون كما في «المختار»، وعبارة الزمخشري: الصفون لا يكاد يوجد في الهجن، وإنما هو في العراب الخلص، وقيل: وصفها بالصفون، والجودة ليجمع ما بين الوصفين المحمودين واقفةً وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنةً مطمئنةً في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً، في جريها.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾: جمع جواد، وهو السابق أو جمع جود، وهو الذي يسرع في جريه تشبيهاً له بالمطر الجود، قال في «القاموس»: الجواد: السخي، والجمع: الأجواد. والجيّد ضد الرديء. والجمع: الجياد، وقيل: الجواد: هو الفرس الذي يجود عند الركض؛ أي العدو. وفي أدب الكاتب لابن قتيبة: ويقال للفرس: عتيق، وجواد، وكريم، ويقال للبرذون، والبغل، والحمار: فاره.

والسوابق من الخيل: أولها: السابق. ثم: المصلي، وذلك لأن رأسه عند صلا السابق، ثم الثالث والرابع، كذلك إلى التاسع والعاشر: السكيت، ويقال أيضاً: السكيت مشدداً، فما جاء بعد ذلك لم يعتد به. والفسكل الذي يجيء في

الحلبة آخر الليل، هذا ما أورده ابن قتيبة. وقد سموا. الثالث: المتلي؛ لأنه يُتلي الثاني، وسموا. الرابع: التالي، وسموا. الخامس: المرتاح، وسموا. السادس: العاطف، وسموا. السابع: المؤمل، وسموا. الثامن: الحظي، وسموا. التاسع: اللطيم.

﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ والخير: المال الكثير، والمراد به: الخيل التي شغلته عليه السلام، لأنها مال. ﴿مَسۡحَۢا﴾ المسح: القطع. وفي «المختار»: ومسحه بالسيف قطعه. والجمهور: على أن المراد به هنا: القطع من قولهم: مسح علاوته؛ أي: ضرب عنقه، وقطع رأسه، والعلاوة بالكسر: أعلى الرأس أو العنق. قال في «المفردات»: مسحته بالسيف كناية عن الضرب. ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ والسوق: جمع ساق كدور ودار. والساق: ما بين الكعبين: كعب الركبة وكعب القدم. ومن غريب أمر الساق، أن له العديد من المعاني، فأولها، وهو المراد هنا: أنه ما بين الكعب والركبة مؤنث، وجمعه: سوق، وسيقان، وأسوق، وساق الشجر: جذعها، ومن معانيه: ساق الحمام والغراب نباتان، وساق حر ذكر القماري، ويقال: كشف الأمر عن ساقه؛ أي: اشتد وعظم، وقامت الحرب على ساق؛ أي: اشتدت وولدت المرأة ثلاثة بنين، على ساق واحدة؛ أي: بعضهم في إثر بعض لا جارية بينهم، والحديث في هذه المادة يطول، فنحيل القارىء إلى المعاجم. ﴿وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ جمع: عنق.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ الفتنة: الاختبار والابتلاء؛ أي: ابتليناه بسلب ملكه، وكان ملكه مرتباً في لبس خاتمه، فإذا لبسه سخرت له الجن، والإنس، والرياح، وغيرها، وإذا نزعه زال عنه الملك، اهـ شيخنا. وكان خاتمه من الجنة، نزل به آدم كما نزل بعصى موسى، والحجر الأسود المسمى باليمين، وبعود البخور، وبأوراق التين ساتراً عورته بها. وقد نظم الخمسة بعضهم في قوله:

وَآدَمُ مَعَهُ أُنْزِلَ ٱلْعُودُ وَٱلْعَصَا لِمُوسَىٰ مِنَ ٱلآسِ ٱلنَّبَاتِ ٱلْمُكَرَّمِ
وَأَوْرَاقُ تِينٍ وَٱلْيَمِينُ بِمَكَّةٍ وَخَتْمُ سُلَيْمَانَ ٱلنَّبِيِّ ٱلْمُعَظَّمِ

اهـ شيخنا. وفي «القرطبي»: قال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «كان نقش خاتم سليمان بن داود، لا إله إلا الله، محمد رسول الله» اهـ.

﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ الإلقاء: الطرح. ﴿عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ الكرسي اسم لما يقعد عليه، والمراد: سريره المشهور. ﴿جَسَدًا﴾ قال في «المفردات»: الجسد: الجسم، لكنه أخص. قال الخليل: لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه، وأيضاً فإن الجسد، يقال لما له لون، والجسم: يقال لما لا يبين له لون كالماء والهواء، وقال في «أنوار المشارق»: الفرق بين الجسد والبدن أن: الأول: يعم لذي الروح وغيره، ويتناول الرأس والشوى. والثاني: مخصوص بذي الروح، ولا يتناولهما.

﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ﴾؛ أي: لا تنتقل إلى غيري. ﴿رُخَآءً﴾؛ أي: لينة طيبة لا تزعزع. والرخاء: الريح اللينة من قولهم: شيء رخو كما في «المفردات». وفي «الفتوحات المكية»: أن الهواء، لا يسمى ريحاً إلا إذا تحرك، وتموج، فإن اشتدت حركته كان زعزعاً، وإن لم تشتد كان رخاء، وهو ذو روح يعقل كسائر أجزاء العالم، وهبوبه تسبيحه تجري به الجواري، ويطفأ به السراج، وتشتعل به النار، وتتحرك المياه والأشجار، ويموج البحر، وتزلزل الأرض، ويزجي السحاب. انتهى.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾؛ أي: أراد، وقصد في لغة حمير وهجر. وفي «القاموس»: الإصابة: القصد؛ أي: حيث قصد، وأراد من النواحي والأطراف، وقد حكى الزجاج عن العرب، أنها تقول: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. قال الشاعر:

أَصَـابَ ٱلْـكَـلَامَ فَـلَـمْ يَـسْـتَـطِـعْ   فَـأَخْـطَـأَ ٱلْـجَـوَابَ لَـدَىٰ ٱلْـمُـفَـصَّـلْ

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ وهو مبالغة بأن اسم الفاعل من بنى. وكانوا يعملون له ـ عليه السلام ـ ما يشاء. ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ مبالغة غائص، اسم فاعل من غاص يغوص غوصاً. وهو الدخول تحت الماء، وإخراج شيء منه. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ جمع مقرَّن اسم مفعول من قرَّن المضعف، يقال: قرَنْتُ البعيرين إذا جمعت بينهما، وقرَّنت على التكثير

كما في الآية. وقال ابن الشيخ: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: صفة لآخرين، وهو اسم مفعول من باب التفعيل، منقول من قرنت الشيء بالشيء؛ أي: وصلته به، وشُدد العين للمبالغة، والكثرة.

﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ أي: الأغلال، جمع صفد محركاً، وهو القيد. وفي «المختار»: صفده شده وأوثقه من باب ضرب، وكذا صفّده تصفيداً، والصفد بفتحتين، والصفاد بالكسر: ما يوثق به الأسير من قد، وقيد، وغُل، والأصفاد: القيود، واحدها صفد بالتحريك. قال عمرو بن كلثوم:

فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِيْنَا

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ وهو ابن عيصو بن إسحاق، فليس من بني إسرائيل؛ لأنهم من نسل يعقوب، وهو ابن العيص أخي يعقوب. والذي في «القاموس»: أن عيصو بن إسحاق بواو بعد الصاد، بوزن بيعوا أمراً بالبيع للجماعة، اهـ. وفي «التحبير»: أيوب هو ابن موص بن رُعبل بن عيص بن إسحاق، وعاش ثلاثاً وستين سنة، وكانت مدة بلائه سبع سنين، اهـ. وقيل: كانت عشراً. وقيل: ثمانية عشر، وقيل: أربعين، اهـ.

﴿بِنُصْبٍ﴾ النصب بضم فسكون، وبفتح فسكون، وبضمتين: الداء، والبلاء، قيل: جمع نصب كأسد وأسد، وقيل: هو لغة في النصب. ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الركض: الضرب، والدفع القوي بالرجل، فمتى نُسب إلى الراكب، فهو إغراء مركوبه، وحثه للعدو، نحو: ركضت الفرسَ. ومتى نُسب إلى الماشي فوطىء الأرض، كما في الآية، كذا قاله الراكب. والرجل: القدم أو من أصل الفخذ إلى رؤوس الأصابع. ﴿مُغْتَسَلٌ﴾ والمغتسل: هو المكان الذي يُغتسل فيه، والماء الذي يُغتسل به، والاغتسال: غسل البدن. وغسلتُ الشيء غسلاً، أسلتُ عليه الماء، فأزلتُ درنه. ﴿وَشَرَابٌ﴾ والشراب: هو ما يشرب، ويُتناول من كل مائع ماءً كان، أو غيره.

﴿ضِغْثًا﴾ والضغث: الحزمة الصغيرة من الحشيش، والقضبان، ونحوه. وفي

«القاموس»: والضغث بالكسر: قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس، واضطغثه: احتطبه. وفي «المفردات»: الضغث: قبضة ريحان أو حشيش. وبه شُبِّه الأحلام المختلطة التي لا يتبين حقائقها، انتهى. وأضغاث أحلام: رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها.

﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ يقال: حنث في يمينه إذا لم يف بها. وقال بعضهم: الحنث: الإثم. ويُطلق على فعل ما حلف على تركه، وترك ما حلف على فعله، من حيث إن كل واحد منهما سبب له.

﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى﴾؛ أي: ذوي الأيدي. جمع يد بمعنى: الجارحة في الأصل. أريد بها: القوة مجازاً بمعونة المقام. وذلك لكونها سبب التقوي على أكثر الأعمال، وبها يحصل البطش، والقهر، ولم تُجمع القوة لكونها مصدراً يتناول الكثير. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ جمع بصر، حُمل على بصر القلب، ويسمى البصيرة، وهي القوة التي يتمكن بها الإنسان، من إدراك المعقولات. قال في «المفردات»: البصر يقال للجارحة الناظرة، وللقوة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة: بصيرة، وبصر، ولا يكاد يقال للجارحة: بصيرة، وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر.

﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ بفتح الفاء والنون، جمع مصطفى، أصله: مصطفيين بالياءين، وبكسر الأولى. ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خير كشر، وأشرار، على أنه اسم تفضيل، أو خيِّر بالتشديد، أو خير بالتخفيف، كأموات، جمع ميت أو ميت.

﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ والفاكهة: هي كل ما يؤكل للتلذذ، لا للغذاء. ﴿أَتْرَابٌ﴾ أسنانهن واحدة، بنات ثلاث وثلاثين سنة، جمع ترب بالكسر، وهي اللدة؛ أي: من ولد معك، والهاء في اللدة، عوض عن الواو الذاهبة من أوله؛ لأنه من الولادة نظير عدة من الوعد. ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ قال في «المفردات»: النفاد: الفناء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم، للإشعار بعلية الصلة، لاستحقاق الويل.

ومنها: المقابلة بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾. وهذه من ألطف أنواع البديع.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ للدلالة على أن اعترافه، وندمه عن صميم القلب، لا لتحقيق مضمون الخبر.

ومنها: إضمار ضمير الشمس في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ من غير سبق ذكرها، لدلالة العشي عليها، إذ لا شيء يتوارى حينئذ غيرها.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾. كني عن العقر والذبح بالمسح، وهي كناية بليغة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾. قال في «بحر العلوم»: والأقرب أن المراد: تمثيل كفهم ومنعهم عن الشرور، بالتقرين في الصفد، يعني: أن قولهم لا يمكن تقييدهم بالأصفاد، والأغلال، حقيقة مسلم، ولكن ليس الكلام محمولاً على حقيقته؛ لأنهم لما كانوا مسخرين مذللين لطاعته عليه السلام ـ بتسخير الله إياهم له ـ كان قادراً على كفهم عن الإضرار بالخلق، فشُبّه كفهم عن ذلك بالتقرين في الأصفاد، فأطلق على الكف المذكور لفظ التقرين استعارة أصلية، ثم اشتُق من التقرين ـ يعني: المعنى المجازي ـ لفظ مقرنين بمعنى: ممنوعين عن الشرور. والإضرار استعارة تبعية، انتهى.

ومنها: الطباق بين ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ لأنهما بمعنى: أعط من شئت، وامنع من شئت.

ومنها: مراعاة الأدب في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾. أسند الضرر إلى الشيطان أدباً، والخير والشر بيد الله تعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾. استعار الأيدي للقوة في العبادة، والأبصار للبصيرة في الدين. وفيه أيضاً فن التعرض، بأن من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، خليق بالتوبيخ وأسوأ المذام.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ﴾.

ومنها: الاقتصار على الفاكهة في قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ إيذاناً بأن مطاعمهم هناك ليست للتغذي، وإقامة الجسم، ولكن لمحض اللذة والتفكه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله[1] سبحانه لما وصف ثواب المتقين أولاً.. أردفه بوصف عقاب الطاغين، ليكون ذلك متمماً له، فيأتي الوعيد عقب الوعد، والترهيب إثر الترغيب، فيكون المرء بين رجاء في الثواب، وخوف من العقاب، فيزداد في الطاعة، وينأى عن المعصية، وتلك وسيلة التهذيب، والتأديب التي ترقى بها

(١) المراغي.

النفوس إلى سبيل الكمال، في دنياها وآخرتها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في أول السورة، أن محمداً ﷺ دعا إلى التوحيد، وأثبت أنه نبي، ودعا إلى الحشر والنشر، فقابلوه بالسفاهة، وقالوا: إنه ساحر كذاب، ثم صبّره على ذلك، وقص عليه من قصص الأنبياء، قبله ما يكون سلوة له في الصبر على الأذى، ثم أردف ذلك بذكر ثواب أهل الجنة، وعذاب أهل النار.. عاد هنا إلى تقرير هذه المطالب، التي ذكرها أول السورة، وهي تقرير التوحيد، والنبوة، والبعث.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا...﴾ الآيات، قد سلف[1] ذكر هذه القصة في سور البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، كما ذكرت هنا، والعبرة منها النهي عن الحسد، والكبر؛ لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسببهما، والكفار إنما نازعوا محمداً ﷺ بسببهما، وكرر ذكرها ليكون زاجراً لهم عنهما، والمواعظ، والنصائح باب من أبواب التكرير، للمبالغة في النصح والإرشاد.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هَٰذَا﴾ قال الزجاج: خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمر في حق المؤمنين، هذا الذي ذكرناه. فيوقف على هذا، قال ابن الأنباري: وهذا وقف حسن، ثم يُبتدىء، ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: هذا المذكور للمؤمنين، وكلاهما من فصل الخطاب، وقال ابن الأثير: ﴿هَٰذَا﴾ في هذا المقام من الفصل، الذي هو خير من الوصل، وهي علاقة وكيدة بين الخروج من الكلام إلى كلام آخر، وقال بعضهم[2]: هذا من قبيل، ما إذا فرغ الكاتب من فصل، وأراد الشروع في فصل آخر، منفصل عما قبله، قال: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: احفظ ما كان كيت وكيت، وانتظر إلى ما يجيىء.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى؛ أي: هذا الذي تقدم، هو ما يكون جزاء للمؤمنين، كفاء ما قدموا من أعمال صالحة.

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: وإن للذين طغوا على الله، وكذبوا الرسل؛ أي: وإن للكافرين الخارجين عن طاعة الله تعالى، المكذبين لرسله ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وأقبح مرجع في الآخرة وشر منقلب ينقلبون إليه، ثم بين ذلك فقال ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل من ﴿شر مآب﴾، أو عطف بيان له أو منصوب بأعني. وقوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من المستكن في ﴿لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: حال كونهم يدخلونها، ويجدون حرها يوم القيامة، ولكن اليوم مهدوا لأنفسهم. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: قبح الفراش لهم جهنم، والمهد، والمهاد: الفراش، مستعار من فراش النائم، إذ لا مهاد في جهنم، ولا استراحة، وإنما مهادها نار، وغواشيها نار، كما قال في آية أخرى ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فراش من تحتهم. و﴿مِن﴾ تجريدية. ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾؛ أي: أغطية.

والمعنى: أي هم يدخلون جهنم، ويقاسون شديد حرها، فبئس شراباً هي.

ثم أمرهم أمر تهكم وسخرية، بذوق هذا العذاب. فقال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾؛ أي: ليذوقوا هذا العذاب، والذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله في القليل، لكنه يصلح للكثير الذي يقال له: الأكل، وكثر استعماله في العذاب تهكماً.

وارتفاع ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ على أنهما خبران لمبتدأ محذوف؛ أي: ذلك العذاب حميم؛ أي: ماء حار بلغ نهاية الحرارة، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾؛ أي: قيح وصديد يسيل من أهل النار، وقيل: هذا في موضع رفع بالابتداء، و﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ خبران له، فيكون الكلام على التقديم والتأخير، فتقدير الآية: حميم وغساق فليذوقوه، قاله الفراء والزجاج، والحميم: الماء الذي انتهى حره، والغساق: ما يسيل من جلد أهل النار من القيح والصديد، كما مر آنفاً. وفي «القاموس»: الغساق: الماء البارد المنتن، لو قطرت منه قطرة في المشرق، لنتنت أهل المغرب، ولو قُطرت قطرة في المغرب، لنتنت أهل المشرق، وقال الحسن: هو عذاب لا يعلمه إلا الله، إن ناساً أخفوا لله طاعة، فأخفى لهم ثواباً في قوله:

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ﴾، وأخفوا معصية، فأخفى لهم عقوبة، وقيل: هو مستنقع في جهنم، يسيل إليه سم كل ذي سم من عقرب وحية، يُغمس فيه الآدمي، فيسقط جلده ولحمه عن العظام، وقيل: هو ما يسيل من فروج النساء الزواني، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿هَٰذَا﴾ الذي مهدوا اليوم ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ يوم القيامة، يعني: قد حصلوا اليوم معنى صورته ﴿حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ يوم القيامة، ولكن مذاقهم، بحيث لا يجدون ألم عذاب، ما حصلوه بسوء أعمالهم، فليذوقوه يوم القيامة، انتهى. فإذا تنعم المؤمنون بالفاكهة، والشراب.. تعذب الكافرون بالحميم والغساق، وقال مجاهد، ومقاتل: الغساق: هو الثلج البارد، الذي قد انتهى برده. وتفسير الغساق بالبارد، أنسب بما تقتضيه لغة العرب، ومنه قول الشاعر:

إِذَا مَا تَذَكَّرْتَ الْحَيَاةَ وَطِيبَهَا ... إِلَيَّ جَرَىٰ دَمْعٌ مِنَ اللَّيْلِ غَاسِقُ

أي: بارد. وأنسب أيضاً بمقابلة الحميم.

والخلاصة: أي لهم في جهنم ماء حار، يشوي الوجوه، وماء بارد، لا يُستطاع شربه لبرودته.

وقرأ ابن أبي إسحاق، وقتادة، وابن وثاب، وطلحة، وحمزة، والكسائي، وحفص، والفضل، وابن سعدان، وهارون عن أبي عمرو: ﴿غسّاق﴾ بتشديد السين. وقرأ باقي السبعة: بتخفيف السين، وهما لغتان بمعنى واحد، كما قال الأخفش. وقيل: معناهما مختلف. فمن خفف، فهو اسم مثل: عذاب، وجواب، وصواب، ومن شدد قال: هو اسم فاعل للمبالغة، نحو: ضراب، وقتال.

ثم زاد في التهديد، وبالغ في الوعيد. فقال: ﴿و﴾ عذاب ﴿آخر﴾ أو مذوق آخر. وهو مبتدأ خبره ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾؛ أي: كائن لهم من شكل الحميم، والغساق المذكورين، ومثلها في الشدة والفظاعة، وقوله: ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ صفة ﴿وَءَاخَرُ﴾. ومعنى ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾؛ أي: أجناس، وأنواع، وأشباه؛ أي: وعذاب آخر ذو ضروب، وأجناس كثيرة، كائن لهم من شكل الحميم والغساق المذكورين، ومثلهما في الشدة والفظاعة.

وحاصل معنى الآية[1]: أن لأهل النار حميماً وغساقاً، وأنواعاً أخر من العذاب، من مثل الحميم والغساق في الشدة والفظاعة، وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: فنون أخر، مثل ذلك العذاب، كائن لهم، يشير به إلى أن لكل نوع من المعاصي، نوعاً آخر من العذاب، كما أن كل بذر يزرعونه يكون له ثمرة تناسب البذر.

والمعنى[2]: أي ليس الأمر مقصوراً على هذا فحسب، بل لهم فيها أشباه، وأمثال من مثله فظاعةً وشدةً، كالزقوم، والسموم، والزمهرير.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وءاخر﴾ على الإفراد. فقيل: مبتدأ خبره محذوف تقديره: ولهم عذاب آخر، وقيل: خبره الجملة بعده؛ لأن قوله: ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ مبتدأ، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: خبره، والجملة خبر ﴿ءاخر﴾، وقيل: خبره ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: في موضع الصفة، وجاز أن يخبر بالجمع عن الواحد، من حيث هو درجات، ورتب من العذاب، أو سمي كل جزء من ذلك الآخر، باسم الكل. وقرأ الحسن، ومجاهد، والجحدري، وابن جبير، وعيسى، وأبو عمرو: ﴿وأخر﴾ بضم الهمزة على الجمع، وهو مبتدأ، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ في موضع الصفة، و﴿أَزْوَٰجٌ﴾: خبره؛ أي: ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق، ومثله في الشدة والفظاعة أزواج وأجناس كثيرة. وأنكر[4] أبو عمرو على الجمهور قراءتهم بالإفراد ﴿وَءَاخَرُ﴾ مفرداً مذكراً لقوله: ﴿أَزْوَٰجٌ﴾. وأنكر عاصم الجحدري قراءة أبي عمرو، وقال: لو كانت كما قرأ لقال: من شكلها. وقرأ مجاهد: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ بكسر الشين، والجمهور بفتحها، وهما لغتان بمعنى: المثل، والضرب.

وقال خزنة جهنم لرؤساء الكفار في أتباعهم، إذا دخلوا النار: ﴿هَٰذَا﴾ الجم الغفير ﴿فَوْجٌ﴾ وجمع ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ وداخل ﴿مَّعَكُمْ﴾ في النار؛ أي[5] هذا جمع

---

(1) الشوكاني.

(2) المراغي.

(3) البحر المحيط.

(4) الشوكاني.

(5) روح البيان.

كثيف، قد دخل معكم النار، كما كانوا قد دخلوا معكم في الضلال.

والمعنى: يقول الخزنة لرؤساء الطاغين، إذا دخلوا النار مشيرين إلى الأتباع الذين أضلوهم: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: الأتباع فوج، وجمع تبعكم في دخول النار بالاضطرار، كما كانوا قد تبعوكم في الكفر والضلالة بالاختيار، فانظروا إلى أتباعكم لم يحصل بينكم وبينهم تناصر، وانقطعت مودتكم، وصارت عداوة، قيل: يضرب الزبانية المتبوعين، والأتباع معاً بالمقامع، فيسقطون في النار خوفاً من تلك المقامع. فذلك هو الاقتحام.

أي: وهذا حكاية لقول الملائكة، الذين هم خزنة النار، وذلك أن القادة، والرؤساء إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: هذا فوج، يعنون: الأتباع ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾؛ أي: داخل ومدفوع معكم إلى النار.

وقوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من قول القادة والرؤساء، لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا؛ أي: الرؤساء والقادة في شأن الأتباع: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾؛ أي: لا اتسعت منازلهم في النار.

والمعنى: لا كرامة لهم، وجملة[1] ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعائية، لا محل لها من الإعراب أو صفة للفوج أو حال منه، أو بتقدير القول؛ أي: مقولاً في حقهم: لا مرحبا بهم. وقيل: إنها من تمام قول الخزنة، والأول أولى كما يدل عليه جواب الأتباع الآتي.

وجملة ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾؛ أي: داخلون فيها، كما دخلنا فيها تعليل من جهة القائلين؛ أي: إنهم صالوا النار كما صليناها، ومستحقون لها كما استحققناها. أو تعليل من جهة الخزنة، لاستحقاقهم الدعاء عليهم؛ أي: داخلون النار بأعمالهم السيئة، وباستحقاقهم.

وقوله: ﴿لَا مَرْحَبًا﴾ مصدر[2] بمعنى: الرحب، وهو السعة. و﴿بِهِمْ﴾ بيان

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

للمدعو عليهم، وانتصابه على أنه مفعول به لفعل مقدر؛ أي: لا يصادفون رحباً وسعةً، أو لا يأتون رحب عيش، ولا وسعة مسكن، ولا غيره.

وحاصله: لا كرامة لهم، أو على المصدر؛ أي: لا رحبهم عيشهم. ومنزلهم رحباً بل ضاق عليهم، يقول الرجل لمن يدعوه: مرحباً؛ أي: أتيت رحباً من البلاد، وأتيت واسعاً وخيراً كثيراً قاله الكاشفي. وقال غيره: يُقصد به: إكرام الداخل، وإظهار المسرة بدخوله، ثم يدخل عليه كلمة ﴿لَا﴾ في دعاء السوء.

وفي بعض شروح الحديث: التكلم بكلمة ﴿مَرْحَبًا﴾ سنة اقتداءً بالنبي ﷺ، حيث قال: مرحباً يا أم هانىء حين ذهبت إلى رسول الله عام الفتح. وهي بنت أبي طالب، أسلمت يوم الفتح، ومن أبواب الكعبة باب يسمى باب أم هانىء، لكون بيتها في جانب ذلك الباب، وقد صح أنه ﷺ، قد عُرج به من بيتها.

وقال أبو حيان: والظاهر[1]: أن قوله: هذا فوج مقتحم معكم، من قول رؤسائهم بعضهم لبعض. والفوج: الجمع الكثير، وهم الأتباع، ثم دعوا عليهم بقولهم: لا مرحباً بهم؛ لأن الرئيس إذا رأى الخسيس قد قُرن معه في العذاب.. ساءه ذلك حيث وقع التساوي في العذاب، ولم يكن هو السالم من العذاب وأتباعه في العذاب.

والحاصل: أن الله سبحانه، بعدما وصف مساكنهم ومشاربهم، حكى ما يتناجون به، ويقوله بعضهم لبعض؛ أي: هم يتلاعنون، ويتكاذبون. فتقول الطائفة التي دخلت قبل الأخرى، حين تُقبل التي بعدها مع الخزنة والزبانية: هذا جمع كثيف داخل معكم، فلا مرحباً بهم. قال ابن عباس في تفسير الآية: إن القادة إذا دخلوا النار، ثم دخل بعدهم الأتباع، تقول الخزنة للقادة: هذا فوج داخل النار معكم، فيقول السادة: لا مرحباً بهم، والمراد بذلك الدعاء عليهم. قال النابغة:

لاَ مَـرْحَـبـاً بِـغَـدٍ وَلاَ أَهْـلاً بِـهِ   إِنْ كَـانَ تَـفْـرِيْـقُ ٱلأَحِـبَّـةِ فِـيْ غَـدِ

ثم علل استيجاب الدعاء عليهم بقوله: إنهم صالوا النار؛ أي[2]: إنهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

ذائقوا حر النار مثلكم. وهذا كلام من المتبوعين والرؤساء الذين أغووهم، وأدخلوهم في الكفر، وحينئذ يرد عليهم الداخلون من الأتباع، ويقولون لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾؛ أي: قال الأتباع، وهم الفوج المقتحم للنار عند سماع ما قال الرؤساء في حقهم، أو قالت الخزنة؛ أي: قالوا لأولئك الرؤساء: بل أنتم أحق منا بما قلتم: لا مرحباً بكم؛ أي: لا كرامة لكم، فإنكم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ وأغويتمونا، ودعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾؛ أي: قبح المستقر والمنزل لنا، ولكم، والمخصوص بالذم: النار، وهذا كلام يراد به: التشفي منهم؛ لأنه مشترك بينهم، خاطبوا[1] الرؤساء مع أن الظاهر: أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى الخزنة: بل هم لا مرحباً بهم، قصداً منهم إلى إظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء، والتحاكم إلى الخزنة طمعاً في قضائهم، بتخفيف عذابهم، أو تضعيف عذاب خصمائهم؛ أي: بل أنتم أيها الرؤساء، أحق بما قيل لنا من جهة الخزنة، لإغوائكم إيانا مع ضلالكم في أنفسكم.

وقوله: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ تعليل لأحقيتهم بذلك؛ أي: أنتم قدمتم العذاب أو الصلي لنا، وأوقعتمونا فيه، بتقديم ما يؤدي إليه من العقائد الزائغة، والأعمال السيئة، وتزيينها في أعيننا، وإغرائنا عليها، لا أنا باشرنا من تلقاء أنفسنا، وذلك أن سبب عذاب الأتباع، هو تلك العقائد والأعمال، والرؤساء لم يقدموها، بل الذين قدموها هم الأتباع باختيارهم إياها، واتصافهم بها، والذي قدمه الرؤساء لهم، ما يحملهم عليها من الإغواء والإغراء عليها، وهذا القدر من السببية، كاف لنا ولكم في إسناد تقديم العذاب، أو الصلي إلى الرؤساء. ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾؛ أي: فبئس المقر جهنم، قصدوا بذمها جناية الرؤساء عليهم.

ثم حكى عن الأتباع أيضاً: أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر، وهو: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: الأتباع معرضين عن خصومتهم متضرعين إلى الله، داعين على رؤساء الضلال: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ العذاب أو الصلي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلنَّارِ﴾؛ أي: فزده في النار عذاباً ذا ضعف. والضعف: بأن يزيد عليه مثله. و﴿مَن﴾ يجوز أن تكون شرطية، و﴿فَزِدْهُ﴾ جوابها، وأن تكون موصولة بمعنى: الذي مرفوعة المحل على الابتداء، والخبر ﴿فَزِدْهُ﴾. والفاء: زائدة لتضمن المبتدأ معنى الشرط، و﴿ضِعْفًا﴾ صفة لـ﴿عَذَابًا﴾ بمعنى: مضاعفاً، ﴿وَفِي ٱلنَّارِ﴾ ظرف لـ﴿زده﴾ أو نعت لـ﴿عَذَابًا﴾.

والمعنى: أي قال الأتباع دعاء على الرؤساء: ربنا، آت من قدم لنا هذا العذاب، عذاباً مضاعفاً في النار، للضلال، وعذاباً للإضلال. كما ورد في الحديث: «من سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها». ونحو الآية قوله: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (٦٧) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: العذاب الضعف: هو الحيات، والأفاعي، وذلك المضل آذى روح من أضله في الدنيا، فسلط الله عليه المؤذي في الآخرة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعلى العاقل إصلاح الباطن وتزكيته من الأخلاق الذميمة والأوصاف القبيحة، وإصلاح الظاهر وتحليته عن الأقوال الشنيعة، والأعمال الفظيعة، ولا يغتر بالقرناء السوء، فإنهم منقطعون غداً من كل خلة ومودة، ولا ينفع لأحد إلا القلب السليم، والعلم النافع، والعمل الصالح، اللهم اجعلنا من أهل المحبة والرحبة، ولا تجعلنا من أهل السخط والغضب.

وبعد أن ذكر حديثهم عن أحبابهم في الدنيا، حكى حديثهم عن أعدائهم فيها، فقال: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال المشركون بعضهم لبعض، على سبيل التعجب والتحسر، إذا افتقدوا المؤمنين ولم يجدوهم في النار: ﴿مَا لَنَا﴾؛ أي: ما بالنا وشأننا. و﴿مَا﴾ استفهامية مبتدأ، و﴿لَنَا﴾ خبره، وهو مثل قوله: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ في أن الاستفهام محمول على التعجب، لا على حقيقته، إذ لا معنى لاستفهام العاقل عن نفسه، والفعل المنفي في قوله: ﴿لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ حال من ضمير ﴿لَنَا﴾؛ أي: أي شيء ثبت لنا، حال كوننا غير رائين رجالاً ﴿كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَعُدُّهُم﴾ ونظنهم ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ والأراذل الذين لا خير فيهم، ولا جدوى،

جمع شر، وهو الذي يرغب عنه الكل، يعنون: فقراء المسلمين كانوا يسترذلونهم، ويسخرون منهم مثل: صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وخباب، وعمار - رضي الله عنهم - وغيرهم من صعاليك المهاجرين، الذين كانوا يقولون لهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾، سموهم أشرار، إما بمعنى الأراذل والسفلة الذين لا خير فيهم، ولا جدوى، كما يقال: هذا من شر المتاع، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم، فكانوا عندهم أشراراً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريدون أصحاب محمد ﷺ، يقول أبو جهل وأضرابه: أين بلال، أين صهيب، أين عمار، أولئك في الفردوس، واعجباً لأبي جهل، مسكين أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو. قال:

وَنُـوْرَاً أَضَـاءَ ٱلأَرْضَ شَـرْقَـاً وَمَـغْـرِبَـا   وَمَـوْضِـعُ رِجْـلِـي مِـنْـهُ أَسْـوَدُ مُـظْـلِـمُ

ثم سألوا عن السبب في عدم رؤيتهم، فقالوا: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ بقطع[1] الهمزة على أنها استفهام، والأصل: أاتخذناهم، حذفت همزة الوصل، للاستغناء عنها بهمزة الاستفهام. و﴿سِخۡرِيًّا﴾ بضم السين وكسرها مصدر سخره، زيد فيه ياء النسبة للمبالغة؛ لأن في ياء النسبة زيادة قوة في الفعل، كما قيل: الخصوصية في الخصوص. قالوه إنكاراً على أنفسهم، ولوماً لها في الاستسخار منهم. فمعنى الاستفهام: الإنكار، والتوبيخ، والتعنيف، واللوم؛ أي: ألأجل أنا قد اتخذناهم في الدنيا سخرياً، ولم يكونوا كذلك لم يدخلوا النار. ﴿أم﴾ هم معنا في النار، ولكن ﴿زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ومالت، ولم تقع عليهم أبصارنا. و﴿أَمۡ﴾ متصلة معادلة ﴿لاتخذناهم﴾، وفي هذا إنكار على أنفسهم، وتأنيب لها على استسخارهم منهم في الدنيا.

والخلاصة[2]: أن الكفار حين دخلوا النار، ونظروا في جوانبها، ولم يروا المؤمنين، الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا تناجوا، وقالوا: ما بالنا؟ لا نرى

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

الذين كنا نتخذهم في الدنيا سخرياً، ألم يدخلوا النار معنا، أم دخلوها ولكن زاغت عنهم أبصارنا، ولم ترهم.

وقرأ النحويان[1] ـ أبو عمرو والكسائي ـ وحمزة ﴿اتخذناهم﴾ وصلاً. فقال أبو حاتم، والزمخشري، وابن عطية: صفة لـ﴿رجالاً﴾. قال الزمخشري: مثل قوله: ﴿نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾. وقال ابن الأنباري: حال؛ أي: وقد اتخذناهم. وقرأ أبو جعفر، والأعرج، الحسن، وقتادة، وباقي السبعة: بهمزة الاستفهام، لتقرير أنفسهم على هذا، على جهة التوبيخ لها، والأسف؛ أي: اتخذناهم سخرياً ولم يكونوا كذلك، وقرأ عبد الله، وأصحابه، ومجاهد، والضحاك، وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج، ونافع، وحمزة، والكسائي: ﴿سخريا﴾ بضم السين ومعناها، من السخرة والاستخدام. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وعيسى، وابن محيصن، وباقي السبعة بكسر السين، ومعناها المشهور من السخر، وهو الهزء. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء، ومن ضم جعله من التسخير.

ثم بيّن أن هذا التناجي، سيكون يوم القيامة، وأنه حق لا مرية فيه، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي حدثناك عنه، أيها الرسول من تخاصم أهل النار بعضهم لبعض، ولعن بعضهم بعضاً ﴿لَحَقٌّ﴾؛ أي: لواقع ثابت في الدار الآخرة، لا يتخلف البتة. هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والجملة بيان لذلك، وقيل: بيان لحق، وقيل: بدل منه، وقيل: بدل من محل ﴿ذَٰلِكَ﴾، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وهذا على قراءة الجمهور، برفع ﴿تَخَاصُمُ﴾.

والمعنى: أن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق، لا بد أن يتكلموا به، وهو تخاصم أهل النار فيها، وما قالته الرؤساء للاتباع، وما قالته الأتباع لهم.

وقرأ الجمهور: ﴿تَخَاصُمُ﴾ بالرفع مضافاً إلى ﴿أَهْلِ﴾. وقرأ ابن أبي عبلة، ﴿تخاصمَ أهل﴾ بنصب الميم وجر ﴿أهل﴾ على أنه بدل من ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو بإضمار أعني، وقرأ ابن السميقع ﴿تَخاصَم﴾ فعلاً ماضياً، ﴿أَهْلِ﴾: فاعل، فتكون جملة

---

(١) البحر المحيط.

مستأنفة، وسمى الله تعالى، تلك المفاوضة التي جرت بين رؤساء الكفار، وأتباعهم تخاصماً؛ لأن قولهم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، وقول الأتباع: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ هو من باب الخصومة، فسمي التفاوض كله تخاصماً، لاستعماله عليه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ـ ﷺ ـ لمشركي مكة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾؛ أي: مخوف بعذاب الله تعالى لمن عصى. أنذركم، وأحذركم عذابه على كفركم ومعاصيكم، وقل أيضاً: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ في الوجود موجود ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركة، والكثرة؛ أي: لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلا ملجأ، ولا مفر إلا إليه، يعني: من عرف أنه الواحد، أفرد قلبه له، فكان واحداً به، وقد فسر قوله عليه السلام: «إن الله وتر يحب الوتر» يعني: القلب المنفرد له. ومن خاصية هذا الاسم: أن من قرأه ألف مرة، خرج الخلائق من قلبه. وما أحسن قول بعضهم:

إِذَا كَانَ مَا تَهْوَاهُ فِيْ ٱلْحُسْنِ وَاحِدَاً ... فَكُنْ وَاحِدَاً فِيْ ٱلْحُبِّ إِنْ كُنْتَ تَهْوَاهُ

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكل شيء سواه، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم، فكيف تكون له شركاء، وأيضاً يقهر العباد بذنوبهم، ومعاصيهم. وقال بعضهم: القهار الذي له الغلبة التامة، على ظاهر كل أمر وباطنه، ومن عرف قهره لعباده، نسي مراد نفسه لمراده، فكان له، وبه، لا لأحد سواه، وخاصية هذا الاسم إذهاب الدنيا، وعظمة ما سوى الله تعالى عن القلب، ومن أكثر ذكره، ظهرت له آثار القهر على عدوه. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات؛ أي: مالك جميع العوالم، فكيف يتوهم أن يكون له شريك؟ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالبه مغالب في أمر من أموره، وأيضاً العزيز بالانتقام من المجرمين، فالعزة لله تعالى، وبه التعزز أيضاً. قال الشيخ أبو العباس المرسي ـ رحمه الله ـ: والله ما رأيت العز، إلا في رفع الهمة عن المخلوقين، وخاصية هذا الاسم: أن من ذكره أربعين يوماً، في كل يوم أربعين مرة.. أعانه الله، وأعزه، فلم يحوجه لأحد من خلقه. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾؛ أي: المبالغ في المغفرة، والستر، والمحو، لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، قال بعضهم: الغفار: كثير المغفرة لعباده، والمغفرة: الستر على الذنوب، وعدم

المؤاخذة بها، وما جاء على فعال، فمشعر بترداد الفعل، وخاصية هذا الاسم: وجود المغفرة، فمن ذكره إثر صلاة الجمعة مئة مرة، ظهرت له آثار المغفرة. وقد قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب». وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا تضوّر من الليل، قال: «لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما، العزيز الغفار». ومعنى تضوّر: تلوّى إذا قام من النوم.

ومعنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾؛ أي: قل[1] أيها الرسول لمشركي مكة: إنما أنا نذير، مرسل من ربي، لأحذركم مخالفة أوامره، حتى لا يحل بكم من العقاب، مثل ما حل بالأمم قبلكم، كعاد، وثمود، ولست بالساحر، ولا بالكذاب ولا بالمسيطر الجبار، على نحو ما جاء في قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، وبعد أن ذكر وظيفة الرسول، ذكر ما يبلّغه للناس، فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إلخ؛ أي: إنه لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وهو الذي قهر كل شيء، وغلبه بعزته وجبروته، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما، وهو الذي يغلب ولا يغلب، ويغفر الذنوب لمن يشاء من عباده، إذا تاب جلّت أو حقرت.

ثم توعدهم على مخالفته، وترك العمل به، وأمر رسوله أن يجلي لهم حقيقة وظيفته، ليرعووا عن غيهم، ويتوبوا إلى رشدهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿هُوَ﴾؛ أي[2]: هذا القرآن، وما أنبئكم به من أمر التوحيد، والنبوة، وأخبار القيامة، والحشر، والجنة، والنار، وغيرها. ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ وشأن عظيم؛ لأنه كلام الرب القديم، وارد من جانبه الكريم، يدل على صدقي في دعوى النبوة، والنبأ: كل ما أخبر النبي ﷺ عن الله تعالى، ولا يستعمل إلا في خبر، ذي فائدة عظيمة.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وقال أبو حيان[1]: الضمير في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا﴾ يعود على ما أخبر النبي ﷺ، من كونه رسولاً منذراً، داعياً إلى الله تعالى، وأنه تعالى هو المنفرد بالألوهية، المتصف بتلك الأوصاف، من الوحدانية، والقهر، وملك العالم، وعزته، وغفرانه، وهو خبر عظيم، لا يُعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة. وقال ابن عباس: النبأ العظيم: القرآن الكريم، وقال الحسن: يوم القيامة، وقيل: قصص آدم، والإنباء به من غير سماع من أحد، وقال صاحب التحرير: سياق الآية وظاهرها: أنه يريد بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ ما قصه الله تعالى من مناظرة أهل النار، ومقاولة الأتباع مع الرؤساء؛ لأنه من أحوال البعث، وكانت قريش تنكر البعث، والحساب، والعقاب، وهم عن ذلك معرضون.

وجملة قوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ لا تتفكرون فيه، وتعدونه كذباً لغاية ضلالتكم وغاية جهالتكم، فلذا لا تؤمنون به مع عظمته، وكونه موجباً للإقبال الكلي عليه، وتلقيه بحسن القبول، فالتصديق فيه نجاة، والكذب فيه هلكة، توبيخ لهم، وتقريع لكونهم أعرضوا عنه.

والمعنى[2]: أي قل لهم يا محمد: إن ما أنبأتكم به، من كوني رسولاً منذراً، ومن أن الله واحد لا شريك له، خبر عظيم الفائدة لكم، فهو ينقذكم مما أنتم فيه من الضلال، لكنكم معرضون عنه، لا تفكرون فيه، لتماديكم في الغفلة، وفي هذا تنبيه إلى ما هم فيه من الخطأ، علَّهم يرجعون عن غيهم.

ثم ذكر من الأدلة ما يرشد إلى نبوته، فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَ﴾ قرأ حفص عن عاصم بفتح الياء، والباقون بإسكانها. وهو كلام مستأنف، مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم؛ أي: ما كان لي فيما سبق ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي[3]: علم ما بوجه من الوجوه، على ما يفيده حرف الاستغراق ﴿بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: بحال الملأ الأعلى، وهم الملائكة، وآدم عليهم السلام، وإبليس عليه اللعنة، سموا بالملأ الأعلى؛ لأنهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

كانوا في السماء وقت التقاول ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: بحالهم وقت اختصامهم، ورجوع بعضهم إلى بعض، في الكلام في شأن آدم، فإن إخباره عن تقاول الملائكة، وما جرى بينهم من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ حين قال الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ على ما ورد في الكتب المتقدمة، من غير سماع ومطالعة كتاب، لا يتصور إلا بالوحي؛ أي: فلو لم يكن لي نبوة، ما أخبرتكم عن اختصامهم. و﴿إِذْ﴾ متعلق بالحال المحذوف، الذي يقتضيه المقام. إذ المراد: نفي علمه بحالهم لا بذواتهم، والحال يشمل الأقوال الجارية فيما بينهم، والأفعال أيضاً، من سجود الملائكة، واستكبار إبليس وكفره، وقيل[1]: إن الضمير في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ عائد إلى قريش. يعني: قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، والمعنى: ما كان لي علم بالملائكة، إذ تختصم فيهم قريش. والأول أولى.

والخلاصة: أي ولولا الوحي، ما كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى، يعني في شأن آدم عليه السلام، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه.

ثم أكد نبوته بقوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما يوحى إلي من حال الملأ الأعلى، وغيره من الأمور المغيبة ﴿إِلَّا أَنَّمَا﴾ بفتح الهمزة، على تقدير لام التعليل؛ أي: إلا لأنما ﴿أَنَا نَذِيرٌ﴾؛ أي: نبي منذر من العذاب، من جهته تعالى ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر النذارة، والنبوة بالدلائل الواضحة، عبر عن النبي بالنذير؛ لأنه صفته، وخصص النذير مع أنه بشير أيضاً؛ لأن المقام يقتضي ذلك، وجملة قوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ إلخ، معترضة بين اختصامهم المجمل، وبين تفصيله بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، قال الفراء، المعنى: ما يوحى إلي إلا أنني نذير مبين، أبيّن لكم ما تأتون من الفرائض، والسنن، وما تدعون من الحرام والمعصية.

وقرأ الجمهور[2]: بفتح همزة ﴿أَنَّمَا﴾ على أنها وما في حيزها في محل

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.

رفع، لقيامها مقام الفاعل؛ أي: ما يوحى إلي إلا الإنذار، أو إلا كوني نذيراً مبيناً، أو في محل نصب، أو جر بعد إسقاط لام العلة، والقائم مقام الفاعل على هذا الجار والمجرور، وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة، لأن في الوحي معنى القول، وهي القائمة مقام الفاعل، على سبيل الحكاية، كأنه قيل: ما يوحى إلي إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار، وهو أن أقول لكم: إنما أنا نذير مبين.

ولما ذكر سبحانه، خصومة الملائكة، إجمالاً فيما تقدم ذكرها هنا، تفصيلاً فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿إِذْ﴾: هي بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لاشتمال ما في حيز هذه على الخصومة، وقيل: هي منصوبة بإضمار ﴿اذكر﴾، والأول أولى، إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يُستخلف في الأرض. وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدم ذكره، فالثاني أولى.

فإن قلت[1]: كيف يجوز أن يقال: إن الملائكة اختصموا بهذا القول، والمخاصمة مع الله تعالى كفر؟.

قلت: لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة، والمشابهة تجوز إطلاق اسم المشبه به على المشبه، فحسن إطلاق المخاصمة على المقاولة الواقعة هناك.

فإن قلت: إن الاختصام المذكور سابقاً، مسند إلى الملأ الأعلى، وواقع فيما بينهم، وما وقع في جملة البدل هو التقاول الواقع بين الله تعالى، وبينهم، لأنه تعالى، هو الذي قال لهم وقالوا له، فكيف تجعل هذه الجملة بدلاً من قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مبيناً ومشتملاً له؟.

قلت: حيث كان تكليمه تعالى إياهم بواسطة الملك، صح إسناد الاختصام إلى الله تعالى، لكونه سبباً آمراً. وقد سبق المراد بالملائكة في سورة الحجر، فارجع.

---

(١) روح البيان.

﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ﴾ فيما سيأتي من الزمن ﴿بَشَرًا﴾؛ أي: إنساناً بادي البشر؛ أي: ظاهر الجلد، ليس على جلده صوف ولا شعر، ولا وبر، ولا ريش، ولا قشر، فإن قيل[1]: كيف صح أن يقول لهم: إني خالق بشراً، وما عرفوا البشر، ولا عهدوا به قبل؟.

أجيب: بأنه يمكن أنه يكون قال لهم: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم، اهـ «خطيب». ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ أي: من تراب مبلول. متعلق بمحذوف، هو صفة لـ﴿بَشَرًا﴾، أو بخالق ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية، أو سوّيت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه، كما في الجنين الذي أتى عليه أربعة أشهر. فلا بد لنفخ الروح من هذه التسوية البتة. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾؛ أي: من الروح الذي أملكه، ولا يملكه غيري. وقيل: هو تمثيل لإضافة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها؛ لأن النفخ: إجراء الريح إلى تجويف جسم صلح لإمساكها والامتلاء بها، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، والمعنى حينئذ: فإذا أكملت استعداده، وأفضت عليه، ما يحيى به من الروح التي هي من أمري، وإضافته إلى نفسه لشرفه وطهارته، أو على سبيل التعظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم، كما في بيت الله، وناقة الله.. ﴿فَقَعُوا﴾؛ أي: فاسقطوا ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك البشر؛ أي: لتكريمه أمر من وقع، يقع حال كونكم ﴿سَٰجِدِينَ﴾ لاستحقاقه الخلافة، وهذا السجود من باب التحية والتكريم، فإنه لا يجوز السجود لغير الله تعالى، على وجه العبادة، لا في هذه الأمة، ولا في الأمم السابقة، وإنما شاع بطريق التحية للمتقدمين. ثم أبطله الإسلام، وفيه دليل على أن المأمور به، ليس مجرد انحناء كما قيل، وكذا في قوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ فإن حقيقة السجود: وضع الجبهة على الأرض.

وقال بعضهم: نفخ الروح عندي، عبارة عن إظهارها في محلها، وعبر عنه بالنفخ؛ لأن البدن بعد ظهور الروح فيه، يكون كالمنفوخ المرتفع الممتلىء، ألا

---

(١) خطيب.

ترى إلى أن الميت يبقى بعد مفارقة الروح كالخشب اليابس، ثم في إضافة الروح، إشارة إلى تقديم روح آدم على أرواح الملائكة وغيرها؛ لأن المضاف إلى القديم قديم، وإن كان جسد بعض الأشياء متقدماً على جسده.

قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في الكلام حذف، تدل عليه الفاء، والتقدير: فخلقه فسواه، فنفخ فيه الروح، فسجد الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبق منهم أحد، إلا سجد ﴿أَجْمَعُونَ﴾ بطريق المعية، بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد. فالأول: لقصد الإحاطة، والثاني: لقصد الاجتماع، قال في «الكشاف»: فأفادا معاً، أنهم سجدوا عن آخرهم، ما بقي منهم ملك إلا سجد، وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد، غير متفرقين في أوقات، وقيل: إنه أكد بتأكيدين، للمبالغة في التعميم. ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإنه لم يسجد، والاستثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة فعلاً، ومن الجن نوعاً، ولذلك تناوله أمرهم، وكان اسم إبليس قبل أن يبلس من رحمة الله تعالى، عزازيل والحارث، وكنيته: أبو كردوس وأبو مرة، كأنه سئل كيف ترك السجود، هل كان ذلك للتروي والتأمل، أو غير ذلك؟ فقيل: ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ وتعظم عن السجود لآدم. وسببه أنه كان أعور، فما رأى آثار أنوار التجلي على آدم عليه السلام. وقيل: الاستثناء منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم؛ أي: لكن إبليس ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ وأنف من السجود جهلاً منه، بأنه طاعة لله تعالى ﴿وَ﴾ كان استكباره استكبار كفر، فلذلك ﴿كان من الكافرين﴾؛ أي[1]: صار منهم بمخالفته لأمر الله، واستكباره عن طاعته، أو كان من الكافرين في علم الله سبحانه، أزلاً بالذات، وفي الخارج أبداً باستقباح أمر الله. ولذا كانت شقاوته ذاتية لا عارضية، وسعادته في البين عارضية لا ذاتية، فالعبرة لما هو بالذات، وذلك لا يزول لا لما هو بالعرض، إذ ذاك يزول.

أي[2]: صار من الكافرين، بإبائه عن أمر الله، بعد أن كان مسلماً عابداً لله سبحانه مع الملائكة، نحو ثمانين ألف سنة، وطاف بالبيت أربعة عشر ألف عام،

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

على ما قيل، اهـ شيخنا.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس مشافهة، حين امتنع من السجود: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾؛ أي: يا خبيث، وهذه مشافهة لا تدل على إكرام إبليس، إذ يخاطب السيد عبده بطريق الغضب، وتمامه في سورة الحجر. ﴿مَا﴾ استفهامية؛ أي: أي شيء ﴿مَنَعَكَ﴾ من ﴿أَن تَسۡجُدَ﴾؛ أي: أي شيء دعاك إلى ترك السجود ﴿لِمَا﴾؛ أي: لمن ﴿خَلَقۡتُ﴾ وأوجدت ﴿بِيَدَيَّۖ﴾؛ أي خصصته بخلقي إياه بيدي كرامة له؛ أي: خلقته بذاتي، من غير توسط أب وأم، فذكر اليد لنفي توهم التجوز؛ أي: لتحقيق إضافة خلقه إليه تعالى، والتثنية في اليد، لما في خلقه من مزيد القدرة، واختلاف الفعل، فإن طينته خمّرت أربعين صباحاً، وكان خلقه مخالفاً لسائر أبناء جنسه، المتكونة من نطفة الأبوين، أو من نطفة الأم مميزاً عنهم، ببديع صنعه تعالى.

﴿أستكبرت﴾؛ أي: أتكبرت عن السجود لآدم من غير استحقاق التكبر، بقطع الألف، أصله: أاستكبرت، أدخلت همزة الاستفهام للتوبيخ، والإنكار على همزة الوصل، فحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام، وبقيت همزة الاستفهام مفتوحة. ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾؛ أي: من المستحقين للتفوق والعلو، ويحتمل أن يكون المراد بالعالين: الملائكة المهيِّمين، الذين ما أُمروا بالسجود لآدم، لاستغراقهم في شهود الحق، وهم الأرواح المجردة.

والمعنى[1]: أتركت السجود لاستكبارك الحادث، أم لاستكبارك القديم المستمر؟. لكن جواب إبليس بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لا يطابقه؛ لأنه أجاب: بأنه إنما ترك السجود، لكونه خيراً منه، وعالياً بالنسبة إليه، وبيّن ذلك بأن أصله من النار، وأصل آدم من الطين، والنار أشرف من الطين؛ لأن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية، والنار أقرب العناصر من الفلك، والأرض أبعدها منه، وأيضاً النار لطيفة نورانية، والأرض كثيفة ظلمانية، واللطافة والنورانية خير من الكثافة والظلمانية، اهـ «زاده».

---

(١) زادة.

وقرأ الجحدري ﴿لما خلقت﴾ بفتح اللام وتشديد الميم، على أنها ظرف بمعنى: حين، كما قال أبو علي الفارسي، وقرأ: ﴿بيدي﴾ على الإفراد. وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِيَدَيَّ﴾ على التثنية، وقُرأ ﴿بيدي﴾ كقراءة ﴿بمصرخي﴾، وقال تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بهمزة الاستفهام، فأم متصلة عادلت الهمزة، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بألف وصل، ويجوز أن يكون الاستفهام مراداً، فيوافق القراءة الأولى. كما في قول الشاعر:

تَـرُوْحُ مِـنَ ٱلْـحَـيِّ أَمْ تَـبْـتَـكِـرْ

وقول الآخر:

بِسَبْعٍ رَمَيْـنَ ٱلْجَمْـرَ أَمْ بِثَمَـانِيَـا

ويحتمل أن يكون إخباراً محضاً، من غير إرادة للاستفهام، فتكون ﴿أَمْ﴾ منقطعة. والمعنى: استكبرت عن السجود الذي أمرت به، بل أ﴿كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾.

وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ إبليس إبداء للمانع: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؛ أي: أفضل من آدم، مستأنفة، واقعة في جواب سؤال مقدر، وفي ضمن كلامه هذا: أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن؛ أي: ولو كنت مساوياً له في الشرف، لكان يقبح أن أسجد له، فكيف وأنا خير منه؟.

ثم بيّن وجه الخيرية منه بقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ نسب خلقه إلَى النار باعتبار الجزء الغالب، إذ الشيطان مخلوق من نار وهواء. ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ نسب خلقه إلى الطين، باعتبار الجزء الغالب أيضاً، إذ آدم مخلوق من العناصر الأربعة.

والمعنى[2]: لو كان آدم مخلوقاً من نار، لما سجدت له؛ لأنه مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني؟؛ لأنه من طين، والنار تغلب الطين وتأكله، فلا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

يحسن أن يسجد الفاضل للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر، ظن أن ذلك شرف له، ولم يعلم أن الشرف يُكتسب بطاعة الله تعالى، ولقد أخطأ اللعين، حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وزل عما من جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وما من جهة الصورة، كما نبه عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾. وما من جهة الغاية، وهو ملاك الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾، ولذلك أمر الملائكة بسجوده، حين ظهر لهم، أنه أعلم منهم، بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأن له خواص ليست لغيره.

ومراده: أن النار أقرب إلى الأشرف الذي هو الفلك. وهي خليفة الشمس والقمر في الإضاءة والحرارة، وهي ألطف من الأرض، وهي مشرقة، وهي شبيه الروح، وأشرف الأعضاء القلبُ والروحُ، وهما على طبيعة النار، وكل جسم أشبه النار، كالذهب والياقوت فهو أشرف، والشمس أشرف الأجسام، وهي تشبه النار في الطبع والصورة، وأيضاً لم يتم المزاج إلا بالحرارة، ومآل كل هذه إلى أن أصله خير فهو خير. وهذا ممنوع، ولذا قال من قال:

أَتَفْخَرَ بِاتِّصَالِكَ مِنْ عَلِيٍّ   وَأَصْلُ ٱلْبَوْلَةِ ٱلْمَاءُ ٱلْقَرَاحُ
وَلَيْسَ بِنَافِعٍ نَسَبٌ زَكِيٌّ   تُدَنِّسُهُ صَنَائِعُكَ ٱلْقِبَاحُ

فيجوز أن يكون أصل أحد الشيئين أفضل، وينضم إليه ما يقتضي مرجوحيته، كما في إبليس، فإنه قد انضم إلى أصله عوارض رديئة، كالكبر والحسد والعجب والعصيان، فاقتضت اللعنة عليه، وأمر آدم عليه السلام بالعكس.

وقال في «آكام المرجان»: اعلم أن هذه الشبهة التي ذكرها إبليس، إنما ذكرها على سبيل التعنت، وإلا فامتناعه عن السجود لآدم، إنما كان عن كبر وكفر، ومجرد إباء وحسد، ومع ذلك فما أبداه من الشبهة فهو داحض؛ أي: باطل؛ لأنه رتب على ذلك، أنه خير من آدم، لكونه خُلق من نار، وآدم خلق من طين، ورتب على هذا، أنه لا يحسن منه الخضوع، لمن هو دونه، وهذا باطل من وجوه:

الأول: أن النار طبعها الفساد، وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب، فإنه إذا وُضع القوت فيه، أخرجه أضعاف ما وُضع فيه، بخلاف النار، فإنها آكلة لا تبقي ولا تذر.

والثاني: أن النار طبعها الخفة، والطيش، والحدة، والتراب طبعه الرزانة، والسكون، والثبات.

والثالث: أن التراب يتكون فيه، ومنه أرزاق الحيوانات وأقواتهم، ولباس العباد وزينتهم، وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

والرابع: أن التراب ضروري للحيوان، لا يستغني عنه البتة، ولا عما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان مطلقاً، وقد يستغني عنها الإنسان أياماً وشهوراً، فلا تدعوه إليها ضرورة.

الخامس: أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به، يكون حاملاً، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها، لغناه وافتقارها.

والسادس: أن النار مفتقرة إلى التراب، وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار، لا يكون إلا متكوناً من التراب أو فيه، فهي المفتقرة إلى التراب، وهو الغني عنها.

والسابع: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف تتلاعب به الأهوية، فيميل معها كيفما مالت، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية هي التراب، وهو قوي لا يذهب مع الهواء أينما ذهب، فهو قهر هواه، وأسره، ورجع إلى ربه فاجتباه، فكان الهواء الذي مع المادة الآدمية عارضاً سريع الزوال، فزال، فكان الثبات والرزانة أصلاً له، فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك، فعاد كل منهما إلى أصله وعنصره، آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء الخبيث.

والثامن: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة من الطبخ والتسخين والاستضاءة بها، فالشر كامن فيها لا يصدها عنه، إلا قسرها وحبسها، ولولا

القاصر والحابس لها، لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب، فالخير والبركة كامن فيه، كلما أثير وقُلب ظهر خيره وبركته وثمرته. فأين أحدهما من الآخر، إلى آخر ما ذكره من الوجوه الكثيرة، التي تُدحض شبهه.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى، بقهره وعزته ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ الفاء فيه فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا خالفت أمري وأبيت من السجود لآدم، وأردت بيان ما هو الجزاء لك.. فأقول لك: اخرج يا إبليس ﴿مِنۡهَا﴾؛ أي: من[1] الجنة، وقيل: من السماء، وقيل: من زمرة الملائكة، وهو المراد بالأمر بالهبوط، لا الهبوط من السماء، كما قال البيضاوي، فإن وسوسته لآدم، كانت بعد هذا الطرد، قال بعضهم: عظم جناية إبليس يقتضي هبوطه من السماء إلى الأرض، لا التوقف فيها إلى زمان الوسوسة. وأما أمر الوسوسة، فيجوز أن يكون بطريق الصعود إلى السماء؛ ابتلاء من الله تعالى، ودخوله الجنة، وهو في السماء، ليس بأهون من دخوله وهو في الأرض، إذ هو ممنوع من الدخول مطلقاً، سواء كان في الأرض أو في السماء، إلا بطريق الامتحان.

وفي «الكرخي»: وقيل: اخرج[2] من الخلقة التي كنت عليها أولاً، وانسلخ منها؛ لأنه كان يفتخر بخلقته، فغيّر الله خلقته، فاسود بعدما كان أبيض، وقبح بعدما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً، وفي «تحفة العارفين» ما نصه: وكان إبليس رئيساً على اثني عشر ألف ملك، وكان له جناحان من زمرد أخضر، فلما طُرد غيرت صورته، وجعله الله منكوساً على مثال الخنازير: ووجهه كالقردة، وهو شيخ أعور كوسج، وفي لحيته سبع شعرات، مثل شعر الفرس، وعيناه مشقوقتان في طول وجهه، وأنيابه خارجة كأنياب الخنازير، ورأسه كرأس البعير، وصدره كسنام الجمل الكبير، وشفتاه كشفتي الثور، ومنخاراه مفتوحتان مثل: كوز الحجام، اهـ. ولكنها من الإسرائيليات التي لا أصل لها، وإنما نقلناها، لأنه أحق بهذه الصفات القبيحة.

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالخروج؛ أي: مطرود عن كل خير وكرامة، فإن من يطرد يرجم بالحجارة، إهانة له، أو شيطان يرجم بالشهب السماوية، أو الأثيرية. وإلى الثاني ذهب بعض أهل الحقائق.

فإن قلت[1]: إذا كان الرجم بمعنى الطرد، وكذلك اللعنة، لزم التكرار فما الفرق؟.

قلت: الفرق يحصل بحمل الرجم على الطرد من الجنة، أو السماء، ويحمل اللعنة على معنى الطرد من الرحمة، فيكون أبلغ، ويحصل الفرق، ويزول التكرار، اهـ «خازن».

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾؛ أي: إبعادي عن الرحمة، فإن اللعن: طرد، أو إبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع عن قبول فيضه وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره.

وتقييدها[2] بالإضافة مع إطلاقها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة، والثقلين أيضاً من جهته تعالى، وأنهم يدعون عليه بلعنة الله، وإبعاده من الرحمة، قال بعضهم: اللعنة المطلقة أيضاً هي لعنة الله تعالى؛ لأن اللام عوض عن المضاف إليه، فمآل الآيتين واحد. ويجوز أن يكون المعنى: وإن عليك لعنتي على ألسنة عبادي يلعنونك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: إلى يوم الجزاء والعقوبة.

قال زكريا[3]: قال سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ بتعريف الجنس، ليناسب ما قبله من التعبير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾، وقال هنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ بالإضافة ليناسب ما قبله من قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، انتهى.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) متشابه القرآن.

فإن قلت[1]: كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الغاية، فتقتضي انقضاء اللعنة، عنه، عند مجيء يوم الدين، مع أنها لا تنقطع؟.

قلت: معناه: أن اللعنة باقية عليه في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة، زيد له على اللعنة من العذاب، بحيث تنسى اللعنة بذلك، فكأنها انقطعت عنده.

قال بعضهم: ولا يلزم[2] من هذا التوقيت، انقطاع اللعنة عنه في الآخرة، إذ من كان ملعوناً مدة الدنيا، ولم يشم رائحة الرحمة في وقتها، كان ملعوناً أبدياً في الآخرة، ولم يجد أثر الرحمة فيها، لكونها ليست وقت الرحمة للكافر، وقد عُلم خلوده في النار بالنص، وكذا اللعنة، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مع ما ينضم إليه من عذاب آخر، ينسى عنده اللعنة، والعياذ بالله تعالى.

وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ إبليس اللعين: ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا ربي إلخ، مستأنفة كما تقدم فيما قبلها، والفاء في قوله: ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا جعلتني رجيماً، مطروداً عن رحمتك، وأردت بيان سؤلي منك.. فأقول لك: يا ربي أمهلني ولا تُمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم للجزاء، وهو يوم القيامة، يعني: آدم وذريته؛ أي: إلى يوم يبعث آدم وذريته من القبور، للجزاء بعد فنائهم، وأراد بدعائه أن يجد فسحة لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية، إذ لا موت بعد يوم البعث، فلم يُجب، ولم يُوصل إلى مراده. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: من جملة الذين أُخرت آجالهم أزلاً، بحسب الحكمة كالملائكة ونحوهم. والفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سألتني الإنظار، وأردت بيان ما أنظرته لك.. فأقول لك: إنك من الممهلين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ عندي، لا عند غيري؛ أي: إلى اليوم[3] الذي قدرته، وعينته لفناء

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

الخلائق، وهو وقت النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث، الذي هو المسؤول له، قال في «آكام المرجان»: ظاهر القرآن يدل على أن إبليس غير مخصوص بالإنظار، وأما ولده وقبيله، فلم يقم دليل على أنهم منظرون معه، وقال بعضهم: الشياطين يتوالدون ولا يموتون إلى وقت النفخة الأولى، بخلاف الجن، يتوالدون ويموتون، ويحتمل أن بعض الجن أيضاً، منظرون، كما أن بعض الإنس منظرون، كالخضر عليه السلام، وفيه: أن الظاهر: أن يموت الخضر وأمثاله حين يموت المؤمنون، ولا يبقى منهم أحد. وذلك قبل الساعة بكثير من الزمان.

ثم إن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ﴾ إلخ، إخبار من الله تعالى، بالإنظار المقدر أزلاً، لا إنشاء، لإنظار خاص به قد وقع إجابةً لدعائه، وكان استنظاره طلباً لتأخير الموت، لا لتأخير العقوبة. هكذا في «الإرشاد». وقال بعضهم: ولا شك أن الله تعالى، استجاب دعاء إبليس، ليكون طول بقائه في الدنيا، أجراً له في مقابلة طول عبادته قبل لعنه، ودعاء الكافر مستجاب في أمور الدنيا، فلا مانع أن يكون إنظاره بطريق الإنشاء، يدل عليه ترتيبه على دعائه الحادث.

﴿قَالَ﴾ إبليس عليه ما يستحق ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ والباء فيه للقسم؛ أي: فأقسم بعزتك؛ أي: بقهرك وسلطانك، ولا ينافيه قوله تعالى، حكاية عنه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾؛ لأن إغواءه إياه، أثر من آثار قدره وعزته، وحكم من أحكام قهره وسلطنته. ولهذه النكتة الخفية ورد الحلف هنا بالعزة، مع أن الصفات اللائقة للحلف كثير. وفي «التأويلات النجمية»: ثم إن إبليس لتمام شقاوته قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ إلخ، ولو عرف عزته، لما أقسم بها على مخالفته، ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأضلنّ ذرية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لأحملنهم على الغي والضلال، ولأكونن سبباً لغوايتهم وضلالهم بتزيين المعاصي لهم، وإدخال الشكوك والشبهات فيهم، ثم صدق حيث استثنى، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بفتح اللام؛ أي: الذين أخلصتهم واصطفيتهم لطاعتك، وعصمتهم من الشيطان، وقرىء بالكسر على صيغة اسم الفاعل؛ أي: الذين أخلصوا أعمالهم وقلوبهم لله تعالى، من غير شائبة الرياء، قال بعضهم: العبد المخلص، هو الذي يكون سره بينه وبين ربه،

بحيث لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله، ثم لا شك أن من العباد عباداً، إذ رأى الشيطان أثر سلطنة ولايتهم، وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الإناء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، بل مكرُهُ محيط به، لا بأهل الحق، وهكذا حال ورثة الشيطان من المنكرين المفسدين، مع أهل الله تعالى، فإنهم محفوظون عما سوى الله تعالى مطلقاً.

وجملة قوله: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها؛ أي: قال الله تعالى: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ إلخ. الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا حلفت بصفتي على إغوائهم، ثم أغويتهم، لتكون باراً في قسمك، وأردت بيان عاقبتك وعاقبتهم.. فأقول لك: الحق، بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف؛ أي: فالحق قسمي، على أن الحق اسم من أسماء الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾، أو نقيض الباطل، عظمه الله تعالى بإقسامه به، ويحتمل أن يكون التقدير: فالحق مني، كما قال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ بالنصب على أنه مفعول لأقول، قدم عليه للقصر؛ أي: لا أقول إلا الحق. وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾؛ أي: من جنسك من الشيطان، والجملة جواب القسم، وجملة ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ معترضة بين القسم وجوابه، ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلال بسوء اختياره ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من ذرية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للكاف وما عطف عليه؛ أي: لأملأنها من المتبوعين والأتباع أجمعين، لا أترك أحداً منهم. وفي «التأويلات النجمية»: ولما كان تجاسره في مخاطبته الحق، حيث أصر على الخلاف، وأقسم عليه أقبح وأولى في استحقاق اللعنة، من امتناعه السجود لآدم، قال فالحق إلخ، انتهى. فعلى العاقل أن يتأدب بالآداب الحسنة، قولاً وفعلاً، ولا يتجاسر على الله تعالى أصلاً، ولا يتبع خطوات الشيطان، حتى لا يرد معه النار.

وقرأ الجمهور: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ بنصبهما، أما الأول فمقسم به، حذف منه الحرف كقولهم: أمانة الله لأقومن، والمقسم عليه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ ﴿وَٱلْحَقَّ

﴿أَقُولُ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه، أو هما منصوبان على الإغراء؛ أي: إلزموا الحق، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والأعمش برفعهما، فرفع الأول على ما تقدم، ورفع الثاني بالابتداء، والخبر الجملة المذكورة بعده، والرابط محذوف، وقرأ ابن السميقع، وطلحة بن مصرف، والحسن، وعيسى، وعبد الرحمن ابن أبي حماد، عن أبي بكر بجرهما. ويخرّج على أن الأول، مجرور بواو القسم، محذوفة، تقديره: فوالحق، و﴿الحق﴾ معطوف عليه، كما تقول: والله والله لأقومن ﴿أَقُولُ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه، وقرأ مجاهد، والأعمش بخلاف عنهما، وأبان بن تغلب، وطلحة في رواية، وحمزة، وعاصم عن المفضل، وخلف وعيسى: برفع الأول، ونصب الثاني. وتقدم إعرابهما.

وخلاصة هذه القصة[1]: أن الله سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام، أنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وأمرهم بالسجود له، متى فرغ من خلقه، وتسويته إجلالاً وإعظاماً له. فامتثل الملائكة كلهم ذلك، إلا إبليس، فلم يكن منهم جنساً، بل كان من الجن، فخانه طبعه، فاستنكف عن السجود له، وخاصم ربه، وادعى أنه خير من آدم؛ لأنه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد خالف بذلك أمر ربه، فكفر به، فأبعده وطرده من باب رحمته وحضرة قدسه، مذموماً مدحوراً، فسأل النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة، تمرد وطغى، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾. فقال تعالى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾.

ثم أمر الله سبحانه رسوله، أن يخبرهم: بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله تعالى، امتثال أمره، لا عرض الدنيا الزائل، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾؛ أي: ما أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على

---

(١) المراغي.

القرآن الذي أتيتكم به، أو على تبليغ الوحي، وأداء الرسالة، أو على الدعاء إلى الله على العموم، فيشمل القرآن وغيره من الوحي. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تعطونيه عليه أو جُعل تجعلونه لي من مال دنيوي، ولكن أعلمكم بغير أجر، وذلك لأن من شرط العبودية الخالصة، أن لا يُراد عليها الجزاء، ولا الشكور، فمن قطع رأس كافر في دار الحرب، أو أسره وأحضره عند رئيس العسكر، فيُعطي له مالاً، فقد فعله للأجر، لا لله تعالى، وعلى هذه جميع ما يتعلق به الأعراض الفاسدة.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾؛ أي[1]: من المتصنعين بما ليسوا من أهله، على ما عرفتم من حالي حتى أنتحل النبوة؛ أي: أدعيها لنفسي كاذباً، وأتقول القرآن من تلقاء نفسي، وكل من قال شيئاً من تلقاء نفسه، فقد تكلف له؛ أي[2]: من الحاملين للمشقة في التشريع على الناس؛ أي: إن هذا الذي أدعوكم إليه، دين لا يحتاج في معرفة صحته، إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دين يشهد العقل بصحته، فإني أدعوكم:

أولاً: إلى الإقرار بوجود الله سبحانه، ثم أدعوكم:

ثانياً: إلى تنزيهه تعالى، عن كل ما لا يليق به، ثم أدعوكم:

ثالثاً: إلى الإقرار بكونه تعالى، موصوفاً بكمال العلم، والقدرة والحكمة والرحمة، ثم أدعوكم:

رابعاً: إلى الإقرار بكونه تعالى، منزهاً عن الشركاء، ثم أدعوكم:

خامساً: إلى الامتناع عن عبادة الأوثان، ثم أدعوكم:

سادساً: إلى تعظيم الملائكة والأنبياء، ثم أدعوكم:

سابعاً: إلى الإقرار بالبعث والقيامة، ثم أدعوكم:

ثامناً: إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة. فهذه الأصول الثمانية هي الأصول المعتبرة في دين الله تعالى، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

الأصول الثمانية، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة، التي أدعو الخلق إليها، بل كل عقل سليم يشهد بصحتها وبُعدها عن الفساد، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا القرآن، أو الوحي، أو ما أدعوكم إليه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: عظة من الله تعالى، أو شرف وذكر باق ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: للثقلين كافة.

وعن مسروق قال: دخلنا على ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم، أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم. قال الله تعالى، لنبيه ﷺ: «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين»، متفق عليه. وهذا لفظ البخاري.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾؛ أي: وعزة الله وجلاله، لتعلمن أيها المشركون ﴿نَبَأَهُ﴾؛ أي: نبأ هذا القرآن؛ أي: ما أنبأ به من الوعد، والوعيد، وغيرها أو صحة خبره، وأنه الحق والصدق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾؛ أي: بعد الموت، أو يوم القيامة، حين لا ينفع العلم. وفيه تهديد. وقال الكلبي: من بقي عَلِمَ ذلك حين ظهر وعلا، ومن مات علِمَه بعد الموت. وقال الحسن بن آدم: عند الموت يأتيك الخبر اليقين، فينبغي للمؤمن، أن يكون بحيث لو كشف الحجاب، ما ازداد يقيناً. ومن كلام علي - رضي الله عنه -: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وختم السورة بالذكر، كما افتتحها بالذكر. والله الموفق.

الإعراب

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)﴾.

﴿هَٰذَا﴾: ﴿ها﴾ حرف تنبيه. ﴿ذا﴾: اسم إشارة، يشار به في محل الرفع مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: هذا العذاب المذكور فيما بعد للكفار. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لِلطَّاغِينَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها، ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾: اللام: حرف ابتداء ﴿شر مآب﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿هَٰذَا﴾. ﴿جَهَنَّمَ﴾: بدل من شر مآب، أو عطف بيان

له، ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من جهنم. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن مآبهم جهنم، وأردت بيان ما يقال فيها عند التعجب.. فأقول لك: بئس المهاد. ﴿بئس﴾: فعل ماض لإنشاء الذم. ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: فاعل، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: جهنم. وجملة ﴿بئس﴾ إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ خبراه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾: الفاء: اعتراضية، واللام: لام أمر وجزم مبني على السكون، ﴿يذوقوه﴾: فعل، وفاعل مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون، والهاء مفعول به. والجملة الفعلية معترضة، لا محل لها من الإعراب، لوقوعها بين المبتدأ والخبر. ﴿وَءَاخَرُ﴾ معطوف على حميم، ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آخر﴾، و﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي أزواج، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة للثلاثة، أو أزواج صفة للثلاثة، أعني: حميم وغساق وآخر. ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، مقول لقول محذوف تقديره: ويقال لهم عند دخولهم النار: هذا فوج. ﴿مُّقۡتَحِمٞ﴾ صفة لـ﴿فَوۡجٞ﴾، ﴿مَّعَكُمۡ﴾: ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة ثانية لـ﴿فوج﴾، أو حال من الضمير في ﴿مُّقۡتَحِمٞ﴾ أو من ﴿فَوۡجٞ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿مَرۡحَبَۢا﴾: مفعول لفعل محذوف تقديره: لا أتيتم مرحباً، أو لاسمعتم مرحباً، والجملة مستأنفة، مسوقة للدعاء عليهم بضيق المكان، أو حالية من فوج؛ أي: هذا فوج مقتحم معكم، مقولاً لهم: لا مرحباً بهم. ﴿بِهِمۡ﴾ متعلقان بـ﴿مَرۡحَبَۢا﴾ ﴿إِنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه، ﴿صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾: خبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قَالُواْ﴾: فعل، وفاعل، والضمير يعود على الأتباع، والجملة مستأنفة، ﴿بَلۡ﴾: حرف

إضراب، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿مَرْحَبًا﴾: مفعول لفعل محذوف، تقديره: لا أتيتم ولا وجدتم مرحباً؛ أي: مكاناً واسعاً، والجملة المحذوفة مقول لقول محذوف، هو خبر المبتدأ، والتقدير: قالوا بل أنتم مقول فيكم: لا مرحباً بكم، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿بِكُمْ﴾ متعلقان بـ﴿مَرْحَبًا﴾ ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾: فعل ماض، والتاء فاعل، والميم علامة الجمع، والواو حرف زائد لإشباع ضمة الميم، والهاء مفعول به، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور، متعلق بقدم، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿فَبِئْسَ﴾ الفاء: عاطفة أو استئنافية، ﴿بئس القرار﴾: فعل وفاعل، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: فبئس القرار هي؛ أي: النار. وجملة ﴿بئس﴾: معطوفة على جملة قوله ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قالوا﴾ أو مستأنفة.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿قَدَّمَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، صلة من الموصولة، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَدَّمَ﴾، ﴿هَٰذَا﴾: مفعول ﴿قَدَّمَ﴾، ﴿فَزِدْهُ﴾: الفاء: رابطة الخبر بالمبتدأ، لما في الموصول من رائحة الشرط، ﴿زده﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول ثان لـ﴿زده﴾، ﴿ضِعْفًا﴾: صفة لـ﴿عَذَابًا﴾؛ أي: مضاعفاً ﴿فِي النَّارِ﴾: متعلق بـ﴿زده﴾ أو صفة ثانية لـ﴿عَذَابًا﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قَالُوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَقَالُوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿قَالُوا﴾ الأول، والضمير يعود لكفار مكة، كأبي جهل وأضرابه. ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية في

محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الكفار. ﴿رِجَالًا﴾: مفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من ضمير المتكلمين في ﴿لَنَا﴾. ﴿كُنَّا﴾: فعل ماض ناقص واسمه، والجملة صفة لـ﴿رِجَالًا﴾. ﴿نَعُدُّهُم﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ متعلق بـ﴿نَعُدُّهُم﴾، وجملة ﴿نَعُدُّهُم﴾: في محل النصب خبر ﴿كُنَّا﴾. ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول لـ﴿اتخذنا﴾، والهمزة للاستفهام التوبيخي التعجبي، وهمزة الوصل سقطت استغناء عنها. ﴿سِخْرِيًّا﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذنا﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف، متصل بقوله: ﴿مَا لَنَا﴾. ﴿زَاغَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُمُ﴾: متعلق بـ﴿زَاغَتْ﴾. ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَا لَنَا﴾. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَحَقٌّ﴾: خبر، واللام حرف ابتداء، ﴿تَخَاصُمُ﴾: بدل من حق، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تخاصم أهل النار، وجملة المبتدأ المحذوف، وخبره مفسرة لاسم الإشارة. ﴿تَخَاصُمُ﴾: مضاف، ﴿أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مُنذِرٌ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾: صفتان للجلالة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: نعت للجلالة، أو بدل منه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على السموات. ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: معطوف أيضاً على السموات. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾: صفتان أيضاً لرب السموات.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿نَبَؤٌا﴾: خبره، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة لـ﴿نَبَؤٌا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بما بعده. ﴿مُعْرِضُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الرفع، صفة ثانية لـ﴿نَبَؤٌا﴾. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، ﴿لِيَ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿عِلْمٍ﴾: اسمها مؤخر، ﴿بِالْمَلَإِ﴾: متعلق بـ﴿علم﴾، ﴿الْأَعْلَىٰ﴾: صفة لـ﴿الملأ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بـ﴿عِلْمٍ﴾ أيضاً، وجملة ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿إِن﴾: نافية، ﴿يُوحَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿إِلَيَّ﴾: متعلق به، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿أَنَّمَا﴾: كاف ومكفوف، ﴿أَنَا﴾: مبتدأ، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبره، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿نَذِيرٌ﴾، والجملة الاسمية صلة ﴿أن﴾ المكفوفة، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، مرفوع على كونه نائب فاعل، لـ﴿يوحى﴾؛ أي: ما يوحى إلي إلا الإنذار، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أو متعلق بـ﴿اذكر﴾ محذوفاً، ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: فعل، وفاعل، ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾، متعلق بـ﴿قال﴾، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿بَشَرًا﴾: مفعول به لـ﴿خَالِقٌ﴾. ﴿مِّن طِينٍ﴾: صفة لـ﴿بَشَرًا﴾، أو متعلق بـ﴿خَالِقٌ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بالجواب الآتي، ﴿سَوَّيْتُهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿وَنَفَخْتُ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿سويت﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿نفخت﴾ ﴿مِن رُّوحِي﴾: متعلق بـ﴿نفخت﴾ أيضاً، ﴿فَقَعُوا﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿قعوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون. ﴿لَهُ﴾: متعلق

بـ﴿سَٰجِدِينَ﴾، و﴿سَٰجِدِينَ﴾: حال من فاعل ﴿قعوا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَسَجَدَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿سجد الملائكة﴾: فعل، وفاعل، ﴿كُلُّهُمْ﴾: توكيد أول للملائكة، ﴿أَجْمَعُونَ﴾: توكيد ثان له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿إِبْلِيسَ﴾: منصوب على الاستثناء المتصل أو المنقطع. ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان كيفية إبائه من السجود، وجملة ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: خبرها.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾: منادى مفرد العلم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿مَنَعَكَ﴾: فعل، ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر لما الاستفهامية، أي: أي شيء مانع إياك من السجود، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَسْجُدَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿لِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَسْجُدَ﴾، وجملة ﴿تَسْجُدَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر، منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿تسجد﴾؛ أي: أي شيء منعك السجود. ﴿خَلَقْتُ﴾: فعل، وفاعل، ﴿بِيَدَىَّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿لما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: لما خلقته بيدي. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، وهمزة الوصل سقطت استغناء عنها. ﴿استكبرت﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَمْ﴾: عاطفة متصلة، ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾: خبره، والجملة

معطوفة على جملة ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مِّنْهُ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿خَلَقْتَنِى﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، ونون وقاية، ﴿مِن نَّارٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: على كونها مفسرة للخيرية. ﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به معطوف على ﴿خَلَقْتَنِى﴾، ﴿مِن طِينٍ﴾: متعلق بـ﴿خلقته﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَٱخْرُجْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا خالفت أمري، وأبيت من السجود لآدم، وأردت بيان ما هو الجزاء لك.. فأقول لك: اخرج. ﴿اخرج﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿اخرج﴾، والجملة الفعلية مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾. ﴿فَإِنَّكَ﴾: الفاء: تعليلية، ﴿إنك رجيم﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للأمر بالخروج. ﴿وَإِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿عَلَيْكَ﴾: خبرها مقدم على اسمها، ﴿لَعْنَتِىٓ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱخْرُجْ﴾، أو على جملة قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿لَعْنَتِىٓ﴾؛ أي: حال كونها مستمرة إلى يوم الدين.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا جعلتني رجيماً مطروداً عن رحمتك، وأردت بيان سؤلي منك.. فأقول لك: يا رب أنظرني. ﴿أنظرني﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الله، والنون للوقاية، والياء مفعول به، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب

مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يُبْعَثُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، والواو نائب عن الفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَإِنَّكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سألتني الإنظار، وأردت بيان ما أنظرته لك، فأقول لك: إنك من المنظرين. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بالمنظرين، ﴿ٱلْمَعْلُومِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْوَقْتِ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: ﴿إذا﴾ أنظرتني، وأردت ثأري منهم، فأقول لك: بعزتك. الباء: حرف جر وقسم، ﴿عزتك﴾: مقسم به، مجرور بباء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف جوازاً، تقديره: أقسم بعزتك. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ اللام: موطئة للقسم. ﴿أغوين﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والنون حرف توكيد، والهاء مفعول به، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد للضمير المنصوب، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿عِبَادَكَ﴾: مستثنى من ضمير الغائبين. ﴿مِنْهُمُ﴾: حال من عبادك ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، صفة لـ﴿عبادك﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَٱلْحَقُّ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿الحق﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: قسمي. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱلْحَقَّ﴾: مفعول مقدم لـ﴿أَقُولُ﴾، ﴿أَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر

يعود على الله، والجملة معترضة بين القسم وجوابه، ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ اللام: موطئة للقسم. ﴿أملأن﴾ فعل مضارع، مبني على الفتح، وفاعله ضمير يعود على الله، والنون للتوكيد، ﴿جَهَنَّمَ﴾: مفعول به، ﴿مِنكَ﴾: متعلق بـ﴿أملأن﴾، ﴿وَمِمَّن﴾: معطوف على ﴿مِنكَ﴾، وجملة ﴿تَبِعَكَ﴾: صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وجملة ﴿أملأن﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿تَبِعَكَ﴾، ﴿أَجۡمَعِينَ﴾: تأكيد للضمير في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أو للكاف في ﴿مِنكَ﴾ وما عطف عليه.

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور، حال من أجر؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِنۡ﴾: زائدة، ﴿أَجۡرٍ﴾: مفعول ثان لـ﴿أسأل﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾: خبره أو ﴿مَآ﴾: حجازية. ﴿أَنَا۠﴾: اسمها، ﴿مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾: خبرها، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾: على كونها مقولا لـ﴿قُلۡ﴾ أو في محل النصب حال من فاعل ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾. ﴿إِنۡ﴾: نافية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرّغ. ﴿ذِكۡرٞ﴾: خبر المبتدأ. ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بذكر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم ﴿تعلمنّ﴾: فعل مضارع مرفوع؛ لأن نون التوكيد لم تباشره، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة أيضاً، لالتقاء الساكنين، فاعل والنون نون التوكيد الثقيلة، ﴿نَبَأَهُۥ﴾: مفعول به، ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾ منصوب على الظرفية ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿تعلمن﴾؛ لأن علم هنا عرفانية، ويجوز أن تكون على بابها، فيكون المفعول الثاني ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾. والجملة الفعلية جواب القسم، لا

محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿مَآ أَسْئَلُكُمْ﴾: على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾: هم الكفار الذين تجاوزوا حدود الله تعالى، وكذبوا رسله، من الطغيان. قال الراغب: الطغيان: تجاوز الحد في العصيان. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المهاد: كالفراش وزناً ومعنى. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ والذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله في القليل، لكنه يصلح للكثير الذي يقال له: الأكل، وكثر استعماله في العذاب تهكماً. ﴿حَمِيمٌ﴾: وهو الماء الذي انتهى حره. ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وهو ما يغسق، ويسيل من صديد أهل النار، من غسقت العين إذا سال دمعها، وفي «القاموس»: الغساق كسحاب وشداد: البارد المنتن. ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾؛ أي: من مثل المذوق في الشدة والفظاعة. ﴿أَزْوَٰجٌ﴾؛ أي: أجناس؛ لأنه يجوز أن يكون ضروباً. ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ الفوج: الجماعة، والقطيع من الناس، وأفاج: أسرع، وعدا، وند. قال الراغب: الفوج: الجماعة المارة المسرعة، وهو مفرد اللفظ، ولذا قيل: مقتحم لا مقتحمون. ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ من الاقتحام، وهو الدخول في الشيء بشدة، والقحمة: الشدة. قال في «القاموس»: قحم في الأمر كنصر قحوماً، إذا رمى بنفسه فيه فجأة، بلا روية.

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ مصدر بمعنى الرحب، وهو السعة. و﴿بِهِمْ﴾: بيان للمدعو، وانتصابه على أنه مفعول به، لفعل مقدر؛ أي: لا يصادفون رحباً وسعة، أو لا يأتون رحب عيش، ولا سعة مسكن ولا غيره.

وحاصله: لا كرامة لهم، أو على المصدر؛ أي: لا رحبهم عيشهم، ومنزلهم رحباً بل ضاق عليهم، يقول الرجل لمن يدعوه: مرحباً؛ أي: أتيت رحباً من البلاد، وأتيت واسعاً وخيراً كثيراً. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا مرحباً؛ أي: لا رحبت عليك الأرض، ولا اتسعت.

﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ قال الراغب: الضعف من الأسماء المتضاعفة،

التي يقتضي وجود أحدها وجود الآخر: كالضعف، والزوج، وهو تركب قدرين مساويين، ويختص بالعدد، فإذا قيل: ضعفت الشيء وضاعفته؛ أي: ضممت إليه مثله فصاعداً فمعنى ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾؛ أي: عذاباً مضاعفاً؛ أي: ذا ضعف، بأن يزيد عليه مثله، ويكون ضعفين؛ أي: مثلين، فإن ضعف الشيء، وضعفيه: مثلاه.

﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾؛ أي: من الأراذل الذين لا خير فيهم، جمع شر، وهو الذي يرغب عنه الكل، كما أن الخير هو الذي يرغب فيه الكل. ﴿سِخْرِيًّا﴾ بضم السين وكسرها مصدر سخره. قال في «القاموس»: سخر؛ أي: هزىء كاستسخر، والاسم: السخرية والسخري، ويكسر، انتهى، زيد فيه ياء النسب للمبالغة؛ لأن في ياء النسبة، زيادة قوة في الفعل، كما قيل: الخصوصية في الخصوص، فالسخري أقوى من السخر.

واعلم: أن النسب يحدث في الاسم تغييرات:

الأول: زيادة ياء النسب في آخره، وهذه الياء المشددة حرف، بمنزلة تاء التأنيث، لا موضع لها من الإعراب.

الثاني: كسر ما قبلها.

والثالث: جعل الياء منتهى الاسم، وإنما تطرق التغيير في اللفظ لتغيير المعنى، ألا ترى: أنك إذا نسبت إلى علم، استحال إلى نكرة، بحيث تدخله أداة التعريف كالتثنية والجمع، وصار صفة بمنزلة المشتق بعد الجمود، ويُرفع الاسم بعده على الفاعلية. إما مظهراً أو مضمراً، تقول: مررت برجل تميمي أبوه، وآخر هاشمي جده، وإذا نسبت إلى المصدر، زادته قوة، كما في قولك: سخرياً.

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يقال: زاغ؛ أي: مال عن الاستقامة، وزاغ البصر كل. ﴿تَخَاصُمُ﴾ والتخاصم: مخاصمة بعضهم بعضاً، ومدافعة كل منهم عن الآخر. ﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ قال الراغب: الملأ: الجماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواءً، والنفوس جلالةً وبهاء.

﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أمر من وقع يقع وقوعاً، والأمر: قع؛ أي: اسقطوا له ساجدين: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؛ أي: ما صرفك، وصدك. ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾؛ أي: المستحقين للترفع عن طاعة الله تعالى، المتعالين عن ذلك. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: مرجوم، ومطرود من كل خير. ﴿لَعْنَتِي﴾؛ أي: طردي. ﴿أنظرني﴾ الإنظار: الإمهال، والتأخير؛ أي: أمهلني. ﴿مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: من الممهلين. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: لأضلنهم. ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصتهم للعبادة. ﴿مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾؛ أي: المدعين معرفة ما ليس عندهم، والتكلف في الأصل: التعسف في طلب الشيء، الذي لا يقتضيه العقل. وفي «المفردات»: تكلف الشيء: ما يفعله الإنسان بإظهار كلفة، مع مشقة تناوله في تعاطيه. وصارت الكلفة في التعارف اسماً للمشقة، والتكلف: اسم لما يفعل بمشقة، أو بتصنع أو تشيع، ولذلك صار التكليف ضربين:

الأول: محموداً، وهو ما يتحراه الإنسان، لتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلاً عليه.

والثاني: ما يكون مذموماً، وإياه عني بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أصله: لتعلمونن، حُذفت نون الرفع، لتوالي الأمثال، وواو الفاعل لالتقاء الساكنين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾؛ لأنه مستعار من فراش النائم، إذ لا مهاد في جهنم، ولا استراحة.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾؛ لأن الذوق في الأصل: وجود الطعم بالفم.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

ومنها: تخصيص الإنذار، مع أنه بشير أيضاً في قوله: ﴿أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأن المقام يقتضي ذلك.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾. حيث شبه إضافة ما به الحياة بالفعل، على المادة القابلة لها، بإجراء الريح في جوف جسم، صلح لإمساكها، والامتلاء بها؛ لأنه ليس ثمة نفخ ولا منفوخ.

ومنها: إضافة الروح إلى نفسه سبحانه، في قوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ إظهاراً لشرفه وطهارته أو تعظيماً له؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم، كما في: ناقة الله، وبيت الله.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿ساجدين، فسجد﴾ في قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

ومنها: الإضافة للتخصيص في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ إظهاراً لشدة السخط، والغضب عليه.

ومنها: نسبة الإغواء إليه في قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. لكونه سبباً لغوايتهم.

منها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾؛ لأن تقديم المعمول على عامله يفيد القصر.

ومنها: مراعاة الفواصل، وهو من خصائص القرآن في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾، حيث شبه تقاولهم وما يدور بينهم من حوار، ويتبادلونه من سؤال وجواب، بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من العبر والمواعظ

١ ـ حلف المشركين، وإعراضهم عن الحق، مع ضرب المثل لهم، بالأمم الماضية، التي حادت عن الحق فهلكت.

٢ ـ إنكارهم للوحدانية.

٣ ـ إنكارهم لنبوة محمد ﷺ.

٤ ـ إنكارهم للبعث والحساب.

٥ ـ قصص داود، وسليمان، وأيوب، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

٦ ـ وصف نعيم أهل الجنة.

٧ ـ وصف عذاب أهل النار، وتلاعن بعضهم بعضاً، وسؤالهم عن المؤمنين لِمَ لَمْ يروهم في النار؟.

٨ ـ قصص آدم، عليه السلام.

٩ ـ قسم إبليس ليغوين بني آدم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين.

١٠ ـ أمر الله سبحانه، نبيه ﷺ، أن يقول للمشركين: ما أطلب منكم أجراً على تبليغ رسالتي، ولا أنا بالذي يدعي علم شيء، هو لا يعرفه.

١١ ـ أن القرآن أنزل للثقلين كافة.

١٢ ـ أن المشركين بعد موتهم يعلمون حقيقة أمره[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) هنا وقفت الأقلام على هذه السورة في تاريخ سنة: ٨/٥/١٤١٤هـ.

سورة الزمر

ويقال لها: سورة الغرف، مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد، ومجاهد، وقتادة، وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الزمر بمكة. وأخرج النحاس في ناسخه عنه قال: نزلت بمكة سورة الزمر، سوى ثلاث آيات، نزلت بالمدينة في وحشي، قاتل حمزة ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الثلاث آيات. وقال آخرون: إلى سبع آيات من قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ إلى آخر السبع.

وآياتها: اثنتان أو خمس وسبعون آية.

وكلماتها: ألف ومئة واثنتان وسبعون كلمة.

وحروفها: أربعة آلاف وتسع مئة وثمانية أحرف.

التسمية: سميت سورة الزمر؛ لأن الله تعالى، ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

المناسبة: ومناسبتها لآخر ما قبلها[1]: أنه ختم السورة قبلها بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وبدأ هنا: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾. ذكره أبو حيان.

وعبارة المراغي هنا: ووجه اتصالها بما قبلها[2]:

١ ـ أنه وصف القرآن في آخر سورة صٓ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾، ووصفه هنا بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾.

٢ ـ أنه ذكر في ﴿صٓ﴾، أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد، وذكر هنا مثله، إلى نحو ذلك من وجوه الربط، تظهر بالتأمل، اهـ.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة الزمر كلها محكم، إلا[١] سبع آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، نسخت بآية السيف.

والثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑮﴾، نسخت بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، نسخت بآية السيف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، نسخ معناها بآية السيف.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ نسخت بآية السيف.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، نسخ معناها بآية السيف.

والسابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾، نسخت بآية السيف، انتهى.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه[٢] النسائي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم، حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر. وأخرجه الترمذي عنها بلفظ: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر، وبني إسرائيل».

---

(١) الناسخ والمنسوخ.
(٢) الشوكاني.

وروي[1] من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر الزمر، فتحرك المنبر مرتين وفيه ضعف. وعن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الزمر، لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة، وأعطاه الله ثواب الخائفين» وفيه مقال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البيضاوي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما أبان أنه منزه عن الولد بكونه إلهاً قهاراً، وأن كل المخلوقات في قبضته وسلطانه. . أردف ذلك، بما يدل على كمال قدرته بآياته، التي أوجدها في الأكوان، وفي خلق الإنسان، فبسط سلطانه على الشمس والقمر، وذللهما، وجعلهما يجريان في ذلك الملكوت، الذي لا يعلم مداه إلا هو، كما خلق الإنسان الأول، وجعل له زوجاً من جنسه، وخلق ثمانية أزواج من الحيوان، ذكر وأنثى، فكانت نواة التناسل في هذه الأنواع، فهل بعد هذا، يجد العاقل معدلاً عن الاعتراف بربوبيته، وعظيم قدرته؟.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام[2] الأدلة على وحدانيته تعالى، وذكر أن المشركين عبدة الأصنام، لا دليل لهم على عبادتها، وكأن عقولهم قد ذهبت حين عبدوها. . أعقب ذلك، ببيان أنه هو الغني، عما سواه من المخلوقات، فهو لا يريد بعبادته جر منفعة، ولا دفع مضرة، ولكنه لا يرضى الكفر لعباده، بل يرضى لهم الشكر، وأن كل نفس مطالبة بما عملت، وبعدئذٍ تُرد إلى عالم الغيب والشهادة، فيجازيها بما كسبت، ثم أتبعه بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون، فإذا أصابهم الضر، رجعوا في طلب دفعه إلى الله تعالى، وإذا ذهب عنهم، عادوا إلى عبادة الأوثان، وقد كان العقل يقضي، وقد علموا أنه لا يدفع الضر سواه، أن يعبدوه في جميع الحالات، ثم أمر رسوله، أن يقول لهم متهكماً موبخاً: تمتعوا بكفركم قليلاً، ثم مصيركم إلى النار، وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أبان صفات المشركين الضالين، وذكر تقلقلهم واضطرابهم في العبادة، إذ يرجعون إليه في وقت الشدة، ويعودون إلى الأوثان

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

حين الرخاء.. أردفه ذكر أحوال المؤمنين، القانتين، الذين لا يعتمدون إلا على ربهم، ولا ينيبون إلا إليه، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما نفى المساواة، بين من يعلم ومن لا يعلم.. أردفه أمر رسوله، أن ينصح المؤمنين بجملة نصائح:

١ ـ تقوى الله وطاعته، لما في ذلك من جزيل الفوائد، فإذا تعذرت طاعته في بلد، تحولوا عنه إلى بلد آخر، يتمكنون فيه من الاشتغال بالعبادة والطاعة، كما فعل كثير من الأنبياء، ولهم كفاء ذلك أجر بغير حساب، فلا يقدر بمكيال، ولا ميزان.

٢ ـ أنه أمر بعبادة الله وحده، مخلصاً له الدين، وقد قال كفار قريش للنبي ﷺ: ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة أبيك إبراهيم، وجدك، وسادات قومك، يعبدون اللات والعزى، فأنزل الله سبحانه الآية، وأمره أن يكون أول المسلمين، وفي ذلك تنبيه، إلى كونه رسولاً من عند الله، واجب الطاعة.

٣ ـ أنه أمر أن يقول لهم: إني أخاف عذاب يوم القيامة إن عصيته، وفي ذلك إيماء إلى زجر غيره عن المعاصي.

٤ ـ أنه أمر أن يذكر لهم، أن الخاسر هو الذي يخسر نفسه، ويخسر أهله؛ لأنهم إن كانوا من أهل النار، فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة، فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده أبداً.

٥ ـ وصف النار، وأنها تحيط بهم من كل جانب، وهذا من أفظع أنواع العذاب، التي يخوّف بها عباده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآية، سبب[1]

---

(١) لباب النقول.

نزولها: ما أخرجه جويبر عن ابن عباس قال: إنها نزلت في ثلاثة أحياء: عامر، وكنانة، وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بناته، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ...﴾ الآية، سبب نزولها ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: إنها نزلت في عثمان بن عفان، وأخرج ابن سعد، عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: نزلت في عمار بن ياسر، وأخرج ابن جويبر، عن ابن عباس، قال: نزلت في ابن مسعود، وعمار بن ياسر، وسالم مولى أبي حذيفة، وأخرج جويبر عن عكرمة قال: نزلت في عمار بن ياسر.

التفسير وأوجه القراءة

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي[1]: القرآن، وخصوصاً منه هذه السورة الشريفة، وهو مبتدأ، خبره قوله: كائن ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في حكمه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره، لا من غيره. كما يقول المشركون: إن محمداً ﷺ، تقوله من تلقاء نفسه، وإلى هذا ذهب الزجاج، وقيل معناه: تنزيل الكتاب من الله، فاستمعوا له، واعملوا به، فهو كتاب عزيز، نزل من رب عزيز، على عبد عزيز، بلسان ملك عزيز، في شأن أمة عزيزة، والتعرض لوصفي العزة والحكمة، للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه، ونفاذ أوامره، ونواهيه، من غير مدافع ولا ممانع، وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة، وفي «فتح الرحمٰن»: العزيز في قدرته، الحكيم في إبداعه.

وأجاز[2] الفراء، والكسائي: النصب على أنه مفعول به، لفعل مقدر؛ أي: اتبعوا أو اقرؤوا تنزل الكتاب. وقال الفراء: ويجوز نصبه على الإغراء؛ أي: إلزموا.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ شروع[1] في بيان شأن المنزل إليه، وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل، وكونه من عند الله تعالى، فلا تكرار في إظهار الكتاب في موضع الإضمار لتعظيمه، ومزيد الاعتناء بشأنه، والباء[2]: إما متعلق بالإنزال؛ أي: بسبب الحق وإثباته وإظهاره، وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة؛ أي: أنزلناه إليك حال كوننا محقين في ذلك، أو حال من الكتاب؛ أي: أنزلناه حال كونه ملتبساً بالحق والصواب؛ أي: كل ما فيه من إثبات التوحيد، والنبوة، والمعاد، وأنواع التكاليف حق، لا ريب فيه، موجب للعمل حتماً.

وفي «التأويلات النجمية»: أي من الحق نزل، وبالحق نزل، وعلى الحق نزل. قال في «برهان القرآن»: كل موضع خاطب الله فيه النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ ففيه تكليف، وإذا خاطبه بقوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ففيه تخفيف، ألا ترى إلى ما في أول السورة ﴿إِلَيْكَ﴾ فكلفه الإخلاص في العبودية، وإلى ما في آخرها ﴿عَلَيْكَ﴾ فختم الآية بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لست بمسؤول عنهم، فخفف عنه ذلك، انتهى.

والمعنى[3]: أي هذا الكتاب العظيم، منزل من عنده تعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾، وبعد أن بيّن شأن المنزل، وأنه من عند الله تعالى، ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل، من الحق والعدل، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: إنا أنزلنا إليك القرآن أيها الرسول، آمراً بالحق، والعدل الواجب اتباعهما، والعمل بهما.

ثم أمر رسوله بعبادته، والإخلاص له. فقال: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ حال كونك ﴿مُخْلِصًا لَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلدِّينَ﴾ والعمل والطاعة؛ أي: فاعبده تعالى، ممحضاً له

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

العبادة، من شوائب الشرك والرياء، بحسب ما أنزل في تضاعيف كتابه على لسان نبيه، من تخصيصه وحده بالعبادة، وأنه لا ند له ولا شريك.

والفاء في قوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾. فاء: الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أيها الرسول الكريم، أنا أنزلنا إليك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اعبد الله مخلصاً له الدين، والإخلاص: أن يقصد العبد بنيته، وعمله إلى خالقه، لا يجعل ذلك لغرض من الأغراض. والدين: العبادة، والطاعة، ورأسها: توحيد الله، وأنه لا شريك له. وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلدِّينَ﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿مُخْلِصًا﴾، وقرأ ابن أبي عبلة برفعه، على أنه فاعل، بمخلصاً، على طريقة الإسناد المجازي كشعر شاعر، وقال الزمخشري: وحق من رفعه أن يقرأ ﴿مخلَصاً﴾ بفتح اللام كقوله: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، حتى يطابق قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، والخالص، والمخلص واحد، وفي الآية دليل على وجوب النية، وإخلاصها عن الشوائب؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية، التي لا تكون إلا بأعمال القلب، وقد جاءت السنة الصحيحة: «أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال: النية»، كما في حديث: «إنما الأعمال بالنيات»، وحديث: «لا قول، ولا عمل إلا بنية».

ثم أكد هذا الأمر بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ ألا: حرف استفتاح وتنبيه؛ أي: انتبهوا من غفلتكم أيها العباد، واعلموا أن لله سبحانه، لا لغيره، الدين الخالص من شوائب الشرك، والعبادة الخالصة من شوائب الرياء، لا شركة لأحد معه فيها؛ لأن كل ما دونه ملكه، وعلى المملوك طاعة مالكه، وفي «الكواشي»: ألا لله الدين الخالص من الهوى، والشك، والشرك، فيتقرب به إليه رحمة، لا أن له حاجة إلى إخلاص عبادته. وفي «التأويلات النجمية»: الدين الخالص: ما يكون جملته لله، وما للعبد فيه نصيب، والمخلص: من خلّصه الله من حبس الوجود، بجوده لا بجهده.

---

(١) البحر المحيط.

وعن الحسن: الدين الخالص: الإسلام، لأن غيره من الأديان ليس بخالص من الشرك، فليس بدين الله الذي أمر به. فالله تعالى لا يقبل إلا دين الإسلام، وفي حديث رواه الحسن عن أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ، إني أتصدق بالشيء، وأصنع الشيء أريد به وجه الله تعالى، وثناء الناس، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد ﷺ بيده، لا يقبل الله شيئاً شورك فيه»، ثم تلا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

وبعد أن أبان سبحانه، أن رأس العبادة الإخلاص لله، أعقب ذلك بذم طريق المشركين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عبارة عن المشركين. ومحله الرفع على الابتداء، وخبره قوله الآتي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ يعني عبدوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى؛ أي: حال كونهم متجاوزين الله، وعبادته ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أرباباً وأوثاناً كالملائكة، وعيسى، وعزير، والأصنام، ولم يخلصوا العبادة لله تعالى، بل شابوها بعبادة غيره حال كونهم قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾؛ أي: الأولياء لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ أي: تقريباً، فهو مصدر مؤكد على غير لفظ العامل، ملاق له في المعنى، وكانوا إذا سئلوا عمن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قيل لهم: لم تعبدون الأصنام؟ قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله تعالى.

والحاصل: أن الموصول مبتدأ، خبره جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، وجملة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ إلخ، في محل النصب على الحال، بتقدير القول، والاستثناء مفرّغ من أعم الأشياء.

والمعنى: والذين عبدوا من دونه تعالى أوثاناً، ولم يخلصوا العبادة لله بل شابوها بعبادة غيره قائلين: ما نعبدهم لشيء من الأشياء، إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، ويشفعوا لنا عنده، وقرىء ﴿ما نعبدكم إلا لتقربونا﴾ حكاية لما خاطبوا به آلهتهم، ذكره في «المراح».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ خبر الموصول، كما مر؛ أي: إن الله يحكم يوم القيامة، بين المتخذين غير المخلصين، وبين خصمائهم المخلصين للدين، وقد

حذف لدلالة الحال عليه. ﴿فِي مَا﴾؛ أي: في الدين الذي ﴿هُمْ﴾؛ أي: الفريقان ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالتوحيد والإشراك، وادعى كل فريق صحة ما انتحله وأخذه، وحكمه تعالى في ذلك، إدخال الموحدين الجنة، والمشركين النار، فالضمير للفريقين. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِي﴾؛ أي: لا يوفق الاهتداء إلى الحق الذي هو طريق النجاة من المكروه، والفوز بالمطلوب ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾؛ أي: راسخ في الكذب ﴿كَفَّارٌ﴾؛ أي: مبالغ في الكفر، فإنهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء، لتغييرهما الفطرة الأصلية، بالتمرن في الكفر والضلالة، قال في «الوسيط»: هذا فيمن سبق عليه القضاء، بحرمان الهداية، فلا يهتدي إلى الصدق والإيمان البتة، وكذبهم قولهم في بعض أوليائهم: بنات الله وولده، وقولهم: إن الآلهة تشفع لهم، وتقربهم إلى الله، وكفرهم عبادتهم تلك الأولياء، وكفرانهم النعمة بنسيان المنعم الحقيقي.

وقرأ أنس بن مالك، والجحدري، والحسن، والأعرج، وابن يعمر ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ بصيغة فعال فيهما. وقرأ زيد بن علي: ﴿من هو كذوب كفور﴾ بصيغة فعول فيهما.

وحاصل معنى الآية: أي والذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله منزلة، ويشفعوا لنا عنده في حاجتنا، ومن حديث عبادتهم للأصنام: أنهم جعلوا تماثيل الكواكب، والملائكة والأنبياء، والصالحين الذين مضوا، وعبدوها باعتبار أنها رمز إليها، وقالوا: إن الإله الأعظم، أجلّ من أن يعبده البشر مباشرة، فنحن نعبد هذه الآلهة، وهي تعبد الإله الأعظم، وهذه شبهة تمسك بها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءت الرسل مفندة لها، ماحيةً لها من الأذهان العالقة بها، موجهة العقول إلى إفراد الله وحده بالعبادة، قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾.

قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: من ربكم، ومن خالقكم، ومن خلق

السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله. فيقال لهم: فلم تعبدونهم؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده، فرد الله عليهم بقوله في سورة الأحقاف: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾. ثم هددهم، وبيّن لهم عاقبة ما يفعلون، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، وبين خصومهم، وهم المحقون فيما اختلفوا فيه من التوحيد، والإشراك يوم القيامة، ويجازي كلاً بما هو أهل له، فيدخل المخلصين الموحدين الجنة، ويدخل المشركين النار، ثم بيّن نتيجة الحكم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾؛ أي: إن الله لا يرشد إلى الحق، ولا يوفق له، من هو كاذب مفتر عليه، بزعمه أن له ولداً، وأن له نداً، وأن الأوثان تشفع لديه إلى غير ذلك، من الترهات والأباطيل، التي لا يقبلها العقل، ولا تجد لها مستنداً من نقل.

ثم فصل ما كذبوا فيه، فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا ينبغي له ذلك كما زعم المشركون، بأن الله اتخذ ولداً ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾؛ أي: لاتخذ واختار ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾؛ أي: من جنس مخلوقاته ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ويريد، ولم يخص مريم، ولا عيسى، ولا عزير بذلك، ولخلق جنساً آخر، أعز وأكرم مما خلق، واتخذه ولداً لكنه لا يفعله لامتناعه، والممتنع لا تتعلق به القدرة والإرادة، وإنما أمره اصطفاء من شاء من عباده وتقريبهم منه، وقد فعل ذلك بالملائكة وبعض الناس، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾. ولذا وضع الاصطفاء مكان الاتخاذ.

ثم نزه سبحانه نفسه، عن أن يكون له ولد، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له عن ذلك، وهو مصدر من سبح إذا بعد؛ أي: تنزه تعالى عن ذلك الاتخاذ، وعما نسبوا إليه من الأولاد، والأولياء، وعلم للتسبيح مقول على ألسنة العباد؛ أي: أسبحه تسبيحاً لائقاً به، أو سبحوه تسبيحاً حقيقاً بشأنه ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿ٱللَّهُ﴾ المتصف بالألوهية ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا ثاني له، والولد ثاني والده، وجنسه، وشبهه، وفي «بحر العلوم»: ﴿واحد﴾؛ أي: موجود جل عن التركيب والمماثلة، ذاتاً وصفةً. فلا يكون له ولد؛ لأنه يماثل الوالد في الذات

والصفات. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي بقهاريته لا يقبل الجنس، والشبه بنوع ما. وفي «الإرشاد»: قهار لكل الكائنات، كيف يتصور أن يتخذ من الأشياء الفانية ما يقوم مقامه؟.

والمعنى: أي تقدس أن يكون له ولد، فإنه هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، وكل ما سواه مفتقر إليه، وهو الغني عما سواه، قهر الأشياء فدانت له، وتسلط على المخلوقات بقدرته. فذلت له تعالى، عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ولما نزه تعالى نفسه، ووصف ذاته بالوحدة، والقهر، ذكر ما دل على ذلك، من اختراع العالم العلوي والسفلي بالحق، وتكوير الليل والنهار، وتسخير النيرين، وجريهما على نظام واحد، واتساق أمرهما على ما أراد إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما بينهما من الموجودات، حال كونها ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصواب، مشتملة على الحكم والمصالح، لا باطلاً وعبثاً، ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه، استحال أن يكون له شريك، أو صاحبة أو ولد.

ثم بيّن كيفية تصرفه في السموات والأرض، فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: يلف ظلام الليل على ضوء النهار ويغطيه به فيجيء النهار ويذهب الليل، والمعنى: يُغشي كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على الملابس. وقيل المعنى: يكوّر الليل؛ أي: يضم بعض ساعاته على النهار، فيطول النهار كما في نهار الصيف، ويكوّر النهار؛ أي: يضم بعض ساعاته على الليل، فيطول الليل كما في ليل الشتاء، والتكوير في اللغة[1]: طرح الشيء بعضه على بعض، يقال: كوّر المتاع إذا ألقى بعضه على بعض، ومنه: كوّر العمامة، فمعنى تكوير الليل على النهار: تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه، ومعنى تكوير النهار على الليل: تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، هكذا قال قتادة وغيره، وقال الضحاك؛ أي: يلقي هذا

---

(١) الشوكاني.

على هذا، وهذا على هذا، وهو مقارب للقول الأول، وقيل معنى الآية: أن ما نقص من الليل دخل في النهار، وما نقص من النهار دخل في الليل، وهو معنى قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، أو يجعل كلاً منهما كاراً على صاحبه كروراً، متتابعاً تتابع أكوار العمامة بعضها على بعض، وفي التكوير المذكور في الآية إشارة إلى جريان الشمس والقمر في مطالعهما، وانتقاص الليل والنهار، وازديادهما. قال الرازي: إن النور والظلمة عسكران عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا.

ومعنى الآية[1]: أي خلق هذا العالم العلوي، على ما فيه من بديع الصنع، من شموس وأقمار، تكوّن الليل والنهار، والعالم السفلي، المشتمل على المواليد الثلاثة، من حيوان ونبات وجماد، وسخر كل ما فيه ظاهراً وباطناً، لانتفاع الإنسان في سبل معايشه، إذا استعمل عقله، واستخدم فكره في استنباط مرافقه، خلقهما على أكمل وجه وأبدع نظام، قائمين على الحق والصواب والحكم والمصالح، وبعد أن أبان أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما، فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ إلخ؛ أي: يغشي كلاً منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس، أو يجعلهما في تتابعهما، أشبه بتتابع أكوار العمامة، بعضها على بعض، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها، وهي مكوّرة، فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس، يسير من الشرق إلى الغرب، ويلف حولها طاوياً الليل، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاوياً النهار، فالأرض كالرأس، والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة، ويلتفان متتابعين حولها، وفي[2] هذا إيماء إلى كروية الأرض أولاً، وإلى دورانها حول نفسها ثانياً. فتكوير الأرض ظاهر الآية، ودورانها أتى تابعاً بالرمز والإشارة.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: جعلهما، وهما وسيلتا الليل والنهار، منقادين لأمره تعالى بالطلوع والغروب لمنافع العباد، فأكثر منافع العباد مرتبطة بهما.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

ثم بيّن كيفية هذا التسخير فقال: ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويسير في فلكه وبروجه ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أي: إلى مدة معينة، هي منتهى دورته، في كل يوم، أو في كل شهر، أو إلى مدة انتهاء حركته، وانقطاع سيره بتصرم الدنيا، وهو يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، وفي الحديث: وكل بالشمس سبعة أملاك، يرمونها بالثلج، ولولا ذلك ما أصابت شيئاً إلا أحرقته.

ثم ذيل الكلام بالجملة الآتية، ترغيباً في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص له، والتحذير من الكفر والمعاصي. فقال: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا، واعلموا ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كل شيء، فيقدر على عقاب العصاة، والانتقام منهم. ﴿الْغَفَّارُ﴾؛ أي: المبالغ في المغفرة، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة، وسلب ما في هذه الصنائع البديعة، من آثار الرحمة، وعموم المنفعة.

والمعنى: أي انتبهوا أيها العباد، واعلموا أن الله الذي فعل هذه الأفعال، وأنعم على خلقه بهذه النعم، هو القادر على الانتقام ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين، ولا يخفى ما في هذا، من الدلالة على كمال قدرته تعالى، وكمال رحمته، فهو القهار ذو القوة المتين، الغفار لذنوب التائبين.

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ﴿الْغَفَّارُ﴾[1]: هو الذي أظهر الجميل، وستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح، التي سترها بإسبال الستر عليها في الدنيا، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة، والغفر هو الستر:

الأول: ستره على عبده، أن جعل مقابح بدنه، التي تستقبحها الأعين، مستورةً في باطنه، مغطاةً بجمال ظاهره، فكم بين باطن العبد، وظاهره في النظافة والقذارة، وفي القبح والجمال، فانظر ما الذي أظهره، وما الذي ستره.

والثاني: أن يجعل مستقر خواطره المذمومة، وإرادته القبيحة سر قلبه، حتى لا يطّلع أحد على سر قلبه، ولو انكشف للخلق، ما يخطر بباله في مجاري وسواسه، وما ينطوي عليه ضميره من الغش والخيانة، وسوء الظن بالناس

---

(١) روح البيان.

لمقتوه، بل سعوا في تلف روحه وإهلاكه، فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوارفه؟.

والثالث: مغفرة ذنوبه التي كان يستحق الافتضاح بها، على ملأ من الخلق، وقد وعد أن يُبدل من سيئاته حسنات، ليستر مقابح ذنوبه، بثواب حسناته، إذا مات على الإيمان، وحظ العبد من هذا الاسم، أن يستر من غيره ما يحب أن يستر منه، وقد قال النبي ﷺ: «من ستر على مؤمن عورته، ستر الله عورته يوم القيامة». والمغتاب، والمتجسس، والمكافىء على الإساءة بمعزل عن هذا الوصف، وإنما المتصف به من لا يُفشي من خلق الله، إلا أحسن ما فيهم، ولا ينفك مخلوق عن كمال، ونقص، وعن قبح وحسن، فمن تغافل عن المقابح، وذكر المحاسن، فهو ذو نصيب من هذا الاسم والوصف، كما روي عن عيسى عليه السلام: أنه مر مع الحواريين بكلب ميت، قد غلب نتنه، فقالوا: ما أنتن هذه الجيفة؟ فقال عيسى عليه السلام: ما أحسن بياض أسنهانها، تنبيهاً على أن الذي ينبغي أن يذكر من كل شيء، ما هو أحسنه.

وبعد أن ذكر الدلائل التي بثها في العالم العلوي.. أردفها ذكر الدلائل التي أودعها في العالم السفلي، وبدأها بخلق الإنسان؛ لأنه أعجب ما فيه، لما فيه من العقل، وقبوله الأمانة الإلهية، ولله در من قال:

وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيْرُ ... وَفِيْكَ ٱنْطَوَىٰ ٱلْعَالَمُ ٱلأَكْبَرُ

﴿خَلَقَكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى، أيها الناس جميعاً، على اختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾؛ أي: خلق ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من جنس تلك النفس الواحدة، أو من قصيراها، وهي الضلع التي تلي الخاصرة، أو آخر الأضلاع من جهة اليسار ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء. و﴿ثُمَّ﴾ عطف على محذوف، هو صفة لنفس؛ أي: خلقكم من نفس واحدة خلقها، ثم جعل منها زوجها فشفعها، وذلك فإن ظاهر الآية يفيد أن خلق حواء بعد خلق ذرية آدم، وليس كذلك. وفيه إشارة إلى أن الله تعالى، خلق الإنسان من نفس واحدة هي الروح، وخلق منها زوجها، وهو القلب، فإنه خُلق من الروح كما خُلقت

حواء، من ضلع آدم عليه السلام، فالله تعالى متفرد بهذا الخلق مطلقاً، فينبغي أن يُعرف ويُعبد بلا إشراك به.

والمعنى: أي خلقكم سبحانه، على اختلاف ألسنتكم، وألوانكم، من نفس واحدة، وهي آدم، ثم جعل من جنسها زوجها، وهي حواء. والتعبير بالجعل دون الخلق، مع العطف بثم، للدلالة على أن خلق حواء، من ضلع آدم، أدخل في كونه آية دالة على كمال القدرة؛ لأن خلق آدم، هو على عادة الله، المستمرة في خلقه، وخلقها على الصفة المذكورة، لم تجر به عادة، لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها.

ثم ثنى بخلق الحيوان، فقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾؛ أي: قضى، وقسم لكم. فإن قضاياه تعالى وقسمه توصف بالنزول من السماء، حيث تكتب في اللوح المحفوظ، وقيل: عبر بالإنزال لما يروى: أنه خلقها في الجنة ثم أنزلها، فيكون الإنزال حقيقةً. أو أحدث لكم، وأنشأ بأسباب نازلةٍ من السماء: كالأمطار، وأشعة الكواكب. وهذا كقوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾. ولم ينزل اللباس نفسه، ولكن أنزل الماء الذي هو سبب القطن والصوف، واللباس منهما. ﴿مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكراً، وأنثى، وهي الإبل، والبقر، والضأن، والمعز. والأنعام: جمع نعم بفتحتين، وهي جماعة الإبل في الأصل، لا واحد لها من لفظها. قال ابن الشيخ في أول المائدة: الأنعام مخصوص بالأنواع الأربعة. وهي الإبل، والبقر، والضأن، والمعز. ويقال لها: الأزواج الثمانية؛ لأن ذكر كل واحد من هذه الأنواع زوج بأنثاه، وأنثاه زوج بذكره، فيكون مجموع الأزواج ثمانية بهذا الاعتبار، من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، والخيل، والبغال، والحمير خارجة من الأنعام.

وخصت[1] هذه الأنواع الأربعة بالذكر، لكثرة الانتفاع بها من اللحم، والجلد، والشعر، والوبر. وفي «التأويلات النجمية»: وأنزل لكم من الأنعام

---

(١) روح البيان.

ثمانية أزواج؛ أي: خلق فيكم من صفات الأنعام ثماني صفات، وهي الأكل والشرب، والتغوط والتبول، والشهوة والحرص، والشره والغضب، وأصل جميع هذه الصفات، الصفتان الاثنتان: الشهوة والعضب، فإنه لا بد لكل حيوان من هاتين الصفتين، لبقاء وجوده بهما، فبالشهوة يجلب المنافع إلى نفسه، وبالغضب يدفع المضرات.

ثم ذكر سبيل خلق ما ذكر، من الأناسي والأنعام، فقال: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾ الله سبحانه وتعالى، أيها الناس ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾؛ أي: في أرحامهن ﴿خَلۡقٗا﴾ كائناً ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾؛ أي: خلقاً مدرجاً حيواناً، سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مضغ مخلقة، من بعد مضغ غير مخلقة، من بعد علقة من بعد نطفة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ قاله قتادة والسدي. وقال ابن زيد: خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم، من بعد خلقكم في ظهر آدم، عليه السلام. وقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ متعلق بقوله: يخلقكم وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، قاله مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك. وقال سعيد بن جبير: ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة الليل. وقال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرحم، والخلق في بطون الأمهات. حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان. وإنما قال: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ لتغليب من يعقل، ولشرف الإنسان على سائر الخلق، والمشيمة بفتح الميم: محل الولد؛ أي: الجلد الرقيق المشتمل على الجنين.

والمعنى: أي يبتدىء خلقكم أيها الناس، في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق. فيكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يكون عظماً وعصباً، ثم يكون لحماً، وينفخ فيه الروح، فيصير خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾؛ أي: في ظلمات أغشية ثلاثة، جعلها المولى سبحانه وقاية، للولد، وحفظاً له من التعفن.

وقرأ عيسى، وطلحة: ﴿يخلقكم﴾ بإدغام القاف في الكاف، وقرأ حمزة: ﴿أمهاتكم﴾ بكسر بالهمزة، والميم، وقرأ الكسائي: بكسر الهمزة، وفتح الميم،

وقرأ الباقون: بضم الهمزة، وفتح الميم.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إليه سبحانه وتعالى، باعتبار أفعاله المذكورة، ومحله الرفع على الابتداء؛ أي: ذلكم العظيم الشأن الذي عُدَّت أفعاله ﴿ٱللَّهُ﴾ المعبود بحق، خبر المبتدأ، وقوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبر آخر له؛ أي: مربيكم فيما ذكر من الأطوار، وفيما بعدها، ومالكم المستحق لتخصيص العبادة به، وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: أنا خلقتكم، وأنا صورتكم، وأنا الذي أسبغت عليكم أنعامي، وخصصتكم بجميع إكرامي، وغرقتكم في بحار أفضالي، وعرّفتكم استحقاق شهود جمالي وجلالي، وهديتكم إلى توحيدي، وأدعوكم إلى وحدانيتي، فما لكم لا تنطقون إلي بالكلية؟ وما لكم لا تطلبون مني ولا تطلبونني وقد بشرتكم بقولي: ألا من طلبني وجدني، ومن كان لي كنت له، ومن كنت له يكون له ما كان لي، انتهى. ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه، وهو خبر ثالث، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع؛ أي: لا معبود إلا هو، كما أنه لا مقصود إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تنصرفون عن عبادته، وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره، ومن أي وجه تصرفون، وتردون عن ملازمة بابه، بالعبودية إلى باب عاجز مثلكم من الخلق؛ أي: كيف تصرفون، وتعدلون عن عبادته تعالى، إلى عبادة الأوثان، مع وفور موجباتها ودواعيها، وانتفاء الصارف عنها بالكلية إلى عبادة غيره.

والخلاصة: كيف تعبدون معه تعالى سواه؟ أين ذهبت عقولكم، وكيف ضاعت أحلامكم؟!.

ولما ذكر الله سبحانه النعم، التي أنعم بها على عباده، وبيّن لهم من بديع صنعه وعجيب فعله، ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به.. عقّبه بقوله: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ به تعالى، بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه، ومعرفة شؤونه العظيمة، الموجبة للإيمان والشكر، والخطاب لأهل مكة، كما في «الوسيط»، والظاهر: التعميم لكل الناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ وعن جميع العالمين؛ أي: فاعلموا أنه

تعالى، غني عن إيمانكم وشكركم؛ أي: غير محتاج إليكم، ولا إلى إيمانكم، ولا إلى عبادتكم له، فإنه الغني المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿وَ﴾ مع كون كفر الكافر لا يضره، كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن، فهو أيضاً ﴿لا يرضى لعباده﴾؛ أي: لأحد من عباده ﴿ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: لا يحبه، ولا يأمر به، وإن تعلقت به إرادته تعالى من بعضهم؛ أي: عدم رضاه بكفر عباده، لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم، لا لتضرره تعالى به، وإنما قال: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ ولم يقل: لكم، لتعميم الحكم للمؤمنين والكافرين، وتعليله بكونهم عباده.

واعلم[1]: أن الرضا ترك السخط، والله تعالى لا يترك السخط في حق الكافر؛ لأنه لسخطه عليه أعد له جهنم، ولا يلزم منه عدم الإرادة، إذ ليس في الإرادة ما في الرضا من نوع استحسان، فالله تعالى مريد الخير والشر، ولكن لا يرضى بالكفر والفسوق، فإن الرضا إنما يتعلق بالحسن من الأفعال دون القبيح، وعليه أهل السنة، وكذا أهل الاعتزال، وفي «الخازن»: الرضا عبارة عن مدح الشيء، والثناء عليه بفعله، والله تعالى لا يمدح الكفر، ولا يُثني عليه، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، وقد لا يرضى به، ولا يمدح عليه، وقد بان الفرق بين الإرادة والرضا، انتهى.

والمعنى: أي لا يُحب لعباده الكفر، ولا يأمر به؛ لأنه مانع من ارتقاء النفوس البشرية، بجعلها ذليلة خاضعة للأرباب المتعددة والمعبودات الحقيرة، من الخشب والنصب، وممن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

ثم لما ذكر سبحانه: أنه لا يرضى لعباده الكفر، بيّن أنه يرضى لهم الشكر، فقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾؛ أي: وإن تؤمنوا به تعالى، وتوحدوه، يدل عليه، ذكره في مقابلة الكفر. ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يرض الشكر، ويحبه عنكم، ويثيبكم عليه، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر؛ لأنه سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة، ولأنه على مقتضى السنن القويم والصراط المستقيم العادل، كما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ

---

(١) روح البيان.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة[1]: ﴿يرضه﴾ بضم الهاء مختلسة، وقرأ أبو عمرو، وحمزة في بعض الروايات ساكنة الهاء للتخفيف، وقرأ نافع في بعض الروايات، وابن عامر، والكسائي، وابن ذكوان، والدوري مضمومة الهاء مشبعة.

ثم ذكر سبحانه: أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل، ولا يضيره عمل غيره، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾؛ أي: لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي: نفس حاملة للوزر والإثم ﴿وِزْرَ﴾؛ أي: حمل، وذنب نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾؛ أي: غيرها، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً؛ أي: ولا تحمل أي نفس أوزار نفس أخرى، بل كل مطالب بعمل نفسه خيراً كان أو شراً.

ثم بيَّن أن جزاء المرء في الآخرة، وفق ما عمل في الدنيا، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾؛ أي: ثم بعد موتكم إلى خالقكم، لا إلى غيره ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم عند ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تعملونـ﴾ـه من خير وشر، فيجازيكم على ذلك ثواباً وعقاباً، وفيه تهديد شديد.

وفي تفسير «أبي السعود» في غير هذا الموضع: عبّر[2] عن إظهاره التنبئة، لما بينهما من الملابسة، في أنهما سببان للعلم، تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه، غافلين عن سوء عاقبته؛ أي: يظهر لكم على رؤوس الأشهاد، ويعلمكم أي شيء شنيع كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء، انتهى.

وحاصل المعنى[3]: أي ثم بعد موتكم، مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم، البصير بأمركم العليم بالسر والنجوى، فيخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا، إذ لا

---

(١) المراح.
(٢) أبو السعود.
(٣) المراغي.

تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، ثم يجازى المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاحذروا أن تلقوا ربكم، وقد عملتم في الدنيا ما لا يرضاه، فتهلكوا.

ثم بيَّن أن هذه المجازاة، ليست بالعسيرة عليه سبحانه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى، ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بخطرات القلوب، فضلاً عن غيرها، وهذا تعليل للتنبئة؛ أي: مبالغ في العلم بمضمرات القلوب، فكيف بالأعمال الظاهرة؟ وأصله: عليم بمضمرات صاحبة الصدور، وهي القلب؛ أي: إنه تعالى محيي جميع أعمالكم حتى ما تضمره صدوركم، مما لا تدركه أعينكم، فكيف بما رأته العيون، وأدركته الأبصار؟ وفي الآية دليل على أن ضرر الكفر والطغيان يعود إلى نفس الكافر، كما أن نفع الشكر والإيمان يعود إلى نفس الشاكر، والله غني عن العالمين، كما في الأحاديث القدسية: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم - أي: على تقوى أتقى قلب رجل - ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم.. ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»، وفي آخر الحديث: «فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». جعلنا الله وإياكم من عباده الصالحين، الصادقين المخلصين في الأقوال والأفعال والأحوال، دون الفاسقين الكاذبين المرائين، آمين يا من يقبل اليسير ويعطي الكثير.

ثم بيَّن سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: أصاب الإنسان، ووصل إليه ﴿ضُرٌّ﴾؛ أي: سوء حال أي ضر كان، من مرض أو فقر أو خوف ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ في كشف ذلك الضر، حال كونه ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ أي: راجعاً إليه تعالى، مستغيثاً به في دفع ما نزل به، تاركاً لما كان يدعون، ويستغيث به من ميت أو حي أو صنم أو غير ذلك، والإنابة إلى الله: الرجوع إليه بالتوبة، وإخلاص العمل له. والنوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ

كَفَّارٌ﴾. وفيه[1] إشارة، إلى أن من طبيعة الإنسان، أنه إذا مسه ضرب خشع وخضع وإلى ربه فزع، وتملق بين يديه وتضرع. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ وأعطاه ﴿نِعْمَةً﴾ عظيمة صادرة ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى، حاصلةً من جنابه، وأزال عنه ضره، وكفاه أمره، وأصلح باله، وأحسن حاله ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل أن يخوله ما خوله، كقوله تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به، وتركه. أو نسي ربه الذي كان يدعوه، ويتضرع إليه إما بناء على أن ﴿مَا﴾ بمعنى: من كان في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ③﴾، وإما إيذاناً بأن نسيانه، بلغ إلى حيث لا يعرف مدعوه ما هو، فضلاً عن أن يعرفه من هو، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، ويشرك بمعبوده، ويصر على جحوده، وذلك لكون دعائه المحسوس معلولاً بالضر الممسوس، لا ناشئاً عن الشوق إلى الله المأنوس. وهو معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ ذلك الإنسان ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿أَندَادًا﴾؛ أي: شركاء من الأصنام أو غيرها يستغيث بها، ويعبدها ﴿لِّيَضِلَّ﴾ الناس بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعالى؛ أي: عن طريق الله التي هي الإسلام والتوحيد.

وقرأ الجمهور: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء؛ أي: ما اكتفى بضلال نفسه حتى جعل غيره يضل. وقرأ[2] ابن كثير، وأبو عمرو، وعيسى: بفتحها.

ثم أمر الله سبحانه، رسوله ﷺ، أن يهدد من كان متصفاً بتلك الصفة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد تهديداً لذلك الضال المضل، وبياناً لحاله ومآله: ﴿تَمَتَّعْ﴾؛ أي: عش في الدنيا ﴿بِكُفْرِكَ﴾؛ أي: في كفرك، واستمتع بزخارفها تمتعاً ﴿قَلِيلًا﴾ فمتاع الدنيا قليل وإن طالت، فهو صفة لمصدر محذوف، أو زماناً قليلاً، فهو صفة زمان محذوف، فالأمر بالتمتع للتهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة؛ أي: من ملازميها، والمعذبين فيها على الدوام، وهو تعليل لقلة التمتع، وفيه من الإقناط من النجاة ما لا يخفى كأنه قيل: وإذ قد أبيت قبول ما أمرت به، من الإيمان والطاعة، فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته.

والمعنى[1]: أي وإذا أصاب الكافر بلاء في جسده، أو شدة في معيشته، أو خوف على حياته.. استغاث بربه الذي خلقه، ورغب إليه في كشف ما نزل به، تائباً إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به، وإشراك الآلهة والأوثان في عبادته، ثم إذا منحه نعمة منه فأزال ما به من ضر، وأبدله بالسقم صحة وبالشدة رخاء.. ترك دعاءه الذي كان يدعوه من قبل، أن يكشف ما كان به من ضر، فجعل لله شركاء، وأضل الناس، ومنعهم من توحيده والإقرار به، والدخول في الإسلام له، ثم أوعده، وهدده فقال: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا...﴾ إلخ؛ أي: قل أيها[2] الرسول لمن فعل ذلك: تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها، منصرفاً عن النظر إلى أدلة التوحيد، التي أوجدها الله سبحانه في الأكوان، وجعلها في نفس الإنسان زمناً قليلاً إلى أن تستوفي أجلك، وتأتيك منيتك، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار المخلدين فيها أبداً.

ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين، وتمسكهم بغير الله عند اندفاع المكروهات عنهم.. ذكر صفات المؤمنين، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ إلخ، وهذا إلى آخره، من تمام الكلام المأمور به رسول الله ﷺ، و﴿أمن﴾ بالتشديد، على أن أصله: أم من هو قانت، وهي إما متصلة حذف معادلها، والمعنى: قل له يا محمد: أأنت أيها المشرك أحسن حالاً ومآلاً، أم من هو قانت وعابد لربه، قائم بأداء الطاعات ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ودائب على وظائف العبادات في ساعات الليل أوله، وآخره، ووسطه التي تكون فيها العبادة أشق على النفوس، وأبعد عن

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

الرياء، فتكون أقرب إلى القبول، وقوله: ﴿سَاجِدًا﴾ حال[1] من ضمير ﴿قَٰنِتٌ﴾؛ أي: حال كونه ساجداً في صلاته ﴿وَقَآئِمًا﴾ فيها، وتقديم السجود على القيام، لكونه أدخل في معنى العبادة، والواو للجمع بين الصفتين، فالمعنى: ﴿قَٰنِتٌ﴾؛ أي: قائم طويل القيام في الصلاة، كما يشعر به ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ لأنه إذا قام في ساعات الليل، فقد أطال القيام بخلاف من قام في جزء من الليل، والمراد بالسجود والقيام: الصلاة، عبّر عنها بهما لكونهما أعظم أركانها، والاستفهام على كونها متصلة للتقرير. ولا شك أن الجواب لا يحتاج إلى بيان، وإما منقطعة فتقدّر ببل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري، والمعنى: بل أمن هو قانت مطيع لربه ساجداً وقائماً كالكافر المقول له: تمتع بكفرك قليلاً؛ أي: لا يستويان، بل هو في الجنة والكافر في النار.

وقرأ ابن كثير ونافع، وحمزة، والأعمش، وعيسى، وشيبة، والحسن في رواية[2]: ﴿أَمَنْ﴾ بتخفيف الميم، والظاهر: أن الهمزة لاستفهام التقرير، ومقابله محذوف لفهم المعنى، والتقدير: أهذا القانت خير، أم الكافر المخاطب بقوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾، ويدل عليه قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، وقرأ باقي السبعة، والحسن، وقتادة، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿أَمَّن﴾ بتشديد الميم، وهي ﴿أم﴾ أدغمت ميمها في ميم ﴿من﴾، فاحتملت ﴿أم﴾ أن تكون متصلة ومعادلها محذوف قبلها، تقديره: أهذا الكافر خير، أم من هو قانت، واحتملت أن تكون منقطعة تقدر ببل والهمزة، والتقدير: بل أم من هو قانت صفته كذا، كمن ليس كذلك. وقرأ الجمهور ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ بالنصب على الحال، والضحاك برفعهما إما على النعت لقانت، وإما على أنه خبر بعد خبر.

وقوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ حال أخرى[3] على الترادف، أو التداخل أو استئناف، كأنه قيل: ما باله يفعل القنوت في الصلاة؟ فقيل: هو يحذر عذاب الآخرة لإيمانه بالبعث. ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾؛ أي: المغفرة أو الجنة، لا أنه يحذر

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط كالكافر؛ أي: حالة كونه يخاف عذاب الآخرة ويرجو جنة ربه، فينجو مما يخافه ويفوز بما يرجوه، ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمة ربه لعمله، ويخاف عذابه لتقصيره في عمله، ثم الرجاء إذا جاوز حده يكون آمناً، والخوف إذا جاوز حده يكون يائساً، وكل منهما كفر، فوجب أن يعتدل كما قال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا»، وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ، أن يقول لهم قولاً آخر، يتبين به الحق من الباطل، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد بياناً للحق، وتنبيهاً على شرف العلم والعمل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأعمال، فيعملون بموجب علمهم، كالقانت المذكور ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ذكر، فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم، كالكافر المذكور، أو الذين[1] يعلمون أن ما وعد الله به من البعث والثواب والعقاب حق، والذين لا يعلمون ذلك، أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله والذين لا يعلمون ذلك، أو المراد: العلماء، والجهال، ومعلوم عند كل من له عقل، أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل، وقال الزجاج؛ أي: كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. وقيل: المراد بالذين يعلمون: هم العاملون بعلمهم، فإنهم المنتفعون به؛ لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم، والاستفهام فيه للتنبيه على كون الأولين في أعلى معارج الخير، وكون الآخرين في أقصى مدارج الشر، وفي «بحر العلوم»: الفعل منزل منزلة اللازم، ولم يقدر له مفعول؛ لأن المقدر كالمذكور. والمعنى: لا يستوي من يوجد فيه حقيقة العلم ومن لم يوجد.

وعبارة المراغي هنا[2]: أي قل أيها الرسول لقومك: هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعة ربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من عقاب، والذين لا يعلمون ذلك؟ فهم يخبطون خبط عشواء، لا يرجون بحسن

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

أعمالهم خيراً، ولا يخافون من سيئها شراً، وجاء هذا الكلام بأسلوب الاستفهام، للدلالة على أن الأولين بلغوا أعلى معارج الخير، وأن الآخرين درجوا في دركات الشر، ولا يخفى ذلك على منصف ولا مكابر.

ثم بيّن أن ما سلف إنما يفهمه كل ذي لب، فأمثال هؤلاء على قلوبهم غشاوة لا يفقهون موعظة، ولا تنفع فيهم التذكرة، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ، ويتدبر، ويتفكر ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي أصحاب العقول الكاملة، السالمة من الشك والشرك، وهم المؤمنون، لا الكفار، وقرىء: ﴿يذكر﴾ بإدغام تاء ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ في الذال، وهذا كلام[1] مستقل، غير داخل في الكلام المأمور به، وارد من جهته تعالى؛ أي: إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة، أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل والوهم، وهؤلاء بمعزل عن ذلك، قيل: قضية اللب الاتعاظ بالآيات، ومن لم يتعظ فكأنه لا لب له، ومَثَلُهُ مَثَلُ البهائم.

والخلاصة: أنه إنما يعلم الفرق بين هذا وذاك، من له لب وعقل يتدبر به، وقيل لبعض العلماء[2]: إنكم تقولون: العلم أفضل من المال، ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك؛ ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء، فأجاب: بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم. لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فتركوه.

ولما نفى الله سبحانه المساواة، بين من يعلم ومن لا يعلم، وبيّن أنه إنما يتذكر أولو الألباب. . أمر رسوله ﷺ بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه، والإيمان به. فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لعبادي المؤمنين: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا بتوحيد الله ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ بامتثال مأموراته، واجتناب منهياته، وإخلاص الإيمان له، ونفي الشركاء عنه؛ أي: قل لهم: قولي هذا بعينه؛ أي:

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

قل لهم: ربكم يقول: أطيعوا ربكم في الصغير والكبير من الأمور، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، فإنه أصله: يا عبادي بالياء، حذفت اكتفاءً بالكسرة.

والمعنى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: دوموا، واثبتوا على تقوى ربكم؛ لأن بالإيمان حصلت التقوى عن الكفر والشرك، أو اتقوا عذابه وغضبه باكتساب طاعته، واجتناب معصيته، أو اتقوا به عما سواه، حتى تخلصوا من نار القطيعة، وتفوزوا بوصاله ونعيم جماله.

ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى، بيّن لهم ما في هذه التقوى من الفوائد، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾؛ أي: للذين عملوا الأعمال الحسنة على وجه الإخلاص. خبر مقدم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بأحسنوا ﴿حَسَنَةٌ﴾ عظيمة ومثوبة كبيرة في الآخرة، لا يعرف كنهها، مبتدأ مؤخر. وهي الجنة، والشهود؛ لأن جزاء الإحسان الإحسان، والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، فالمحسن هو المشاهد، وبمشاهدة الله يغيب ما سوى الله تعالى، فلا يبقى إلا هو، وذلك حقيقة الإخلاص، وأما غير المحسن، فعلى خطر لبقائه مع ما سوى الله تعالى، فلا يأمن من الشرك والرياء القبيح، ومن كان عمله قبيحاً لم يكن جزاؤه حسناً، وقيل: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة، والعافية، والظفر، والغنيمة، والأول أولى.

وحاصل المعنى: أي لمن أحسن في هذه الدار، وعمل صالح الأعمال، وزكى نفسه فيها، حسنة من صحة وعافية، ونجاح في الأعمال، التي يزاولها كفاء ما يتحلى به، من تمسك بآداب الدين واتباع فضائله، وحسنة في الآخرة، فيتمتع بجنات النعيم ورضوان الله عنه ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات، والإحسان في وطنه، أرشد الله سبحانه، من كان كذلك إلى الهجرة من مكة إلى المدينة،

وصبّرهم على مفارقة الأوطان، فقال: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمن[1] تعسر عليه التوفر على التقوى، والإحسان في وطنه.. فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك، كما هو سنة الأنبياء، والمرسلين، والصالحين، فإنه لا عذر لهُ في التفريط أصلاً؛ أي: إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفر على الإحسان والتقوى، وصرف الهمم إلى العبادة في البلد الذي أنتم فيه، فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين، فقد فعل كثير منهم ذلك، وفيه حث على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي، وقد ورد: «إن من فر بدينه من أرض إلى أرض وجبت له الجنة»، وإنما قال: «بدينه» احترازاً عن الفرار بسبب الدنيا ولأجلها، خصوصاً إذا كان المهاجر إليه أعصى من المهاجر منه، وقيل المراد بالأرض هنا: أرض الجنة، رغّبهم في سعتها وسعة نعيمها، كما في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾. والأول أولى.

ثم ذكر ما لهم من رفيع المنزلة، وعظيم الأجر على ذلك. فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى﴾ ويعطى ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى، وحافظوا على حدوده، ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه، لما اعتراهم في ذلك من فنون الآلام، والبلايا التي من جملتها مهاجرة الأهل، ومفارقة الأوطان، والمعنى: يعطون ﴿أَجْرَهُم﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بحيث لا يحصى، ولا يحصر؛ أي: يوفيهم الله، ويعطيهم أجرهم وافياً كاملاً في مقابلة صبرهم بغير حساب؛ أي[2]: بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسابه حاسب. قال عطاء: بما لا يهتدي إليه عقل، ولا وصف، وقال مقاتل: أجرهم الجنة، وأرزاقهم فيها بغير حساب.

والحاصل: أن الآية تدل[3] على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له؛ لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه، وما كان لا يدخل تحت الحساب

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

فهو غير متناه، وهذه فضيلة عظيمة، ومثوبة جليلة تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله تعالى، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر، ويُزم نفسه بزمامه، ويقيدها بقيده، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ولا يجلب خيراً قد سلب، ولا يدفع مكروهاً قد وقع، وإذا تصور العاقل هذا حق تصوره، وتعقله حق تعقله، علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، وظفر بهذا الجزاء الخطير، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره، ولا يُبلغ مداه، فضُم إلى مصيبته مصيبةً أخرى، ولم يظفر بغير الجزع، وفي الحديث: «أنه تُنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج، فيوفون بها أجورهم، ولا تنصب لأهل البلاء، بل يصب عليهم الأجر صباً، حتى يتمنى أهل المعافاة في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل». وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أد الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس، يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها: شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، يُصب عليهم الأجر صباً». ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وسئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه». فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه ذا رقة هُوّن عليه، فما زال كذلك حتى يمشي على الأرض كمن ليس له ذنب، وقال ﷺ: «إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله.. ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبر على ذلك حتى يُبلغه المنزلة التي سبقت له من الله»، وإن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله عز وجل، إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي، فله الرضى، ومن سخط فله السخط، وقال يوسف بن الحسين: ليس بصابر من يتجرع المصيبة، ويبدي فيها الكراهة، بل الصابر من يتلذذ بصبره، حتى يبلغ به إلى مقام الرضا.

وروى مقاتل: أن كفار قريش، قالوا للنبي ﷺ: ما يحملك على الذي أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة آبائك وسادات قومك، يعبدون اللات والعزى، فتأخذ بتلك

الملة. فقال تعالى له: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ لهؤلاء المشركين: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ من جانبه تعالى بـ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه، وحده، حال كوني ﴿مُخْلِصًا لَّهُ﴾ تعالى ﴿ٱلدِّينَ﴾؛ أي: العبادة من الشرك والرياء، بأن يكون المقصود من العبادة هو المعبود بالحق، لا غير.

والمعنى[1]: أي قل أيها الرسول لمشركي قومك: إن الله سبحانه، أمرني أن أعبده مفرداً له الطاعة، دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد، وفي هذا نعي لهم، على تماديهم في عبادة الأوثان، والكلام عليه من وادي قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة؛ أي: لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة؛ لأن السبق في الدين، إنما هو بالإخلاص فيه، فمن أخلص عد سابقاً، فإذا كان الرسول، متصفاً بالإخلاص قبل إخلاص أمته.. فقد سبقهم في الدارين، إذ لا يُدرك المسبوق مرتبة السابق، ألا ترى إلى الأصحاب مع من جاء بعدهم، والظاهر[2]: أن اللام زائدة، فيكون كقوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، فالمعنى: وأمرت أن أكون أول من أسلم من أهل زماني؛ لأن كل نبي يتقدم أهل زمانه في الإسلام والدعاء إلى خلاف دين الآباء، وإن كان قبله مسلمون، قال بعضهم: الإخلاص: أن يكون جميع الحركات في السر والعلن لله تعالى وحده، لا يمازجه شيء.

وقال الزمخشري: فإن قلت[3]: كيف عطف ﴿أُمِرْتُ﴾ على ﴿أُمِرْتُ﴾ وهما واحد؟.

قلت: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما، وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به لتحرز به قصب السبق في الدين شيء آخر، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه، ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين، انتهى.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الكشاف.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي قومك: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ وخالفته بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: أخاف من عذاب يوم القيامة، وهو يوم عظيم، لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال، بحسب عظم المعصية وسوء الحال، وفيه زجر عن المعصية بطريق المبالغة؛ لأنه عليه السلام، مع جلالة قدره، إذا خاف على تقدير العصيان، فغيره من الأمة أولى بذلك الخوف.

قال أكثر المفسرين[1]: المعنى إني أخاف إن عصيت ربي، بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه، من عبادة غير الله عذاب يوم القيامة، عظيم الشأن والأهوال، وقال أبو حمزة اليماني، وابن المسيّب: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب؛ لأن قبله ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، فالمراد: عصيان هذا الأمر، وفي هذا من التعريض بهم ما لا يخفى.

ثم كرر الأمر مرة أخرى، بالإخلاص في الطاعة، للتهديد والوعيد، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿ٱللَّهَ﴾ سبحانه، نصب بقوله: ﴿أَعْبُدُ﴾ على ما أمرت به لا غيره، لا استقلالاً، ولا اشتراكاً، والتقديم مشعر بالاختصاص حالة كوني ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ وعبادتي من كل شائبة شرك، وشك، ورياء، وسمعة.

فإن قلت[2]: ما فائدة التكرار في قوله: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾، وفي قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾؟.

قلت: هذا ليس بتكرار؛ لأن:

الأول: الإخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى، بالإتيان بالعبادة والإخلاص.

والثاني: أنه إخبار بأنه أمر أن يخص الله تعالى، وحده بالعبادة، ولا يعبد

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

أحداً غيره، مخلصاً له دينه؛ لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ لا يفيد الحصر، وقوله: ﴿ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر. والمعنى: الله أعبد ولا أعبد أحداً غيره.

والحاصل: أنه سبحانه أمر رسوله ﷺ[1]:

أولاً: بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها.

وثانياً: بأن يخبرهم بأنه مأمور، بأن يكون أول من أسلم وأطاع وانقاد.

وثالثاً: بأن يخبرهم بخوفه من العذاب، على تقدير العصيان.

ورابعاً: بأن يخبرهم، بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله تعالى، وأخلص له الدين، على أبلغ وجه وآكده، إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم الفارغة، وتمهيداً لتهديدهم بقوله: ﴿فَٱعْبُدُوا...﴾ إلخ؛ أي: قد امتثلت أنا ما أمرت به، فاعبدوا يا معشر المشركين ﴿مَا شِئْتُم﴾ قال في «الإرشاد»: وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه، أمروا به كي يحل بهم العقاب.

ولما قال المشركون: خسرت يا محمد، حيث خالفت دين آبائك، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الخسران، الذي هو عبارة عن إضاعة ما يهمه، وإتلاف ما لا بد منه، هم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فالجملة من الموصول، والصلة خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالضلال واختيار الكفر لها؛ أي: أضاعوها، وأتلفوها إتلاف البضاعة، فقوله: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول ﴿خَسِرُوٓا۟﴾. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالضلال، واختيار الكفر لهم أيضاً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يوم يدخلون النار بدل الجنة، حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي، وأوقعوهما في هلكة لا هلكة وراءها. ﴿أَلَا﴾ انتبهوا، واستمعوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخسران ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر الجلي، حيث استبدلوا بالجنة ناراً، وبالدرجات دركات، كما في «كشف الأسرار»، وفي «التأويلات النجمية»: الخاسر في الحقيقة، من خسر دنياه بمتابعة

---

(١) أبو السعود.

الهوى، وخسر عقباه بارتكاب ما نهى عنه، وخسر مولاه بتولي غيره.

والمعنى[1]: أي قل لهم أيها الرسول: إن الخسران الذي لا خسران بعده، هو خسران النفس، وإضاعتها بالضلال، وخسران الأتباع الذين أضلوهم، وأوقعوهم في العذاب السرمدي يوم القيامة، إذ أوقعوهم في هلكة ما بعدها هلكة، ألا هو الخسران المبين، الظاهر لكمال هوله، وفظاعة شأنه.

ثم فصل ذلك الخسران، وبينه بعد إبهامه، تهويلاً وتعظيماً لأمره فقال: ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، والضمير للخاسرين ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ حال من ﴿ظُلَلٌ﴾ وهو مبتدأ مؤخر ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿ظلل﴾، والظلل: جمع ظلة كغرف وغرفة، كما سيأتي، وهي في الأصل: سحابة تظل، والمراد هنا[2]: طباق وسرادقات من النار ودخانها، وسميت النار ظلة لغلظها وكثافتها، ولأنها تمنع من النظر إلى ما فوقهم، والمعنى: للخاسرين ظلل وطبقات من النار، ودركات كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض، حال كون تلك الظلل من فوقهم ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ﴾ أيضاً ﴿ظُلَلٌ﴾ والمراد: إحاطة النار بهم من جميع جوانبهم، كما قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾، وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾.

والمعنى: أي لهم من فوقهم أطباق من النار، تلتهب عليهم، ومن تحتهم ظلل؛ أي: أطباق من النار، وسمي ما تحتهم ظللاً لأنها تظلل من تحتها من أهل النار؛ لأن طبقات النار، كان في كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار، كما قال السدي: هي لمن تحتهم ظلل، وهكذا حتى ينتهي إلى القعر والدرك الأسفل، الذي هو للمنافقين. فالظلل لمن تحتهم، وهي فرش لهم، وكما قال في «الأسئلة المقحمة»: كيف يسمى ما هو الأسفل ظللاً والظلل ما يكون فوقاً؟

والجواب: لأنها تظلل من تحتها.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وفي[1] ذلك إشعار بشدة حالهم في النار، وتهكم بهم؛ لأن الظلة إنما هي للاستظلال والتبرد، خصوصاً في الأراضي الحارة كأرض الحجاز، فإذا كانت من النار نفسها كانت أحر، ومن تحتها أغم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الفظيع هو الذي ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِهِۦ﴾ بذلك العذاب ﴿عِبَادَهُۥ﴾ في القرآن ليؤمنوا، ويحذرهم إياه بآيات الوعيد، ليجتنبوا ما يوقعهم فيه، وفي «الوسيط»: يخوف الله به عباده المؤمنين، يعني: أن ما ذكر من العذاب معد للكفار، وهو تخويف للمؤمنين ليخافوه، فيتقوه بالطاعة والتوحيد، وهو معنى قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ بحذف الياء، وأصله يا عبادي بالياء ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي؛ أي: اتقوا هذه المعاصي، الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار. ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين[2]: أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم، وقيل: هو للكفار وأهل المعاصي، وقيل: هو عام للمسلمين والكفار. وهذه عظة من الله تعالى، بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة، وفيه إشارة، إلى أن الله تعالى، خلق جهنم سوطاً يسوق به عباده إلى الجنة، إذ ليس تحت الوجود إلا ما هو مشتمل على الحكمة والمصلحة، فمن خاف بتخويف الله تعالى إياه، من هذا الخسران.. فهو عبده عبداً حقيقياً، ومستأهل لشرف الإضافة إليه.

ومعنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾؛ أي[3]: إنما يقص عليكم ربكم خبر ما سيكون، لا محالة، ليزدجر عباده عن المحارم والآثام، ومعنى قوله: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: يا عبادي بالغوا في الخوف والحذر والتقوى، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. وهذه منة منه تعالى، منطوية على نهاية اللطف والرحمة.

الإعراب

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾.

﴿تَنزِيلُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: نعتان للجلالة، ويجوز أن يكون ﴿تَنزِيلُ﴾: خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا تنزيل الكتاب؛ أي: هذا القرآن هو الكتاب المنزل، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بالمصدر، أو بمحذوف خبر بعد خبر. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الفاعل؛ أي: ملتبسين بالحق، أو من المفعول؛ أي: ملتبساً بالحق. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت إنزالنا عليك الكتاب، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول: اعبد الله مخلصاً له الدين. ﴿اعبد الله﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مُخْلِصًا﴾: حال من فاعل اعبد، ﴿لَّهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصًا﴾، و﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول ﴿مُخْلِصًا﴾

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾.

﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح وتنبيه، ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلدِّينُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْخَالِصُ﴾: صفة لـ﴿ٱلدِّينُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، مقررة لما قبلها. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: مفعول ثان لـ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾، أو حال من الفاعل، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول أول، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿نَعْبُدُهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، هو خبر المبتدأ، والتقدير: والذين اتخذوا من دونه أولياء، يقولون ما نعبدهم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: اللام: لام

كي، ﴿يقربونا﴾: فعل مضارع، وفاعل، ومفعول به منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأن أصله: يقربوننا. والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: إلا لتقريبهم إيانا إلى الله سبحانه، الجار والمجرور متعلق بنعبدهم، والاستثناء من أعم الأحوال؛ أي: ما نعبدهم لحال من الأحوال إلا لتقريبهم إيانا إلى الله تعالى. ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر مؤكد، ليقربونا من غير لفظه، ولكنه ملاق لعامله في المعنى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾، ﴿فِى مَا﴾: متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾ أيضاً، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾، وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ خبرهم، والجملة الاسمية صلة ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَهْدِى﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول، في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾، ﴿هُوَ كَٰذِبٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿كَفَّارٌ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾.

﴿لَّوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَتَّخِذَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، منصوب بأن المصدرية ﴿وَلَدًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها، في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَرَادَ﴾، تقديره: لو أراد الله سبحانه، اتخاذه ولداً لنفسه. ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَّوْ﴾، ﴿اصطفى﴾: فعل، وفاعل مستتر، يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿اصطفى﴾، وجملة ﴿اصطفى﴾ جواب ﴿لَّوْ﴾: الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿يَخْلُقُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر

يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، والعائد محذوف تقديره: مما يخلقه. ﴿مَا يَشَآءُ﴾: ﴿ما﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿اصطفى﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما يشاؤه، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوه سبحاناً، أو أسبحه سبحاناً. والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾: نعتان للجلالة، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف على السموات، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الفاعل أو من المفعول، ﴿يُكَوِّرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول به، ﴿عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾: متعلق بـ﴿يُكَوِّرُ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾، أو مستأنفة مسوقة لبيان كيفية تصرفه. ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ معطوفة على نظيرتها. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: معطوف على الشمس. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد العموم، وجملة ﴿يَجْرِي﴾: خبره، ﴿لِأَجَلٍ﴾ متعلق بـ﴿يَجْرِي﴾، ﴿مُّسَمًّى﴾: نعت ﴿لِأَجَلٍ﴾. والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح، ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾: خبر ثان. والجملة الإسمية مستأنفة.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿خَلَقَكُم﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿مِّن نَّفْسٍ﴾ متعلق بخلق، ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: صفة ﴿نَّفْسٍ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، وسيأتي سر العطف بها في البلاغة. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿خَلَقَكُم﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿زَوْجَهَا﴾: مفعول به، ﴿وَأَنزَلَ﴾: معطوف على خلقكم، ﴿لَكُم﴾ حال من ثمانية أزواج، ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

متعلق بـ﴿أنزل﴾، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾: مفعول به. ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة مستأنفة أو حال من فاعل ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾، ﴿خَلْقًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: صفة لـ﴿خَلْقًا﴾ أو متعلق بـ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾، فيكون المصدر لمجرد التأكيد. ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ جار ومجرور، بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أو متعلق بـ﴿خلق﴾ المجرور قبله، ﴿ثَلَٰثٍ﴾: صفة ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر أول، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثان، ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع، خبر ثالث لاسم الإشارة، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع له، وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة مفصلاً مراراً، فلا حاجة إلى إعادته. ﴿فَأَنَّىٰ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿أنى﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، في محل النصب على الحال، مبني على السكون، والعامل فيه ﴿تُصْرَفُونَ﴾، ﴿تُصْرَفُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل. والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تَكْفُرُوا۟﴾: فعل، وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿غَنِىٌّ﴾: خبره. ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿لِعِبَادِهِ﴾ متعلق بـ﴿يَرْضَىٰ﴾، ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من الضمير المستكن في ﴿غَنِىٌّ﴾. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾: فعل، وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها،

﴿يَرْضَهُ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿لَكُمْ﴾ متعلقان به ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَزِرُ﴾: فعل مضارع، ﴿وَازِرَةٌ﴾: فاعل ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾. خبر مقدم، ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: الفاء: عاطفة، ﴿ينبئكم﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على الجملة الاسمية قبلها، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿ينبئكم﴾، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة لما الموصولة. ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبره، ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مَسَّ الْإِنسَانَ﴾: فعل، ومفعول به. ﴿ضُرٌّ﴾: فاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة. ﴿مُنِيبًا﴾: حال من فاعل ﴿دَعَا﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿مُنِيبًا﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿خَوَّلَهُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إِذَا﴾. ﴿نِعْمَةً﴾: مفعول ثان، ﴿مِّنْهُ﴾: صفة لـ﴿نِعْمَةً﴾، ﴿نَسِيَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول نسي. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على

الإنسان. ﴿يَدْعُوٓا۟﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَدْعُوٓا۟﴾، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق به أيضاً، أو حال من فاعل ﴿يَدْعُوٓا۟﴾، وجملة ﴿يَدْعُوٓا۟﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: نسي كونه داعياً. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، معطوف على ﴿نَسِىَ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿جعل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿أَندَادًا﴾: مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ﴿لِّيُضِلَّ﴾: اللام لام كي، ﴿يضل﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يضل﴾، وجملة ﴿لِّيُضِلَّ﴾: في تأويل مصدر مجرور باللام، ومفعول الإضلال محذوف؛ أي: لإضلاله الناس، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعل﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿تَمَتَّعْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة في محل النصب، مقول لـ﴿قُلْ﴾، ﴿بِكُفْرِكَ﴾ متعلق بـ﴿تَمَتَّعْ﴾ أو حال من فاعل تمتع؛ أي: ملتبساً بكفرك، ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تمتعاً قليلاً، أو زمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ﴾: خبره، ﴿ٱلنَّارِ﴾ مضاف إليه، وجملة إن مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾.

﴿أَمَّنْ﴾ ﴿أم﴾: متصلة، ومعادلها محذوف، ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، وخبر ﴿مَن﴾ الموصولة محذوف والتقدير: أهذا الكافر خير، أم الذي هو قانت خير، أو منقطعة، بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام الإنكاري. و﴿مَن﴾: مبتدأ، والخبر محذوف أيضاً، تقديره: بل أمن هو قانت كهذا الكافر لا، والجملة مستأنفة. ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿قَٰنِتٌ﴾، ﴿سَاجِدًا﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿قَٰنِتٌ﴾، ﴿وَقَآئِمًا﴾: معطوف على ﴿سَاجِدًا﴾، وجملة ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: حال ثالثة، وجملة ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾: عطف على جملة ﴿يَحْذَرُ﴾.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ

﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مقول لـ﴿قُلْ﴾، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: صلة الموصول، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: صلة الموصول، والاستفهام إنكاري؛ أي: لا يستويان، وفي الآية تنزيل المتعدي منزلة القاصر. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: فعل مضارع، ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰعِبَادِ﴾: منادى مضاف. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للمنادي وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾: على كونها جواب النداء. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، وجملة ﴿أَحْسَنُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿فِى هَٰذِهِ﴾: متعلق بـ﴿أَحْسَنُوا۟﴾، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: بدل من اسم الإشارة. ﴿حَسَنَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿أَجْرَهُم﴾: مفعول به ثان، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من الأجر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أُمِرْتُ﴾: فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ والتقدير: إني مأمور، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿أَعْبُدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾،

وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿أَنْ﴾: المصدرية مع صلتها، في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: أمرت بعبادة الله تعالى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أُمِرْتُ﴾. ﴿مُخْلِصًا﴾ حال من فاعل ﴿أَعْبُدَ﴾. ﴿لَّهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصًا﴾. ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول به لـ﴿مُخْلِصًا﴾. ﴿وَأُمِرْتُ﴾: فعل، ونائب فاعل، معطوف على أمرت الأول، ﴿لِأَنْ أَكُونَ﴾: اللام: حرف جر بمعنى الباء، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب، ﴿أَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص، منصوب بـ﴿أَنْ﴾، واسمها ضمير يعود على محمد ﷺ، ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ خبرها، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: وأمرت بكوني أول المسلمين من هذه الأمة. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخَافُ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنْ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿عَصَيْتُ﴾: فعل، وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجوابها محذوف تقديره: إن عصيت ربي، أخاف عذابه، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معترضة بين الفعل ومفعوله على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾، ﴿عَذَابَ﴾: مفعول أخاف، ﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول مقدم، ﴿أَعْبُدُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مُخْلِصًا﴾: حال من فاعل أعبد، ﴿لَّهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصًا﴾، ﴿دِينِى﴾: مفعول ﴿مُخْلِصًا﴾، ومضاف إليه. ﴿فَٱعْبُدُوا۟﴾: الفاء: عاطفة، أو فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم عبادتي الله، وأردتم بيان ما أقول لكم.. فأقول لكم: اعبدوا. ﴿أعبدوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعوله، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب

مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿شِئْتُم﴾: فعل، وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما شئتموه. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من العائد المحذوف. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به صلة الموصول. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: معطوف على أنفسهم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ أو حال من أهليهم، يعني: أزواجهم وخدمهم. ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْخُسْرَانُ﴾: خبر، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿الخسران﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾: حال من ﴿ظُلَلٌ﴾، و﴿ظُلَلٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿ظُلَلٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾: خبر مقدم، ﴿ظُلَلٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية قبلها. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُخَوِّفُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر عن اسم الإشارة، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عِبَادَهُۥ﴾ مفعول به لـ﴿يُخَوِّفُ﴾، ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿عباد﴾: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة، وجملة النداء إما مستأنفة أو مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَٱتَّقُونِ﴾: الفاء: زائدة لتأكيد الربط بين النداء وجوابه، ﴿اتقون﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ ﴿ألا﴾[1]: من حروف التنبيه، وهي: ها، وألا،

(١) درويش.

وأما، والفرق بين أما، وألا: أن أما: للحال أو للماضي، وألا: للاستقبال، تقول: أما إن زيداً عاقل، تريد أنه عاقل في الحال، ولا تقول: ألا، وتقول: ألا إن زيداً لا يخاف؛ أي: في المستقبل، ولا تقول: أما، والفرق بينهما وبين ها، أنهما لا يدخلان إلا أول الكلام على الجملة بخلاف ها، فتدخل على الضمير وأسماء الإشارة، وإن لم تكن في أول الكلام، وتدخل أما على القسم كثيراً، وألا كثيراً على النداء، إذا تقرر هذا، فهل تكون هنا للاستقبال، مع أن كون الدين لله هو في كل زمان؟ والجواب: أن المراد هنا الاستقبال، بالنسبة لمن يعتنقون الدين الخالص على أنهما يتعاوران؛ أي: تأتي ألا لمجرد الاستفتاح، ولا يكون التنبيه مقصوداً.

﴿زُلْفَىٰٓ﴾؛ أي: تقريباً. فهو مصدر مؤكد على غير لفظ العامل، ملاق له في المعنى. وعبارة «السمين»: زُلفى مصدر مؤكد على غير العامل، ولكنه ملاق لعامله في المعنى، والتقدير: ليزلفوننا زلفى؛ أي: ليقربونا قربى، وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً مؤكدة، انتهى.

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ﴾ التكوير في الأصل: اللف، واللي، من كار العمامة على رأسه، وكورها، وفي تكويرهما أوجه، كما قاله الزمخشري:

١ ـ جعلهما خلفة، يذهب هذا ويغشي مكانه هذا، فكأنما ألبسه، ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس.

٢ ـ كون كل منهما يغيّب الآخر إذا طرأ عليه، فشُبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر، لُف عليه ما غيّبه من مطامح الأبصار.

٣ ـ إن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً، فشُبه ذلك، بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض، وهو أوفق للاشتقاق، من أشياء قد ذُكرت، وقال الراغب: كور الشيء: إدارته، وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ إشارة إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص الليل والنهار، وازديادهما، اهـ.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ إن قلت: كيف[1] عطف بـ﴿ثم﴾ مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه؟ أجيب: بأن ﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب في الإخبار، لا في الإيجاد، أو المعطوف متعلق بمعنى واحد، فـ﴿ثم﴾ عاطفة لا على ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، فمعناه: خلقكم من نفس أفردت بالإيجاد، ثم شفعت بزوج، أو هو معطوف على ﴿خَلَقَكُمۡ﴾ لكن المراد بـ﴿خلقهم﴾: خلقهم يوم أخذ الميثاق دفعةً، لا على هذا الخلق الذي هم فيه الآن بالتوالد والتناسل، وذلك لأن الله تعالى، خلق آدم عليه السلام ثم أخرج أولاده من ظهره كالذر، وأخذ عليهم الميثاق، ثم ردهم إلى ظهره ثم خلق منه حواء، اهـ كرخي.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ مصدر[2] من سبح إذا بعد؛ أي: تنزه تعالى بالذات عن ذلك الاتخاذ، وعما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء، وعلم للتسبيح مقول على ألسنة العباد؛ أي: أسبحه تسبيحاً لائقاً به، أو سبحوه تسبيحاً حقيقاً بشأنه.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ ويقال لها: الأزواج الثمانية؛ لأن ذكر كل واحد من هذه الأنواع زوج بأنثاه، وأنثاه زوج بذكره، فيكون مجموع الأزواج ثمانية بهذا الاعتبار، من الضأن: اثنين، ومن المعز: اثنين، ومن الإبل: اثنين، ومن البقر: اثنين. والخيل، والبغال، والحمير خارجة من الأنعام، قال في «بحر العلوم»: الواحد إذا كان وحده فهو فرد، وإذا كان معه غيره من جنسه، سمي كل واحد منهما زوجاً، فهما زوجان، بدليل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾، وعند الحساب: الزوج خلاف الفرد، كالأربعة والثمانية في خلاف الثلاثة والسبعة.

﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾؛ أي: في أرحامهن. جمع أم، زيدت الهاء فيه كما زيدت في أهراق من أراق. ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون، وتردون عن ملازمة بابه بالعبودية، إلى باب عاجز مثلكم من الخلق. ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ أصله: يرضاه على أن الضمير عائد إلى الشكر، حذف الألف علامة للجزم. وهو باختلاس ضمة الهاء، عند أهل المدينة وعاصم وحمزة، وبإسكان الهاء، عند أبي

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

عمرو، وبإشباع ضمة الهاء عند الباقين. لأنها صارت بخلاف الألف موصولة بمتحرك.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والوزر: الحمل الثقيل، ووزره: حمله، والمعنى: ولا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى من الذنب والمعصية. ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ قال الراغب: المس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى، والضر يقابل بالسراء والنعماء، والضرر بالنفع.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من التخول، وهو التعهد؛ أي: المحافظة والمراعاة؛ أي: جعله خائل مال من قولهم: فلان خائل ماله إذا كان متعهداً له حسن القيام به. ومن شأن الغني الجواد، أن يراعي أحوال الفقراء. أو من الخول، وهو الافتخار؛ لأن الغني يكون متكبراً طويل الذيل؛ أي: جعله يخول؛ أي: يختال ويفتخر بالنعمة.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ جمع ند، وهو يقال لما يشارك في الجوهر فقط، كما في «المفردات»، وقال في «بحر العلوم»: هو المثل المخالف؛ أي: أمثالاً يعتقد أنها قادرة على مخالفة الله سبحانه، ومضادته.

﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد، والسبيل من الطرق ما هو معتاد السلوك، استعير للتوحيد، لأنه موصل إلى الله تعالى ورضاه، قرىء: ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفتح الياء؛ أي: ليزداد ضلالاً أو يثبت عليه، وإلا فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور، واللام: لام العاقبة، فإن النتيجة قد تكون غرضاً في الفعل، وقد تكون غير غرض، والضلال والإضلال ليسا بغرضين، بل نتيجة الجعل وعاقبته.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ جمع إني بكسر الهمزة والقصر كمعي وأمعاء، اهـ شيخنا. وفي «المصباح»: الآناء على أفعال هي الأوقات، وفي واحدها لغتان: أنى مثل: معى بكسر الهمزة والقصر، وأنى بفتح الهمزة والنون، وهو الساعة، وقيل: مفردها إِنْيٌ وإِنْوٌ، بكسر الهمزة وسكون النون فيهما، يقال: مضى أنوان وأنيان من الليل؛ أي: ساعتان.

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي «بحر العلوم»: الفعل منزل منزلة اللازم، ولم يقدر له مفعول؛ لأن المقدر كالمذكور كما سبق، والمعنى: لا يستوي من يوجد فيه حقيقة العلم ومن لا يوجد.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾ قال في «المفردات»: توفيةُ الشيء: بذلُه وافياً كاملاً، واستيفاؤه: تناوله وافياً. والمعنى: يعطون أجرهم وافياً بمقابلة ما كابدوا من العسر.

﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الخسران الذي هو عبارة عن إضاعة ما يهمه، وإتلاف ما لا بد منه. وفي «المفردات»: الخسران: انتقاص رأس المال، يستعمل في المال، والجاه، والصحة، والسلامة، والعقل، والإيمان، والثواب، وهو الذي جعل الله سبحانه الخسران. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أصله: أهلين لهم، فحذفت النون للإضافة، واللام للتخفيف، جمع أهل، وأهل الرجل: عشيرته، وذوو قرابته، كما في «القاموس». ويفسر بالأزواج، والأولاد، والعبيد والإماء، وبالأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع كما في «شرح المشارق لابن الملك».

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ والظلل: جمع ظلة كغرف جمع غرفة، وهي سحابة، تظل، وشيء كهيئة الصفة، وفي «كشف الأسرار»: الظلة: ما أظلك من فوقك.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي[1]: أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل، والوهم، وفي «المفردات»: الألباب: جمع لب، واللب: العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من قواه، كاللباب من الشيء، وقيل: هو ما زكا من العقل، فكل لب عقل، وليس كل عقل لباً، ولذا علّق الله سبحانه الأحكام، التي لا تدركه إلا العقول الذكية، بأولي الألباب، نحو قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ونحو ذلك من الآيات، انتهى.

---

(١) روح البيان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بعد قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ لتعظيمه، ومزيد الاعتناء بشأنه، ولا تكرار فيه؛ لأن الأول في بيان شأن المنزل، وكونه من عند الله، وهذا في بيان شأن المنزل إليه، وما يجب عليه.

ومنها: الإتيان بـ﴿ألا﴾ التي للتنبيه والاستفتاح في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ إشعاراً بأهمية ما بعدها، وطلباً للإصغاء إليه.

ومنها: التأكيد بالمصدر الملاقي لعامله في المعنى في قوله: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ أي: قربى.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ لأن الأصل يحكم بينهم وبين المسلمين، فحذف المقابل إيجازاً للكلام، أو اكتفاء بالمذكور.

ومنها: الطباق بين ﴿تكفروا، وتشكروا﴾ وبين ﴿يرجو، ويحذر﴾ وبين ﴿فوقهم، وتحتهم﴾ وبين ﴿ضر، ونعمة﴾.

ومنها: أسلوب التدريج في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾. فإنه عبر[1] عن الأزواج بالإنزال؛ لأنها تكونت بالنبات، والنبات بالماء المنزل، وهذا يسمى التدريج، ومنه: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف، لدلالة السياق عليه، في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ

---

(١) الفتوحات.

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: كمن هو كافر جاحد بربه.

ومنها: الأمر بالذي يراد به التهديد في قوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ﴾، وفيه إشعار بأن الكفر نوع تشبه لا سند له، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة، ولذلك علله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة، اهـ «بيضاوي».

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ أي: لا يستوي القانت والكافر.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾؛ لأن السبيل حقيقة في الطريق المعتاد سلوكه، فاستعير للتوحيد بجامع الإيصال إلى المقصود في كل؛ لأن التوحيد موصل إلى الله تعالى، وإلى رضاه، كما أن السبيل الحقيقي يوصل إلى المقصد.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. والإضافة للملك، والخلق في قوله: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾.

ومنها: التهويل في قوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ففيه تهويل زاجر، فقد جعل الجملة مستأنفة، وصدرها بحرف التنبيه، ووسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرّف الخسران كأنه مما تعورف أمره، واشتهر هوله، ووصفه بالمبين، فجعل خسرانهم غايةً في الفظاعة ونهاية في الشناعة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر وعيده[1] لعبدة الأصنام.. أردف ذلك بوعد من اجتنبوا عبادتها، وابتعدوا عن الشرك، ليكون الوعد مقترناً بالوعيد، ويحصل بذلك كمال الترغيب والترهيب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ الآية، مناسبة

---

(١) المراغي.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها، ومزيد الشوق إليها.. أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا، توجب النفرة منها، كسرعة زوالها وتقضيها وشيكاً تحذيراً من الاغترار بزهرتها، والركون إلى لذتها. فمثّل حالها بحال نبات، يُسقى بماء المطر، فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع، وبعد قليل تراه يجف ويصير فتاتاً متكسراً. فما أسرع زواله، وأيسر تقضّيه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بالغ في ذكر ما يدل على وجوب الإقبال على طاعته سبحانه، والإعراض عن الدنيا.. أردف ذلك ببيان أنه لا ينتفع بهذا إلا من شرح الله صدره، ونوّر قلبه، وأشعر نفسه حب العمل به، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله، فلا هادي له، وأن من يتقي بيديه المخاوف، صيانة لوجهه عن النار، ليس حاله كحال من هو آمن، لا يفكر في مآل أمره، وعاقبة عمله. وبعدئذٍ، ذكر أن هؤلاء المشركين، ليسوا بدعاً في الأمم، فلقد كذب كثير قبلهم، فأتاهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون، فأصيبوا في الدنيا بالذل، والصغار، والقتل، والخسف، ولعذاب الآخرة أشد نكالاً ووبالاً، ثم ذكر أن القرآن قد ضرب الأمثال للناس، بلسان عربي مبين، لعلهم يرعوون، ويزدجرون.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الحكمة في ضرب الأمثال للناس، وهي أن تكون عظة، وذكرى لهم، ليتقوا ربهم، ويرعووا عن غيّهم وضلالهم.. أردفه بذكر مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين، وقبح طريقتهم، ووضوح بطلانها، ثم أعقبه ببيان أن الناس جميعاً سيموتون، ثم يعرضون على ربهم، وهناك يستبين المحق والمبطل، والضال والمهتدي، فلا داعي إلى الجدل والخلاف بينك وبينهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ...﴾ الآية،

سبب نزولها[1]: ما أخرجه جويبر، بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ...﴾ الآية، أتى رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي سبعة مماليك، وإني قد أعتقت لكل باب منها مملوكاً، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم، أن هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر، كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله، زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ والشياطين، وابتعدوا عنها، وتحرجوا ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال من الشيطان، فإن عبادة غير الله عبادة للشيطان، إذ هو الآمر بها، والمزين لها. قال في «كشف الأسرار»: كل من عبد شيئاً غير الله فهو طاغ، ومعبوده طاغوت. وفي «التأويلات النجمية»: طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب الطاغوت من خالف هواه، وعانق رضى مولاه، ورجع إليه بالخروج عما سواه بالكلية، وقرأ الحسن: ﴿الطواغيت﴾ جمعاً. وفي «القاموس»: الطاغوت: اللات، والعزى، والكاهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومردة أهل الكتاب، انتهى. وقال سهل[2]: الطاغوت: الدنيا، وأصلها الجهل، وفرعها المآكل والمشارب، وزينتها التفاخر، وثمرتها المعاصي، وميراثها القسوة والعقوبة، ويستعمل لفظ الطاغوت في الواحد والجمع، كما يفهم من «القاموس». قال في «بحر العلوم»: وفي قوله: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ إشارة، إلى أن المراد بالطاغوت ههنا الجمع.

﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه، وأقبلوا عليه معرضين عما سواه إقبالاً كلياً، قال في «البحر»: واعلم أن المراد باجتناب الطاغوت: الكفر بها، وبالإنابة إلى الله:

---

(١) لباب النقول.

(٢) روح البيان.

الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. وقدم اجتناب الطاغوت على الإنابة إلى الله، كما قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، على وفق كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، حيث قُدم نفي وجود الإلهية على إثبات الألوهية لله تعالى، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال من الطاغوت، وقوله: ﴿وَأَنَابُوٓا۟﴾ معطوف على ﴿ٱجْتَنَبُوا۟﴾.

وجملة ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ خبر المبتدأ؛ أي[1]: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، ورجعوا إلى عبادة الله تعالى، وأقبلوا عليه معرضين عما سواه، لهم البشرى في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فالثناء عليهم بصالح أعمالهم، وعند نزول الموت، وعندالوضع في القبر، وأما في الآخرة فعند الخروج من القبر، وعند الوقوف للحساب، وعند جواز الصراط، وعند دخول الجنة، وفي الجنة، ففي كل موقف من هذه الموافق، تحصل لهم البشارة بنوع من الخير، والراحة، والروح، والريحان، وقيل: لهم البشرى بالثواب والرضوان الأكبر على ألسنة الرسل، بالوحي في الدنيا، أو على ألسنة الملائكة عند حضور الموت، وحين يحشرون، وبعد ذلك، وقال بعضهم: لهم البشرى بأنهم من أهل الهداية والفضل من الله، وهي الكرامة الكبرى.

والمعنى[2]: أي والذين اجتنبوا عبادة الأصنام، وأقبلوا إلى ربهم معرضين عما سواه، لهم البشرى، بالثواب العظيم من الله تعالى، على ألسنة رسله حين الموت، وحين يحشرون من قبورهم للحساب.

ثم مدحهم، بأنهم نقّاد في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ والأصل عبادي بالياء، فحذفت ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ الحق من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾؛ أي: محكمه، ويعملون به؛ أي: فبشر يا محمد عبادي الذين اجتنبوا عبادة

---

(١) الخازن.   (٢) المراغي.

الطاغوت، وأنابوا إلى ربهم، وسمعوا القول فاتبعوا أولاه بالقبول، بالنعيم المقيم في جنات النعيم، وفيه[1] تصريح بكون التبشير من لسان الرسول ﷺ، وهو تبشير في الدنيا، وأما تبشير الملك فتبشير في الآخرة، كما قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾، وبالجملة فتبشير الآخرة مرتب على تبشير الدنيا. فمن استأهل الثاني استأهل الأول.

قال السدي[2]: يتبعون أحسن ما يؤمرون به، فيعملون بما فيه، وقيل: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبح فلا يتحدث، وقيل: يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن، وقيل: يستمعون الرخص والعزائم فيتبعون العزائم ويتركون الرخص، وقيل: يأخذون بالعفو، ويتركون العقوبة، وقيل: إن الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمٰن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، حين جاؤوا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فسألوه فأخبرهم بإيمانه، فآمنوا، حكاه المهدوي في «التكملة». فيكون المعنى: يستمعون القول من أبي بكر، فيتبعون أحسنه، وهو قول: «لا إله إلا الله».

وفي «كشف الأسرار»: مثال هذا[3] الأحسن في الدين أن ولي القتيل، إذا طالب بالدم فهو حسن، وإذا عفا ورضي بالدية فهو أحسن، ومن جزى السيئة بالسيئة مثلها فهو حسن، وإن عفا وغفر فهو أحسن، وإن وزن أو كال فهو حسن، وإن أرجح فهو أحسن، وإن اتزن وعدل فهو حسن، وإن طفف على نفسه فهو أحسن، وإن رد السلام فقال: وعليكم السلام فهو حسن، وإن قال عليكم السلام ورحمة الله فهو أحسن، وإن حج راكباً فهو حسن، وإن فعله راجلاً فهو أحسن، وإن غسل أعضاءه في الوضوء مرة مرة فهو حسن، وإن غسلها ثلاثاً ثلاثاً فهو أحسن، وإن جزى من ظلمه بمثل مظلمته فهو حسن، وإن جازاه بحسنة فهو

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

أحسن، وإن سجد أو ركع ساكتاً فهو جائز، وإن فعلهما مسبحاً فهو أحسن. ونظير هذه الآية قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، انتهى ما في «الكشف».

وهذا[1] معنى ما قال بعضهم: يستمعون قول الله فيتبعون أحسنه، ويعملون بأفضله، وهو ما في القرآن من عفو، وصفح، واحتمال على أذى، ونحو ذلك، فالقرآن كله حسن، وإنما الأحسن بالنسبة إلى الآخذ والعامل، قال السيوطي رحمه الله في «الإتقان»[2]: اختلف الناس، هل في القرآن شيء أفضل من شيء؟. فذهب الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله، وبعض الأئمة الأعلام إلى المنع؛ لأن الجميع كلام الله تعالى، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه، وذهب آخرون من المحققين، وهو الحق: كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره، فـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أفضل من ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾؛ لأن فيه فضيلة الذكر، وهو كلام الله، وفضيلة المذكور، وهو اسم ذاته وتوحيده وصفاته الإيجابية والسلبية، وسورة ﴿تَبَّتْ﴾ فيها فضيلة الذكر فقط، وهو كلام الله تعالى، والأخبار الواردة في فضائل القرآن، وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل، وكثرة الثواب في تلاوتها لا تُحصى.

قال الإمام الغزالي في «جوهر القرآن»[3]: كيف يكون بعض الآيات والسور أشرف من بعض، مع أن الكل كلام الله؟ فاعلم نوّرك الله بنور البصيرة، وقلّد صاحب الرسالة عليه السلام. فهو الذي أُنزل عليه القرآن، وقال: «﴿يسٓ ۝١﴾ قلب القرآن، وفاتحة الكتاب أفضل سور القرآن، وآية الكرسي سيدة القرآن و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن». ومن توقف في تعديل الآيات، أول قوله ﷺ، أفضل سورة وأعظم سورة، أراد في الأجر والثواب. لا أن بعض القرآن أفضل من بعض، فالكل في فضل الكلام واحد، والتفاوت في الأجر لا في كلام

---

(١) روح البيان.

(٢) الاتقان في علوم القرآن.

(٣) جواهر القرآن.

الله، من حيث هو كلام الله القديم، القائم بذاته.

واعلم[1]: أن استماع القول عند العارفين، يجري في كل الأشياء. فالحق تعالى، يتكلم بكل لسان من العرش إلى الثرى، ولا يتحقق بحقيقة سماعه، إلا أهل الحقيقة، وعلامة سماعهم انقيادهم إلى كل عمل مقرب إلى الله من جهة التكليف، المتوجه على الأذن، من أمر أو نهي، كسماعه للعلم والذكر والثناء على الحق تعالى، والموعظة الحسنة، والقول الحسن، والتصامم عن سماع الغيبة والبهتان، والسوء من القول، والخوض في آيات الله، والرفث، والجدل، وسماع القيان، وكل محرم وملاهٍ حجرَ الشارع عليه سماعه، فإذا كان كذلك كان مفتوح الأذن إلى الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالمحاسن الجميلة، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه للدين الحق، والاتصاف بمحاسنه؛ أي: هؤلاء الموصوفون بما ذكرهم، الذين وفقهم الله تعالى للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن سماع الحق، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة التي لا تطيع الهوى، ولا يغلبها الوهم، المستحقون للهداية لا غيرهم، فتختار خير الأمرين في دينها ودنياها.

وفي الكلام[2]: دلالة على أن الهداية تحصل بفضل الله تعالى، وقبول النفس لها، يعني: أن لكسب العبد مدخلاً فيها بحسب جري العادة، وفيه إشارة إلى أن أولئك القوم، هم الذين عبروا عن قشور الأشياء، ووصلوا إلى لباب حقائقها.

ثم بيّن أضداد المذكورين أولاً، وسجل عليهم الحرمان من الهداية، فقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ ووجب ﴿عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وقضاؤه ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُنقِذُ﴾ وتخرج ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وهذا بيان لأحوال عبدة الطاغوت بعد بيان أحوال

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

المجتنبين عنها، والهمزة للاستفهام الإنكاري[1] داخلة على محذوف دل عليه السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَنْ﴾ شرطية و﴿حَقَّ﴾ بمعنى: وجب، وثبت، وكلمة العذاب قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، وكررت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار، والفاء فيه فاء الجزاء، ثم وضع موضع الضمير ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد، والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب، بمنزلة الواقع في النار، وأن اجتهاده ﷺ في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار؛ أي: تخليصهم، فإن الإنقاذ: التخليص من الورطة، كما في «المفردات».

والمعنى: أأنت يا محمد مالك أمر الناس، فمن حق وثبت عليه من الكفار عدلاً في علم الله تعالى، كلمة العذاب، فأنت تنقذه من النار بهدايتك ودعوتك؛ أي: لا تقدر أن تهديه، وتنقذه من النار، فالآية جملة واحدة من شرط وجزاء، وفيه[2] إشارة إلى، أن من حق عليه في القسمة الأولى، أن يكون مظهراً لصفات قهره إلى الأبد لا تنفعه شفاعة الشافعين، ولا يُخرجه من جهنم وسخط الله وطرده وبعده جميع الأنبياء والمرسلين، وإنما الشفاعة للمؤمنين بدليل قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

ومعنى الآية[3]: التسلية لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان حريصاً على إيمان قومه، فأعلمه الله تعالى، أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة الله، لا يقدر رسول الله ﷺ أن ينقذه من النار، بأن يجعله مؤمناً، قال عطاء: يريد: أبا لهب، وولده، ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وفي الآية تنزيل لمن يستحق العذاب منزلة من قد صار فيه، وتنزيل دعائه إلى الإيمان، منزلة الإخراج له من عذاب النار.

والمعنى[4]: أي أأنت مالك شؤون الناس ومصرف أمورهم، فمن حقت

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

عليه كلمة العذاب لعدم أهليته للكمال، وتدسيته نفسه بولوغها في الآثام والمعاصي، فأنت تنقذه من النار، كلا ليس أمرهم إليك بل أمرهم إلى ربهم، يجازيهم بحكمته وعدله.

ولما ذكر سبحانه فيما سبق، أن لأهل الشقاوة ظللاً من النار من فوقهم، ومن تحتهم ظللاً، استدرك عنهم من كان من أهل السعادة، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ اليوم باجتنابهم عن الشرك والمعاصي، والزلات، والشهوات، وعبادة الهوى، والركون إلى غير المولى سبحانه، فقد أنقذهم الله تعالى في القسمة الأولى، من أن يحق عليهم كلمة العذاب، وحق لهم أن يكونوا مظهر صفات لطفه، وفضله إلى الأبد، بأن يكون ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾؛ أي: عُلالي متفاوتة بحسب مقاماتهم في التقوى، جمع غرفة، وهي عُلّيّة من البناء، وسمي منازل الجنة غرفاً، كما في «المفردات»، لعلوها وارتفاعها ﴿مِّن فَوۡقِهَا﴾؛ أي: من فوق تلك الغرف ﴿غُرَفٞ﴾؛ أي: عُلالي أخر؛ أي: لهم عُلالي ومنازل بعضها فوق بعض، بيّن[1] أن لهم درجات عالية في جنات النعيم، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ تلك الغرف، الموصوفة بناء المنازل على الأرض الرصانة والإحكام، وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها. وفي «بحر العلوم»: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ بنيت من زبرجد وياقوت ودر، وغير ذلك من الجواهر، وفيه إشارة بأنها مبنية بأيدي أعمال العاملين، وأحوال السالكين ﴿تَجۡرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾؛ أي: من تحت تلك الغرف المنخفضة والمرتفعة ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ الأربعة من غير تفاوت بين العلو والسفل، وفي ذلك كمال لبهجتها، وزيادة لرونقها، وانتصاب ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة قبلها؛ لأن قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ في معنى الوعد؛ أي: وعدهم الله سبحانه تلك الغرف والمنازل وعداً، وجملة قوله: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ مقررة للوعد؛ أي: لا يخلف الله ما وعد الفريقين من الخير والشر، والخلف: نقض العهد، وهو على الله محال، والميعاد بمعنى الوعد.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه، واجتناب محارمه لهم في الجنة غرف؛ أي: طباق فوق طباق، مبنيات محكمات تجري من تحتها الأنهار الأربعة، الجارية في الجنة الماء، واللبن، والخمر، والعسل المصفى، ثم أكد حصول ذلك لهم بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: وعد الله هؤلاء المتقين بذلك، ووعده الحق، فهو لا يخلف ما وعدهم، بل يفي بوعده.

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراؤون الكوكب الدرّي، الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم»، فقالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» متفق عليه. قوله: «الغابر»؛ أي: الباقي في ناحية المشرق أو المغرب.

وفي الآية دقيقة شريفة[2]: وهي أنه تعالى، لم يذكر في آيات الوعيد البتة، مثل هذا التأكيد، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد، أما قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ ليس تصريحاً بجانب الوعيد، بل هو كلام عام، يتناول الوعد والوعيد، فثبت أن ترجيح الوعد حق، خلافاً للمعتزلة.

ولما ذكر سبحانه الآخرة، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها والشوق إليها.. أتبعه بذكر الدنيا، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها، والنفرة منها، فذكر تمثيلاً لها في سرعة زوالها، وقرب اضمحلالها، مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة، وصنعه البديع، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم تعلم يا محمد، أو أيها المخاطب، أو ألم تر أيها الناظر، والاستفهام فيه تقريريّ، والرؤية إما بصرية أو قلبية، والخطاب إما للنبي ﷺ أو عام، وهو أولى؛ أي: ألم تعلم أيها المخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾؛ أي: فسلك ذلك الماء، وأدخله في الأرض؛ أي: أدخل ذلك الماء النازل من السماء في الأرض، وأسكنه فيها، وجعله ﴿يَنَٰبِيعَ﴾؛ أي: عيوناً، وركاياً، ومجاري كائنات ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالعروق في الأجساد. قال الشعبي: كل ماء في الأرض فمنَ السماء نزل. والمعنى[1]: أدخل الماء النازل من السماء في الأرض، وجعله فيها عيوناً جارية، أو جعله في ينابيع؛ أي: في أمكنة ينبع منها الماء، فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض، قال مقاتل: فجعله عيوناً، وركاياً في الأرض. ونصب ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ إما على الظرفية، أو على الحال، أو على أنه مفعول ثان، لجعل المقدر.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾؛ أي: يخرج بذلك الماء من الأرض، وكلمة[2] ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة، أو الزمان ﴿زَرْعًا﴾؛ أي: نباتاً ﴿مُّخْتَلِفًا﴾؛ أي: متنوعاً ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أي: صفاته، وكيفياته من الطعوم والروائح، من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر وأغبر وأسود، من المر والحالي والطيِّب، وغيره، قال في «المفردات»: اللون معروف، وينطوي على الأبيض، والأسود، وغيرهما، وقد يعبر بالألوان عن الأجناس والأنواع؛ أي: مختلفاً أجناسه من بر، وشعير، وأرز، وذرة، أو أنواعه كأنواع الحنطة، والشعير، والذرة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ذلك الزرع النابت بالماء، وييبس، يقال: هاج النبت إذا تم جفافه؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور من منبته. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾؛ أي: فتبصر أيها المخاطب ذلك النبت من يبسه ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته، ونضرته؛ أي: تراه ذا صفرة، والصفرة: لون بين البياض والسواد، كما سيأتي في مبحث اللغة، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾؛ أي: يجعل الله سبحانه ذلك النبت اليابس ﴿حُطَٰمًا﴾؛ أي: فتاتاً متكسراً، كأن لم يغن بالأمس، يقال: تحطم العود إذا تفتت من اليبس، ولكون هذه الحالة من الآثار القوية، عُلّقت بجعل الله تعالى كالإخراج، وعبّر هنا بلفظ ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾، وفي الحديد بلفظ (يكون) موافقةً في كل منهما لما قبله، اهـ من «فتح الرحمٰن».

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾ بالرفع عطفاً على ما قبله، وقرأ أبو بشر: بالنصب بإضمار ﴿أَن﴾، ولا وجه لذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور مفصلاً ﴿لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل، وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال، يتذكرون بذلك، أن حال الحياة الدنيا في سرعة التقضي والإنصرام، كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام، فلا يغترون ببهجتها، ولا يفتنون بفتنها.

قال في «كشف الأسرار»: الإشارة في هذه إلى أن الإنسان يكون طفلاً، ثم شاباً ثم كهلاً، ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر، ثم آخره يحترم، ويقال: إن الزرع ما لم يؤخذ منه الحب الذي هو المقصود منه، لا يكون له قيمة، كذلك الإنسان ما لم يخل من نفسه، لا يكون له قدر ولا قيمة، انتهى.

فالمعنى[2]: إنك أيها الرسول لتشاهد الماء، وقد نزل من السماء، فجرى عيوناً في الأرض، فسُقيت به أنواع مختلفة، من النبات من بر إلى شعير إلى أرز إلى نحو ذلك، ثم نضجت وجفت وصارت مصفرة بعد خضرة ونضرة، ثم صارت فتاتاً متكسرةً، فما أشبه حال الدنيا بحالها، فهي سريعة التقضي، وشيكة الزوال، فليعتبر بذلك أولو الحجا، وليعلموا أن الدنيا كسوق قام ثم انفض، ولا يغتروا ببهجتها، ولا يفتنوا بزخرفها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

ثم لما ذكر سبحانه، أن في ذلك لذكرى لأولي الألباب، ذكر شرح الصدر للإسلام؛ لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به، فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ والهمزة[3] فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف دل عليه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَنْ﴾ شرطية، جوابها قوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أو موصولة خبرها محذوف، دل عليه قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ﴾. والتقدير: أكل الناس سواء، فمن وسّع الله صدره للإسلام فقبله، واهتدى بهديه ﴿فَهُوَ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره، فصار في ظلمات الضلالة، وبليات الجهالة، والمراد بشرح الصدر: خلقه متسع الصدر مستعداً للإسلام، فبقي على الفطرة الأصلية، ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القادمة فيها، فهو بسبب ذلك، مستقر على نور عظيم من ربه، والمراد بالنور: اللطف الإلهي الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية، والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق؛ أي: كمن قسا قلبه، وحُرِّج صدره، بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره، واستولت عليه ظلمات الغي، والضلالة، فأعرض عن تلك الآيات بالكلية، حتى لا يتذكر بها، ولا يغتنمها كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾. يعني ليس من هو على نور، كمن هو على ظلمة، فلا يستويان كما لا يستوي النور والظلمة، والعلم والجهل.

واعلم[1]: أنه لا نور ولا سعادة لمسلم، إلا بالعلم والمعرفة، ولكل واحد من المؤمنين معرفة تختص به، وإنما تتفاوت درجاتهم بحسب تفاوت معارفهم، والإيمان والمعارف أنوار، فمنهم من يضيء نوره جميع الجهات، ومنهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه، فإيمان آحاد العوام نوره كنور الشمع، وبعضهم نوره كنور السراج، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر، والنجوم على تفاوتها، وأما الأنبياء فنور إيمانهم كنور الشمس وأزيد، فكما ينكشف في نورها كل الآفاق مع اتساعها، ولا ينكشف في نور الشمع إلا زاوية ضيقة من البيت، كذلك يتفاوت انشراح الصدور بالمعارف، وانكشاف سعة الملكوت لقلوب المؤمنين، ولهذا جاء في الحديث: أنه يقال يوم القيامة: أخرجوا من النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ونصف مثقال، وربع مثقال، ففيه تنبيه على تفاوت درجات الإيمان،

---

(١) روح البيان.

وبقدره تظهر الأنوار يوم القيامة في المواقف، خصوصاً عند المرور على الصراط.

والمعنى[1]: أي أفمن دخل نور الإسلام قلبه، وانشرح صدره له، لما رأى فيه من البدائع والعجائب، المهيئة للحكمة الممهدة لقبول الحق، والموصلة إلى الرشاد، كمن طبع على قلبه لغفلته وجهالته، وقد روي: أن علامة ذلك الانشراح الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل حلول الموت.

والخلاصة: هل يستوي من أنار الله بصيرته، ومن هو قاسي القلب بعيد عن الحق؟. ونحو الآية قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، قال: تلا النبي ﷺ هذه الآية، فقلنا: يا نبي الله، كيف انشراح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب، انشرح وانفسح»، قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». وأخرج الترمذي عن ابن عمر، أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع»، فقالوا: ما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

ثم ذكر ما يدل على المحذوف الذي قدّر في الجملة السابقة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ﴾ شديد، وهلاك عظيم، وخسران مبين، كائن وثابت ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾؛ أي: للذين قست، وغلظت قلوبهم ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: من أجل ذكره الذي حقه أن تنشرح له الصدور، وتطمئن به القلوب؛ أي: إذا ذكر الله تعالى عندهم، وآياته اشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى:

---

(١) المراغي.

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾.

فإن قلت[1]: كيف يقسو القلب عن ذكر الله، وهو سبب لحصول النور والهداية؟.

قلت: إنهم كلما تُلي ذكر الله على الذين يكذبون به.. قست قلوبهم عن الإيمان به، قيل: إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر، كدرة العنصر بعيدة عن قبول الحق، فإن سماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة، وكدورة، كحر الشمس، يلين الشمع ويعقد الملح، فكذلك القرآن يلين المؤمنين عند سماعه، ولا يزيد الكافرين إلا قسوةً، قال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة، وقرىء ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فويل للذين غلظت قلوبهم عن قبول ذكر الله، وقال الزجاج، والفراء: ﴿مِنْ﴾ في القراءة المشهورة بمعنى، عن أي: عن ذكر الله، يقال: أتخمت عن طعام: أكلته، ومن طعام أكلته، وهذا الأخير أوضح، وأولى، كما قاله الشوكاني، وقال الله سبحانه وتعالى، لموسى عليه السلام في مناجاته: يا موسى لا تُطل في الدنيا أملك فيقسو قلبك، والقلب القاسي مني بعيد، وكن خلق الثياب، جديد القلب، تخف على أهل الأرض، وتُعرف في أهل السماء، وفي الحديث: تورث القسوة في القلب ثلاث خصال حب الطعام، وحب النوم، وحب الراحة. وفي الحديث أيضاً: «أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً، وأبغضكم إلى الله كل أكول شروب نؤوم، كلوا واشربوا في أنصاف البطون، فإنه جزء من النبوة».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء الموصوفون، بما ذكر من قساوة القلب ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ بعيد عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر كونه ضلالاً للناظر بأدنى نظر.

واعلم[2]: أنّ الآية عامة فيمن شرح صدره للإسلام، بخلق الإيمان فيه، وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأبي لهب، وولده، فحمزة وعلي ممن شرح الله صدرهما للإسلام، وأبو لهب

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

وولده من الذين قست قلوبهم، فالرحمة للمشروح صدره، والغضب للقاسي قلبه.

ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز، فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم الذي لا نهاية لحسنه، ولا غاية لجمال نظمه وملاحة معانيه، وهو أحسن مما نُزل على جميع الأنبياء والمرسلين، وأكمله وأكثره أحكاماً، وأيضاً أحسن الحديث لفصاحته وإعجازه، وأيضاً لأنه كلام الله، وهو قديم، وكلام غيره مخلوق محدث، وأيضاً لكونه صدقاً كله إلى غير ذلك، سمي حديثاً لأن النبي ﷺ كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما ينزل عليه منه، فلا يدل على حدوث القرآن، فإن الحديث في عرف العامة: الخبر، والكلام. والمعنى: إن فيه مندوحةً عن سائر الأحاديث، وعبر بنزل دون أنزل إشعاراً بأنه متكرر النزول بحسب الوقائع.

﴿كِتَٰبًا﴾ بدل من ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، ويحتمل أن يكون حالاً منه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ معانيه في الصحة، والحسن، والإحكام، والابتناء على الحق والصدق، واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعاش، وتناسب ألفاظه في الفصاحة، وتجاوب نظمه في الإعجاز، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة، وقال قتادة: يشبه بعضه بعضاً في الآي، والحروف، وقيل: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه. ﴿مَّثَانِيَ﴾ صفة أخرى لكتاباً؛ أي: تثنى فيه القصص، وتتكرر فيه المواعظُ والأحكام، وقيل: يثنى في التلاوة، فلا يمل سامعه، ولا يسأم قارئه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَّثَانِيَ﴾ بفتح الياء، وهشام، وابن عامر، وأبو بشر بسكون الياء، فاحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف، واحتمل أن يكون منصوباً، وسكنت الياء على قول من سكن الياء، في كل الأحوال، لانكسار ما قبلها استثقالاً للحركة عليها، ووصف[2] الواحد، وهو الكتاب بالجمع، وهو المثاني باعتبار تفاصيله، كما يقال: القرآن سور وآيات، والإنسان عروق وعظام وأعصاب، وهو جمع مثنى بضم الميم وتشديد النون، بمعنى مردد ومكرر، لما

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ثني من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره، ونواهيه، ووعده، ووعيده، ومواعظه، أو لأنه ثني في التلاوة فلا يمل، كما جاء في نعته: لا يخلق على كثرة التردد؛ أي: لا يزول رونقه، ولذة قراءته، واستماعه من كثرة ترداده على ألسنة التالين، وتكراره على آذان المستمعين، وأذهان المتفكرين، على خلاف ما عليه كلام المخلوق، وفي القصيدة البردية:

فَلا تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَىٰ عَجَائِبُهَا وَلاَ تُسَامُ عَلَىٰ ٱلإِكْثَارِ بِٱلسَّأَمِ

أي: لا تقابل آيات القرآن مع الإكثار بالملال.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾؛ أي: تتقبض، وتتجمع؛ أي: تضطرب، وترتعد ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من استماعه ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ ويخافون ﴿رَبَّهُمْ﴾؛ أي: عذابه عند استماع وعيده، كلام مستأنف، مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه، بعد بيان أوصافه في نفسه، وتقرير كونه أحسن الحديث، يقال: اقشعر جلده: أخذته قشعريرة؛ أي: رعدة، كما في «القاموس». والجلد: قشر البدن كما في «المفردات». وقال بعضهم: أصل الاقشعرار تغير، كالرعدة يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف. وفي «الإرشاد»: الاقشعرار: التقبض. يقال: اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً، وتركيبه من القشع، وهو الأديم اليابس، قد ضم إليه الراء ليكون باعثاً ودالاً على معنى زاد، يقال: اقشعر جلده ووقف شعره إذا عرض له خوف شديد، من منكر حائل وهمه بغتةً.

والمراد: إما بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير، أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق، وهو الظاهر، إذ هو موجود عند الخشية محسوس يدركه الإنسان من نفسه، وهو يحصل من التأثر القلبي فلا ينكر.

والمعنى: إنهم إذا سمعوا بالقرآن، وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية، تقشعر منها جلودهم؛ أي: يعلوها قشعريرة ورعدة.

﴿ثُمَّ﴾ إذا ذكروا رحمة الله سبحانه، وعموم مغفرته عند سماع وعده ﴿تَلِينُ

﴿جُلُودُهُمْ﴾؛ أي: لانت أبدانهم ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: نفوسهم ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، واللين: ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخلق ولغيره من المعاني، والجلود: عبارة عن الأبدان والقلوب عن النفوس؛ أي: ثم إذا ذكروا رحمة الله، وعموم مغفرته لانت أبدانهم، واطمأنت قلوبهم إلى ذكر الله ووعده للمؤمنين، وزال عنها ما كان بها من الخشية، والقشعريرة، بسبب سماع وعيده، بأن تبدلت خشيتهم رجاء، ورهبتهم رغبة، وتعدية اللين بـ﴿إلى﴾ لتضمنه معنى السكون والاطمئنان، كأنه قيل: تسكن وتطمئن إلى ذكر الله، لينة غير منقبضة، راجية غير خاشعة، أو تلين ساكنة مطمئنة إلى ذكر الله، على أن المتضمن بالكسر يقع حالاً من المتضمن بالفتح، وإنما أطلق ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يصرح بالرحمة إيذاناً بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى.

فإن قلت[1]: لِمَ ذكرت الجلود وحدها أولاً، ثم قرنت بها القلوب ثانياً؟.

قلت: لتقدم الخشية التي هي من عوارض القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد، وتخشى قلوبهم من أول وهلة، فإذا ذكروا الله، ومبنى أمره على الرأفة والرحمة، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، والقشعريرة ليناً في جلودهم، فالجملتان إشارة إلى الخوف والرجاء أو القبض والبسط.

والمعنى[2]: أي الله أنزل أحسن الحديث قرآناً كريماً يشبه بعضه بعضاً، في الصدق والبيان والوعظ والحكمة، كما تتشابه أجزاء الماء والهواء، وأجزاء النبات والزهر، تثني وتردد قصصه وأنباءه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده إذا تليت منه آيات العذاب اقشعرت الجلود، ووجلت القلوب، وإذا تليت آيات الرحمة والوعد لانت الجلود، وسكنت القلوب، واطمأنت النفوس، قال الزجاج: إذا ذكرت آيات العذاب، اقشعرت جلود الخائفين لله، وقال العباس بن عبد المطلب: قال النبي ﷺ: «من اقشعر جلده من خشية الله، تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»، وقال ابن عمر: وقد رأى ساقطاً من

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

سماع القرآن فقال: إنا لنخشى الله، وما نسقط هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم، وقالت أسماء بنت أبي بكر: كان أصحاب رسول الله ﷺ تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن، قيل لها: إن قوماً اليوم إذا سمعوا القرآن، خر أحدهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقال ابن سيرين: بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة القرآن، أن يُجعل أحدهم على حائطٍ باسطاً رجليه، ثم يُقرأ عليه القرآن كله، فإن رمى بنفسه فهو صادق والإشارة في قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الكتاب الموصوف بتلك الصفات، و﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ خبره؛ أي: ذلك الكتاب الذي شُرح أحواله هدى الله سبحانه ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الكتاب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه من المؤمنين المتقين كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لصرف مقدوره إلى الاهتداء، بتأمله فيما في تضاعيفه من الشواهد الخفية، ودلائل كونه من عند الله تعالى، أو إلى ذينك الوصفين من الاقشعرار واللين؛ أي: ذلك المذكور أثر هداية الله تعالى؛ أي: ذلك الخوف من عذاب الله، والرجاء في رحمته علامة هداية الله، وتوفيقه للإيمان.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخلق فيه الضلالة لصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضه عما يرشده إلى الحق بالكلية، وعدم تأثره بوعده ووعيده أصلاً ﴿فَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الضال ﴿مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق، ويخلصه من ورطة الضلال. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بأن يكله إلى نفسه وعقله، ويحرمه من الإيمان بالأنبياء ومتابعتهم، وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ بغير ياء. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بالياء.

والهمزة[1] في قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَنْ﴾ موصولة، والخبر محذوف، والتقدير: أكل الناس سواء، فمن شأنه وهو الكافر أن يتقي نفسه، ويحفظها بوجهه الذي هو أشرف أعضائه. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان.

العذاب السيء الشديد ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لكون يده التي بها كان في الدنيا يتقي المكاره، والمخاوف مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه؛ أي: لا يستويان، فإن الأول في النار، والثاني في الجنة، قال الزجاج: المعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب، كمن يدخل الجنة، قال عطاء، وابن زيد: يُرمى به مكتوفاً في النار، فأول شيء تمس النار منه وجهه، وقال مجاهد: يجر على وجهه في النار، وقال الأخفش: المعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب أفضل أمّن سعد.

ثم ذكر ما ينال الكفار والعاصين، من الإهانة في ذلك اليوم. فقال: ﴿وَقِيلَ﴾ تهكماً واستهزاءً ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: تقول الخزنة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي: ﴿ذُوقُواْ﴾؛ أي: باشروا ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: وبال ما كسبت في الدنيا، ودسيتم به أنفسكم، حتى أوقعتموها في الهاوية النار الحامية، وجملة ﴿قِيلَ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَتَّقِي﴾، وصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والإشعار بعلة الأمر في قوله: ﴿ذُوقُواْ﴾.

وعبارة «المراح» هنا: وتقدير[1] الكلام: أكل الناس سواء، فمن يجعل وجهه قائماً مقام الدرقة، يقي به نفسه العذاب الشديد يوم القيامة، وتقول لهم خزنة النار: ذوقوا عذاب ما كنتم تكسبونه في الدنيا، كمن هو آمن من العذاب؛ أي: لا يستويان.

قيل[2]: يلقى الكافر في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة من كبريت، مثل الجبل العظيم، فتشتعل النار فيها وهي في عنقه، فحرها على وجهه، لا يطيق دفعها عنه، للأغلال التي في يديه وعنقه، قيل: نزلت هذه الآية في أبي جهل، وأضرابه.

ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) المراح. (٢) المراح.

﴿قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أي: من قبل الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ، من الأمم السابقة؛ أي: كذبوا أنبياءهم كما كذبك قومك ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ المقدر لكل أمة منهم ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم إتيان العذاب والشر، منها بيناهم آمنون رافهون، إذ فوجئوا من مأمنهم. فمعنى: من حيث لا يشعرون آتاهم العذاب، وهم آمنون في أنفسهم غافلون عن العذاب، وقيل: معناه: لا يعرفون له مدفعاً ولا مرداً. وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: أتاهم العذاب في صورة الصحة والنعمة، والسرور وهم لا يشعرون أنه العذاب، وأشد العذاب ما يكون غير متوقع ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أذاق الله سبحانه، الذين من قبلهم ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾؛ أي: الذل والهوان والصغار، يعني: أحسوا به إحساس الذائق المطعوم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بيان لمكان إذاقة الخزي، وذلك الخزي كالمسخ، والخسف، والغرق، والقتل، والسبي، والإجلاء، ونحو ذلك من فنون النكال، وهو العذاب الأدنى ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المعد لهم ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ وأشد وأنكى من عذاب الدنيا، لعظمه ودوامه ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: لو كانوا ممن يعلم الأشياء، ويتفكر فيها، ويعمل بمقتضى علمه، لعلموا[1] ذلك، واعتبروا به، وما عصوا الله ورسوله، وخلصوا أنفسهم من العذاب، فعلى العاقل أن يرجع إلى ربه بالتوبة والإنابة، كي يتخلص من عذاب الدنيا والآخرة، وعبارة «أبي السعود»: لو كانوا يصدقون، ويوقنون بعذاب الآخرة، ما كذبوا رسلهم في الدنيا، اهـ. وعن الشبلي ـ رحمه الله ـ قال: قرأت أربعة آلاف حديث، ثم اخترت منها واحداً، وعملت به، وخليت ما سواه، لأني تأملته فوجدت خلاصي ونجاتي فيه، وكان علم الأولين والآخرين مندرجاً فيه، وذلك أن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: «اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها»، فإذا كان الصبر على النار غير ممكن للإنسان الضعيف.. فليسلك طريق النجاة، المبعدة عن النار، الموصلة إلى الجنات، وأعلى الدرجات.

(١) روح البيان.

ثم بيَّن أن فيما قصه القرآن عليهم من الأمثال، والمواعظ، عبرةً لهم لو كانوا يعقلون، فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد بيّنا، وأوضحنا ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لأهل مكة، والمراد[1] بالناس: أهل مكة، كما في «الوسيط»، ويُعضّده ما قاله بعضهم: من أن الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في كل ما وقع في القرآن لأهل مكة، والظاهر: التعميم لهم، ولمن جاء بعدهم إلى يوم القيامة؛ أي: أوضحنا وبيّنا لهم ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الكريم الحكيم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: كل صفة غريبة عجيبة، هي في غرابتها وحسنها كالمثل السائر، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كقصة الأولين وقصة المبعوثين يوم القيامة، وغير ذلك. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ به، ويتعظون وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: نزل بلغة العرب، حال مؤكدة من ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ على أن مدار التأكيد هو الوصف؛ أي: المؤكد في الحقيقة هو الوصف، ومفهومه. وبعضهم جعل القرآن توطئة للحال التي هي عربياً، والحال الموطئة اسم جامد، موصوف بصفة هي الحال في الحقيقة، ويجوز أن ينتصب على المدح؛ أي: أريد بهذا القرآن قرآناً عربياً ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾؛ أي: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تناقض، ولا عيب، ولا خلل، والفرق[2] بينه بالفتح وبينه بالكسر: أن كل ما ينتصب كالحائط، والجدار، والعود فهو عوج بفتح العين، وكل ما كان في المعاني والأعيان الغير المنتصبة فهو بكسرها، ولذا قال أهل التفسير: لم يقل مستقيماً أو غير معوج مع أنه أخصر لفائدتين:

إحداهما: نفي أن يكون فيه عوج ما بوجه من الوجوه لما قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾.

والثانية: أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان، وقيل: غير ذي لبس، وقيل: غير ذي لحن، وقيل: غير ذي شك. كما قال الشاعر:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِيْنٌ غَيْرُ ذِيْ عِوَجٍ ... مِنَ ٱلإِلٰهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوْبِ

---

(١) روح البيان.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غير ذي عوج؛ أي: غير مخلوق، وذلك لأن كونه مقروءاً بالألسنة، ومسموعاً بالآذان، ومكتوباً في الأوراق، ومحفوظاً في الصدور لا يقتضي مخلوقيته، إذ المراد: كلام الله القديم القائم بذاته. وفي حقائق البقلي: قرآناً قديماً ظهر من الحق على لسان حبيبه، لا يتغير بتغير الزمان، ولا يرهقه غبار الحدثان، لا تعوجه الحروف، ولا تحيط به الظروف، وفي «بحر الحقائق»: صراطاً مستقيماً إلى حضرتنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي يتقوا بالقرآن عما نهاهم الله تعالى، علة أخرى مترتبة على الأولى، فإن المصلحة في ضرب الأمثال هو التذكر والاتعاظ بها أولاً، ثم تحصيل التقوى، والمعنى: لعلهم يعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على حدود الله تعالى في القرآن، والاعتبار بأمثاله.

والمعنى: وعزتي وجلالي، قد بينا[1] لهؤلاء المشركين بالله، أمثال القرون الخالية، تخويفاً لهم، وتحذيراً ليتعظوا، ويزدجروا، ويقلعوا عما هم عليه، مقيمون من الكفر بربهم، بكلام عربي لا لبس فيه، ولا اختلاف ليفهموا ما فيه من مواعظ، ويعتبروا بما فيه من حكم، فيتقوا ما حذرهم فيه من بأسه وسطوته، وينيبوا إليه، ويفردوه بالعبادة، ويتبرؤوا من الآلهة والأنداد.

ثم أورد سبحانه مثلاً من تلك الأمثال، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾؛ أي: بيَّن الله تمثيل حالةٍ عجيبة، بأخرى مثلها، ثم بيَّن المثل، فقال: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ والمراد[2] بضرب المثل هنا: تطبيق حالةٍ عجيبة بأخرى مثلها، كما مر في أوائل سورة يّس. و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثان لضرب، و﴿رَّجُلًا﴾ مفعوله الأول، أخر عن الثاني للتشويق إليه، وليتصل به ما هو من تتمته التي هي العمدة في التمثيل. و﴿فيه﴾ خبر مقدم لقوله: ﴿شُرَكَآءُ﴾، والجملة في حيز النصب على الوصفية لرجلاً، ومعنى ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ أي: مختلفون عسروا الأخلاق سيئوها. والمعنى: جعل الله تعالى للمشرك مثلاً، حسبما يقود إليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

عبوديته، عبداً يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه، ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحسره، وتوزع قلبه. ﴿وَرَجُلًا﴾؛ أي: وجعل للموحد مثلاً رجلاً ﴿سَلَمًا﴾؛ أي: خالصاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ فردٍ وسيدٍ واحدٍ، ليس لغيره عليه سبيل أصلاً، فالتنكير في كل منهما للإفراد؛ أي: فرداً من الأشخاص لفرد من الأشخاص، والسلم: بفتحتين وكقتل وفسق مصدر من سلم له كذا؛ أي: خلص له واختص به كما سيأتي، وُصف به مبالغةً كرجل عدل؛ أي: سالماً أو ذُو سلامة واختصاص به، والرجل ذكر من بني آدم جاوز حد الصغر، وتخصيص الرجل لأنه أنطق، وأفطن وأعرف لما يجرى عليه من الضر والنفع، لأن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك.

والاستفهامُ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ للإنكار؛ أي: ما يستوي الرجلان المذكوران المشترك والمختص ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: من جهة الصفة والحال، نصب على التمييز، والوحدة حيث لم يقل: مثلين لبيان الجنس وإرادته، فيُعم؛ أي: هل يستوي حالهما وصفاتهما، يعني: لا يستويان.

والحاصل: أن الكافر كالعبد الأول، في كونه حيران متفرق البال؛ لأنه يعبد آلهة مختلفة؛ أي: أصناماً لا يجيء منها خير، بل يكون سبباً لوقوعه في أسفل سافلين، كما أن العبد يخدم ملاكاً متعاسرين، مختلفي الأهوية، لا يصل إليه منهم منفعة أصلاً. والمؤمن كالعبد الثاني، في انضباط أحواله واجتماع باله، حيث يعبد رباً واحداً يوصله إلى أعلى عليين، كما أن العبد يخدم سيداً واحداً يرضى عنه، ويصل إليه بالعطاء الجزيل.

وقرأ عبد الله، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والزهري، والحسن بخلاف عنه، والجحدري، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب[1]: ﴿سالما﴾ بالألف وكسر اللام، اسم فاعل من سلم؛ أي: خالصاً عن الشركة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ الأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو رجاء، وطلحة، والحسن: بخلاف عنه، وباقي السبعة ﴿سلما﴾ بفتح السين وسكون

---

(١) البحر المحيط.

اللام، وهذه أيضاً مصدر وُصف به، مبالغة في الخلوص من الشركة، وقُرىء ﴿ورجل سالم﴾ برفعهما، وقال الزمخشري؛ أي: وهناك رجل سالم لرجل، انتهى. فجعل الخبر ﴿هناك﴾، وقُرىء ﴿هل يستويان مثلين﴾، فطابق حال الرجلين، ذكره أبو حيان.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حيث خصمهم، كما قال مقاتل؛ أي: قطعهم بالخصومة، وغلبهم، وأظهر الحجة عليهم، ببيان عدم الاستواء بطريق ضرب المثل، وقال الشوكاني: وجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقرير لما قبلها، من نفي الاستواء، وللإيذان للموحدين، بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة، المستحقة لتخصيص الحمد به.

ثم أضرب سبحانه، عن نفي الاستواء، المفهوم من الاستفهام الإنكاري، إلى بيان أن أكثر الناس، وهم المشركون، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك، والضلال من فرط جهلهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ وهم المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ عدم استوائهما مع ظهوره، ووضوحه لفرط جهالتهم، أو لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره، فيشركوا به سواه.

وعبارة «المراح» في معنى الآية: أي[1]: واضرب يا أشرف الرسل لقومك مثلاً، وقل لهم: ما تقولون في رجل مملوك، قد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع، فكل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه في حوائجهم، وهو متحير في أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مهم إليهم، فكل واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يُطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته، فهو بهذا السبب يلقى منهم التعب العظيم، وفي رجل آخر له مخدوم واحد، يخدمه على سبيل الإخلاص، وذلك السيد يعينه على حاجاته، فإن أطاعه عرف له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأي هذين العبدين أحسن حالاً، وأحمد شأناً، وأقل تعباً؟ وهذا مثل ضربه الله للكافر، الذي يعبد

---

(۱) المراح.

آلهةً شتى، والمؤمن الذي يعبد الله وحده، انتهى. وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؛ أي: هل تستوي صفتاهما، وحالاهما؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد، وثبت أن لا إله إلا هو ثبت أن الحمد لله لا لغيره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس لا يعلمون اختصاص الحمد بالله، فيشركوا به غيره.

وفي الآية[1]: إشارة إلى بيان عدم الاستواء، بين الذي يتجاذبه شغل الدنيا، وشغل العيال، وغير ذلك من الأشياء المختلفة، والخواطر المتفرقة، وبين الذي هو خالص لله، ليس للخلق فيه نصيب، ولا للدنيا نصيب. وهو من الآخرة غريب، وإلى الله قريب منيب.

والحاصل: أن الراغب في الدنيا شغلته أمور مختلفة، فلا يتفرغ لعبادة ربه، وإذا كان في العبادة يكون قلبه مشغولاً بالدنيا، والزاهد قد تفرّغ من جميع أشغال الدنيا، فهو يعبد ربه خوفاً وطمعاً، والعارف قد تفرغ من الكونين، فهو يعبد ربه شوقاً إلى لقائه، فلا استواء بين البطّالين والطالبين، وبين المنقطعين والواصلين الحمد لله، والثناء له خاصةً. فعلى العاقل الرجوع إلى الله، والعمل بما في القرآن، والاعتبار بأمثاله حتى يكون من الذين يعلمون حقيقة الحال.

ولما لم يلتفتوا إلى الحق، ولم ينتفعوا بضرب المثل.. أخبر سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله تعالى، وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه تعالى، وهو الحاكم العادل، وهناك يتميز المحق من المبطل، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿مَيِّتٌ﴾؛ أي: ستموت لا محالة ﴿وَإِنَّهُم﴾؛ أي: وكفار مكة الذين يتربصون بك الموت ﴿مَّيِّتُونَ﴾؛ أي: سيموتون؛ أي: إنكم جميعاً بصدد الموت، والموت يعمكم، ولا معنى للتربص والشماتة، بل هو عين الجهالة.

وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بالتشديد، وهي تُشعر بالثبوت واللزوم كالحي، وقرأ ابن محيصن، وابن الزبير، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، واليماني، وابن غوث، وابن أبي عبلة ﴿مائت ومائتون﴾. وهي تُشعر

---

(١) روح البيان.

بحدوث الصفة. قال الفراء والكسائي: الميت بالتشديد: من لم يمت وسيموت، والميت بالتخفيف: من قد مات وفارقته الروح، قال قتادة: نُعيت إلى النبي ﷺ نفسه، ونُعيت إليهم أنفسهم. ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه ﷺ سيموت، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت، مع كونه توطئةً وتمهيداً لما بعده، حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾؛ أي: إنك، وإياهم على تغليب ضمير المخاطب، على ضمير الغائب. وأكد بـ﴿إن﴾ وإن كان الاختصام مما لا يُنكر، لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في إنكار الاختصام لانهماكهم في الغفلة عنه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: عند مالك أمركم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: تخاصمهم يا محمد، فتحتج أنت عليهم، بأنك بلغتهم ما أرسلت به إليهم من الأحكام والمواعظ، واجتهدت في الدعوة إلى الحق، حق الاجتهاد، وهم قد لجوا في المكابرة والعناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته، وبما لا يدفع عنهم لوماً ولا تقريعاً، ويقول التابعون للرؤساء: أطعناكم فأضللتمونا، ويقول السادة: أغوانا الشيطان، وآباؤنا الأولون، وفي «بحر العلوم»: الوجه الوجيه: أن يراد الاختصام العام، وأن يخاصم الناس بعضهم بعضاً، مؤمناً أو كافراً، فيما جرى بينهم في الدنيا بدلائل:

منها: قوله ﷺ: «أول من يختصم يوم القيامة الرجل والمرأة، والله ما يتكلم لسانها، ولكن يداها تشهدان، ورجلاها عليها بما كانت تعيّب لزوجها، وتشهد عليه يداه ورجلاه بما كان يؤذيها».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه، من عرض أو مال، فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار، ولا درهم، إن كان له عمل صالح، أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات، أُخذ من سيئات صاحبه فحُمّلت عليه»، رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال رسول الله ﷺ: «إن المفلس، من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحت

عليه، ثم طُرح في النار»، أخرجه مسلم.

فإن قلت: قال في آيةٍ أخرى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، وبينهما معارضة.

قلت: إن في يوم القيامة ساعات كثيرة، وأحوالها مختلفة، مرة يختصمون، ومرة لا يختصمون، كما أنه قال: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾. يعني: في حال يتساءلون، وفي حال لا يتساءلون، وكما أنه قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾، وفي موضع آخر ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾، ونحو هذا كثير في القرآن.

فائدة: قال ابن مسعود رضي الله عنه: لما دنا فراق رسول الله ﷺ، جمعنا في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها ثم نظر إلينا، فدمعت عيناه، وقال: «مرحباً بكم، حياكم الله، رحمكم الله، أوصيكم بتقوى الله وطاعته، قد دنا الفراق، وحان المنقلب إلى الله تعالى، وإلى سدرة المنتهى، وجنة المأوى، يغسلني رجال أهل بيتي، ويكفنوني في ثيابي هذه إن شاؤوا، أو في حلة يمانية، فإذا غسلتموني وكفنتموني، ضعوني على سريري في بيتي هذا، على شفير لحدي، ثم اخرجوا عني ساعة، فأول من يصلي عليّ، حبيبي جبرائيل، ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنودهم، ثم ادخلوا عليّ فوجاً فوجاً، فصلوا عليّ»، فلما سمعوا فراقه صاحوا وبكوا، وقالوا: يا رسول الله، أنت رسول ربنا، وشمع جمعنا، وبرهان أمرنا، إذا ذهبت عنا فإلى من نرجع في أمورنا؟ قال: «تركتكم على المحجة البيضاء»؛ أي: على الطريق الواضح «ليلها كنهارها»؛ أي: في الوضوح «ولا يزيغ بعدها إلا هالك، وتركت لكم واعظين، ناطقاً وصامتاً، فالناطق القرآن، والصامت الموت، فإذا أشكل عليكم أمر، فارجعوا إلى القرآن والسنّة، وإذا قست قلوبكم، فليّنوها بالاعتبار في أحوال الموت»، فمرض رسول الله ﷺ من يومه ذلك، من صداع عرض له، وكان مريضاً ثمانية عشر يوماً، يعوده الناس، ثم مات يوم الإثنين، ما بعثه الله فيه، فغسله علي رضي الله عنه وصب الماء ـ أي: ماء بئر غرس ـ الفضل بن عباس رضي الله عنهما، ودفنوه ليلة الأربعاء وسط الليل، وقيل: ليلة الثلاثاء في حجرة

عائشة رضي الله عنها. وفي الحديث: «من أصيب بمصيبة، فليذكر مصيبته بي، فإنها أفظع المصائب». وأنشد بعضهم:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ ... وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

وَإِذَا ٱعْتَرَتْكَ وَسَاوِسٌ بِمُصِيبَةٍ ... فَٱذْكُرْ مُصَابَكَ بِٱلنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

الإعراب

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱجْتَنَبُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَعْبُدُوهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، منصوب بأن المصدرية، والجملة في تأويل مصدر، منصوب على أنه بدل اشتمال، من ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾، تقديره: والذين اجتنبوا الطاغوت عبادتها. ﴿وَأَنَابُوٓا۟﴾: فعل، وفاعل، معطوف على الصلة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أنابوا﴾، ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع، خبر المبتدأ أعني: الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَبَشِّرْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت يا محمد ثبوت البشرى لهم، وأردت تبليغ البشارة إليهم.. فأقول لك: بشر عبادي؛ أي: بلّغ بشارتي إليهم. ﴿بشر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عِبَادِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه، فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، اتباعاً لرسم المصحف، وهو مضاف، والياء المحذوفة مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب صفة لـ﴿عِبَادِ﴾. ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به صلة الموصول، ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿يتبعون

أحسنه﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به معطوف على الصلة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل، ومفعول به، وفاعل، والجملة صلة الموصول والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمْ﴾: ضمير فصل، ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنت مالك أمرهم، فمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، والأظهر في ﴿مَنْ﴾ كونها شرطية في محل رفع بالابتداء، والخبر الجواب الآتي، أو فعل الشرط، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿حَقَّ﴾: فعل ماض، في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بحق، ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾: فاعل، وذكّر الفعل لوجود الفاصل، أو لكون الفاعل مؤنثاً مجازياً، ﴿أَفَأَنتَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، كررت لتأكيد الأولى، لطول الفصل، والفاء رابطة لجواب الشرط وجوباً، لكون الجواب جملة اسمية، ﴿أَنتَ﴾ مبتدأ، ﴿تُنقِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية، معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والآية جملة واحدة، مركبة من شرط وجواب، معطوفة على جملة محذوفة. ﴿مَن﴾: من اسم موصول في محل النصب، مفعول تنقذ، ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور صلة من الموصولة، وهو إظهار في مقام الإضمار، والأصل: فأنت تنقذه من النار. ﴿لَٰكِنِ﴾: حرف عطف وإضراب، بمعنى بل، وليست للاستدراك؛ لأنه لم يسبقها نفي، فالكلام إضراب

من موضوع إلى موضوع مغاير للأول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾: فعل، وفاعل، صلة الموصول، ﴿رَبَّهُمْ﴾: مفعول به، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿غُرَفٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الرفع خبر عن الموصول، وجملة الموصول، معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿غُرَفٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾: صفة غرف، والجملة في محل الرفع، صفة لـ﴿غُرَفٌ﴾ الأولى، ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾: صفة لـ﴿غُرَفٌ﴾ الثانية، وجملة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: صفة ثانية لـ﴿غُرَفٌ﴾ أو حال من ﴿غُرَفٌ﴾. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لفعل محذوف، دل عليه قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾؛ لأنه في معنى: وعدهم الله ذلك، والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتأكيد ما قبلها. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُخْلِفُ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من لفظ الجلالة، لوجود شرط مجيء الحال، من المضاف إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة فيه للاستفهام التقريري، ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، أو أي مخاطب، والجملة مستأنفة مسوقة لتمثيل الحياة الدنيا، وسرعة زوالها. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي تر، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿سلكه﴾: فعل، وفاعل يعود على الله، ومفعول به، معطوف على أنزل، ﴿يَنَـٰبِيعَ﴾: حال من مفعول سلكه. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿سلك﴾ أو منصوب بنزع الخافض، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: صفة له، على أنه اسم مكان. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿يُخْرِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على سلكه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُخْرِجُ﴾، ﴿زَرْعًا﴾: مفعول به، ﴿مُّخْتَلِفًا﴾ صفة ﴿زَرْعًا﴾، ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾: فاعل، مختلفاً، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿يَهِيجُ﴾: فعل مضارع، وفاعل

مستتر يعود على زرع، معطوف على ﴿يُخْرِجُ﴾، ﴿فَتَرَىٰهُ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿تراه﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يَهِيجُ﴾، ﴿مُصْفَرًّا﴾: حال من الضمير، لأن الرؤية بصرية. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول، ﴿حُطَٰمًا﴾: مفعول ثان، معطوف على تراه، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لها، ﴿لَذِكْرَىٰ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿ذكرى﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ذكرى﴾؛ لأنه بمعنى التذكرة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير أكل الناس سواء، فمن شرح الله صدره إلخ، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع، مبتدأ، ﴿شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾: متعلق بـ﴿شَرَحَ﴾، ﴿فَهُوَ﴾: الفاء، عاطفة، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة، أعني: ﴿شَرَحَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ﴿نُورٍ﴾، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: كمن قسا قلبه، وحرج صدره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿فَوَيْلٌ﴾: الفاء: استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت عدم استوائهما، وأردت بيان حكم القاسي.. فأقول لك: ويل للقاسية قلوبهم. ﴿ويل﴾: مبتدأ، سوّغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء، ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ﴾ خبر المبتدأ. ﴿قُلُوبُهُم﴾: فاعل القاسية، ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿القاسية﴾، ﴿مِن﴾: إما للتعليل؛ أي: من أجل ذكره. وقيل: ﴿مِن﴾ بمعنى: عن، والمعنى: غلظت عن قبول الذكر، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، أو مستأنفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: خبر. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة

﴿ضَلَٰلٍ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كِتَٰبٗا﴾ بدل من أحسن الحديث، ويجوز أن يكون حالاً منه. ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾: صفة لـ﴿كِتَٰبٗا﴾، ﴿مَّثَانِيَ﴾: صفة ثانية له، ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنۡهُ﴾: متعلق به، ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب، صفة ثالثة لـ﴿كِتَٰبٗا﴾. ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمۡ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على تقشعر، و﴿قُلُوبُهُمۡ﴾: معطوف على جلودهم، ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَلِينُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿يَهۡدِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من لفظ الجلالة، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول ﴿يَهۡدِي﴾، وجملة ﴿يَشَآءُۚ﴾: صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاؤه. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جواب الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فَمَا﴾: الفاء: رابطة الجواب، ﴿مَا﴾: نافية، أو حجازية، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، أو خبر ﴿مَا﴾: مقدم على اسمها، ﴿مِنۡ﴾: زائدة، ﴿هَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر أو اسمها مؤخر. والجملة الاسمية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، والجملة الشرطية مستأنفة.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة

على ذلك المحذوف، والتقدير: أكل الناس سواء، فمن يتقي بوجهه إلخ. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾: صلة الموصول، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: مفعول به، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: ظرف، متعلق بـ﴿يَتَّقِي﴾، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: كمن أمن من العذاب، والجملة الاسمية معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾: الواو: عاطفة، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾: متعلق به، ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَتَّقِي﴾، ويصح أن تكون جملة ﴿قِيلَ﴾: حالاً من فاعل ﴿يَتَّقِي﴾، وإن شئت قلت: ﴿ذُوقُواْ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ولكنه على تقدير مضاف، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾، وجملة ﴿كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أتاهم العذاب﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على كذّب، ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أتى﴾، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حيث﴾، ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض، ومفعول أول مقدم على الفاعل، وفاعل مؤخر، ﴿ٱلْخِزْىَ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿أتاهم﴾. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿أذاقهم﴾، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة ﴿وَلَعَذَابُ﴾ الواو: استئنافية، اللام: حرف ابتداء، ﴿عذاب الآخرة﴾: مبتدأ، ﴿أَكْبَرُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على مقدر تقديره: وهذا هو العذاب الأدنى. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط، وجملة ﴿كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾: فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجوابه محذوف تقديره: لو كانوا يعلمون شدة عذاب الآخرة.. لآمنوا بالله ورسوله، وجملة ﴿لَوْ﴾: الشرطية مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿ضَرَبْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بـ﴿ضَرَبْنَا﴾ على أنه مفعول ثان لـ﴿ضَرَبْنَا﴾؛ لأنه بمعنى: جعلنا وبيّنا. ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: حال من كل مثل، أو متعلق بـ﴿ضَرَبْنَا﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿كُلِّ مَثَلٍ﴾: مفعول أول لـ﴿ضَرَبْنَا﴾ أو ﴿مِن﴾: أصلية صفة لمفعول أول محذوف، تقديره: مثلاً كائناً من كل مثل، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿لَّعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قُرْءَانًا﴾: حال موطئة من القرآن؛ لأنها ذُكرت توطئةً للنعت بالمشتق، لما كانت جامدة، والاعتماد فيها على الصفة. ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة لـ﴿قُرْءَانًا﴾، ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: صفة ثانية لـ﴿قُرْءَانًا﴾، ومضاف إليه. ﴿لَّعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿ضَرَبَ﴾؛ لأنه بمعنى: جعل. ﴿رَّجُلًا﴾: مفعوله الأول أخر عن الثاني، للتشويق إليه، وليتصل به، ما هو من تتمته، التي هي العمدة في التمثيل. ﴿فِيهِ﴾: خبر مقدم. ﴿شُرَكَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾: صفة لـ﴿شُرَكَآءُ﴾، والجملة الاسمية صفة لـ﴿رَّجُلًا﴾. ﴿وَرَجُلًا﴾: معطوف على ﴿رَّجُلًا﴾. ﴿سَلَمًا﴾: صفة ﴿رَّجُلًا﴾، نعت بالمصدر على سبيل المبالغة على حد: مررت برجل عدل. ﴿لِّرَجُلٍ﴾: متعلق بـ﴿سَلَمًا﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مَثَلًا﴾: تمييز محول عن الفاعل؛ أي: هل يستوي مثلهما؟. والجملة الفعلية، جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ

وخبر، والجملة الاسمية معترضة؛ لأن قوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: إضراب انتقالي، مرتبط بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مَيِّتٌ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: ناصب واسمه، وخبره، معطوف على ما قبله. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب مع التراخي. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾، ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من اسم ﴿إنّ﴾، أو من فاعل ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾: أو متعلق بـ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾، وجملة ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ والطاغوت: يطلق على الواحد والجمع، كما في «المختار»، ويذكر ويؤنث كما في «المصباح». قال الأخفش: الطاغوت: جمع ويجوز أن يكون مفردة مؤنثة؛ أي: تباعدوا عن الطاغوت، وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها، وقال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هي الأوثان، وقيل: إنه الكاهن، وقيل: إنه اسم أعجمي مثل: طالوت، وجالوت، وهاروت، وماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطغيان، وعبارة الروح: قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ من الاجتناب، وهو الابتعاد يقال: اجتنبه إذا بعد عنه، والطاغوت: البالغ أقصى غاية الطغيان، وهو تجاوز الحد في العصيان، فلعوت من الطغيان بتقديم اللام على العين، لأن أصله: طغيوت، بُني للمبالغة كالرحموت والعظموت، ثم وصف به للمبالغة في النعت، كأن عين الشيطان طغيان؛ لأن المراد به هو الشيطان، وتاؤه زائدة دون التأنيث، كما قال في «كشف الأسرار»: التاء ليست بأصلية، هي في الطاغوت كهي في الملكوت والجبروت، واللاهوت والناسوت والرحموت والرهبوت. قال

الراغب: هو عبارة عن كل متعد، وكل معبود من دون الله. وفي «القاموس»: الطاغوت: اللات، والعزى، والكاهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومردة أهل الكتاب، وقال في «كشف الأسرار»: كل من عبد شيئاً غير الله فهو طاغ، ومعبوده طاغوت. وفي «التأويلات النجمية»: طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يتجنب الطاغوت من خالف هواه، وعانق رضى مولاه، ورجع إليه بالخروج عما سواه، رجوعاً كلياً.

﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ جمع غرفة، وهي علية من البناء، وسمي منازل الجنة غرفا، كما في «المفردات».

﴿فَسَلَكَهُۥ﴾؛ أي: أدخله ﴿يَنَابِيعَ﴾ وفي زاده: الينابيع: جمع ينبوع، وهو إما الموضع الذي يجري فيه الماء من خلال الأرض، أو نفس الماء الجاري، والينبوع يفعول من نبع الماء إذا خرج، وسال. ومضارعه: ينبع بالحركات الثلاث في عين المضارع، فإن كان الينبوع بمعنى المنبع، كان نصب ينابيع على المصدر؛ أي: سلكه سلوكاً في ينابيع، وأدخله إدخالاً فيها، على أن يكون ﴿يَنَابِيعَ﴾ ظرفاً للمصدر المحذوف، فلما أقيم مقام المصدر، جعل انتصابه على المصدر، وإن كان بمعنى النابع كان انتصابه على الحال؛ أي: نابعات، اهـ. وفي «المختار»: نبع الماء إذا خرج، وبابه: قطع، ودخل، ونبع ينبع نبعاناً بفتح الباء لغة أيضاً، والينبوع: عين الماء، ومنه: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾. والجمع ينابيع، اهـ. فما يقوله العامة وهو نبع مولد غير معروف، وإنما النبع مصدر، وشجر تتخذ منه السهام والقسي، يقال: فزعوا النبع بالنبع؛ أي: تلاقوا، وتطاعنوا، وما رأيت أصلب منه نبعاً؛ أي: أشد منه.

﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أي: من أصفر، وأحمر، وأخضر، وأبيض، وشمل لفظ الزرع جميع ما يستنبت من مقتات وغيره، والزرع في الأصل: مصدر بمعنى الإنبات، عُبّر به عن المزروع؛ أي: مزروعاً. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: زالت خضرته، ونضارته، اهـ من «النهر». ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ أي: ييبس، ويتم جفافه؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور وينتشر عن منابته، ويذهب. وفي «المختار»: وهاج

النبت يهيج هياجاً بالكسر وهيجاً وهيجاناً: يبس. وفي المصباح: وهاج البقل يهيج: اصفر. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ قال الراغب: الصفرة: لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهي إلى البياض أقرب، ولذلك قد يعبر بها عن السواد. ﴿حُطَٰمًاۚ﴾؛ أي: فتاتاً. وفي «المصباح»: حطم الشيء حطماً من باب تعب، فهو حطم إذا تكسر، ويقال للدابة إذا أسنّت: حطمة، ويتعدى بالحركة فيقال: حطمته حطماً من باب ضرب فانحطم، وحطمته بالتشديد مبالغة، وتحطم العود إذا تفتت من اليبس.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ وأصل الشرح: بسط اللحم، ونحوه. يقال: شرحت اللحم، وشرحته. ومنه: شرح الصدر بنور إلٰهي وسكينة من جهته وروح، كما في «المفردات». وشرح الصدر للإسلام: الفرح به، والطمأنينة إليه، والنور البصيرة، والهدى.

﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ والقسوة: جمود، وصلابة في القلب. يقال: قلب قاسٍ؛ أي: لا يرق ولا يلين، وأصله من حجر قاسٍ، والمقاساة: معالجة ذلك.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال في «المفردات»: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع، أو الوحي في يقظته أو منامه، يقال له: حديث، وفي عرف العامة: الخبر والكلام، وأحسنيته لفصاحته وإعجازه. ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن، والإحكام.

﴿مَّثَانِيَ﴾ جمع مثنى بضم الميم وفتح الثاء والنون المشددة على خلاف القياس. إذ قياسه مثنيات. أو جمع مثنى بالفتح مخففاً. وعلى الأول فهو من التثنية بمعنى التكرير والإعادة، وعلى الثاني مفعل بفتح الميم وإسكان الفاء من التثنية بمعنى التكرير أيضاً، بحذف الزوائد، أو جمع مثنى بضم الميم وإسكان الثاء وفتح النون، من أثنى الرباعي؛ أي: مثني عليه بالبلاغة والفصاحة حتى قال بعضهم لبعض: ألا سجدت لفصاحته، ويجوز أن يكون بكسر النون؛ أي: مثن عليّ بما هو أهله من صفاته العظمى، وفي «المفردات»: وسمي سور القرآن مثاني، لأنها تثنى على مرور الأيام، وتكرر، فلا تدرس ولا تنقطع دروس سائر

الأشياء التي تضمحل وتبطل على مرور الأيام، وإنما تدرس الأوراق، كما روي أن عثمان رضي الله عنه حرق مصحفين لكثرة قراءته فيهما. ويصح أن يقال للقرآن: مثاني لما يثنى ويتجدد حالاً فحالاً من فوائده، كما جاء في نعته، ولا تنقضي عجائبه، ويجوز أن يكون ذلك من الثناء، تنبيهاً على أنه أبداً يظهر منه، ما يدعو إلى الثناء عليه، وعلى من يتلوه ويعلمه، ويعمل به، وعلى هذا الوجه وصفه بالكرم في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾، وبالمجد في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾. قال ابن بحر: لما كان القرآن مخالفاً لنظم البشر، ونثرهم حول أسماءه، بخلاف ما سموا به كلامهم على الجملة والتفصيل، فسمى جملته قرآناً، كما سموا ديواناً، وكما قالوا: قصيدةٌ وخطبةٌ ورسالةٌ، قال: سورة، وكما قالوا: بيت قال: آية، وكما سميت الأبيات لاتفاق أواخرها قوافي سمى الله القرآن لاتفاق خواتيم الآي فيه مثاني.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾؛ أي: تضطرب، وتتحرك، وتشمئز. يقال: اقشعر جلده: أخذته قشعريرة؛ أي: رعدة، كما في «القاموس»، والجلد: قشر البدن، كما في «المفردات»، ويقال: اقشعر جلده إذا تقبّض، وتجمع من الخوف، ووقف شعره كما مر، والمصدر: الاقشعرار، والقشعريرة أيضاً، ووزن اقشعر افعلل، ووزن القشعريرة: فَعْلَليلة، اهـ «سمين».

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ﴾ يقال: اتقى فلان بكذا، إذا جعله وقايةً لنفسه، والتركيب يدل على دفع شيء عن شيء يضره. ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ تقدم معنى العوج في الكهف، وأن العوج بالكسر مختص بالمعاني دون الأعيان، والسر فيه فارجع إليه هناك، وقيل: المراد بالعوج: الشك، واللبس. قال:

وَقَـدْ أَتَـاكَ يَـقِـيْـنٌ غَـيْـرُ ذِيْ عِـوَجٍ ... مِـنَ ٱلإِلٰـهِ وَقَـوْلٌ غَـيْـرُ مَـكْـذُوْبِ

﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ أي: متنازعون مختلفون. قال الزمخشري: التشاكس، والتشاخس: الاختلاف. تقول: تشاكست أحواله، وتشاخست أسبابه، وفي «المختار»: رجل شكس بوزن فلس؛ أي: صعب الخلق، وقوم شُكس بوزن قُفل، وبابه: سلم. وحكى الفراء: رجل شكس بكسر الكاف، وهو القياسُ. وفي

«الصحاح»: رجل شكس بالتسكين؛ أي: صعب الخلق، وقوم شكس مثل: رجل صدق وقوم صدق، وقد شكس بالكسر من باب سلم شكاسة. وفي «السمين»: والتشاكس: التخالف، وأصله سوء الخلق، وعسره. وهو سبب التخالف، والتشاجر. وفي «القرطبي» ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ من شكس يشكس شكساً، بوزن قُفل، فهو شكس مثل: عسر يعسر عسراً فهو عسر. يقال: رجل شكس، وشرس، وضرس.

﴿وَرَجُلًا﴾ والرجل: ذكر من بني آدم جاوز حد الصغر. ﴿سَلَمًا﴾ بفتحتين، وكقتل، وكفسق: مصدر من سلم له من كذا. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ وضَرْبُ المثل: تشبيه حال عجيبة بأخرى، وجعلها مثلاً لها. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ قال الفراء: الميت بالتشديد: من لم يمت وسيموت، والميت بالتخفيف: من فارقته الروح. ولذلك لم يخفف في الآية. قال الخليل: أنشد أبو عمرو:

إنْ تَسْأَلْنِي تُفْسِيْرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ ... فَدُونَكَ قَدْ فَسَّرْتُ إن كُنْتَ تَعْقِلُ

فَمَنْ كَانَ ذَا رُوْحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ ... وَمَا ٱلْمَيْتُ إلاَّ مَنْ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ يُحْمَلُ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المبالغة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ففي تشبيه الشيطان بالطاغوت، وجوه ثلاثة من المبالغة.

١ ـ تسميته بالمصدر، كأنه نفس الطغيان.

٢ ـ بناؤه على فعلوت، وهي صيغة مبالغة كالرحموت، وهي الرحمة الواسعة، والملكوت، وهو الملك الواسع.

٣ ـ تقديم لامه على عينه، ليفيد اختصاصه بهذه التسمية.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾. فوضع الظاهر

موضع ضميرهم، تشريفاً لهم بالإضافة، ودلالة على أن مدار اتصافهم بالاجتناب والإنابة: كونهم نقاداً في الدين، يميزون الحق من الباطل، ويؤثرون الأفضل فالأفضل، اهـ من «الإرشاد».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أوقع الظاهر وهو ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ موقع المضمر؛ لأن حقه: أفأنت تنقذه، وفيه أيضاً مجاز مرسل، علاقته السببية، فقد أطلق المسبب وأراد السبب؛ لأن الضلال سبب لدخول النار، والمعنى: أفأنت تهديه بدعائك له إلى الإيمان، فتنقذه من النار، وفيه أيضاً تكرير همزة الاستفهام الإنكاري، فالأولى لإفادته، والثانية لتأكيده لطول الكلام، ولولا طوله لم يجز الإتيان بها؛ لأنه لا يصلح في العربية أن يؤتى بألف الاستفهام في اسم الشرط، وبأخرى في الجزاء، وقيل: الاتقاء بالوجه، كناية عن عدم ما يتقي به، إذ الاتقاء بالوجه لا وجه له على حد قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للدلالة على تحقق وقوع القول، وفيه أيضاً وضع الظاهر موضع المضمر، تسجيلاً عليهم بالظلم، والإشعار بعلة الأمر في قوله: ﴿ذُوقُواْ. . .﴾ إلخ، اهـ «أبو السعود».

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ لاستحضار الصورة الماضية.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ لدلالة السياق عليه حذف خبره، تقديره: كمن طبع الله على قلبه. وفيها أيضاً الاستفهام الإنكاري.

ومنها: وصف الواحد بالجمع في قوله: ﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ﴾. فإنه وصف الواحد وهو الكتاب بالجمع، وهو المثاني باعتبار تفاصيله؛ لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل، فإنه يقال: القرآن أسباع، وأخماس، وسور، وآيات، وأقاصيص وأحكام، ومواعظ مكررات، كما مر.

وفائدة التكرير: فيه ترسيخ الكلام في الأذهان، فإن النفوس تمل عادة من الوعظ والتنبيه، وتسأم النصيحة بادىء الأمر، ففي تكرير النصح والموعظة تعويد لها على استساغة ذلك، والعمل به، وقد ثبت: أن رسول الله ﷺ كان يكرر عليهم ما يعظ وينصح به، ثلاثاً وسبعاً أحياناً، ليركز ذلك في نفوسهم، والمعلم النابه لا يفتأ يردد ما يلقيه على طلابه من دروس، حتى يصبح مستساغاً إليهم، هشاً في نفوسهم، بعد أن كان صعباً ممجوجاً.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾؛ لأن الذوق إنما يكون في المطعوم الحالي، فعبر عن إيصال الصغار والعذاب إليهم بالإذاقة، تهكماً بهم.

ومنها: ضرب المثل في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ...﴾ الآية. وهو نوع من التشبيه، فقد شبه حال من يعبد آلهة شتى بمملوك اشترك فيه شركاء، شجر بينهم خلاف شديد وخصام مبين، وهم يتجاذبونه، ويتعاورونه في شتى آرابهم، ومتباين أهوائهم، فهو يقف متحيراً لا يدري لأيهم ينحاز؟، ولأيهم ينصاع، وأيهم أجدر بأن يطيعه؟. وحال من يعبد إلٰهاً واحداً، فهو متوفر على خدمته، يلبي كل حاجاته، ويصيخ سمعاً لكل ما ينتدبه إليه، ويطلبه منه.

ومنها: تنكير ﴿رجل﴾ في الموضعين للإفراد؛ أي: فرداً من الأشخاص لفرد من الأشخاص.

ومنها: تخصيص الرجل؛ لأنه أفطن لما يجرى عليه من الضر والنفع؛ لأن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾.

ومنها: الاعتراض بجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعتراضية، لاعتراضها بين الكلامين، المرتبط أحدهما بالآخر، فإن قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إضراب انتقالي، مرتبط بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، فإنه انتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور، إلى بيان أن أكثرهم لا يعلمون ذلك، مع كمال ظهوره، فيبقون

في ورطة الشرك والضلال، لفرط جهالتهم.

ومنها: التمهيد بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فإنه تمهيد لما يعقبه من الخصام يوم القيامة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[(١)].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

(١) وكان الفراغ من تسويد هذا المجلد، أوائل ليلة الخميس، الإثني عشر من شهر الجمادي الثانية، من شهور سنة ألف وأربع مئة، وأربعة عشر سنة ١٢/ ٦/ ١٤١٤هـ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، بحول الله تعالى وتيسيره. ويتلوه المجلد الخامس والعشرون بتوفيقه، وأوله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾، نسأل الله سبحانه الإعانة على التمام والإكمال، كما أعان على الابتداء والافتتاح، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، دائماً إلى يوم الدين، آمين.

شعرٌ

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتٍ نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوْتْ
وَكُلُّ ذِيْ غَيْبَةٍ يَؤُوْبُ وَغَائِبُ ٱلْمَوْتَ لاِ يَؤُوْبُ
إِذَا رَأَيْتَ لَحِيْنَا كُنْ سَاتِراً حَلِيْمَا
يَا مَنْ يُقَبِّحُ سَطْرِيْ لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

آخرُ

الْعَبْدُ ذُوْ ضَجَرٍ وَٱلرَّبُّ ذُوْ قَدَرٍ وَٱلدَّهْرُ ذُوْ دُوَلٍ وَٱلرِّزْقُ مَقْسُوْمُ
وَٱلْخَيْرُ أَجْمَعُ فِيْمَا ٱخْتَارَ خَالِقُنَا وَفِيْ ٱخْتِيَارِ سِوَاهُ ٱللَّوْمُ وَٱلشُّوْمُ

آخرٌ

رَأَيْتُ أَخَا ٱلدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ ثَاوِيَا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَىٰ بِهِ وَهْوَ لاَ يَدْرِيْ

آخرُ

ٱلسَّبَاقَ ٱلسَّبَاقَ قَوْلاً وَفِعْلاً حَذِّرِ ٱلنَّفْسَ حَسْرَةَ ٱلْمَسْبُوْقِ



الفهرس